التمهيد في علوم القرآن

العلامة محمد هادي معرفة

الجزء الأول

دار التعارف للمطبوعات



التمهيد في علوم القرآن

العلامة محمد هادي معرفة

الجزء الأول

دار التعارف للمطبوعات



اسم الكتاب : التمهيد في علوم القرآن

المؤلف : محمد هادي معرفة

الطبع : قام بطبعه الوجيه المهندس وحيد خاكى – قم المقدسة

الناشر : دار التعارف للمطبوعات

السنة : ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

دار التعارف للمطبوعات

العنوان: بيروت ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين

ت: ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٧ ـ ٠٠٩٦١٣٨٢٣٦٢٠

المستودع: حارة حريك ـ خلف كنيسة مار يوسف ـ بناية دار الزهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين

مقدمة الناشر

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩].

إنه المقياس الإلهي للحقيقة فيما يتعرض له من قضايا وأبحاث جاءت مترابطة في مضامينها ووحدة أهدافها واتجاهاتها والتي طاولت كافة ميادين الحياة وآفاقها وحراكها، وموضوعات كثيرة تناولت أكثر الجوانب الفكرية والثقافية المرتبطة بالحياة والكون والمجتمع سواء، ما يتعلق بالعقيدة أو بالتشريع أو بالأخلاق أو بالحكم والعلاقات الاجتماعية أو التاريخ أو غير ذلك من الجوانب الأخرى.

وعلوم القرآن باعتباراتها المتعددة تمثّل جميع المعلومات والبحوث التي تختلف في مناحيها، وكلّ واحدة منها تشكّل موضوعاً مستقلاً لبحث خاصٍّ، وهي بمجملها تتّخذ القرآن موضوعاً لدراساتها لكنها تختلف في التطرق لمفردات المواضيع المحددة، حيث تتطرق بتفصيل دقيقٍ وعميق لكلّ مبحثٍ باعتباره مستقلاً عن الموضوعات والأبحاث الأخرى. والتي تبدو متفاوتة في مضامينها بحيث تظهر أحياناً وكأنها متناقضة أو متضاربة أو مختلفة، ولكن استيعابها وتحليلها يساعد في الإحاطة الأكيدة بدقة مفاهيمها وتشخيص مفرداتها ودلالاتها ومصاديقها بعيداً عن الغلوّ والتطرف والجمود في التصدي لنصوص ألفاظ الأبحاث وفصلها بعضها عن بعضها الآخر.

هذا الكتاب «التمهيد في علوم القرآن» بأبحاثه وأقسامه وأجزائه وموضوعاته يدرس بوضوح وشمولية وتوسّع موضوعات تصدى لها القرآن الكريم في شتى الحقول حيث تمثل آياته خزائن العلم الواجب فتحها والنظر إليها والتدبّر فيها، ومعالجة ما أثير حولها بالشكل المناسب وبمنهج علمي يحترم الدقّة والموضوعية بعيداً عن الانفعال والحساسيات التي تضرّ تبيان الحقائق العلمية البحتة التي تمثلها المادة الغزيرة والعميقة التي ترعاها وتراعيها علوم القرآن المتنوعة.

هذا الكتاب «التمهيد في علوم القرآن» مباحث مختلفة تطرقت إلى مختلف شؤون القرآن، حيث شكل كلٌّ منها علماً مستقلاً في موضوعه ومسائله ودلائله ومدلولاته ومضامينه، في ظاهره وباطنه.

مباحث عملت على إحداث تغيير الإنسان تغييراً شاملاً وكاملاً في عقله وروحه وإرادته، ساهم في صنع الأمة وبناء حضارة استشرقت المستقبل بكل إشراقه ووضوحه.

ودار التعارف تؤكد على التزامها العميق بالكلمة التي تعبّر عن الحقّ وتحمله إلى الناس، كلّ الناس، أينما حلّوا، يسرّها أن تقدّم لقرائها الكرام دراسة تصدت لشؤون القرآن في موضوعاته بجوانبها المختلفة والمتنوعة. فكان هذا البحث المتنور العميق في الكتاب الذي لا ريب فيه هدى للمتقين. والذي إن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

والحمد لله على كل حال.

الناشر

دار التعارف للمطبوعات

فهرس مواضيع الكتاب

المقدمة

وبعد، فإنّ دراسة شؤون القرآن الكريم في مختلف جوانبه المتنوّعة دراسة ممتعة هي في نفس الوقت ضرورة إسلامية ملحّة، يستجيبها كلّ مسلم واعٍ وجد من هذا الكتاب السماوي الخالد حقيقةً ناصعةً و برهاناً من اللّه صادقاً، فيه تبيان كلّ شيء و هدىً و رحمة للعالمين:

أوّلاً، هو سند الإسلام الحي، و معجزته الباقية، الّذي لايزال الإسلام يتحدّى به جموع البشريّة ـ في نداءٍ صارخ ـ: لو تستطيع أن تأتي بمثله! لكنّها ـ بكلّ صراحة و ضراعة ـ تعترف بعجزها المستمرّ مع كرّ العصور.

«قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَ الجِنُّ عَلىٰ أَن يَأتوا بِمِثْلِ هذا القرْآنِ لايأتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً».[1]

ثمّ، هو دستور الإسلام الجامع و الكافل لإسعاد البشرية في كافّة ميادين الحياة الاجتماعية والإدارية والسياسية وغيرها أجمع. وقد تحقّقت هذه الواقعية المشرقة، يوم سارت ركب البشرية في ضوء هذا المشعل المضيء.

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

«يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَ لِلرسُولِ إذا دَعَاكُم لِما يُحْيِيكُمْ».[١]

وأيضاً، تجاوبه الوثيق مع فطرة الإنسان الأصيلة انسجاماً متشابكاً مع جبليّته الأُولى التي فُطر عليها. و هذا التجاوب يبدو ـ بكلّ وضوح ـ على محيّىٰ كافّة تشريعاته و تنظيماته و جميع أحكامه الشاملة. الأمر الّذي يجعل من هذا القانون السماوي الجامع نظاماً منبثقاً من صميم الإنسانية، جاء ليؤمّن عليه جميع حاجاته النزيهة في مختلف شؤون الحياة.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللّه الَّتي فَطَرَ الناسَ عَلَيْها لاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّه ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لايَعْلَمُونَ».[٢]

كما و أنّه أتحف للبشرية جمعاء بمعارف و تعاليم جليلة، كان المستوى البشري ولايزال يقصر عن البلوغ إليها لولاسماح القرآن بمثلها بكلّ سخاء و جعلها في متناولها القريب في أبلغ بيانٍ و أبدع أُسلوبٍ حكيم.

«وَ أَنْزَلَ اللّه عَلَيْكَ الكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَالَمْ تكُنْ تَعْلَمْ»[٣] «عَلَّمَ الإنسانَ مالَمْ يَعْلَمْ»[٤] «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنتَ وَلا قوْمُكَ مِنْ قَبلِ هذا».[٥]

وأخيراً، هيمنته الخارقة على نفوس بشريةٍ كبيرة، كانت تأبى الرضوخ لغير الحقّ الصريح، فأشرف بها على واقعيةٍ مشهودة كانت دلائل الصدق لائحةً على محيّاها بوضوح، و من ثمّ استسلمت لقيادته الحكيمة مذ تعرّفت إلى حقيقته الصارخة.

«لكِنِ الراسِخُونَ في العِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنزِلَ إلَيْكَ».[٦]

تلك خصائص و ميزات بارزة امتاز بها هذا الكتاب الإلهي العظيم، الّذي لم يكد يمض من انبثاق نوره اللئلاء أكثر من نصف قرن حتى مَلَك رقاب أُممٍ كبيرة، و سيطر على رقعةٍ واسعةٍ من الأرض كانت مهد الحضارة الإنسانية منذ زمنٍ سحيق. فدوّخ صداه

---

١ ـ الأنفال ٨: ٢٤.
٢ ـ الروم ٣٠: ٣٠.
٣ ـ النساء ٤: ١١٣.
٤ ـ العلق ٩٦:٥.
٥ ـ هود ١١:٤٩.
٦ ـ النساء ٤: ١٦٢.

الأجواء، و هزّت لهيمنته العادلة أرجاء العالم المعمور.

الأمر الذي جعل من هذا القرآن موضع اهتمام العلماء و منصرف عناية الباحثين في مختلف العصور و الدهور.

القرآن و أسماؤه

القرآن عَلَم (اسم خاصّ) للكتاب المنزل على نبيّ الإسلام، حافلا بمباني شريعته وآية باقية على صدق رسالته. وليكون تبياناً لكلّ شيء وهدىً ورحمةً للعالمين.

وقد جاءت تسميته بهذا الإسم محلّىً باللام [1] في القرآن أكثر من خمسين مرّةً «وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هذا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ». [2] وبلا لام في خمسة عشر موضعاً «وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلىٰ النّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَـنْزيلاً». [3] ويُطلق على الكلّ وعلى الجزء أيضاً «وَما تَكونُ في شَأْنٍ وَما تَتْلو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلونَ مِنْ عَمَلٍ إلّا كُنّا عَلَيْكُمْ شُهوداً». [4] وذلك لأنّ التسمية هنا لوحظ فيها معنى الوصفيّة (كونه مقروءاً)، ومن ثمّ صحّ عموم الإطلاق.

والكلمة ذات أصل عربيّ عريق، في أصلها مصدر «قرأ، يقرأ، قراءة وقرآناً». على وزان غُفران ورُجحان وكُفران. وجاء استعمالها في القرآن مصدراً في قوله تعالى: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ. إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهوداً». [5] وقوله: «إنّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ». [6] والاشتقاق وكثرة التصريفات ـ ولا سيّما الثلاثيّات ـ دليل على الأصالة في اللغة.

قال ابن‌فارس: القاف والراء والحرف المعتلّ أصل صحيح يدلّ على جمع واجتماع. من ذلك القرية، سمّيت قرية لاجتماع الناس فيها... ومن الباب القرى: الظَّهْر، وسمّي قرى لما اجتمع فيه من العظام... وإذا هُمِز هذا الباب كان هو والأوّل سواء. يقولون: ما قرأتْ هذه

---

١ ـ وهو لام التلميح بلحاظ سبق معنى الوصفيّة فيه. كما قال ابن‌مالك:

«وبعض الأعلام عليه دخلا ... للمح ما قد كان عنه نُقلا»

٢ ـ الأنعام ٦: ١٩.

٣ ـ الإسراء ١٧: ١٠٦.

٤ ـ يونس ١٠: ٦١.

٥ ـ الإسراء ١٧: ٧٨.

٦ ـ القيامة ٧٥: ١٨-١٧.

الناقةُ سلىً،[١] كأنّه يراد أنّها ما حملت قطّ. قال عمرو بن كلثوم في معلّقته المشهورة:

ذراعَيْ عـيطل أدمـاءَ بِكـرٍ هجانِ اللّون لم تَقرأ جنيناً[٢]

قالوا: ومنه القرآن كأنّه سمّي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك.[٣]

وقال الراغب: والقرآن ـ في الأصل ـ مصدرٌ نحو كفران ورجحان. قـال تـعالى: «إنّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ».[٤] وقد خصّ بالكتاب المنزّل عـلى مـحمّد ﷺ فصار كالعَلَم. قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كُتُب اللّه لكونه جامعاً لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالى إليه بقوله: «وَتَفْصيلَ كُـلّ شيءٍ»[٥] وقوله: «تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ».[٦]

ومن ثَمَّ فمن العبث محاولة البعض فيما حسب أنّ الكلمة من الدخيل وأنّها مأخوذة من أصل سُرياني: قريانة بمعنى تلاوة النصوص الدينيّة.[٧] إذ لا غرو في تواجد المشتركات في اللغات الشرقيّة ولا سيّما الساميّة منها، كما هو معروف.

والفرقان، اسم آخر للقرآن، وأصله مصدر بمعنى الفاعل باعتبار أنّه كلام فارق بين الحقّ والباطل. قال تعالى: «تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِين نَذيراً».[٨] ويبدو هذا الوصف فيه جليّاً في قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْـقُرْآنُ، هُـدىً لِـلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ».[٩] بالجرّ عطفاً على الهدى، أي بيّنات من الفرقان. قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به».[١٠]

---

١ ـ جلدة يكون في ضمنها الولد في بطن اُمّه.

٢ ـ العيطل: الطويلة العنق من النوق. الأدماء: البيضاء منها. البكر: الناقة التي حملت بطناً واحداً. الهجان: الأبيض الخالص البياض، يستوي فيه الواحد والتثنية والجمع، وينعت به الإبل والرجال وغيرهما. لم تقرأ جنيناً: أي لم تظم في رحمها ولداً. راجع: شرح المعلّقات للزوزني، ص ١٢٠.

٣ ـ معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٧٨-٧٩.

٤ ـ الإسراء ١٧: ٧٨.

٥ ـ يوسف ١٢: ١١١.

٦ ـ النحل ١٦: ٨٩.

٧ ـ هكذا جاء في دائرة المعارف البريطانيّة (قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية للدكتور فضل حسن عباس، ص ٢٣).

٨ ـ الفرقان ٢٥: ١.

٩ ـ البقرة ٢: ١٨٥.

١٠ ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٧٦.

وبهذا الوصف أُطلق على كتاب موسى أيضاً: «وَإِذْ آتَيْنا موسى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ»،[١] باعتباره عطفاً توضيحيّاً. وأصرح منه قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنا موسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقين».[٢]

وبهذا الاعتبار لايكون الفرقان اسماً خاصّاً بالقرآن، وإنّما أطلق عليه باعتبار جانب الوصفيّة فيه.

وهذا الاسمان (القرآن والفرقان) أشهر أسماء الذكر الحكيم. ويلي هذين الاسمين في الشهرة اسمان آخران: الكتاب، مصدر بمعنى المفعول؛ اسم عام. والآخر: الذكر باعتبار أنّه مُذكِّر؛ أيضاً وصف عام.

وقد تجاوز صاحب البرهان وغيره حدود التسمية، معتمدين في ذلك على إطلاقات وردت في القرآن باعتبارها أوصافاً ناعتة للقرآن، كقوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَريمٌ».[٣] وقوله: «وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ».[٤] فحسبوا من الكريم اسماً ومن المبارك اسما آخر، إلى خمسة وخمسين اسماً كما عدّه صاحب البرهان! وبعضهم أنهاها إلى نيف وتسعين اسماً،[٥] وهو من التكلّف الظاهر! والأمر في ذلك سهل، غير أنّه مسهب وتطويل بلا طائل، حتّى لقد أفرده بعضهم بالتأليف، وفيما ذكرناه كفاية «وَعَلَى اللّه قَصْدُ السَّبيلِ».[٦]

علوم القرآن

علوم القرآن ـ بهذا التركيب الإضافي ـ مصطلح خاصّ لمجموعة مباحث دارت حول مختلف شؤون القرآن الكريم، لغاية معرفة هذه الشؤون معرفة فنّيّة وفق أُصول وضوابط. وبما أنّ هذه الشؤون تختلف عن بعضها اختلافاً جوهريّاً، كانت المباحث الدائرة حول كلّ واحد منها تختلف في مبانيها ودلائلها وكذلك النتائج، ولا تلتقي مع

١ ـ البقرة ٢: ٥٣.
٢ ـ الأنبياء ٢١: ٤٨.
٣ ـ الواقعة: ٥٦: ٧٧.
٤ ـ الأنبياء ٢١: ٥٠.
٥ ـ راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٧٣-٢٧٦.
٦ ـ النحل ١٦: ٩.

بعضها لا في الأُصول ولا في الفروع، ومن ثمّ كان كلّ مبحث علماً مستقلّاً في الموضوع وفي المسائل والدلائل، وأصبحت مجموعة تلك المباحث علوماً متنوّعة، ولكن يجمعها: أنّها جميعاً باحثة عن شؤون القرآن الكريم.

مثلاً: البحث عن القراءات شيء، والبحث عن النسخ في القرآن شيء آخر. وكذلك البحث عن الإعجاز، والبحث عن الجمع والنزول وغير ذلك، فكلّ بحث هو مستقل في ذاته لا يربطه مع سائر الأبحاث سوى أنّها جمع هادفة إلى معرفة مختلف جوانب هذا الكتاب العزيز الحميد.

تاريخ علوم القرآن

* **ومنذ الصدر الأوّل:** بذل كبار الصحابة و فضلاء التابعين عنايتهم البالغة في البحث عن شتّى جوانب القرآن الكريم، واهتمّوا بالتكلّم عن ناسخه و منسوخه، و محكمه و متشابهه، و تنزيله و تأويله، و عامّه و خاصّه، و إطلاقه و تقييده، و ترتيله وتجويده، و عن كافّة شؤونه المترامية. وهكذا لم يزل تطّرد وتتوسّع دائرة الدراسات القرآنية عبر القرون والأعصار. كما طفحت من نتائج تلكمُ البحوث والدراسات جوامع الحديث والتفسير في مختلف الأدوار.

أمّا عهد التدوين فيرجع إلى مؤخّر القرن الأوّل، فكان أوّل من صنّف في القراءة هو يحيى بن يعمر (ت ٨٩) من تلامذة أبي الأسود الدؤلي. ألّف كتابه في «القراءة» في قرية واسط، و يضمّ الاختلافات الّتي لوحظت في نُسخ القرآن المشهورة. كما في «تأريخ التراث العربي» لفؤاد سزگين.

* **وفي القرن الثاني:** صنّف الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (ت ١١٠) كتابه في «عدد آي القرآن».

وعبدالله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨) كتابه في «اختلاف مصاحف الشام و الحجاز

والعراق» و «المقطوع و الموصول» في الوقف و الوصل.

وأبو محمّد إسماعيل بن عبدالرحمان السدّي الكبير (ت١٢٨) له كتاب في «الناسخ و المنسوخ».

وشيبة بن نصاح المدني (ت ١٣٠) له «كتاب الوقوف».

وأبان بن تغلب (ت١٤١) صاحب الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام هو أوّل من صنّف في «القراءات» بعد ابن يعمر. و له كتاب «معاني القرآن» أيضاً.

ومحمد بن السائب الكلبي (ت١٤٦) أوّل من صنّف في «أحكام القرآن».

ومقاتل بن سليمان المفسّر (ت ١٥٠) له كتاب «الآيات المتشابهات».

وأبوعمرو بن العلا زبّان بن عمّار التميمي (ت١٥٤) له «الوقف و الابتداء» و كتاب «القراءات».

وحمزة بن حبيب، أحد القرّاء السبعة (ت١٥٦) صاحب الامام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام له كتاب في «القراءة».

وموسى بن‌هارون من تلامذة أبان بن‌تغلب (ت حدود ١٧٠) له كتاب «الوجوه والنظائر».

وعليّ بن‌حمزة الكسائي (ت١٧٩) له كتاب «القراءات» وكتاب «الهاءات» المكنّى بها في القرآن، وغيرهما.

ويحيى بن زياد الفرّاء (ت٢٠٧) له «معاني القرآن» طُبع في ثلاث مجلّدات. و«اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف» و«الجمع والتثنية في القرآن» وغير ذلك.

ومحمد بن‌عمر الواقدي الكاتب العلّامة والمؤرّخ الشهير (ت٢٠٧) له كتاب «الرغيب» في علوم القرآن وغلط الرجال.

وأبوعبيدة معمّر بن المثنّى (ت٢٠٩) له «مجاز القرآن» طُبع في جزءين، و«معاني القرآن».

وفي القرن الثالث: صنّف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) كتابه «فضائل القرآن» و«المقصور والممدود» في القراءات و«غريب القرآن» و«الناسخ والمنسوخ» وغير ذلك.

والحسن بن علي بن فضّال (ت ٢٢٤) من أصحاب الرضا عليه السلام له كتاب «الناسخ والمنسوخ».

وعلي بن المديني (ت ٢٣٤) صنّف في أسباب النزول.

والحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٣٦) له كتاب «العقل وفهم القرآن».

وأبو الفضل جعفر بن حرب (ت ٢٣٦) له كتاب «متشابه القرآن».

وأحمد بن محمّد بن عيسى الأشعري شيخ القميّين ووجههم (ت حدود ٢٥٠) له كتاب «الناسخ والمنسوخ».

وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥) له كتاب «نظم القرآن».

وأبو حاتم سهل بن محمّد السجستاني البصري (ت ٢٥٥) له كتاب «القراءات» و«اختلاف مصاحف الأمصار».

وأبو عبدالله أحمد بن محمّد بن سيّار (ت ٢٦٨) كاتب آل طاهر وصاحب الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام له كتاب «ثواب القرآن» و«القراءات» وسمّي «التنزيل والتحريف».

وأبو محمّد عبدالله بن مسلم بن قُتَيبة (ت ٢٧٦) له «تأويل مشكل القرآن» و«تفسير غريب القرآن» و«إعراب القرآن» وكتابه في «القراءات».

وأبو العباس محمّد بن يزيد المبرّد النحوي (ت ٢٨٦) له «إعراب القرآن».

وأبو عبدالله محمّد بن أيّوب بن ضريس (ت ٢٩٤) كتب فيما نزل بمكّة وما نزل بالمدينة، وله كتاب «فضائل القرآن».

وأبو القاسم سعد بن عبدالله الأشعري القمّي (ت ٢٩٩) صنّف رسالةً جامعةً في صنوف آيات القرآن. عثر عليها العلّامة المجلسي، ونقلها متقطّعة في موسوعته الكبرى

«بحار الأنوار».[1]

وأبوعمرو محمّد بن‌عمر بن‌سعيد الباهلي (ت ٣٠٠) له كتاب «إعجاز القرآن» وهو أوّل كتاب ظهر بهذا العنوان وخصّ أبحاثه بوجوه إعجاز القرآن.

* ويمتاز **القرن الرابع** بازدهاره بأنواع العلوم والمعارف الإسلامية وشتّى الفنون، ولا سيّما بشأن القرآن ومختلف أبعاده.

وممّن كتب في علوم القرآن في مطلع هذا القرن هو: محمّد بن‌يزيد الواسطي (ت ٣٠٦) وهو من جلّة المتكلّمين وصاحب كتاب «الإمامة». ذكر له ابن‌النديم كتاباً في «إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه». قيل: هو أوّل مَن بسط القول حول إعجاز القرآن. وقد كتب عليه الشيخ عبدالقاهر الجرجاني شرحين لطيفين.

ومحمد بن‌خلف بن‌حيّان (ت ٣٠٦) له كتاب «عدد آي القرآن».

ومحمد بن‌خلف بن‌المرزبان (ت ٣٠٩) له كتاب «الحاوي في علوم القرآن» في ٢٧ جزءاً.

وأبومحمّد الحسن بن‌موسى النوبختي (ت حدود ٣١٠) له كتاب «التنزيه وذكر متشابهات القرآن».

وأبوعلي الحسن بن‌علي الطوسي (ت ٣١٢) له كتاب «نظم القرآن».

وأبوبكر بن‌أبي‌داود، عبدالله بن‌سليمان السجستاني (ت ٣١٦) له كتاب «المصاحف» و«الناسخ والمنسوخ» ورسالة في القراءات.

وأبوعبدالله محمد بن‌أحمد بن‌حزم الأندلسي (ت ٣٢٠) له كتاب «الناسخ والمنسوخ».

---

١ ـ راجع: بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٩٧.

والأديب اللغوي العلّامة أبوبكر محمّد بن‌الحسن الأزدي ـ المعروف بابن دُرَيد ـ (ت ٣٢١) له كتاب في غريب القرآن.

وأبوزيد أحمد بن‌سهل البلخي (ت ٣٢٢) له كتاب «ما اغلق من غريب القرآن» و«الحروف المقطّعة في أوائل السوَر» و«البحث عن كيفية التأويلات» وغير ذلك.

وأبوبكر أحمد بن‌موسى العطشي ـ المعروف بابن مجاهد ـ (ت ٣٢٤) صنّف كتابه «السبعة» في القراءات السبع. وهو الذي حصرها في السبع!

وأبوبكر أحمد بن‌علي بن‌إخشيد (ت ٣٢٦) له كتاب «نظم القرآن».

وثقة الإسلام محمّد بن‌يعقوب الكليني (ت ٣٢٩) له «فضائل القرآن» أردفه ضمن الأُصول من الكافي الشريف.

وأبوبكر محمّد بن‌العزيز السجستاني (ت ٣٣٠) الذي اشتهر بكتابه «غريب القرآن» أسماه «نزهة القلوب» رتّبه على حروف المعجم وأكمله في (١٥) عاماً.

وأبوجعفر أحمد بن‌محمّد النحّاس (ت٣٣٨) له «إعراب القرآن» و«الناسخ والمنسوخ» و«معاني القرآن».

وأبوعبدالله محمّد بن‌إبراهيم، المعروف بابن أبي‌زينب، الكاتب النعماني (ت حدود ٣٥٠) صنّف في صنوف آي القرآن نقلها العلّامة المجلسي في بحار الأنوار.[١] كان خصّيصاً بالكليني، يكتب له كتاب الكافي.

وأبومحمّد القصّاب محمّد بن‌علي الكرخي (ت حدود ٣٦٠) له «نكت القرآن».

وأبوبكر أحمد بن‌علي الرازي الجصّاص (ت ٣٧٠) صنّف في أحكام القرآن. وهو كتاب حافل جامع كبير، طبع في ثلاث مجلّدات كبار، وهو أكمل كتاب وأنفعه في الباب.

وأبوعلي الفارسي، عَلَم من أعلام الإماميّة ممّن ازدهر به القرن الرابع فضلاً ونبلاً

---

١ ـ راجع: بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٣.

وأدباً (ت٣٧٧) له كتاب «الحجّة في القراءات». وهو أحسن كتاب وأجمعه وأتقنه في الباب.

وأبوالحسن علي بن‌عيسى الرمّاني (ت ٣٨٤) له «النكت في إعجاز القرآن» ورسالة وجيزة يغلب عليها طابع كلامي عريق في الاعتزال الجدلي.

وأبوالحسن عبّاد بن‌عبّاس الطالقاني والد الصاحب (ت ٣٨٥) له كتاب في أحكام القرآن.

وأبومحمّد عبدالله بن‌عبدالرحمان القيرواني (ت٣٨٦) من أعلام الفقهاء بديار المغرب. له كتاب في إعجاز القرآن.

ومحمّد بن‌علي الأدفوي (ت٣٨٨) له «الاستغناء» في علوم القرآن. مائة جزء. رأى منها صاحب «الطالع السعيد» عشرين جزءاً.

وأبوسليمان حمد بن‌محمّد بن‌إبراهيم الخطّابي (من أحفاد زيد بن‌الخطّاب) البُستي ـ نسبة إلى «بُست» من بلاد كابل ـ (ت ٣٨٨) له رسالة وجيزة في «بيان إعجاز القرآن» عالج الموضوع فيها معالجةً فنيّة حاول إبداء وجه الإعجاز من زاوية البيان من جهة النظم والتنسيق وانتقاء الكلمات المتناسبة مع مواضعها تمام المناسبة. ولعلّه أوفى بحث ظهر في الوجود عرض لهذا الجانب الخطير من إعجاز القرآن.

وابوالفتح عثمان بن‌جنّي (ت٣٩٢) له «المحتسب» في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها.

والقاضي أبوبكر محمد بن‌الطيّب الباقلّاني (ت٤٠٣) له «إعجاز القرآن» و«نكت الانتصار» في القراءات وجمع القرآن وتأليفه.

وأبوالحسن محمد بن‌الحسين الشريف الرضي (ت٤٠٤) له كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» و «حقائق التأويل في متشابه التنزيل». لم يوجد سوى الجزء الخامس منه، عثرت عليه مؤسّسة منتدى النشر بالنجف الأشرف، فحقّقته وأعدّته للنشر عام ١٣٥٥ فطُبع في النجف وبيروت.

* **وفي القرن الخامس:** صنّف القاضي أبوزرعة عبدالرحمان بن محمّد (ت حدود ٤١٠) كتاب «حجّة القراءات». وضع كتابه على أثر «الحجّة في القراءات» لأبي علي الفارسي وعلى أُسلوبه ومنهجه. طُبع في جامعة بنغازي بتونس ثُمّ في بيروت عدّة طبعات.

وأبوالقاسم هبةالله بن سلامة (ت ٤١٠) له «الناسخ والمنسوخ».

وأبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الملقّب بالشيخ المفيد (ت ٤١٣) له كتاب في «إعجاز القرآن» وكتاب «البيان» في أنواع علوم القرآن.

وأبوالحسن عمادالدين القاضي عبدالجبّار المتكلّم المعتزلي (ت ٤١٥) له «متشابه القرآن» في جزءين، و«تنزيه القرآن عن المطاعن».

وأبوالقاسم الحسين بن علي الوزير المغربي الإمامي (ت ٤١٨) وهو سبط ابن أبي زينب النعماني من أصل فارسي، له كتاب «خصائص القرآن».

ومحمد بن عبدالله الإسكافي ـ العلّامة المسدّد ـ (ت ٤٢١) له كتاب «درّة التنزيل وغرّة التأويل» في متشابهات القرآن، ويشمل الحِكم والأمثال والمكرّر من الآيات.

وأبوالحسن علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت ٤٣٠) له «البرهان في علوم القرآن» وهو أشبه بالتفسير والبحث عن مطاوي القرآن.

وأبوالمعالي الشريف المرتضى عَلَم الهدى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦) له كتاب «الدرر والغرر» وكتاب «الموضح من جهة إعجاز القرآن» بحث فيه عن جانب الصرفة فيه.

وأبومحمّد مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧) له «الكشف عن وجوه القراءات السبع» في جزءين كبيرين، يبحث عن علل القراءات وحججها بشكلٍ مستوفٍ وهو أثر جيّد لطيف.

وأبوعمرو الداني (ت ٤٤٤) له «التيسير» في القراءات السبع، و«المحكم» في النقط، و«المقنع» في رسم مصاحف الأمصار. وهي كتب لها شأن كبير في هذا الباب.

وأبو محمّد علي بن‌أحمد بن‌سعيد المعروف بابن‌حزم الظاهري الأندلسي (ت٤٥٦) له رسالة في القراءات المشهورة الآتية مجيء التواتر في الأمصار.

وأبو جعفر محمّد بن‌الحسن الطوسي (ت ٤٦٠) له في مقدّمة تفسيره «التبيان» مباحث جليلة عن مختلف شؤون القرآن، فنّد فيها مزعومة التحريف وزيّف نسبة القول به إلى الشيعة الإمامية الأبرياء، وبحث عن شؤون أُخر في ضوء البرهان الرشيد.

والخطيب النيسابوري الحسن بن‌الحسين الخزاعي (ت حدود ٤٦٠) له كتاب «إعجاز القرآن».

وأبوالحسن علي بن‌أحمد الواحدي (ت٤٦٨) له «أسباب النزول» و«فضائل القرآن» و«نفي التحريف عن القرآن» وغيرها من رسائل بحث فيها عن شؤون القرآن.

وأبوبكر عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١) له «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» والثالثة «الشافية» سلك فيها مسلك التحدّي الكاشف عن عجز العرب عن مقابلته.

وأبوعبدالله محمّد بن‌شريح الرُعيني (ت٤٧٦) من أعلام الإشبيلية، اختصر كتاب «الحجّة» لأبي علي الفارسي وله كتاب «الكافي» في القراءات.

وأبومعشر عبدالكريم بن‌عبدالصّمد الطبري (ت٤٧٨) له كتاب «التلخيص» في القراءات الثمان، فأضاف قراءة يعقوب. وله أيضاً كتاب «الوقف والابتداء» و«هجاء المصاحف» و«العدد» وغير ذلك.

وأبوالقاسم الحسين بن‌محمّد الراغب الإصفهاني (ت ٥٠٢) له «المفردات في غريب القرآن» وقد أغرب في هذا الكتاب وأعجب. وله ايضاً «المقدمة» بحث فيها عن مختلف شؤون القرآن ولا سيّما المباحث المتعلقة بالتفسير وشروطه وآدابه. وهو كتاب جيد لطيف. وهو كمقدمة لتفسيره الجامع.

وأبوالقاسم محمود بن‌حمزة الكرماني (ت حدود ٥٠٥) له كتاب «أسرار التكرار في القرآن». وكتاب «عجائب القرآن» و«لباب التأويل».

وأبوحامد الغزّالي (ت ٥٠٥) له «جواهر القرآن» بحث فيه عن الصلة بين القرآن والعلوم البشرية وأسرار الطبيعة، سوىٰ ما عقده فصلاً في كتابه «إحياء علوم الدين» بحثاً عن شؤون القرآن.

* **وفي القرن السادس:** صنّف أبومحمّد القاسم بن‌علي الحريري (ت ٥١٦) كتابه «تفسير مشكل إعراب القرآن».

ومحمّد بن‌بركات بن‌هلال النحوي (ت ٥٢٠) له «الإيجاز» في معرفة الناسخ من المنسوخ.

وأبوالعزّ محمّد بن‌الحسين الواسطي القلانسي (ت ٥٢١) له «كفاية المبتدي» في القراءات العشر و«اختلاف القرّاء بالحجاز والشام والعراق».

وأبوالفضل محمد بن أبي‌القاسم ـ المعروف بزين الشيخ ـ (ت ٥٢٣) من تلامذة الزمخشري. له كتاب «التنبيه» في إعجاز القرآن.

وأبوالحسن علي بن‌عبيدالله الزاغوني (ت ٥٢٧) له «الوجوه والنظائر في القرآن».

وعلي بن‌الحسين الباقولي الإصفهاني (ت ٥٣٥) له كتاب «كشف المشكلات عن القرآن» و«البيان في شواهد القرآن».

وعلّامة الأدب والبيان جارالله الزمخشري (ت ٥٣٨) له تفسير وجيز لسورة الكوثر، أبان فيه اعتلاء هذا الفخيم من كلام الله العزيز الحميد، و لقد أفاد وأجاد، كما في سائر تآليفه القيّمة التي طار صيته في الآفاق. وقد لخصّه العلّامة الطبرسى ـ على عادته ـ في موجز بيان.

وأبوبكر محمّدبن عبدالله ـ المعروف بابن العربي ـ (ت ٥٤٣) له «أحكام القرآن» طُبع في أربعة مجلّدات.

والقاضي أبوالفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤) له رسالة موفية بإثبات إعجاز القرآن.

والقاضي أبومحمد عبدالحقّ بن‌غالب بن‌عطيّة الأندلسي (ت٥٤٦) له بحث ضافٍ بمختلف شؤون القرآن، في مقدّمة تفسيره «المحرّر الوجيز».

وأمين الإسلام أبوعلي الفضل بن الحسن الطَبْرَسي (ت٥٤٨) له أبحاث متنوّعة عن شؤون القرآن، جعلها في مقدّمة تفسيره «مجمع البيان».

وأبوالفضل حبيش بن‌إبراهيم بن‌محمّد التفلسي (ت٥٥٨) له «وجوه القرآن» بالفارسية.

وأبوالحسن ظهير الدين علي بن زيد الأوسي الأنصاري ـ المعروف بفريد خراسان ـ (ت ٥٦٥) له «أسئلة القرآن مع الأجوبة» في متشابهات الآيات و«إعجاز القرآن» و «قرائن آيات القرآن». وله شرح لطيف على نهج البلاغة باسم «معارج نهج البلاغة».

وقطب الدين أبوالحسين سعيد بن هبة اللّه الراوندي (ت٥٧٣) هو أوّل من صنّف من علمائنا الإمامية في «فقه القرآن» و بسط الكلام حول آيات الأحكام بأُسلوبٍ يخالف أساليب غيرهم. حيث رتّبه على أبواب الفقه، جامعاً في كلّ باب ما يخصّه من آيات، تسهيلاً على الطالب في الوقوف على ما جاء في القرآن حول كلّ مسألة بالذات. و جرى على منواله من جاء بعده ممّن كتب في آيات الأحكام من فقهائنا.

أما الّذي‌كتبه محمّد بن السائب الكلبي وعبّاد بن عباس الطالقاني ـ فيما سبق ـ من آيات الأحكام فكان على نهج العامّة وغير مبسّطة.

وأبوالبركات عبد الرحمان بن أبي سعيد الأنباري (ت ٥٧٧) له «البيان في إعراب القرآن» طبع في مجلّدين. و«عجائب علوم القرآن».

وأبوالقاسم عبدالرحمان ـ المعروف بالسهيلي ـ (ت ٥٨١) صاحب كتاب «الروض الأنف» ألّف في مبهمات القرآن: «التعريف و الإعلام بما أُبهم في القرآن من الأسماء و الأعلام».

ورشيد الدين أبوجعفر محمّد بن علي بن شهرآشوب (ت٥٨٨) تلميذ القطب الراوندي. صنّف كتابه القيّم «متشابهات القرآن» في جزءين، وهو أحسن كتاب في الباب.

وأبومحمد القاسم بن فيرة الشاطبي (ت ٥٩٠) ألّف قصيدته المشهورة «حرز الأماني و وجه التهاني» في القراءات تعرف بالشاطبية.

وأبوالفرج عبدالرحمان بن علي ـ المعروف بابن الجوزي ـ (ت٥٩٧) صنّف «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن» و «المجتبى» في علوم تتعلّق بالقرآن.

والإمام الرازي صاحب التفسير الكبير (ت٦٠٦) له كتاب قيّم في «إعجاز القرآن».

* **و في القرن السابع:** صنّف أبوالبقاء عبدالله بن الحسين العكبري (ت٦١٦) كتابه القيّم في إعراب القرآن «إملاء ما منّ به الرحمان» في وجوه الإعراب و القراءات، و هو كتاب جيّد لطيف يجمع بين الإيجاز و الإيفاء.

ومحمّد بن سليمان الزهري (ت٦١٧) له «البيان» فيما أُبهم من الأسماء في القرآن.

ومحمّد بن أبي‌الفرج الموصلي (ت ٦٢١) له «نبذة المريد» في علم التجويد.

ومحمّد بن أحمد بن سراقة (ت ٦٢٢) له «أمثال القرآن».

ومحمّد بن‌علي بن‌الخيمي (ت ٦٤٢) له «أمثال القرآن».

والحسين بن أبي العزّ الهمداني (ت٦٤٣) له كتاب «الفريد» في إعراب القرآن المجيد.

وعَلَم‌الدين علي بن‌محمد السخاوي (ت٦٤٣) له «جمال القرّاء وكمال الإقراء».

وأبوالقاسم محمد بن عبدالله (ت حدود ٦٥٠) تلميذ شرف‌الدين أبى الحسن علي بن المفضّل المقدسي، ألّف رسالة وجيزة تتضمّن ماورد في القرآن من لغات القبائل. وهو أثر لطيف، لخصّها جلال الدين السيوطي في النوع (٣٧) من كتابه «الإتقان».

وكمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزّمَلْكاني (ت ٦٥١) له كتاب «البرهان» الكاشف عن وجوه إعجاز القرآن.

وابن أبي‌الأصبع عبدالعظيم بن عبدالواحد (ت ٦٥٤) له «بديع القرآن» وهو أثر جيّد لطيف يشرح فيه أنواع البديع الوارد في القرآن، و كتاب «أمثال القرآن».

وأبو محمّد عبدالعزيز بن عبدالسّلام ـالمشهور بالعزّ ـ (ت ٦٦٠) له كتاب في «مجاز القرآن».

وقدوة العارفين رضيّ‌الدين أبوالقاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤) صنّف كتابه الأثري الخالد «سعد السعود». هو على صغر حجمه كبير الفائدة، وهو في الواقع فهرسة فنيّة عن كلّ ما اُلّف في تفسير القرآن وتاريخه وسائر شؤونه. وقد تُرجم إلىٰ عدّة لغات. و كان هذا الكتاب رصيدنا الوافي لمعرفة كثير من الكتب و المؤلّفين. فلله درّه من إبداعٍ في البيان.

وأبوشامة شمس الدين عبدالرحمان بن إسماعيل (ت ٦٦٥) له كتاب «المرشد الوجيز فيما يتعلّق بالقرآن العزيز».

ومحمّد بن أبي بكر الرازي (ت٦٦٦) له «أسئلة القرآن المجيد و أجوبتها». يحتوي على (١٢٠٠) سؤال و جواب في غرائب آي القرآن.

وجمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر ابن طاووس الحلّي (ت٦٧٣) له كتاب «شواهد القرآن» في مجلّدين.

ويحيى بن شرف النووي (ت٦٧٧) له كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن».

ولابن النقيب جمال الدين محمدبن سليمان بن الحسن (ت٦٩٨) كتاب موسّع في تفسير متشابهات القرآن.

* **وفي القرن الثامن:** اُلّف ابن‌الزبير أحمد بن إبراهيم الثقفي (ت٧٠٨) كتابه «البرهان في تناسب سوَر القرآن».

وسليمان بن عبدالقوي بن عبدالكريم الصرصري الطوفي البغدادي (ت٧١٦) كتابه «الإكسير في علم التفسير» تعرّض فيه لمختلف شؤون القرآن الكريم و تفسيره و تأويله.

وأبوعبدالله محمد بن محمد بن إبراهيم الشريشي الفاسي ـالشهير بالخرّاز ـ (ت٧١٨) قام بنظم اُرجوزته المعروفة بـ«مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن» على

قراءة نافع. وقد وقعت موضع عناية العلماء ولاتزال.

ومحمّد بن‌المطهّر بن‌يحيى الزيدي (ت٧٢٨) له منظومة في الناسخ والمنسوخ في القرآن. نظّم ما أورده أبوالقاسم هبة اللّٰه بن‌سلامة (ت ٤١٠) ثمّ شرحه و أوضح موارده.

وأبوالعبّاس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيميّة الحرّاني الدمشقي (ت٧٢٨) له مقدّمة و جيزة في أُصول التفسير، و «التبيان في نزول القرآن» و «الإكليل في المتشابه و التأويل».

والسيّد محمد بن إدريس الصنعاني (ت ٧٣٠) له رسالة في الناسخ و المنسوخ أسماها «الدّرة المضيئة في الآيات المنسوخة الفقهية».

وبرهان الدين إبراهيم بن‌عمر الجَعْبَري (ت٧٣٢) له منظومة في تبيين السوَر و الآيات المكيّة و المدنية. و«كنز المعاني في شرح حرز الأماني» و هو من أحسن شروحه. و له رسائل أُخرىٰ بهذا الشأن.

وابن جماعة محمد بن إبراهيم الحموي (ت٧٣٣) ألّف كتاب «كشف المعاني في المتشابه المثاني».

وهبة اللّٰه بن عبدالرحيم البارزي الحموي (ت٧٣٨) له «بديع القرآن» و «ناسخ القرآن و منسوخه».

والأمير يحيى بن‌حمزة العلوي الزيدي (ت ٧٤٥) ألّف كتابه القيّم «الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» في ثلاث مجلّدات.

ولأبي حيّان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥) كتاب «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» ورسائل أُخرى في القراءات.

ولأبي عبدالله محمد بن أحمد بن لبّان (ت ٧٤٩) كتاب «متشابه القرآن والحديث».

ولابن قيّم الجوزيّة شمس الدين محمد بن أبي‌بكر (ت ٧٥١) كتاب «التبيان في أقسام القرآن» و «أمثال القرآن» و «أعلام الموقّعين».

ولابن هشام الأنصاري عبدالله بن يوسف بن أحمد صاحب كتاب «مغني اللبيب»

(ت ٧٦١) كتاب «إعراب مواضع من القرآن».

ولأبي الفداء إسماعيل بن عمر ـ المعروف بابن كثير الدمشقي ـ (ت ٧٧٤) رسالة في «فضائل القرآن» بحث فيها عن مختلف شؤون القرآن الكريم.

ولابن العتائقي كمال الدين عبدالرحمان بن محمد الحلّي (ت ٧٨١) كتاب «الناسخ والمنسوخ».

وللإمام بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤) كتابه القيّم «البرهان في علوم القرآن» والذي لم يُكتب مثله، وكان قدوة لمن جاء بعده. جعله على سبع وأربعين نوعاً، استوعب فيها فنون هذا العلم، وقد أفاد وأجاد.

* **وفي القرن التاسع:** يأتي العلّامة الأديب سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الأندلسي ـ المعروف بابن الملقّن ـ (ت ٨٠٤) ليكتب في تفسير غريب القرآن، وهو أثرٌ لطيف استوعب فيه جوانب الموضوع و جمع شوارده.

وأبو زرعة العراقي عبدالرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦) نظّم ألفيّته في تفسير غريب القرآن.

ومحمّد بن علي بن محمد السمهودي المعروف بابن القطّان (ت ٨١٣) له كتاب «بسط السهل» في القراءات السبع.

وأحمد بن محمد المقدمي ـ المعروف بابن الهائم ـ (ت ٨١٥) له كتاب «التبيان في تفسير غريب القرآن».

وللعلَم العلّامة اللغوي الكبير مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى صاحب كتاب «القاموس المحيط» (ت ٨١٧) أثر جيّد لطيف بحث فيه عن مختلف شؤون القرآن الكريم بتفصيل وتعميق أسماه: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» وهو كتاب جامع شامل في ستّة مجلّدات نافع كثير الفائدة.

ولجلال الدين البُلقيني أبوالفضل عبدالرحمان بن عمر بن رسلان الكناني العسقلاني

(ت ٨٢٤) كتاب «مواقع العلوم في مواقع النجوم» جعله على ستّة أُمور، كلّ أمر يحتوي على أنواع تختلف عدداً و مجموع الأنواع خمسون نوعاً بحث فيها عن مختلف شؤون القرآن الكريم.

واتّخذ جلال‌الدين السيوطي في باديء الأمر من هذا الكتاب أصلاً جامعاً لفنون هذا العلم، فنقّحه و هذّبه في كتاب أسماه «التحبير في علوم التفسير» في ٢٠٢ نوعاً. فرغ منه سنة ٨٧٢.

وفي هذا القرن قام العلَم العلّامة الفاضل السيوري أبوعبدالله المقداد بن عبدالله الحلّي الأسدي (ت ٨٢٦) بتأليف كتابه القيّم: «كنز العرفان في فقه القرآن».

ولأبي الخير شمس الدين محمد بن محمد بن محمد الجزري الشيرازي ثمّ الدمشقي (ت ٨٣٣) أثره الخالد «النشر في القراءات العشر» في مجلّدين ضخمين، وهو كتاب حافل فريد في بابه. وله كتب أُخرى قيّمة في الموضوع، أبدى فيها براعته وسعة باعه، كـ«تحبير التيسير» و «الدّرة المضيئة» و «منجد المقرئين» و «مرشد الطالبين». ومن أعظمها «غاية النهاية في طبقات القرّاء» كتابٌ نافعٌ جامعٌ في مجلّدين كبيرين. وله في الإعجاز رسالة وجيزة في تبيين مواضع الإعجاز من قوله تعالى «وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَك ...».[١]

ولشهاب‌الدين أحمدبن عبدالله بن سعيد البحراني ـ المعروف بـابن المـتوّج ـ مـن أعلام الإمامية وكان معاصراً للشهيد الأوّل وتتلمذ لديـه (ت ٨٣٦) كـتاب «النـاسخ و المنسوخ» و قد شرحه السيّد عبدالجليل الحسيني القاري (ت ٩٧٦) وقدّمه للأمير أحمد (حاكم جيلان). وترجمه إلى الفارسية الدكتور محمد جعفر الإسلامي المعاصر بإشراف الدكتور «السيّد محمد مشكاة. و طبع المجموع و نُشر عام ١٣٦٠هـ.ش بطهران.

ولابن حجر العسقلاني أبي‌الفضل أحمد بن‌علي بن‌محمد (ت ٨٥٢) رسائل وجيزة في مواضيع شتّى قرآنية كـ«أسباب النزول» و «غريب القـرآن» و «فـضائل القـرآن» و «ماوقع في القرآن من غير لغة العرب».

---

١ ـ هود ١١: ٤٤.

ولمحمد بن سليمان الكافَيْجي (ت ٨٧٩) «التيسير في قواعد علم التفسير».

ولبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥) كتاب «الضوابط والإشارات لأجزاء علم القراءات» و«القول المفيد في أُصول علم التجويد» والأهم تفسيره للقرآن الّذي اهتمّ فيه لبيان تناسب الآيات و السوَر أسماه «نظم الدرر في تناسب الآي والسوَر» في حجم كبير. وكتابه الآخر: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السوَر». جاء فيهما بتكلّفاتٍ كان القرآن في غنىً عنها.

* **وفي القرن العاشر:** يأتي دور العلّامة الكبير فارس هذا الميدان الإمام الحافظ جلال‌الدين عبدالرحمان نجل العلّامة كمال الدين الخضيري السيوطي (ت ٩١١) ليقوم بنشر آثار قيّمة في الحديث والتفسير وعلوم القرآن. ومن أهمّ تآليفه في التفسير «الدّر المنثور»، وفي علوم القرآن «الإتقان». وبهما طار صيته وعلا مكانه في عالم الإسلام.

إنّه ـ كما نبّهنا ـ بدأ بكتاب البُلقيني فنقّحه وهذّبه، لكنّه بعد ذلك عثر على كتاب «البرهان» للإمام بدرالدين الزركشي فاستحسنه ووجده أحسن ما صُنّف في هذا الباب، فصوّب اهتمامه إلى تنقيحه وتحريره ليؤلّف عليه كتابه الخالد الحافل بفنون هذا العلم «الإتقان» وجعله ٨٠ نوعاً، وكان خاتمة المؤلّفات الموسّعة على هذا النمط البديع الجامع، ولم تسمح القرون المتأخّرة بسوى رسائل ومختصرات تعالج طرفاً من شؤون القرآن.

أمّا سائر كتبه فهي: «التحبير في علم التفسير» ـ وهو مهذّب «مواقع العلوم» للبُلقيني ـ و«معترك‌الأقران في إعجاز القرآن» و«لباب النقول في أسباب النزول» و «مُفحمات الأقران في مبهمات القرآن» و«المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب» و«المتوكّلي» فيما وقع في القرآن من اللغات، قدّمه للخليفة العبّاسي عبدالعزيز بن يعقوب المتوكّل على‌الله (ت ٩٠٣). و«قطف الأزهار» في بيان أسرار التنزيل و«تناسق الدرر في تناسب الآي والسوَر» و«الإكليل في استنباط التنزيل» و «مراصد الطالع في تناسب القاطع

والمطالع» و «خمائل الزهر في فضائل السوَر» و«شرح الشاطبية» وغيرها.

ولأبي عبدالله محمد بن أحمد المكناسي (ت ٩١٩) كتاب «إنشاد الشريد» في رسم القرآن.

وللقاضي زكريّا بن محمد الأنصاري (ت ٩٢٦) كتاب «فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن».

ولأبي عبدالله جمال الدين محمد بن أحمد بن سعيد المكّي (ت ٩٣٠) كتاب «الإحسان في علوم القرآن».

ولشهاب الدين أحمد بن محمّد القسطلاني صاحب الشرح الكبير على البخاري (ت ٩٣٣) كتابٌ جميلٌ في القراءات أسماه «لطائف الإشارات بفنون القراءات».

ومحمد بن يحيى الحلبي التاذفي (ت ٩٦٣) له كتاب «القول المذهّب في بيان ما في القرآن من الروميّ المعرّب». والظاهر أنّه أخذه من «المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب» تأليف جلال الدين السيوطي.

ولأحمد بن أحمد بن إبراهيم الطيّبي (ت ٩٨١) منظومته الخالدة في القراءات و رسائل أُخرى في علمي التجويد و القراءات.

وللمولى أحمد بن محمد الشهير بالمحقّق الأردبيلى (ت ٩٩٣) كتابه القيّم «زبدة البيان في أحكام القرآن» تأليفٌ علمي وضع على أساس التحقيق والتدقيق.

* **وفي القرن الحادي عشر:** كتب القاضي الإمام الحافظ أبوالفضل عياض بن موسى اليحصبي صاحب كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (ت ١٠١٤) كتابه «حَدَث الأماني بشرح حرز الأماني» و«الفيض السماوي في تخريج قراءات البيضاوي» و«المنح الفكرية بشرح المقدّمة الجزرية» وغيرها في مختلف شؤون القرآن الكريم.

وسيف الدين بن عطاء اللّه البصري (ت ١٠٢٠) له في القراءات: «الأُصول

المختصرة» و«الجواهر المضيئة».

وللفقيه البارع مرعي بن يوسف بن أبي‌بكر الكرمي المقدسي (ت١٠٣٣) كتاب «قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن» و «الآيات المحكمات والمتشابهات».

ولعبدالواحد بن‌أحمد بن‌عاشر الأنصاري الفاسي الأندلسي (ت ١٠٤٠) كتاب «فتح المنّان بشرح اُرجوزة مورد الظمآن» وهو شرحٌ لطيف. ولمّا كانت الاُرجوزه مقتصرة على قراءة نافع أكملها ابن‌عاشر في رسم الباقي من الأئمة السبعة وأسماه «الإعلان بتكميل الظمآن».

ومحمد بن‌أحمد العوفي (ت حدود ١٠٥٠) له «الجواهر المكلّلة» و «بحر المعاني» في القراءات و«الجواهر اليمانية» في رسم الخطّ العثماني.

وللمولى صدرالدين محمد بن‌إبراهيم الشيرازي (ت ١٠٥٠) رسالته الوجيزه في متشابهات القرآن كتبها في ضوء فلسفه الإشراق.

والمولى محسن الفيض الكاشاني (ت١٠٩١) العلّامة الكبير والمحدّث الخبير صاحب التصانيف الكثيرة الممتعة النافعة في شتّى ميادين العلوم الإسلامية، جعل في مقدّمة تفسيره القيّم «الصافي» ١٢ فنّاً، بحثاً مستوعباً عن جوانب خطيرة من شؤون القرآن الكريم.

وللفاضل الجواد الكاظمي من أعلام القرن الحادي‌عشر كتابه القيّم «أحكام القرآن».

ولعمادالدين علي بن محمود المعروف بعمادالدين شرف القاري الاسترآبادي من أعلام القرن الحادي‌عشر (توفي في أواخر هذا القرن) كتابه القيّم: «إرشاد الأذهان إلى تجويد القرآن» و«التحفة الشاهية» قدّمه إلى الشاه طهماسب الصفوي. و كتاب «اُصول قراءة أبي‌عمرو» و«اُصول قراءة حمزة» و«اُصول قراءة الكسائي» و«اُصول قراءة نافع» وغيرها من اُصول القراءات بروايات المشايخ. وكان يعدّ مفخرة عصره في فنّ القراءات و التجويد وسائر علوم القرآن. وله تصانيف جيدة في هذا السبيل.

* **وفي القرن الثاني عشر:** صدّر السيد هاشم بن سليمان الحسيني البحراني (ت ١١٠٩) تفسيره الأثرى «البرهان» بالتكلّم عن طرف من شؤون القرآن الكريم في ١٦ مقدّمة.

وخصّص المولى محمدباقر المجلسي العظيم (ت ١١١١) من موسوعته الحديثيّة الكبرى «بحار الأنوار» ـ وهي تربو على ١١٠ مجلّداً ـ مجلّدين ٨٩ و ٩٠ طبع بيروت بالبحث عن مختلف شؤون القرآن الكريم في ضوء مذهب أهل البيت عليهم السلام و نقد آراء مخالفة. وضعه على ١٣٠ باباً و تكلّم في الباب ١٢٨ عمّا ورد في القرآن من موهم التناقض، و أورد محاورة جرت بين بعض الزنادقة و الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يكون الإطّلاع عليها ممتعاً. هذا فضلاً عمّا صدّر كلّ باب من أبواب بحار أنواره بلفيف من آيات قرآنية ماسّة بالموضوع و في دقّةٍ فائقة و عن إحاطة شاملة، يكون بذلك أوّل تبويب للآيات حسب المواضيع المتنوّعة.

وصنّف شهاب‌الدين ابن البنّاء أحمد بن محمد الدمياطي (ت ١١١٦) كتابه «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر».

وللمولى أبي‌الحسن بن محمد طاهربن عبدالحميد النباطي الفتوني (ت ١١٣٨) كتاب «مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار» جعله على ثلاث مقدّمات، كلّ مقدّمة مشتملة على مقالات تختلف عدداً، و تحت كلّ مقالة فصول بأعداد مختلفة أيضاً. ومجموع الفصول الّتي تكلّم فيها عن شؤون القرآن هي ٢٥ فصلاً. وفي المقالة الثانية من المقدّمة الثالثة أسهب في بيان تأويل كلمات جاءت في القرآن، رتّبها حسب حروف المعجم، يربو عددها ١٢٠٠ كلمة تكلّم عن تأويلهنّ واحدة واحدة. ووضع خاتمة كتابه على ثماني فوائد.

ولعبد الغني بن إسماعيل النابلسي (ت ١١٤٣) كتاب «القول القاسم في قراءة حفص عن عاصم» بيّن فيه وجه تفضيلها على سائر القراءات.

ولمحمد بن أبي‌بكر ساجلقي زاده المرعشي (ت ١١٥٤) كتاب «نهر النجاة في بيان مناسبات آيات الكتاب».

وللشيخ مصطفى بن عبدالرحمان بن محمد الأزميري (ت ١١٥٥) كتاب «بدائع البرهان في وصف حروف القرآن».

والحسن بن علي بن أحمد المنطاوي (ت ١١٧٠) له «إتحاف فضلاء الأُمَّة» في القراءات السبع.

وللشيخ عطية الأجهوري (ت ١١٩٠) كتاب «إرشاد الرحمان» في أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وأُصول علم التجويد.

* **وفي القرن الثالث‌عشر:** صنّف الوحيد البهبهاني المولى محمدباقر بن محمد أكمل ـ المعروف بالأُستاذ الأكبر ـ (ت ١٢٠٦) رسالته التحقيقيّة بشأن «حجّية ظواهر الكتاب».

والمولى محمد جعفر بن سيف‌الدين الإسترآبادي (ت ١٢٦٣) له «حلّ مشاكل القرآن».

وأُستاذ المتأخّرين المولى مرتضى بن محمد أمين الأنصاري التستري (ت ١٢٨١) له رسالة في «حجّية ظواهر الكتاب».

والمولى محمدتقي الهروي الإصبهاني (ت ١٢٩٩) له «خلاصة البيان في حلّ مشكلات القرآن».

* **وفي القرن الرابع‌عشر:** صنّف الميرزا محمدبن سليمان التنكابني (ت ١٣٠٢) كتابه «حجّية القراءات السبع» و «حجّية ظواهر الكتاب».

وللمولى محمدتقي بن محمدحسين الكاشاني (ت حدود ١٣١٦) كتاب «إيضاح المشتبهات» في تفسير مشكل القرآن.

* **وفي هذا القرن الأخير:** أقبل الكثير من العلماء على تأليف كتب و رسائل حول تأريخ القرآن و علومه و سائر شؤونه:

فألّف السيّد أحمد حسين بن رحيم علي الأمروهي (ت١٣٢٨) كتاب «مناهج العرفان في علوم القرآن».

والشيخ محمد علي سلامة صنّف «منهج الفرقان في علوم القرآن».

ومحمد غوث النائطي الأوكاتي له «نثر المرجان في رسم القرآن» في سبع مجلّدات.

ولإبراهيم بن محمد المارغني التونسي كتاب «دليل الحيران على مورد الظمآن» وهو شرح على منظومة الخرّاز في رسم المصحف على قراءة نافع. وأكملها بشرحه الآخر على «الإعلان بتكميل مورد الظمآن» لابن عاشر الأندلسي لسائر القراءات وأسماه «تنبيه الخلّان». وقد أكمل الشرحين في أواخر عام (١٣٢٥).

والأُستاذ محمّد عبدالعظيم الزرقاني: له «مناهل العرفان في علوم القرآن».

والمولى المحقّق حيدرقلي بن نور محمد ـ المعروف بسردار كابلي ـ له «تحفة الأحباب» في بيان آي القرآن وسوَره والمكّي والمدني وغيرها.

وللدكتور محمد عبدالله دراز: «النبأ العظيم» نظرات جديدة في القرآن.

والعلامة السيّد هبة الدين الشهرستاني: «إعجاز القرآن» و«تنزيه القرآن».

والأُستاذ محمد الغزالي: «نظرات في القرآن».

والأُستاذ المحقّق الشيخ أبوعبدالله الزنجاني: «تأريخ القرآن».

والأُستاذ مصطفى صادق الرافعي: «إعجاز القرآن».

والشيخ خليل ياسين العاملي: «أضواء على متشابهات القرآن» يحتوي على ١٦٠٠ سؤال وجواب.

والدكتور صبحي الصالح: «مباحث في علوم القرآن».

والأُستاذ سيّدقطب: «التصوير الفنّي في القرآن» و «مشاهد القيامة في القرآن».

و تلميذه الموفّق الدكتور عبدالله شحاته: «أهداف كلّ سورة ومقاصدها».

والإمام المجاهد العلّامة الشيخ محمدجواد البلاغي، جعل في صدر تفسيره «آلاء الرحمان» مقدّمة منيفة تحتوي على أهمّ المباحث القرآنية، وأتى فيها بنظرات مستجدّة يكون الإطّلاع عليها ضروريّاً. وطبعت هذه المقدّمة أيضاً مع تفسير السيّد عبدالله شبّر المطبوع بمصر أخيراً.

والمرجع الديني الأكبر سماحة سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئي ﷺ وضع في مقدّمة تفسيره «البيان» فصولاً مسهبة حقّق فيها عن جوانب خطيرة من شؤون القرآن. لها قيمتها و أثرها الكبير في الأوساط العلمية الراهنة، لا يستغني الباحث عن مراجعتها.

وفضيلة العلّامة الكبير السيّد محمدحسين الطباطبائي ﷺ: «قرآن در إسلام» بحثٌ حافلٌ بأهمّ المسائل القرآنية فضلاً عن أبحاث زان بها تفسيره القيّم «الميزان».

هذا غيضٌ من فيض، ولم أكن تقصّيت الكتب المصنّفة في علوم القرآن بصورة شاملة، سوى الغالبية المعروفة. الأمر الذي يكفي لإبداء ما بذله علماؤنا الأعلام من جهود جبّارة حول تحقيق هذا الكتاب المقدّس الخالد، و مدىٰ اهتمامهم البالغ بشأنه العزيز، شكر الله مساعيهم الجميلة، وأفاض عليهم سجال رحمته الواسعة، آمين.

ومنذ القرن الثاني عشر واكب علماء الإفرنج علماء الإسلام في البحث والتنقيب عن شؤون القرآن بنواحٍ شتّى، فبدأوا يبحثون عن تأريخه، و عن الكتب المؤلّفة فيه، وعن تفسيره وما أشبه ذلك. وحوالي منتصف القرن الرابع عشر قامت ألمانيا بعملٍ عظيمٍ محمود؛ ذلك أنّ المجمع العلمي في مونيخ بألمانيا عنى عناية خاصّةً بالقرآن الكريم، وجمع كلّ ما يمكن الحصول عليه من المصادر الخاصّة بالقرآن وعلومه. وأدلى هذا الأمر إلى الأُستاذ «برجشتراسر» الذي كان قد بدأ بالعمل في حياته، فلمّا توفي سنة (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م) عهَد المجمع بالسير في هذا المشروع إلى العالم «اوتو پرتيزل» أُستاذ اللغة العربية في مونيخ. وهذا الأُستاذ كتب إلى المجمع العلمي العربي في دمشق كتاباً

يقول فيه:

«ولقد نوينا تسهيلاً لمحبّي الاطّلاع أن تدوّن كلّ آية من القرآن الكريم في لوحة خاصّة تحوي مختلف الرسم الذي وقفنا عليه في مختلف المصاحف مع بيان القراءات المختلفة التي عثرنا عليها في المتون المتنوّعة، ومتبوعة بالتفاسير العديدة التي ظهرت على مدى العصور و توالي القرون».

وأخذ في نشر أهمّ الكتب المؤلّفة في القرآن، ككتاب «التيسير» في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني. وكتاب «المقنع» في رسم مصاحف الأمصار، مع كتاب «النقط» أيضاً له. وكتاب «مختصر الشواذّ» لابن خالويه. وكتاب «المحتسب» لابن جنّي. وكتاب «غاية النهاية في طبقات القرّاء» لشمس‌الدين ابن‌الجزري. وكتاب «معاني القرآن» للفرّاء. ورسالة في تأريخ علوم القرآن باللغة الألمانية، وهي تحتوي على أسماء المؤلّفات في علوم القرآن الموجودة في الآفاق ودور الكتب في العالم.

أدلى بهذه المعلومات فضيلة الأُستاذ الشيخ أبوعبدالله الزنجاني في كتابه الوجيز «تأريخ القرآن» وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

غير أنّ الشعلة الّتي كادت تتوهّج وتتوسّع فاجأها الانطفاء المرير، على أثر اندلاع نيران الحرب العالميّة الثانية القاسية، على يد ألمانيا نفسها (١٣٥٨ هـ/١٩٣٩م) فياله من أسف.

وكنتُ منذ تعلّمت القراءة مشغوفاً بدراسة شؤون القرآن الكريم و مطالعة الكتب المصنّفة في مختلف جوانبه المتنوّعة. وكنت أجد من ذلك متعةً ولذةً فائقة، حتّى خضتُ عبابها وإذا هي ضرورة إسلامية ملحّة، لابدّ لكلّ مسلم أن يتعرّف إليها إن كان يريد التحقّق من أقوى دعامة لهذا الدين الحنيف. فقمتُ أدرس من شؤونه بدقّة وإمعان، وأُسجّل من مطالعاتي لقطات، إمّا نقداً فيما شككت في صحّته، أو إعجاباً بما استطرفته من موضوع.

والآن ـ وبعد سنين ـ اجتمعت لديّ من تلكمُ المذكّرات عدد ضخم وفي حجمٍ كبير، فجعلت أُرتّبها و أُنظّمها، وإذا هي تصلح لتأليف كتاب يحتوي على أبواب وفصول في متنوّع البحوث القرآنية فأسميته «التمهيد»، لأنّي جعلتُ من هذه الأبحاث كمقدّمة لتفسيري «الوسيط». وأسأله تعالى أن يوفّقني لإتمامه، ولأن أكون قد خدمتُ جيلي المسلم بنظرات مستجدّة حول القرآن الكريم، ربّما لا يجدها الباحث في موسوعة سواه، أو يصعب عليه تناولها، وهي في مطاوي كتب ذوات أحجام كبيرة أو بعيدة عن متناول العموم.

والذي شدّ من عزمي على إنجاز هذا الأثر المتواضع أنّي لمستُ فراغاً في مكتبة الطائفة في عهدنا الحاضر ـ وقد كانت غنيّة قبل اليوم ـ فيما يخصّ جانب البحوث القرآنية مستوفاة ماعدى بحوث قليلة عالجت طرفاً من شؤون القرآن الكريم، وبقيت الجوانب الأُخر ـ وهي كثيرة ـ قابعة في زاوية الخمول، لايجدها الباحث إذا ما حاول التطّلع على رأي الطائفة في ضوء مذهب أهل البيت عليهم السلام.

ومن ثمّ جعلتُ أتتبّع الآثار و الآراء وأنقدها نقداً موضوعيّاً، عرضاً على نصوص تأريخية ثابتة وروايات متواترة أو محفوفة بقرائن قطعية.

وسيبدو من خلال بحوثنا الآتية مدى انحرافات أودت بكثير من أئمّة النقد والتمحيص، مغبّة تسرّعهم في بتّ الأمر أو عصبيّتهم لمذهبٍ أو طريقةٍ خاصّة في تحقيق الآراء والآثار. فلم أفرغ من مسألة إلّا وكنت مطمئنا من صحّتها ومستوثقاً من أصالتها مبلغ جهدي الذي بذلت فيها حسب المستطاع.

كما ولم أغفل ـ مدّة بقائي في النجف الأشرف (١٣٧٩ ـ ١٣٩١) وبعد المهاجرة إلى مدينة قم المقدّسة (نهاية عام ١٣٩١) ـ من إلقاء محاضرات جامعية على طلبة المعاهد الدينية العالية وإفساح المجال لهم في المناقشة والتساؤل، تحقيقاً لغاية التثبّت الكامل فيما استجددته من نظريّات، وتحكيماً لمتّفق الآراء المتنوّرة في كلّ مسألة عزمت البتّ

فيها قطعيّاً.

ولنفس الغاية كنت أحياناً أقوم بنشر كرّاسات أستعرض عليها بحوثاً قرآنية كانت كنماذج عن مباحث مسهبة، اُلخّص فيها من آراء ومناقشات، لأستلفت أنظار زملائي الأفاضل، تجاوباً مع أفكارهم الثمينة، وتفاهماً معهم على صعيد النقد النزيه. ومن ثمّ اُقدِّم لهم شكري الجزيل وتقديري المتواصل لهذا التجاوب الودّي الكريم جزاهم اللّه عن القرآن خير جزاء، ووفّقنا جميعاً لمرضاته إنّه وليٌّ قدير وهو الموفّق والمعين.

قم - محمد هادي معرفة

شهر رمضان المبارك ١٣٩٥هـ

علوم القرآن

مصطلح لمسائل دارت حول مختلف شؤون القرآن الكريم، كلّ مسألة تبحث عن شأنٍ من شؤونه غير الذي تبحث عنه مسألة أُخرى، فكانت المسائل تدور حول مواضيع شتّى متنوّعة، كلّ مسألة لها موضوعها الخاصّ، ولارابط لها سوى المحور العامّ: وهو القرآن الكريم، ومن ثَمَّ أصبحت علوماً لاعلماً لموضوعٍ فرد.

خذ مثلاً البحث عن القراءات: مناشئها، تنوّعها، حصرها في السبع، تواترها وحجيّتها، وما إلى ذلك كلّها مباحث تدور حول موضوعٍ واحد وهي: القراءة، ومجموعة هذه المباحث تشكّل علماً على حِدّة. ولارابط بينها وبين المباحث الدائرة حول مسألة الناسخ والمنسوخ في القرآن. وكذا مسألة التشابه والإحكام في القرآن، ومسألة جمع القرآن وتأليفه، و مسألة الإعجاز، وكذا صيانة القرآن من التحريف، وهلّم جرّاً. كلّ مسألة علمٌ برأسه وله موضوعه الخاصّ. ويجمع الكلّ أنّها بحوث عن متنوّع شؤون القرآن، فكانت علوماً لاعلماً واحداً. نظراً لتنوّع المواضيع من غير جامع.

وهذا على خلاف مصطلحٍ آخر راجَ أخيراً وهو: معارف القرآن. هي مجموعة مباحث تدور حول مواضيع تعرّض لها القرآن في نصّه، كمسألة التوحيد والصفات والمعاش والمعاد، ومسألة الاستطاعة والتكليف، والجبر والاختيار، و مسألة الخير والشرّ

والشرائع والأحكام، والثواب والعقاب، وما إلى ذلك من مسائل جاءت في القرآن نصّاً وبحث عنها العلماء والنبهاء من كبار المفسّرين. فإذا كان البحث عنها ـ سواء في المجموع أو في البعض ـ بشكل موضوعي (أُفردت آيات تخصّه و دُرست دراسة موضوعية) كان هذا النمط من البحث والتبيين القرآني تفسيراً موضوعيّاً له أهميّته في عالم التفسير وفي عرض رسالة القرآن العامّة، ولاسيّما في هذا العصر حيث تعطّش العالمين لمعرفة تعاليم القرآن الكريم. وقد ذكرنا جوانب أهميّته في دراستنا للمناهج التفسيرية في كتابنا «التفسير والمفسّرون» (الجزء التاسع والعاشر من التمهيد).

وأمّا جانب أهميّة علوم القرآن (بحوث عن مختلف شؤون القرآن) فيكفيك أن تعلم أن ليس باستطاعتك الحصول على حقائق معاني القرآن إلّا عبر هذه البحوث والتي هي مبادىء وتمهيدات لإمكان البلوغ إلى تلك الغاية المنشودة.

وإذا لاحظنا مباحث هذا العلم مسألةً مسألةً وجدنا أنّ لكلّ واحدةٍ منها دوراً أساسيّاً في إمكان الاستفادة من القرآن. فمثلاً مباحث «حجّيّة ظواهر القرآن» هي التي مهّدت للفقيه سبيل الاستنباط من آيات الأحكام. وكذا معرفة الناسخ من المنسوخ، والمتشابه من المحكم. وهكذا مباحث «حجيّة القراءات و تواترها» تلعب دورها الخطير في معرفة النصّ القرآني الحكيم. ومثلها مباحث نفي التحريف من القرآن ومسألة الإعجاز وغيرها من مسائل، كلٌّ لها دورٌ في عرفان النصّ بما لا يمكن إعفاؤه. الأمر الذي دعا بنا لتقديم البحث عن وحيانية القرآن و هي أُسّ المسائل.

اشتقاق القرآن

«القرآن» اسم عَلَم للكتاب النازل على محمّد رسول‌الله ﷺ ليكون للعالمين نذيراً. والكلمة عربية محضاً لها أصل في اللغة من «قَرَأ يَقْرَأُ قَرْءاً وِقراءةً وقُرآناً».

والكلمة مهموزة تحوّلت من أصل معتلّ. قال ابن فارس: القاف والراء والحرف المعتلّ، أصلٌ صحيح يدلّ على جمع واجتماع. من ذلك: القرية، سمّيت قرية لاجتماع

الناس فيها. ويقولون قريت الماء في المِقراة: جمعته. وذلك الماء المجموع: قَرِيٌّ. والمِقراة: الجفنة، سمّيت لاجتماع الضيف عليها أو لما جمع فيها من الطعام.

ومن الباب «القَرْو»: حوض معروف ممدود عند الحوض العظيم تَرِدُه الإبل. ومن الباب «القَرْو»: وهو كلّ شيء على طريقةٍ واحدة، تقول: رأيت القوم على قروٍ واحد.

ومن الباب «القَرى»: الظّهر. وسمّي قرىً لما اجتمع فيه من العظام. وناقةٌ قرواء: شديدة الظّهر.

قال: وإذا هُمز هذا الباب كان هو والأوّل سواء. يقولون: ماقَرَأَتْ هذه الناقةُ سلىً،[1] كأنّه يُراد: أنّها ماحملت قَطُّ.

قالوا: ومنه القرآن، كأنّه سمّي بذلك لجمعه مافيه من الأحكام والقصص وغير ذلك.[2]

وقال الخليل بن أحمد: وقرأت القرآن عن ظهر قلب أو نظرت فيه... وقرأ فلانٌ قراءةً حسنة، فالقرآن مقروءٌ وهو قارىء.[3]

قال الراغب: والقراءة، ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل. والقرآن في الأصل مصدرٌ نحو كفران ورجحان [وغفران]. قال تعالى: «إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ».[4] وقد خصّ بالكتاب المنزّل على محمّدﷺ فصار له كالعلَم، كالتوراة لما أُنزل على موسى والإنجيل على عيسى عليه السلام.[5]

والكلمة ذات اشتقاق في اللغة دليلاً على أصالتها وليست من الدخيل، و إلّا لم يأت منها الاشتقاق ثلاثيّاً ومزيداً فيه.

«وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذينَ لايُؤْمِنونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتوراً».[6]

«فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ».[7]

«وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزيلاً».[8]

---

١ ـ جلدة يكون ضمنها الولد في بطن أُمّه.

٢ ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج ٥، ص ٧٨ ـ ٧٩.

٣ ـ العين للخليل، ج ٥، ص ٢٠٤-٢٠٥.

٤ ـ القيامة ٧٥: ١٧ و ١٨.

٥ ـ مفردات الراغب، ص ٤٠٢.

٦ ـ الإسراء ١٧: ٤٥.

٧ ـ النحل ١٦: ٩٨.

٨ ـ الإسراء ١٧: ١٠٦.

وقال تعالىٰ حكايةً عن العرب: «وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كتاباً نَقْرَأُهُ».[١]

«فَاسْأَلِ الَّذينَ يَقْرَأونَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ».[٢]

«اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ».[٣]

«فَاقْرَأوا ماتَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ».[٤]

«سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنْسىٰ».[٥]

على أنّ لفظة «قرآن» استُعملت مصدراً بمعنى القراءة:

«إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ».[٦]

«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهوداً».[٧] أي القراءة في صلاة الفجر.

وبمعنى المقروء أيضاً:

«وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلى مُكْثٍ».[٨] وقرآن ـ هنا منكّراً ـ يراد بـه المـصدر بمعنى المفعول أي الشيء المقروء. فقد أُطلق على الكتاب وصفاً لا عَلَماً كما في المعرّف باللام.

وكذا في قوله: «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبين».[٩] وقوله: «إِنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ».[١٠] أي مقروءاً بالعربية. وغيرهنّ من آيات.

وهذا نظير صنوه: «الفرقان»، أطلق على القرآن باعتباره الفارق بين الحقّ والباطل، أي ما يُفَرَّق به بينهما.

«تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكونَ لِلْعالَمينَ نَذيراً».[١١]

«شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآن هُدىً لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقان».[١٢]

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٩٣.
٢ ـ يونس ١٠: ٩٤.
٣ ـ العلق ٩٦: ١.
٤ ـ المزّمل ٧٣: ٢٠.
٥ ـ الأعلىٰ ٨٧: ٦.
٦ ـ القيامة ٧٥: ١٧ و ١٨.
٧ ـ الإسراء ١٧: ٧٨.
٨ ـ الإسراء ١٧: ١٠٦.
٩ ـ الحجر ١٥: ١.
١٠ ـ يوسف ١٢: ٢.
١١ ـ الفرقان ٢٥: ١.
١٢ ـ البقرة ٢: ١٨٥.

أي بيّنات هادية إلى الحقّ وفارقة، أي فاصلة بين الباطل والصواب.

والقرآن كالفرقان عَلَمٌ وَصْفيّ لكتاب اللّه. كلاهما من أصلٍ عربيٍّ صميم.

هذا، ومن الغريب ما نجده من المستشرقين الأجانب حسبوا كلمة (القرآن) دخيلة مشتقّة من «قريانة» كلمة سريانيّة!

جاء في دائرة المعارف البريطانية: «القرآن هو كتاب المسلمين المقدّس. ومن المحتمل أنّ الكلمة مشتقّة من كلمة «قرأ» وهي كلمة سريانية في أصلها، وهو: قريانة، أي القراءة. حيث كانت تُستعمل في الكنيسة السريانية».[1]

لكن لامجال لهذا الاحتمال بعد ماعرفت من عربية الكلمة واشتقاقها في اللغة. أمّا التقارب أو التقارن في حروف الكلم ونظيراتها في سائر اللغات فهذا يعلّله التقارب في أُصول الكلم الشرقية ولاسيمّا اللغات الساميّة كالعبرية والعربية، حيث التقارن القريب في أكثر كلماتها كما في نفس العبري والعربي. الأمر الذي لايدع مجالاً لاحتمال التبادل مع فرض التقارب في أصل الانحدار.

صياغة القرآن صناعة الوحي

من صريح الكتاب العزيز، فضلاً عن الحديث المتواتر، أنّ القرآن نَزَل كُملاً، لفظاً ومعنىً، من عند الله و أنّه بنظمه ونضده، في كلّ جُمَله وتعابيره، صياغة الوحي وصناعة السماء، لايد لغيره فيه إطلاقاً لاجبرائيل الأمين ولا النبيّ الكريمﷺ. ولنسرد عليك آيات ناصّة على ذلك:

منها: ماجاء التصريح فيه بأنّه كلام اللّه.[2] ولاينسب كلام إلى أحد إلّا إذا كان صنيعه

---

١ ـ راجع: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية للدكتور فضل حسن عبّاس، ص ٢٣.

٢ ـ قال تعالى: «يُريدونَ أنْ يُبَدِّلوا كَلامَ اللّه». الفتح ٤٨: ١٥. وقال: «وَإنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللّه». التوبة ٩: ٦.

قال رسول اللهﷺ قال اللّه تعالى: «ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي». (أمالي الصدوق، المجلس الثاني، ص ٦، ط نجف). وقال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بشأن القرآن: «وهو كلام اللّه، وتأويله لايشبه كلام البشر». (كتاب التوحيد للصدوق، باب ٣٦ في الردّ على الثنوية رقم ٥، ص ٢٦٤).

نظماً وتأليفاً، لفظاً ومعنىً.

وكذا التصريح بأنّه ممّا قرأه اللّه على النبيّ،[١] ولاتكون قراءة إلّا بتلاوة آياته كُـمَلا عليه. وليست مجرّد إلقاء المعاني. إذ لايكون ذلك قراءة قرآن وإنّما هـو إلقـاء مـفاهيم لاغير.

ومثله ماجاء التعبير فيه بأنّه إقراء على النبيّ.[٢] وكذا التعبير بأنّهﷺ كان يتلقّى القرآن تلقّياً[٣] وتلقّي هذا القرآن إنّما يعنى بلفظه ونظمه، وليس مجرّد معانيه. إذالقرآن هو: مايقرأ، لامايفهم ويدرك.

وعلى غراره الآيات الناصّة على أنّ النبيّﷺ كان يقرأ القرآن لا أنّه كان يتكلّم به.[٤] هذا بالإضافة إلى أنّ القرآن معجزة الإسلام الخالدة، وأن ليس باستطاعة البشرية جمعاء أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وهذا العموم يشمل النبيّ نفسه أيضاً. فليس باستطاعة النبيّ ـ وهو بشر ـ أن يصوغ كلاماً في صياغة القرآن فكيف يظنّ ـ ماترى ـ أنّه من صنيعه، وهو عاجز عن أن يأتي بمثله حتى ولو كان كلّ الناس معه ظهيراً!

ولعلّ القائل بذلك مدسوس عليه فزعم أنّ القرآن ليس من كلام اللّه المعجز وأنّه قول بشر، وبذلك حاول أهل الريب التشكيك في أكبر دعامة من دعائم الإسلام.

وذكر الإمام بدرالدين الزركشي أنّه نقل بعضهم عن السمرقندي[٥] حكاية ثلاثة أقوال في المنزل على النبيّﷺ ماهو:

أحدها: الرأي السائد وهو: أنّ النازل على النبيّﷺ هو اللفظ والمعنى معاً، حسب تعبير صريح القرآن.

---

١ ـ «إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ». القيامة ٧٥: ١٧ ـ ١٨.

٢ ـ «سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسى». الأعلى ٨٧: ٦.

٣ ـ «وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ عَليمٍ». النمل ٢٧: ٦.

٤ ـ «وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ». الإسراء ١٧: ١٠٦. «وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذينَ لايُؤْمِنونَ حِجاباً مَسْتوراً». الاسراء ١٧: ٤٥؛ «فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ». النحل ١٦: ٩٨.

٥ ـ هو: أبوبكر محمد بن اليمان السمرقندي (ت٢٦٨) كان فقيهاً حنفياً و متكلّماً.

ثانيها: أنّ جبرائيل إنّما نزل بالمعاني خاصّة، وأنّه ﷺ كان قد صاغها في صياغة لغة العرب. و تمسّك القائل بذلك بظاهر قوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمينُ عَلى قَلْبِكَ»[١] وقوله: «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ».[٢] زاعماً أنّ مايعيه القلب هي المعاني دون الألفاظ الخاصّة بمدرك السمع!

ثالثها: أنّ جبرائيل هو الذي كان يفرغها في قوالب الألفاظ بلسان عربي مبين كان يلقيها على النبيّ ﷺ و من ثمّ كان أهل السماء استمعوا إلى قرآن جبرائيل وجعلوا يقرأونه بالعربيّة. ولامستند لهذا القول سوى مازعموه من روايات نزول القرآن جملةً إلىٰ البيت المعمور أوبيت العزّة في السماء الدنيا أو الرابعة، ثمّ نزوله تدريجياً على رسول‌الله ﷺ في طول عشرين سنة.[٣]

قال الجويني[٤]: الوحي على قسمين: أحدهما أن يأمرالله جبرائيل بأن يقول للـنبيّ: افعل كذا أو أنّ اللّه أمر كذا. فكان جبرائيل يتلقّى المعنى ويلقيه على قلب النّبي. الثاني أن يقول له: اقرأ على رسول‌الله بكذا، فهذا يلقيه بلفظه الذي كان يتلقّاه من غير تبديل، كما كان الملوك يكتبون الرسائل ويرسلونها على أيدي الرسل فيوصلونها من غير تصرّف أو تغيير...

قال جلال‌الدين السيوطي ـبعد نقل كلام الجويني ـ: والقرآن من قبيل الثاني، كان يتلقّاه جبرائيل بلفظه ويلقيه على النبيّ كما تلقّاه من غير تصرّف فيه لافي لفظه ولافي معناه، ولم يجزله إلقاء المعنى فقط. والسرّ في ذلك أنّ المقصود من القرآن التعبّد بـلفظه وراء التعبّد بالعمل بمعناه، و لأنّه دليل الإعجاز، فلايستطيع أحد أن يأتـي بـلفظ يـقوم مقامه، لاجبرائيل ولاغيره، وأنّ تحت كلّ حرف منه مقاصد لاتحصى. فلايقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليها...[٥]

---

١ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.   ٢ ـ البقره ٢: ٩٧.

٣ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ونقله السيوطي في الإتقان، ج ١، ص ١٢٦.

٤ ـ هو أبوالمعالي إمام الحرمين، الفقيه الشافعي اُستاذ الغزالي. له مصنّفات في مختلف العلوم.

٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

قال الزرقاني: وقد أسفّ بعض الناس فزعم أنّ جبرائيل كان ينزل على النبيّ ﷺ بمعاني القرآن، والرسول يعبّر عنها بلغة العرب. وزعم آخرون أنّ اللّفظ لجبرائيل وأنّ اللّه كان يوحي إليه المعنى فقط. وكلاهما قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب والسنّة والإجماع، ولا يساوي قيمة المداد الذي يكتب به. وعقيدتي أنّه مدسوس على المسلمين في كتبهم. وإلّا فكيف يكون القرآن حينئذٍ معجزاً واللّفظ لمحمّد أولجبرائيل؟! ثمّ كيف تصحّ نسبته إلى اللّه واللفظ ليس لله؟![1]

وأمّا الآيات التي استند إليها هذا القائل، فعلى عكس مطلوبه أدلّ!

ذلك لأنّ المراد بالقلب فيها هو شخصيّة الرسول الباطنة الآهلة لتلقّي الوحي من عند الله وليس هذا العضو الصنوبري الكامن في الصدور. حيث إنّ أجهزة الإدراك عندنا لم تُعَدَّ لاستلام هكذا تلقيّات ممّا وراء المادّة، و إنّما هي تعمل في إطار محدود.

ونظير هذه المحدوديّة في المادّة، الأمواج اللاسلكيّة تتلقّاها أجهزة خاصّة بذلك، تلقّياً بنفس الألفاظ وحتى الصور والأشكال والألوان من مكان بعيد، ممّا لا يمكن تلقّيها بهذا الحسّ الظاهري العاديّ. وهكذا النفوس المستعدّة تستأهل لإدراك أُمور تعجز الأحاسيس العاديّة عن إدراكها مادامت على كثافتها الأُولى ولم تبلغ لطافتها المتناسبة مع الملأ الأعلى!

على أنّ الآية من سورة الشعراء «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ... بِلِسانٍ عَرَبِيٍ مُبِينٍ» ناصّة على أنّ النازل من عند الله وعلى يد أمينه جبرائيل، هو هذا القرآن بنصّه ولفظه العربي المبين! فالآية على عكس مطلوب المستدلّ أدلّ!

وقد نسب هذا القول إلى «معمّر بن عبّاد السُلَمي» (ت ٢١٥) من زعماء المعتزلة،[2] نسبة مأخوذة من قياس المساواة، إذ لا تصريح له بذلك و إنّما هو لازم كلامه و مذهبه في

---

١ ـ مناهل العرفان للشيخ محمدعبدالعظيم الزرقاني، ج ١، ص ٤٩.

٢ ـ هو أبوالمعتمر معمَّر بن عمرو، و قيل: ابن عبّاد البصري. كان بينه و بين النظام مناظرات و منازعات. سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ١٠، ص٥٤٦/١٧٦.

كلامه تعالى فيما زعموا .... لأنّه قائل بأنّ الكلام في ذاته عرض، والعرض عند المعتزلة حركة، وهو قائم بجسم، فيستحيل أن يقوم به تعالى إذ لايكون محلاًّ للأعراض. فليس كلامه تعالى سوى ما يبدو من المحلّ الصادر منه إن شجرةً أو إنساناً. فالكلام الصادر من الشّجرة فعل لها، والصادر من إنسان، فعل له. وإن كان بإرادة اللّه ومشيئته سبحانه...[١] قالوا: فمعنى ذلك: أنّ كلامه تعالى الصادر عن محلّ، عبارة عن استعداد وقابليّة يخلقها اللّه في شجرة أو يمنحها لإنسان، فيقوم هو بإنشاء كلام يتجلّى فيه إرادته تعالى. فالكلام الصادر من الشجرة فعلها والصادر من إنسان فعله، وإن كان في ذاته منسوباً إليه تعالى، لأنّه إنّما صدر وفق إرادة اللّه.

وهكذا استندوا إلى ما نسبه إليه الراوندي قائلاً: «وكان (أي معمّر) يزعم أنّ القرآن ليس من فعل اللّه ولا هو صفة له في ذاته كما تقول العوامّ، ولكنّه من أفعال الطبيعة ...».

لكنّ أباالحسين الخيّاط المعتزلي رفض هذه النسبة رفضاً باتّاً، قال: «إعلم ـ أرشدك اللّه إلى الخير ـ أنّ معمّراً كان يزعم أنّ اللّه هو المكلّم بالقرآن، وأنّ القرآن قول اللّه وكلامه ووحيه وتنزيله لامكلّم له سواه ولاقائل له غيره، وأنّ القرآن مُحدَث لم يكن ثم كان ...».[٢]

لكن رغم ذلك نجد أنّ بعض المستشرقين الأجانب،[٣] وتبعه بعض الكتّاب الإسلاميين[٤] متابعة من غير تحقيق، ذهب إلى أنّ معمّراً يقول بأنّ القرآن ليس من كلامه تعالى، وأنّ اللّه سبحانه أعطى نبيّه قابليّة أن يصوغ كلاماً يفرغ فيه إرادة اللّه التي كان يتلقّاها بالوحي على نفسه.

وهو استنتاج باطل بعد كونه قياساً محضاً وليس من صريح كلامه؛ هذا و قوله تعالى:

---

١ ـ جاء في مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ٢٦٨: «والفرقة الخامسة منهم أصحاب معمّر، يزعمون أنّ القرآن عرض، ومحال أن يكون اللّه فَعَلَه في الحقيقة، لأنّهم يُحيلون أن تكون الأعراض فعلاً للّه. وزعموا أنّ القرآن فعل للمكان الذي يُسمَع منه، إن سُمع من شجرة فهو فعل لها، وحيثما سمع فهو فعل للمحل الذي حلّ فيه».

٢ ـ راجع: كتابه «الانتصار»، ص ١٠٤.

٣ ـ هو: «هري أوسترين ولفسِن» في كتابه «فلسفة علم الكلام» ترجمة أحمد آرام، ص ٢٩٨ و ٣٠٢.

٤ ـ هو: «مقصود فراستخواه» في كتابه «زبان قرآن» ص ٣٠٥ وفي مقال له في مجلة «فرا راه» ع١/١٣٣٧، ص ٢٣.

«وَكَلَّمَ اللّه مُوسىٰ تَكْليماً»[١] يؤكّد على أنّ اللّه تعالى كان يكلّمه بنفس هذا الكلام المعهود، وأنّه حقيقة الكلام وليس عن مجاز أو استعارة. وإلّا لم يصحّ هذا التأكيد (بالمفعول المطلق).

ويحمل قول معمّر على أنّ الكلام المسموع من أيّ شيء إنّما خَلَقه اللّه فيه ليسمع منه، لا أنّه من صنع ذلك الشيء. فإن سُمع من الهواء فهو فعل الهواء أي صادر منه وإن كان بخلقه تعالى فيه. وهكذا إذا سُمع من شجرة. أمّا الصادر عن إنسان مثل النبيّ ﷺ فهو بإلهام منه تعالى عليه، فهو أيضاً صنيعه تعالى وليس من صنع النبيّ نفسه.

صياغة القرآن صياغة خطاب لاصياغة كتاب

من مميّزات صياغة الكتاب هوالانسجام التامّ من بدء الكلام إلى الختام، فما من مقال في صحيفة أو رسالة في كتاب أو تصنيف أو تأليف إلّا ويكون منتظماً على نضد ورصف منسجم وملتئم بعضه مع بعض كالتئام حلقات السلسلة متماسكة بعضها مع بعض و يعبّر عنه بالتناسق في الكلام. الأمر الذي يفقده المقال إذا كان في خطاب حيث لا يتقيّد المتكلّم فيه بمراعاة التناسق، لا اللفظي فقط بل و حتى المعنوي، فقد ينتقل في كلامه من موضوع إلى موضوع آخر بمناسبة يراعيها حال الخطاب، حتى ولو لم يكن بين المواضيع التي تعرّض لها ذلك الربط الوثيق. الأمر الذي نجده في القرآن كثيراً. فهذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغياب، وكذا التنوّع في الضمائر واختلافها مع المراجع وهكذا أسماء الإشارات أو من الظاهر إلى ضمير الخطاب وما شاكل ليس إلّا لكونه منساقاً على أُسلوب الخطابة لا الكتابة، وإلّا لم يصحّ ذلك التنقّل الفجائي والتبدّل من حال إلى حال! و من ثَمَّ جاز النطق بجمل معترضة أثناء الكلام إذا كان خطاباً لا كتاباً.

وإليك من ميزات الخطاب نجدها في القرآن الكريم:

---

١ ـ النساء ٤: ١٦٤.

١ ـ التنقّل الفجائي:

من ميزات الكلام إذا كان مقالاً في خطاب، جواز التنقّل الفجائي من موضوع إلى موضوع ومن حالة إلى حالة أُخرى قد لاتكون بينهما مناسبة ظاهرة، وممّا يُعّد عيباً في سرد الكلام إذا كان كتاباً لا إذا كان خطاباً معتمداً على قرائن المقام.

خذ مثلاً سورة القيامة، تبتديء بالكلام عن الإنسان وشأنه من قيام الساعة حتى تأتي إلى قوله تعالى: «بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقىٰ مَعاذيرَهُ». وفجاءةً يتوجّه الكلام خطاباً إلى النبيّ ﷺ: «لاتُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ».

ويعود فوراً إلى مواجهة الإنسان بالتقريع عليه: «كَلّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ». ثُمَّ يتحوّل إلى الكلام عن حالة الإنسان في يوم القيامة: «وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إلىٰ رَبِّها ناظِرَةٌ. وَوُجوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ...»[1] إلىٰ آية ثلاثين. وبعدها يتحدّث عن إنسان متبخترٍ لاصدّق ولاصلّى ولكن كذّب وتولّىٰ ثُمَّ ذهب إلىٰ أهله يتمطّى... و هكذا نجد السياق يصول ويجول و يتحوّل ويتنقّل... فتارة تشنيع وأُخرى تقريع وثالثة تهويل و تفضيع حتى نهاية السورة.

فما هذا الكرّ والفرّ، والرجعة والإقدام، إلّا لكونه سياق خطاب لاسياق كتاب! فقد حصل التنقّل في هذه السورة ست مّرات، وهذا من خصائص القرآن البديعة بلا ريب.

يقول الإمام الرازي بصدد تبرير هذا النوع من الالتفات الفجائي (الشديد الانحراف) عند تفسير الآية: «لاتُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ...»: يجوز أنّ الرسول ﷺ اتّفق له عند نزول هذه الآيات أن استعجل بقراءتها خوف الضياع، فلاجرم نهي عن ذلك لفوره. وهذا كما أنّ المدرّس إذا كان يلقي على تلميذه درساً فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً، فينبّهه المدرّس لفوره ويقول له في أثناء ذلك الدرس: لاتلتفت يميناً وشمالاً، ثُمَّ يعود إلى الدرس.

---

١ ـ القيامة ٧٥: ١٤-٢٤.

فإذا ضبطت تلك المحاضرة بكاملتها مع ما تخلّلها من كلام ـ كما إذا سجّلت على شريط ـ لم يعرف من لاعلم له بالواقعة، وجه المناسبة في سياق هذا الكلام. ولكن من علم ذلك عرف أنّه حسن الترتيب.[١]

٢ ـ ظاهرة الالتفات

ومن سورة يس، تجد فيها بديعة الالتفات بيّنةً:

«إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ في شُغُلٍ فاكِهونَ هُمْ وَأَزْواجُهُمْ في ظِلالٍ عَلى الْأَرائِكِ مُتَّكِئونَ لَهُمْ فيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ مايَدَّعونَ. سَلامٌ، قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحيمٍ. وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ـ إلى قوله ـ: هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتي كُنْتُمْ توعَدونَ اصلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرونَ. الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْديهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانوا يَكْسِبونَ...».[٢]

فأوّلاً كان الكلام عن أصحاب الجنّة بصورة غياب.

ثمّ تحوّل إلىٰ صورة خطاب بالسلام عليهم ذلك اليوم.

وفجأةً تحوّل الخطاب إلى المجرمين ـ إلى قوله ـ: «كُنْتُمْ تَكْفُرونَ». لكنّه رجع إلى صورة الغياب في قوله: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفواهِهِمْ...».

وهذا النوع من التداور في الكلام لايحسن في الكتابة، ويكون بديعاً في الخطاب.

وفي سورة الفتح:

«لَقَدْ رَضِيَ اللّه عَنِ الْمُؤْمِنينَ إِذْ يُبايِعونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَريباً. وَمَغانِمَ كَثيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللّه عَزيزاً حَكيماً. وَعَدَكُمُ اللّه مَغانِمَ كَثيرَةً تَأْخُذُونَها...».[٣]

بدأ بالكلام عن المؤمنين غياباً في خطاب موجّه إلى النبيّ، وفجأةً تحوّل إلى الخطاب مع المؤمنين أنفسهم.

---

١ ـ التفسير الكبير، ج ٣٠، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

٢ ـ يس ٣٦: ٥٥-٦٥.

٣ ـ الفتح ٤٨: ١٨-٢٠.

وهي لطيفة بديعة تحسن في الخطاب لاثبت الكتاب!

وهذا نظير ماحكاه سبحانه عن عزيز مصر، خطاباً مع يوسف ويلتفت لفوره إلى امرأته يؤنّبها: «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا. وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ».[١] الأمر الذي يصحّ حال المواجهة بالكلام شفاهاً لا غير.

وفي سورة الحمد، تبتديء بتمجيد اللّه سبحانه غياباً، ثُمَّ يتحوّل الكلام إلى مسائلته تعالى خطاباً. وهو من بديع الالتفات بيّنّاه في التفسير.

وفي سورة عبس تبتديء بالعتاب غياباً «عَبَسَ وَتَوَلّىٰ أَنْ جاءَهُ الْأَعْمىٰ». ثمّ مواجهةً خطاباً مع الرسول «وَما يُدْريكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّىٰ...».[٢]

وفي سورة الأنفال: «يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ. قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسولِ». كلام عن المؤمنين غياباً في خطاب مع النبيّ. وفجأة يتوجّه الخطاب مع المؤمنين: «فَاتَّقوا اللّه وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ...».[٣] وما ذلك إلّا لكونه في صياغة خطاب.

وفي سورة الأعراف: «يا بَني آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُواري سَوْءاتِكُمْ وَريشاً. ذٰلِكَ خَيْرٌ. ذٰلِكَ مِنْ آياتِ اللّه لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرونَ» نراه تعالى يواجه بنيآدم في الخطاب معهم مشافهةً ويكتمل كلامه وكأنّه يتكلّم عن غائبين. ثُمَّ يكرّ عليهم راجعاً ليخاطبهم بقوله: «يا بَني آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ...».[٤]

كان الخطاب أوّلاً مع بنيآدم بالمواجهة. ثُمَّ صُرف الكلام إلى بيان الحكمة من غير مواجهة لأحد. ثُمَّ رجع إلى ما كان عليه أوّلاً من الوعظ والإرشاد والتحذير والإنذار.

٣ـ مراعاة الرويّ

من مزايا السجع في الكلام مراعاة الرويّ إذا لوحظ منطوقاً لا مكتوباً. وفي القرآن كثير من التسجيع على حساب النطق بالكلام لاثبته محض كتاب.

---

١ ـ يوسف ١٢: ٢٩.
٢ ـ عبس ٨٠: ١-٣.
٣ ـ الأنفال ٨: ١.
٤ ـ الأعراف ٧: ٢٦-٢٧.

مثلاً قوله تعالى: «بَلِ الْإِنْسانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقىٰ مَعاذِيرَهُ».[١] إنّما يلتئم الكلام سجعاً في حالة الوقف على كلّ من «بصيرة» و«معاذيره» عند النطق والقراءة بياء وراء وهاء في آخرهما. الأمر الذي لا يتحقّق في الثبت والكتابة.

وهكذا قوله: «وَالْتَفَّتِ السّاقُ بِالسّاقِ. إلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ».[٢] إنّما يلتئم السجع والرويّ لدى القراءة بالوقف على كلٍّ من «بالساق» و«المساق».

وقوله: «فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ. إنِّي ظَنَنْتُ أنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ. قُطُوفُها دانِيَةٌ».[٣] فإنّ الرويّ فيها إنّما هو على حساب النطق والوقف على السكون.

وقوله: «وأمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ. وَما أَدْراكَ ماهِيَهْ. نارٌ حامِيَةٌ».

فإنّ الرويّ فيها إنّما يكون على حساب الوقف على التاء من «هاوية» و«حامية» ليلتئم مع هاء السكت في «ماهِيَهْ». وهذا خاصّ بالتلاوة لا الكتابة.

وقوله: «وَالْفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ. وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ. وَاللَّيْلِ إذا يَسْرِ...»[٤] فحذفت الياء من «يسرِ» مراعاة للرويّ حالة النطق بهذا الكلام.

هكذا تليت على النبيّ وتلاها على الناس ويجب الاتّباع أبداً. فحتّى الكتابة هنا تابعت التلاوة، نظراً لأنّها الأصل في القرآن!

٤ ـ ألحان وأنغام

جانب خطير لوحظ في القرآن يتناسب وتلاوته لفظاً لا قراءته خطّاً. وهو جانب نظامه الصوتي البديع المنتظم على ألحان وأنغام. كان بادئ ذي بدء هو المؤثر المستحوذ على شعور العرب قبل أن يتمكّن في نفوسهم. وقد أمر النبيّ ﷺ أن يقرأ القرآن بألحان العرب وأصواتها تمهيداً لتحقّق هذا الغرض، وليس يتحقّق إلّا في تلاوته جهاراً حيث

---

١ ـ القيامة ٧٥: ١٤-١٥.

٢ ـ القيامة ٧٥: ٢٩و٣٠.

٣ ـ الحاقّة ٦٩: ١٩-٢٣.

٤ ـ الفجر ٨٩: ١-٤.

يسوقها لحن الأداء، لاهمساً وراء ستار الخفاء.

هذا مضافاً إلى لحن الأداء المرعى في تعابيره إمّا تقريع أو تعنيف. تهديد أو تهويل. تبشير أو إنذار. تحسّر أو تحزّن وما شاكل. يتكفّله اللهج الصوتي المتناسب مع أحدها لا القراءة همساً.

الأمر الذي تغافله من زعم صياغة القرآن كتباً، لا حماسةً في خطاب!

وقد قيل ـ قديماً ـ: القرآن، إنّما هو بقراءته لا بكتابته.

٥ ـ اتّكاء على دلائل من خارج النصّ

الكلام إذا كان في صياغة كتاب فلابدّ أن تتوفّر دلائله في ذات التعبير، مسبقاً أو ملحقاً أو في الأثناء (قرائن متّصلة مرفقة) ولا يجوز الاتّكال على قرائن منفصلة.[١] الأمر الذي يجوز إذا كان الكلام في صياغة خطاب. والقرآن من هذا القبيل. والمعتمد في فهم معانيه غالبيّاً على معرفة أسباب النزول.

لايجوز لمن ألّف كتاباً أو صنّف رسالة أن يعتمد لنهم مغالقه على معهودات خاصّة لا حضور لها عند العموم. ذلك أنّ خطابه عام ونداءه شامل لا يخصّ من حضر تلك الدلائل بالذات. أمّا القرآن فقد اعتمد في بيان معانيه وإدلاء مقاصده كثيراً على دلائل منفصلة عن النصّ عرفت بأسباب النزول، لا محيص لمعرفة معاني القرآن عن العلم بها مسبقاً. ولأصبح النصّ مبهماً إذا لم يعرف سبب النزول.

خذ مثلاً قوله تعالى: «إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللّه فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما. وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّه شاكِرٌ عَليمٌ».[٢] فمن لم يعرف شأن نزولها حسب من ظاهر التعبير (لاجناح) أنّ نسك السعي ليست فريضة واجبة. لكنّه إذا عرف أنّها نزلت بشأن أُولئك المؤمنين الذين تحرّجوا من السعي بين الصفا والمروة ـ بعد أن أُعيدت

---

١ ـ وممّا يجدر التنبّه له: أنّ القرينة العقلية ـ كدليل الحكمة ـ إذا كانت بيّنة، تعدّ من القرائن المتصلة المرفقة وليست بمنفصله عن النصّ. فليتدبّر!

٢ ـ البقرة ٢: ١٥٨.

الأصنام عليهما ـ خوف أن يكون تكريماً لها كما كان يفعله المشركون. فنزلت الآية دفعاً لتوهّم الحظر، وليس لمجرّد الرخصة المبيحة. فهي رخصة لأداء هذا الواجب الشرعي من غير شائبة المنع. وهذا المعنى لا يفهم من الآية ـ ولا دلالة في نصّها ـ إلّا بعد الإحاطة بسبب النزول.

والآيات من هذا القبيل كثيرة، الأمر الذي لا يجوز ـ حتميّاً ـ في كتابة كتاب إذا كان منهجه عاماً ونداؤه شاملاً!

وهذا هو عمدة الدليل على أنّ صياغة القرآن صياغة خطاب لا صياغة كتاب!

لغة القرآن التي خاطب بها العرب والناس جميعاً

صياغة القرآن في خطاباته عامّة

جاء القرآن ليخاطب العرب و الناس جميعاً بلسان يفهمونه و يتعاهدون صياغته في يسر وسهولة، وهولسان: «العرف العام» والذي جرى عليه متعارف الناس في أساليب محاوراتهم العامّة.

قال سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئي ـ طاب ثراه ـ: لاشكّ أنّ النبيّ ﷺ لم يُبدع طريقة خاصّة لإفهام شريعته، و إنّما واجه قومه بما ألفوه من أساليب التفاهم. وقد جاء بالقرآن ليفهموا معانيه ويدركوا مقاصده. وليتدبّروا آياته ويأخذوا عظمتهم منه «هٰذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ».[1] «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ».[2] «أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها».[3] إلى غير ذلك من آيات كلّها تنمّ عن سهولة في فهم معاني القرآن ويسر في إدراك مقاصده الكريمة. ليس هناك صعوبة ولاتعقيد ولا التباس على المراجعين ...[4]

وهذا هو مقتضى حكمة بعث الرسل و إنزال الكتب «وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إلّا بِلِسانِ

---

١ ـ آل‌عمران ٣: ١٣٨.

٢ ـ القمر ٥٤: ١٧.

٣ ـ محمد ٤٧: ٢٤.

٤ ـ راجع: البيان ـ بتلخيص ـ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ». [١] «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». [٢] «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». [٣] «نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأَمينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكونَ مِنَ الْمُنْذِرينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ». [٤] «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ». [٥] «قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقونَ». [٦] «وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبينٌ». [٧]

قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّه أنزل القرآن عليّ بكلام العرب والمتعارف في لغتها». [٨]

وهكذا كان العرب يفهمونه و يستسيغون عذوبته في سهولة من غير صعوبة!

ومن ثمّ فإنّ لسان القرآن ـ وهو لسان الوحي ـ لسان العرف العام، الذي خوطب به عامّة الناس، على مختلف مستوياتهم ومبلغ مقدراتهم في إدراك مقاصد الكلام. كلٌّ حسب استعداده الخاصّ وسعة ظرفيّته القابلة: «أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها». [٩] وهذا الاختلاف في مقدار الاغتراف يعود إلى تفاوت ظرفيّة القابل، أمّا البيان الصادر من الفاعل فلا اختلاف فيه ولاتفاوت. والقرآن إنّما خاطب عموم الناس بلسانهم وعلى وفق أساليب كلامهم المألوف، وإن اختلفوا في التلقّي والبلوغ إلى مغزى الكلام! فالاختلاف فيهم وفي فهمهم، وليس في البيان أيّ اختلاف، بعد كونه عامّاً شاملاً سعة الآفاق.

نعم إنّ للقرآن ظهراً وبطناً ومحكماً ومتشابهاً، ممّا يوجب تفاوتاً في دلالة الكلام ظهوراً وخفاءً، وضوحاً وإبهاماً، لكنّه لايمسّ جانب دلالته العامّة المخصوصة بظهر القرآن ومحكمات آياته، دون دلالته الباطنة ومتشابهات الآيات، الخاصّة فهمها بالراسخين في العلم من ذوي الاختصاص!

وإليك بعض الكلام في ذلك:

---

١ ـ إبراهيم ١٤: ٤.
٢ ـ يوسف ١٢: ٢.
٣ ـ الزخرف ٤٣: ٣.
٤ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٥.
٥ ـ الدخان ٤٤: ٥٨.
٦ ـ الزمر ٣٩: ٢٨.
٧ ـ النحل ١٦: ١٠٣.
٨ ـ كنز الفوائد للكراجكي، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦؛ و بحارالانوار، ج ٩، ص ٢٨٢.
٩ ـ الرعد ١٣: ١٧.

إنّ للقرآن ظهراً وبطناً

قال رسول‌الله صلّى الله عليه وآله: «ما من آية في القرآن إلّا ولها ظهر وبطن»! وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن ذلك فقال: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله».[1]

وهذا من طبيعي البيان القرآني أن يكون له ظهر لائح وبطن خفيّ. أمّا الظهر فهو المستفاد حسب تنزيله. أي بدلائل شواهد النزول يستفاد مفهوم هو محدود في إطار تلك المناسبة المستدعية للنزول، لايتعدّاها. وهي دلالة ضيّقة النطاق. غير أنّ هناك وراء هذه الدلالة الظاهرة دلالة على مفهوم عام مستفاد من فحوى الكلام بعد إلغاء الخصوصيّات المكتنفة بأسباب النزول. وهذا المفهوم الواسع هو المقصود الأصلي الذي يُشكّل غرض الكلام، فهو تأويله أي يعود إليه مفهوم الكلام في نهاية المطاف.

مثال ذلك قوله تعالى: «وَما أَرْسَلْنا مِن قَبلِكَ إلّا رِجالاً نوحي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمونَ بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ».[2]

هذا خطاب مع المشركين حيث تشككّوا في إمكان بعثة بشر «قالوا ما أَنْزَلَ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ».[3] فعرض عليهم أن يتساءلوا أهل الكتاب عن ذلك «فَاسْأَلِ الَّذينَ يَقْرَأُونَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ»![4]

هذا هو مفهوم ظاهر التنزيل المحدود بأُناس خاصّة ومسألة خاصّة وعصر خاصّ... أمّا لو كانت الآية محدودة بهذا الظاهر الضيّق النطاق، إذن لأصبحت لافائدة فيها بعد فوات ذاك الأوان سوى حكاية أمرٍ ماضٍ. ولكانت كلّ آية قيد تاريخها، غير صالحة للجريان مع الأبد... لولا الإمعان في مفاد الآية العام، المستفاد من فحوى الآية بعد إلغاء الخصوصيّات غير المرتبط بأصل المراد. إذ لاخصوصيّة في كونهم مشركين، بعد كون المناط هو جهلهم بحقيقة الأمر. كما لاخصوصيّة في مسألة النبوة، بل المراد: مطلق ماجهلوا من أمر الشريعة. وهكذا لاخصوصية في كون المسؤولين هم أهل الكتاب بعد

١ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ١١.

٢ ـ النحل ١٦: ٤٣-٤٤.

٣ ـ الأنعام ٦: ٩١.

٤ ـ يونس ١٠: ٩٤.

اعتبار علمهم بما جهل المشركون. إذن أصبح مفاد الآية: ينبغي لكلّ جاهل بشأن من شؤون الشريعة أن يراجع العلماء في ذلك «على الجاهل أن يراجع العالم فيما لا يعلم» هذا هو مفهوم الآية العام المستفاد من فحوى الآية، والتي كانت باطنة، أي خافية على قاصري النظر على ظاهر الآية البدائي. وهذا المفهوم العام هو تأويل الآية، أي مآلها في نهاية الأمر. وهو المقصود الأصلي من الآية والذي ضمن بقاءها مع الخلود.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «لو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثمّ مات أُولئك القوم ـ وكانت خاصّة بهم ـ إذن لماتت الآية بموتهم، ومابقي من القرآن شيء. قال: ولكنّه يجري كما تجري الشمس والقمر، كلّما جاء منه شيء وقع ...».[١]

فالقرآن بمفاهيمه العامّة وبمحتوى بطونه الشاملة صالح للبقاء وجارٍ مع الأبد.

غير أنّ معرفة هذه المفاهيم واستخراج هذه البطون بحاجة إلى إمعان نظر ودقّة، الخاصّ بذوي الاختصاص من الراسخين في العلم. كما قال الإمام الباقر عليه السلام: «ونحن نعلمه» وتلا الآية: «وَما يَعْلَمُ تَأويلَهُ إلَّا اللّه وَالرّاسِخونَ في الْعِلْمِ».[٢]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وله ظهر وبطن، فظاهره حكم[٣] وباطنه علم.[٤] ظاهره أنيق وباطنه عميق... لاتُحصى عجائبه ولاتُبلى غرائبه ...».[٥]

ومن ثمّ فإنّ العبارات (الظاهرة) للعوام (أي لعامة الناس على مختلف مستوياتهم) والإشارات (الخافية) للخواصّ (من العلماء الربانيّين الراسخين في العلم) ـ كما قال الإمام الصادق عليه السلام.[٦]

---

١ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠ ـ ١١.

٢ ـ آل عمران ٣: ٧. راجع: تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠ ـ ١١.

٣ ـ أي أحكام وتكاليف ظاهرة ومحدودة.

٤ ـ أي قواعد كلّية في مفاهيم عامّة صالحة للانطباق في كلّ دور وكور.

٥ ـ الكافي الشريف للكليني، ج ٢، ص ٥٩٩.

٦ ـ بحارالأنوار، ج ٧٨، ص ٢٧٨. عن جامع الأخبار للصدوق، ص ٤٨.

منه آيات محكمات وأُخر متشابهات

قال تعالى: «هُوَ الَّذي أَنزَلَ عَلَيكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ ...».[١]

وهكذا نجد في القرآن آيات محكمة بيّنة المراد ممّا يعود إلى بيان التكاليف والأحكام والمواعظ والآداب وماشابه، في وفرة وفيرة تعمّ أكثريّة الآيات الغالبة، وهنّ أُمّ الكتاب أي مراجع الأُمّة لمعرفة الحلال والحرام والسنن والأخلاق.

وأُخر متشابهة المراد في عدد قليل ممّا يعود إلى أُصول المعارف والمبدأ والمعاد ممّا يخفى كنه المراد لغير المتعمّقين... في مثل قوله تعالى: «اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ».[٢] فقد يخفى وجه الشبه في الآية في دقّته وظرافته، سوى معرفة الظاهرمن أنّه تعالى منوّر السماوات و الأرض، الأمر الذي تفهمه العامّة من ظاهر الآية وتقتنع به. أمّا الخاصّة فيعرفون وجه الشبه في خفاء الكنه وكونه تعالى ـ كالنور ـ قائماً بذاته ومتنوّراً وفي نفس الوقت منوّراً لغيره، على ما أوضح بيانه الفيلسوف ابن رشد الأندلسي.[٣]

والعمدة أنّ الآيات المتشابهة أيضاً ظاهرة المراد في ظاهر تعبيرها لدى العامة و من ثمّ يقتنعون بها ولايرون فيها غموضاً، وإن كانت الدقائق والظرائف التي تحتويها الآية خافية على غير أهل الدقة والعلم والمعرفة.

فقد أصبحت الآيات القرآنية حسب ظواهر تعابيرها كلّها بيّنة لائحة على العامّة، وإن كانت في باطن خباياها خفيّة على غير ذوي الاختصاص من الراسخين في العلم فلم يعد شيء من الآيات باقية في طيّ الغموض أو التعقيد بصورة الإطلاق.

دفع التباس وشبهة

هناك قد يتساءل البعض عن مواقف العامّة بل الخاصّة تجاه لغة الوحي، وهي لغة الملأ الأعلى التي لاتتسانخ مع لغة أهل الأرض حسب مصطلحاتهم وأعرافهم. فما هي إلّا

---

١ ـ آل‌عمران ٣: ٧. ٢ ـ النور ٢٤: ٣٥.

٣ ـ الكشف عن مناهج الأدلة، ص ٨٩ ـ ١٠٧؛ وراجع: الجزء الثالث من التمهيد «لماذا في القرآن متشابه».

تعابير رمزيّة وإشارات وأحياناً استعارات هي قاصرة على إفادة تمام المراد! ومن ثمّ كانت تلك المخالفات ـ حسب ظاهر التعبير ـ في كثير من الكتب المنسوبة إلى وحي السماء! لكنّها شبهة أثارها الغربيّون تبريراً لموقفهم تجاه كتب زعموها وحي السماء، حيث فيها الكثير من الغثّ والهزيل والسخيف والسقيم، فحاولوا تغطيتها بمثل هذا التبرير غير المبرّر... إنّها أباطيل صنعتها أيادٍ أثيمة حرّفت وحي السماء، الأمر الذي لاتشبه شيئاً ممّا في القرآن المصون عن التحريف بعنايته تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».[١] فلا تعقيد فيه ولاغموض فضلاً عن المخالفات.

نعم إنّ في القرآن تنوّعاً في البيان ممّا جعله على مستويات أرقى فأرقى وقد يبلغ القمّة في البيان ممّا لاتناله إلّا يد الجهابذة وأصحاب العبقريّات، الأمر الذي لايستدعي كونه غامضاً أو معقّداً بعد كونه واضح المفاد حسب ظاهره البدائي لعامّة الناس، على ما أسلفنا.

وإليك بعض الكلام عن تنوّع مفاهيم القرآن وبذلك تختلف الأفهام:

تنوّع مفاهيم القرآن

تتنوّع مفاهيم القرآن حسب تنوّع المقاصد وأهداف الكلام، وبذلك تتفاوت درجات صعود البيان و ارتفاعه، وإن كان الجميع على درجة البلاغة الفائقة. ومن ثمّ نستطيع تقسيم هذا التنويع ـ إجماليّاً ـ إلى أربعة أنواع:

١ ـ أحكام وتكاليف، مرتبطة بحياة الإنسان العمليّة من وظائف عبادية وأُخرى معامليّة وما شاكل. فيجب أن تكون على مستوى فهم العامّة، لأنّهم المخاطبون بذلك على سبيل التكليف. مثل قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكِمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ».[٢] فكلّ من يعرف اللغة العربية ويتعاهد أساليبهم الكلاميّة، يعرف أنّ هذا خطاب مع عامّة الناس وتكليف موجّهٌ إليهم جميعاً ويعرف مغزاه تماماً من غير إبهام أو

---

١ ـ الحجر ١٥: ٩.

٢ ـ البقرة ٢: ٢١.

إجمال. وهكذا قوله: «أَقيموا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكاةَ».[١] وقوله: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ»[٢] و «لِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ»[٣] وما شابه من عباديّات. ومثلها قوله تعالى: «أَحَلَّ اللّه الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا»[٤] في المعاملات.

أمثال هذه التكاليف وردت في أيسر بيان وأسهل أساليب الكلام، حيث المخاطبون بها هم عامّة الناس على مختلف مستوياتهم في الفهم والتلقّي، فيجب أن لايكون عليها أيّ غموض أو إبهام.

٢ ـ أمثال وحكم، جاءت لعظة الناس وإيقاظ ضمائرهم في الحياة الفرديّة والاجتماعية، وليكونوا على أُهبة للبلوغ إلى مدارج الكمال الإنساني المنشود. وهذا على نمطين: أحدهما، الاعتبار بمآثر سالفة مرّت على حياة الإنسان، فجاء التذكّر بها لأجل العبرة بها، فلاتتكرّر المآثم وليتأسّى بالمكارم من الأخلاق والشيم الفاضلة. فيجعل ما ارتكبه الإنسان في سالف حياته نصب عينيه ليعتبر بها، إن فضيلةً فيدوم عليها، وإن رذيلةً فلايقتربها ثانية، حيث العاقل لايلدغ من جُحر مرّتين.

مثلاً جاء بشأن أهل الكتاب ومآثم فعالهم مايقضي بالعبرة ولكن أنّى لهم وقلوبهم جافية! قال تعالى: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتابَ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ. فَقَدْ سَأَلوا موسىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَقالوا أَرِنَا اللّه جَهْرَةً».[٥]

وقال بشأن المشركين: «وَقالَ الَّذينَ لايَعْلَمونَ: لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللّه أَوْ تَأْتينا آيَةٌ! كَذٰلِكَ قالَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ».[٦]

وبشأن ديار آل لوط كانت بمعرض من المشركين ينذرهم بها: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلونَ».[٧]

وبصدد مقارنة حالة مشركي العرب بآل فرعون، حيث اختاروا الضلال على الهدى:

---

١ ـ البقرة ٢: ٤٣.
٢ ـ البقرة ٢: ١٨٣.
٣ ـ آل عمران ٣: ٩٧.
٤ ـ البقرة ٢: ٢٧٥.
٥ ـ النساء ٤: ١٥٣.
٦ ـ البقرة ٢: ١١٨.
٧ ـ الصافات ٣٧: ١٣٨.

«ذٰلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْديكُمْ وَأَنَّ اللّه لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيدِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَروا بِآياتِ اللّه فَأَخَذَهُمُ اللّه بِذُنوبِهِمْ إِنَّ اللّه قَوِيٌّ شَديدُ الْعِقابِ. ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّه لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلىٰ قَوْمٍ حَتّىٰ يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّه سَميعٌ عَليمٌ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَونَ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ».[1]

والنمط الآخر، ضرب الأمثال، وهو عبارة عن ترسيم حالة وتجسيد صفة باطنة، في صورة مثال مشاهد، وهو من تشبيه غيرالمحسوس بالمحسوس تجسيداً للخيال الحاكي عن واقعيّة ثابتة، من غير أن يكون مجرّد تخييل. وهو من التصوير الفنّي في سبيل تحقيق أهداف رسالة التبليغ، ويعدّ الأداة المفضّلة في هذا السبيل.

قال سيدقطب: التصوير هو الأداة المفضّلة في أُسلوب القرآن. فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة، عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشريّة. ثمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجدّدة. فإذا المعنى الذهني هيأة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئيّة. فأمّا الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردّها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كلّ عناصر التخييل. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظّارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع... إنّها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة! وإنّها قدرة البيان القرآني ومدى تأثيره في قوة التخييل...[2] وفي القرآن الكثير من ضرب الأمثال: «وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ في هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ».[3] «وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنّاسِ في هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ».[4] ولقد عرضنا نماذج منها عندالبحث عن ضرب الأمثال في القرآن.

---

١ ـ الأنفال ٨: ٥١ ـ ٥٤.

٢ ـ التصوير الفنّي في القرآن لسيدقطب، ص ٢٩.

٣ ـ الزمر ٣٩: ٢٧.

٤ ـ الإسراء ١٧: ٨٩.

وهذان النوعان من البيان القرآني (بيان الأحكام والتكاليف، وعرض الحكم والأمثال) كانا من وضوح البيان حينذاك (حين نزول القران) بمكان. وهكذا يجري بوضوحه مع الأزمان. الأمر الذي يعمّ غالبية الآيات القرآنية، بلا أن يكون عليها شيء من الغموض والإبهام...

ويبقى النوعان الآخران ـ في أقليّة من الآيات الكريمة ـ وهما: النوع المرتبط بالحديث عمّا وراء ستار الغيب والنوع المرتبط بأُصول المعارف... و يكثر فيهما استعمال المجاز والاستعارة والكناية حيث علوّ المستوى وانخفاض مرتبة الألفاظ وتصوّرها عن شمول مثل هذه المعاني الشامخة. الأمر الذي قد يسبّب إجمالاً في التعبير أو إبهاماً في الأداء والبيان. وإنّما هو لبعد المستوى عن الأذهان العاديّة... ولنضرب لكلا النوعين مثلاً:

٣ ـ تعابير عن عوالم الغيب. أمر لامحيص عنه في الكتب النازلة من السماء، ففيها طرف من إخبارات عن عوالم الغيب و عمّا يجرى هناك من تدابير، أو يؤول إليه أمر هذه الحياة في نهاية المطاف.

مثلاً عند ما يصوّر الملائكة ـ وهي المدبّرات أمراً ـ ولبيان مراتب قدرهم في أمر التدبير، يذكر لها أجنحة مثنى وثلاث ورباع.[١] ومن المعلوم أن لا أجنحة هناك كأجنحة الطيور هنا، وإنّما هي تعابير كنائيّة عن مراتب قدرهم. واستعارة الجناح للقدرة وكذا الذراع والعضد شائع في المتعارف، من غير أن يكون المعنى الحقيقي مراداً...

وهكذا عند ما يتكلّم عن الحور و القصور والأشجار والأنهار، إنّها تعابير عن ملاذّ الآخرة، كما أنّ النار والحرور كناية عن أليم عقابها، أمّا نفس هذه المفاهيم بعين مانجده في دار الدنيا، فغير معلوم بعد عدم تسانخ بين النشأتين.[٢]

نعم عدم معرفتنا بحقيقة الأمر في ذلك، إنّما يعود إلى قصور في أفهامنا الخاصّة

١ ـ «جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولي أَجْنِحَةٍ مَثْنىٰ وَثُلاثَ وَرُباعَ»، فاطر ٣٥: ١.

٢ ـ وفي المجلد السابع من التمهيد تلميحات إلى ذلك حيث ردّ الشبهات الواردة بهذا الشأن وللسيد الطباطبائي إشارة إلى ذلك في مقدمة تفسيره الميزان، ج ١، ص ٦ ـ ٩.

بمدركات هذه الحياة دون الحياة الأُخرى غير المسانخة مع عالمنا المشهود.

٤ ـ أُصول المعارف فيما يعود إلى المبدأ والمعاد وسرّ الحياة، إنّها معرفة بأصل الوجود في البداية والختام، معرفةً إجماليّة عن الصّفة، أمّا الكنه فغير مستطاع البتّة، بعد كونها خارجة عن إطار حيطتنا و متعالية عن مدركات الأحاسيس.

إنّه تعالى و تقدّس، يوصف بتسع وتسعين صفة.[1] فمدى معرفتنا بذاته المقدسة هي مفاهيم هذه الأوصاف على حدّ ترجمة الألفاظ، أمّا المعرفة بالكنه، فليس بإمكاننا لمكان القصور. وفي آيات من آخر سورة الحشر جاء ذكر عمدة هذه الصفات: «هُوَ اللّه الَّذي لا إلٰهَ إلاّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ. هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحيمِ. هُوَ اللّه الَّذي لا إلٰهَ إلاّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزيزُ الْجَبّارُ الْمُتَكَبِّرُ. سُبْحانَ اللّه عَمّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللّه الْخالِقُ الْبارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنىٰ. يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ».[2]

ومنتهى معرفتنا بالله ـ جلّ ثناؤه ـ عن طريق هذه الصفات هو: أنّ اللّه تعالى متّصف بأوصاف تحمل هذه العناوين في مفاهيمها الظاهريّة. أمّا كيف الاتّصاف؟ وهل هو على غرار اتصاف أحدنا بها؟ ولاشك أنّه غير ذلك. لأنّه تعالى لايشبه أحداً من المخلوقين في أيّ صفة من صفاته «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».[3] ومن ثمّ لو كان الاتصاف على نحو اتصاف المخلوقين، فنفي الصفات عنه تعالى أولى. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه»[4] أي إن كان الاتصاف بهذا النحو الذي يتّصف أحدنا به (على نحو المغايرة بين الموصوف والصفة) فهو يتنافى مع عقيدة الإخلاص في ذاته تعالى... وقد شرحنا هذه الناحية في مجاله المناسب.

وأمّا سرّ الخليقة فيمكننا المعرفة به من زاوية معرفة السرّ في خلقة الإنسان، خُلق

---

١ ـ أوردها الصدوق في كتاب التوحيد (ص ١٩٤ ـ ٢٢٠)؛ والفيض الكاشاني في كتابه علم اليقين (ج ١، ص ٩٧ـ ١٥٠)؛ وابن فهد الحلّي في خاتمة كتابه عدّة الداعي (ص ٢٩٨ـ٣١٢)؛ والسبزواري في شرح الأسماء الحسنى؛ و مصباح الكفعمي (ص ٣١٢ـ٣٤٧)؛ والرازي في شرح أسماء الحسنى (ص ١٥٢ ـ ١٥٣) وغير ذلك من الكتب المخصّصة لذلك.

٢ ـ الحشر ٥٩: ٢٢ـ٢٤.

٣ ـ الشورى ٤٢: ١١.

٤ ـ نهج البلاغه، أولى خطبة.

ليكون خليفةالله في الأرض، وخُلِقَتِ الأشياءُ لأجله: «يا ابن آدم، خلقتُ الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي».[١] فإذا كانت الخليقةُ كلُّها إنّما خُلقت لتتجلّى عظمة الربّ تعالى، فهذا لايكتمل بل لايتحقّق إلّا بعد خلقة الإنسان الذي هو مظهر تامّ لتجلّيه تعالى في الخلق. ومن ثمّ لمّا خلقه اللّه بارك نفسه «فَتَبارَكَ اللّه أَحْسَنُ الْخـالِقينَ».[٢] الأمر الذي تـحقق مـع مسيرة الحياة في وجه الأرض ولايزال تتجلّى قدرته تعالى الفائضة على يد هذا الإنسان الذي هو خليفة اللّه في الأرض. هكذا جاء وصف الإنسان في القرآن بما لم يأت في أيّ مكان.

القرآن واضح البيان

إذن فقد صحّ قوله تعالى: «هٰذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ».[٣] بيان مكشوف وواضح لائح لاغبار عليه ولاتعقيد. الأمر الذي يعمّ الأنواع الأربعة، فالنوعان الأوّلان بحقائق مفاهيمهما في وضوح بيان. والنوعان الأخيران حسب ظاهر التعبير اللائح.

وبذلك تبيّن وهن ما زعمه أُناس من صُعُوبة في فهم القرآن أو وعورة فـي بـياناته الرشيدة، كلّا إنّها واهمة يرفضها واقع صراحة القرآن.

نعم هنا شيء، وهو أنّ لفهم القرآن شرائط طبيعيّة لايمكن إغفاؤها والتي منها: معرفة لغة العرب المعاصرة لنزول القرآن... ومعرفة أسباب النزول... والإحاطة بأقوال السلف وما حقّقه الخلف... وغير ذلك ممّا هو مرتبط بجانب فهم كثير من الآيات الناظرة إلى عادات ورسوم جاهليّة كافحها الإسلام، وكذا حلّ مشكل تعابير ـ لولا معرفة شأن النزول ـ تبدو معقّدة في ظاهر الأمر وشرائط مشابهة ينبغي مراعاتها، على غرار سائر الكتب المتوقّفه فهمها على مقدّمات لامحيص عنها، وليس على الإطلاق.

---

١ ـ حديث قدسي. راجع: علم اليقين للمحدّث الكاشاني، ج ١، ص ٣٨١.

٢ ـ المؤمنون ٢٣: ١٤.

٣ ـ آل‌عمران ٣: ١٣٨.

الوحي والقرآن

ظاهرة الوحي

الوحي في اللغة:

الوحي: إعلامٌ سريعٌ خفيٌّ، سواء كان بإيماءةٍ أو همسةٍ أو كتابةٍ في سرّ، و كلّ ما ألقيته إلى غيرك في سرعةٍ خاطفة حتّىٰ فهمه فهو وحي، قال الشاعر:

نـظرت إليـها نـظرةً فـتحيّرت　　　دقائق فكري في بديع صـفاتها

فأوحى إليها الطرف أنّي أُحـبّها　　　فأثّر ذاك الوحيُ فـي وجَـناتها

و قال تعالىٰ عن زكريّا ﷺ: «فَخَرَجَ عَلىٰ قَومِه مِنَ المِحرَابِ فَأَوْحَىٰ اِلَيْهِم أن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيّاً»[1] أي أشار إليهم على سبيل الرمز و الإيماء.

قال الراغب: أصل الوحي الإشارة السريعة، و لتضمّن السرعة قيل: أمرٌ وحـيٌ أي سريع. و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز و التعريض، و قد يكون بصوتٍ مجرّدٍ عن التركيب، و بإشارةٍ ببعض الجوارح، و بالكتابة.[2]

و قال ابن فارس: «و،ح،ي» أصل يدلّ على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك، فالوحي: الإشارة. و الوحي: الكتاب و الرسالة. و كلّ ماألقيته الىٰ غيرك حتّىٰ علمه فهو

---

١ ـ مريم ١٩: ١١.

٢ ـ المفردات، ص ٥١٥.

وحي، كيف كان.[1]

و لعلّ هذا التعميم في مفهوم الوحي ـ عند ابن فارس ـ كان في أصل وضعه، غير أنّ الاستعمال جاء فيما كان خفيّاً:

قال أبوإسحاق: أصل الوحي في اللغة كلّها: إعلام في خفاء، و لذلك سمّي الإلهام وحياً.

و قال ابن برّي: وحىٰ إليه و أُوحىٰ: كلّمه بكلامٍ يخفيه من غيره. و وحي و أوحى: أومأ. قال الشاعر:

فأوحت إلينا و الأنامل رسُلها[2]

أي أشارت بأناملها.

و لعلّ الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السرعة فيه، فالإيماءة السريعة تخفىٰ ـ طبعاً ـ على غير المومىٰ إليه. يقال: موتٌ وحيٌ أي سريع. و منه الوحا الوحا أي البدار البدار، يقال ذلك عند الاستعجال، و منه الحديث: «و إن كانت خيراً فتوحّه» أي أسرع إليه. قال ابن الأثير: والهاء للسكت.[3]

قال الزمخشري: أوحىٰ إليه و أومىٰ بمعنىً. و وحيتُ إليه و أوحيتُ: إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره. و توحّى أي أسرع، قال الأعشى:

مثل ريح المسك ذاك ريحُها   صبّها الساقي إذا قيل: تَوَحّ[4]

الوحي في القرآن

واستعمله القرآن في أربعة معانٍ:

١ ـ نفس المعنى اللغوي: الإيماءة الخفيّة. و قد مرّ في آية مريم.

٢ ـ تركيز غريزي فطري، و هو تكوين طبيعي مجعول في جبلّة الأشياء، استعارة من

---

١ ـ معجم مقاييس اللغة، ج ٦، ص ٩٣.

٢ ـ لسان العرب، ج ١٥، ص ٣٨٠ و ٣٨١.

٣ ـ النهاية، ج ٥، ص ١٦٣.

٤ ـ أساس البلاغة، ج ٢، ص ٤٩٦.

إعلام قولي لاإعلام ذاتي، بجامع الخفاء في كيفية الإلقاء و التلقّي، فبما أنّ الوحي إعلام سرّي، ناسب استعارته لكلّ شعور باطني فطري. و منه قوله تعالىٰ: «وأَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً»[1] فهي تنتهج وفق فطرتها، وتستوحي من باطن غريزتها، مذلّلة لما أُودع فيها من غريزة العمل المنتظم، و من ثمّ فهي لاتحيد عن تلك السبيل.

و من ذلك أيضاً قوله تعالىٰ:«وَأَوْحىٰ في كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها»[2] أي قدّر. و قد استوحىٰ العجّاج هذا المعنىٰ من القرآن في قوله:

وحى لها القرار فاستقرّت وشدّها بالراسيات الثُبَّتِ[3]

٣ ـ إلهامٌ نفسي، و هو شعور في الباطن، يحسّ به الإنسان إحساساً يخفى عليه مصدره أحياناً، و أحياناً يُلهِم أنّه من اللّه. و قد يكون من غيره تعالىٰ.

و هذا المعنى هو المعروف عند الروحيّين بظاهرة التلباثي (التخاطر من بعيد) و هو خطور باطني آني لايعرف مصدره. قالوا: إنّها فكرة تنتقل من ذهن إنسان إلى آخر والمسافة بينهما شاسعة أو إلقاء روحي من قِبل أرواح عالية أو سافلة.[4] وقيل: إنّها فكرة رحمانية توحيها الملائكة، تنفثها في روع إنسانٍ يريدالله هدايته، أو وسوسة شيطانية تلقيها أبالسة الجنّ لغرض غوايته.

ومن الإلهام الرحماني قوله تعالى: «وأَوْحَيْنا إلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعيهِ فَإذا خِفْتِ عَلَيهِ فَأَلقِيهِ فِي اليَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إنّا رادُّوهُ إليْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرسَلِينَ».[5]

قال الأزهري: الوحي هنا إلقاء اللّه في قلبها. قال: وما بعد هذا يدلّ ـ والله أعلم ـ على أنّه وحيٌ من اللّه على جهة الإعلام، للضمان لها «إنّا رادُّوهُ إلَيْكِ». وقيل: إنّ معنى الوحي هنا الإلهام. قال: وجائز أن يلقي اللّه في قلبها أنّه مردود إليها وأنّه يكون مرسلاً. ولكن

---

١ ـ النحل ١٦: ٦٨ و ٦٩.

٢ ـ فصّلت ٤١: ١٢.

٣ ـ لسان العرب، ج ١٥، ص ٣٨٠.

٤ ـ راجع: مطوّل الإنسان روح لاجسد للرؤف عبيد، ج ١، ص ٥٤٢.

٥ ـ القصص ٢٨: ٧.

الإعلام أبين في معنى الوحي هنا.[١]

والشيخ المفيد ﷺ أخذ الوحي هنا بمعنى الإعلام الخفي، وذلك في كتابه «أوائل المقالات». لكنّه في كتابه «تصحيح الاعتقاد» جعله بمعنى رؤيا أو كلام سمعته أُمّ موسى في المنام. و قال ـ بصدد إيضاح معنى الوحي ـ: أصل الوحي هو الكلام الخفي، ثمّ قد يُطلق على كلّ شيءٍ قصد به إفهام المخاطب على السرّ له عن غيره.[٢]

و أمّا التعبير بالوحي عن وسواس الشيطان و تسويله خواطر الشرّ و الفساد فجاء في قوله تعالىٰ: «وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحي بَعضُهُمْ إلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً».[٣] وقال: «وَإنَّ الشَياطِينَ لَيُوحُونَ إلىٰ أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ».[٤] ويفسّره قوله: «مِن شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنّاسِ الَّذي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَ الناسِ».[٥]

كما جاء التعبير عمّا يلقيه اللّه إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم بالوحي أيضاً في قوله تعالىٰ: «إذْ يُوحي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذينَ آمَنُوا».[٦]

و أمّا التعبير بالوحي عمّا يلقيه اللّه إلىٰ نبّي من أنبيائه بواسطة مَلك أو بغير واسطة لأجل تبليغ رسالة اللّه فهو معنى رابع استعمله القرآن، و هو موضوع بحثنا في الفصل التالي.

الوحي الرسالي

«الوحي الرسالي» معنى رابع استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعاً، معبّراً عن القرآن أيضاً بأنّه وحيٌ أُلقي على النبيّ ﷺ: «نَحنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِما أَوحَيْنا إليكَ هذَا الْقُرْآنَ».[٧] «وكَذٰلِكَ أوْحَيْنا إلَيْكَ قُرْآناً عَربيّاً لِتُنذِرَ أُمّ القُرىٰ وَمَنْ حَوْلَها».[٨] «أُتْلُ ما أُوحِيَ

١ ـ لسان العرب، ج ١٥، ص ٣٨٠.

٢ ـ راجع: أوائل المقالات، ص ٣٩؛ وتصحيح الاعتقاد، ص ٥٦.

٣ ـ الأنعام ٦: ١١٢.

٤ ـ الأنعام ٦: ١٢١.

٥ ـ الناس ١١٤: ٤-٦.

٦ ـ الأنفال ٨: ١٢.

٧ ـ يوسف ١٢: ٣.

٨ ـ الشورى ٤٢: ٧.

إلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ».[١]

وظاهرة الوحي بشأن رسالة الله هي أُولى سِمات الأنبياء، امتازوا بها على سائر الزعماء و المصلحين أصحاب العبقريّات الملهَمين. و لم يكن النبيّ محمّد ﷺ بدعاً من الرسُل في هذا الاختصاص النبوي، ولا أوّل من خاطب الناس باسم الوحي السماوي، و من ثَمَّ فلاعجب في هذا الاصطفاء مادام ركب البشريّة منذ بداية سيرها لم تزل يرافقها رجال إصلاحيّون يهتفون بهذا النداء الروحي، و يدعون إلى اللّه باسم الوحي و تبليغ رسالة اللّه.

«أَكانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذينَ آمَنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبينٌ».[٢]

ودفعاً لهذا الاستنكار الغريب قال: «إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلىٰ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارونَ وسُلَيْمانَ وآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّه مُوسىٰ تَكْلِيماً. رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّه حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللّه عَزِيزاً حَكيماً. لٰكِنِ اللّه يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفىٰ بِاللهِ شَهيداً. إِنَّ الَّذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلّوا ضَلالاً بَعِيداً».[٣]

والوحي الرسالي لايعدو مفهومه اللغوي بكثير بعد أن كان إعلاماً خفيّاً، وهو اتصالٌ غيبيٌّ بين اللّه و رسوله، يتحقّق على أنحاء ثلاثة، كما جاءت في الآية الكريمة: «وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّه إِلاّ وَحْياً أَوْ مِن وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكيمٌ».[٤]

فالصورة الأُولى: إلقاءٌ في القلب ونفثٌ في الروع. والثانية: تكليمٌ من وراء حجاب،

١ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٥.
٢ ـ يونس ١٠: ٢.
٣ ـ النساء ٤: ١٦٣-١٦٧.
٤ ـ الشورى ٤٢: ٥١.

بخلق الصوت في الهواء بما يقرع مسامع النبيّ ﷺ [١] ولا يرى شخص المتكلّم ومن ثَمَّ شُبّه بمن يتكلّم من وراء حجاب. والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلّغه إلى النبيّ، إمّا عياناً يراه، أو لا يراه ولكن يستمع إلى رسالته.

إذن، فالفارق بين الوحي الرسالي و سائر الإيحاءات المعروفة هو جانب مصدره الغيبي اتّصالاً بما وراءَ المادّة. فهو إيحاء من عالَمٍ فوق، الأمر الذي دعا بأُولئك الذين لايروقهم الاعتراف بما سوى هذا الإحساس المادّي أن يجعلوا من الوحي الرسالي سبيله إلى الإنكار، أو تأويله إلى وجدانٍ باطني ينتشي من عبقرية واجده، و سنبحث عن ذلك في فصل قادم إن شاء الله.

ملحوظة: بما أنّ الوحي ظاهرة روحية فإنّه بأيّ أقسامه إنّما كان مهبطه قلبه الشريف (شخصيّته الباطنة: الروح) سواء أكان وحياً مباشرياً من اللّه أم بواسطة جبرائيل. قال تعالىٰ: «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ». [٢] «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ» [٣] والقلب هو لبّ الشيء وحقيقته الأصيلة.

قال سيّدنا الطباطبائي: «وهذا إشارة إلى كيفيّة تلقّيه ﷺ القرآن النازل عليه، وأنّ الذي كان يتلقّاه من الروح هي نفسه الكريمة من غير مشاركة الحواسّ الظاهرة التي هي أدوات لإدراكات جزئيّة خارجيّة... فكان ﷺ يرى شخص الملك ويسمع صوت الوحي، لكن لابهذه السمع والبصر المادّيتين، وإلّا لكان أمراً مشتركاً بينه وبين غيره، ولم يكن يسمع أو يبصر هو دون غيره. فكان يأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحى إليه ولايشعر الآخرون الحاضرون ...». [٤]

اللّهم سوى ماورد بشأن مولانا أميرالمؤمنين ؑ، كان يرى مايراه النبيّ ويسمع ما

---

١ ـ لكن لا بهذه الأُذن المادّيّة وإلّا لَسمعه الآخرون أيضاً، بل بذلك السمع الّذي يخصّ باطنه. قال تعالىٰ: «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ». البقرة ٢: ٩٧.

٢ ـ البقرة ٢: ٩٧.

٣ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٣ – ١٩٤.

٤ ـ تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٤٦. برحاء الوحي: شدّة ألمه والإحساس بكربه.

يسمعه إلّا أنّه ليس بنبيّ كما قال له الرسول.[١]

وسيأتي تفصيل أنحاء الوحي الرسالي وماكان يعرض له عند نزول الوحي.

التعريف بالوحي الرسالي

وبعد فيتلخّص التعريف بالوحي الرسالي: في أنّه عبارة عن اتصال روحي مباشر بين الملأ الأعلى وشخصيّة الرسول الباطنة. وذلك لخصائص فيه آهلته لهذا الاتصال الغيبّي الفذّ. ومن ثَمَّ أمكنته من مكاشفات روحيّة صاحية يرى من خلالها ملكوت العلى رؤياً بالعيان من غير ما التباس و لا إبهام. ويفترق عن الإلهام بمعرفة مصدر الإيحاء معرفة ضاحية كالشمس اللائحة، على خلاف الإلهام الخافي مصدره على الشخص المُلْهَم.

كما ويفترق عن الاستلهام النفسي بأنّ هذا انعكاس الخواطر النفسية المتراكمة في النفس فتتجلّى أحياناً وربّما من غير شعور. على خلاف الوحي الرسالي المستلهم من خارج النفس، من الملأ الأعلى من عند ربّ العالمين، معلوماً ذلك للنبيّ علماً قاطعاً لايتردّد ولايشك فيما أوحى إليه أنّه وحي السماء، و من ثَمَّ لايفزع ولايتروّع على ما سنفصّل الكلام فيه.

وقفة عند مسألة الوحي

وبعد... فإنَّ الوحي ـ الوحي الرسالي ـ في واقعه: اتصال روحي بماوراء المادة، يحصل للأنبياء بداعي الرسالة، فيحملون رسالة اللّه إلى الناس في وعي وأمانة وإخلاص.

أمّا وكيف يحصل هذا الاتصال الروحي، وماهي مقوّماته وماهي عناصره الأوّليّة، فهذا أمر خفي علينا، نحن العائشين على الأرض، ولانملك سوى أحاسيس مادّيّة ومعايير ماديّة، لاتمكّننا فهم حقائق هي فوق المادّة وماوراء المادّة.

وهذا الخفاء من جهة قصورنا الذاتي، دعى ببعض المتشاكسين إنكار النبوّات من

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة القاصعة ١٩٢، ص ٣٠١.

رأس، متذرّعين بحجة تباعد مابين العالمين، العالم العلوي والعالم السفلي، ذاك ناصع بيضاء لطيف، وهذا منكدر ظلماء كثيف، وإذ لا رابط بين نور وظلمة، ولاصلة بين لطيف وكثيف، فلا علقة تربط أحدَ العالمين بالآخر، لكن إذا ماعرفنا من هذا الإنسان وجوداً برزخياً ذا جانبين، هو من أحدهما جسمانيّ كثيف، وفيه خصائص المادّة السفلى. ومن جانبه الآخر روحاني لطيف، وهو ملكوتيّ رفيع، لم يكن موقع لهذه الشبهة رأساً.

الإنسان وراء شخصيّته هذه الظاهرة، شخصيّة أُخرى باطنة، هي التي تؤهّله ـ أحياناً ـ للارتباط مع عالمٍ روحاني أعلى، إذ كان مبدؤه منه وإليه منتهاه: «إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ»[1] هذا هو واقع الإنسان الحقيقي، ذوالتركيب المزدوج من روح وجسم، ومن ثمّ فهو برزخ بين عالمي المادّة وماوراء المادّة، فمن جهة هو مرتبط بالسماء ومن أُخرى مستوثق بالأرض. قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ مِن سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً» إلى هنا تكتمل خلقة الإنسان الماديّة، ثمّ يقول: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللّه أَحْسَنُ الخالِقِينَ».[2] وهذا الخلق الآخر هو وجود الإنسال الروحي، وهو وجوده الأصيل. الذي أشارت إليه آية أُخرى: «وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فيهِ مِنْ رُوحِهِ».[3] قال الإمام الصادق عليه السلام «إنّ اللّه خلق خلقاً وخلق روحاً. ثمّ أمر ملكاً فنفخ فيه...».[4] فهذا هوالإنسان، مخلوق متركّب من جسم هو مادّي، وروح هو لامادّي، فبوجوده المادّي خلق، وبوجوده اللّا مادّي خلق آخر. وبوجوده هذا الآخر يستأهل للاتصال بالملأ الأعلى، لابوجوده ذاك المادي الكثيف.

نعم جاءت فكرة إنكار الوحي، نتيجة للنظرة الماديّة البحتة إلى هذا الإنسان، وهي نظرة قاصرة بشأن الإنسال، سادت أُروبا في عصر نشوء الفكرة الماديّة عن الحياة، والتي جعلت تتقدّم وتتوسّع كلّما تقدّمت العلوم الصناعيّة في القرنين الثامن‌عشر والتاسع‌عشر، وأخذت المقاييس المعنويّة في الحياة تتدهور تراجعاً إلى الوراء. وكادت الموجة تطبق

---

١ ـ البقرة ٢: ١٥٦.

٢ ـ المؤمنون ٢٣: ١٢-١٤.

٣ ـ السجدة ٣٢: ٧ ـ ٩.

٤ ـ بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٣٢، ح ٥.

العالم أجمع، لولا أن انتهضت الفكرة الروحية في أمريكا ومنها سرت إلى أُروبا كلّها فجعلت مسألة الوحي تحيى من جديد.

قال الأُستاذ وجدي: كان الغربيّون إلى القرن السادس‌عشر كجميع الأُمم المتديّنة يقولون بالوحي، وكانت كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء. فلمّا جاء العلم الجديد بشكوكه وماديّاته، ذهبت الفلسفة الغربيّة إلى أنّ مسألة الوحي، هي من بقايا الخرافات القديمة، وتغالت حتى أنكرت الخالق والروح معاً، وعلّلت ماورد عن الوحي في الكتب القديمة بأنّه إمّا اختلاق من المتنبأة أنفسهم لجذب الناس إليهم وتستخيرهم لمشيئتهم. وإمّا هذيان مرضي يعتري بعض العصبيّين. فيخيّل إليهم أنّهم يرون أشباحاً، تكلّمهم وهم لايرون في الواقع شيئاً.

راج هذا التعليل في العالم الغربي، حتى صار مذهب العلم الرسمي. فلمّا ظهرت آية الروح في أمريكا سنة ١٨٤٦م وسرت منها إلى أُروبا كلّها، وأثبت الناس بدليل محسوس وجود عالم روحانيّ آهل بالعقول الكبيرة والأفكار الثاقبة، تغيّر وجه النظر في المسائل الروحانيّة. وحييت مسألة الوحي بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة. وأعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبي المقرّر، لاعلى أُسلوب التقليد الديني، ولا من طريق الضرب في مهامّ الخيالات، فتأدّوا إلى نتائج، وإن كانت غير ماقرّره علماء الدين الإسلامي، إلّا أنّها خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد أُحيل إلى عالم الأُمور الخرافيّة.[١]

جانب روحانيّة الإنسان

قلنا: إنّ موجةً إلحاديّة لم تطل غير قرنين، كادت تطبق العالم المتمدّن، لولا أن قام في وجهها واقع الأمر، الذي تجلّى أخيراً على محيي العلم، فانقاد له العلماء المحقّقون أجمع، ومن ثمّ اندحرت تلك الفكرة الإلحاديّة، وتراجعت القهقرى تراجعاً مع الأبد.

غير أنّنا نجد أنفسنا في ضرورة النظر إلى أدلّة أقامها فلاسفة قدماء ومحدّثون. بشأن

---

١ ـ دائرة معارف القرن العشرين. ج ١٠، ص ٧١٣.

إثبات النفس، أي وجود الإنسان الباطن، ليكون هذا الإنسان مزدوج الشخصيّة: روحاً وجسداً، وليكون هذا الأخير آلة لاإراديّة يسيّرها وجود الإنسان الباطني، الذي هو وجود الإنسان الحقيقي الأصيل. وهذه النظرة المزدوجة إلى الإنسان كانت ولاتزال هي الفكرة السائدة عن الحياة، في الأوساط المتديّنة في العالم القديم، وتواصلت في سيرها حتى حييت معالمها من جديد، وكانت الأديان السماويّة كلّها تؤيّدها أيضاً وتجعلها الأساس لجميع تعاليمها وبرامجها في التشريع والعبادات.

وإليك بعض البراهين الفلسفيّة أوّلا ممّا أقامها فلاسفة إسلاميّون. وهي كثيرة ومتنوّعة، اخترنا لك مايلي، ثمّ نعقّبها بأدلّة حديثة جاء بها العلم التجريبي الحديث.

براهين فلسفية لإثبات النفس

جاءت الفلسفة العقليّة بأدلّة ضافية، تثبت وجود النفس بصورة واضحة، تكلّم عنها الشيخ أبوعلي ابن‌سينا في كتابيه «الشفاء» و«الإشارات». ثمّ تكلّم عنها غيره من فلاسفة إسلاميّين، كابن رشد، ونصير الدين، والرازي، والنيسابوري، وابن حزم، وصدر المتألّهين، والحكيم السبزواري، وأخيراً سيّدنا الطباطبائي. وغيرهم كثيرون. وإليك منها:

١ ـ الإنسان في كينونة ذاته

لهذا الإنسان وجود باطن، يدعى بالنفس، هو الذي يشكّل كينونته الذاتيّة الثابتة، ويكون وجوده الأصيل الحقيقي، والذي لايتغيّر مهما تغيّر هذا الجسد الظاهر. وهذا ما يجده كلّ إنسان من ذاته أنّه شيء وراء هذا الجسد. وتوضيحاً لهذا الجانب من وجود الإنسان الحقيقيّ نستوضح مايلي:

* إنّنا نجد في كياننا الذاتي شيئاً نعبّرعنه: بـ«أنا»، لايمكننا التعبير عنه بغير هذا اللفظ، كما لانستطيع التعبير بهذا اللفظ عن أي شيء سواه في وجودنا.

حينما نقول: «أنا» نقصد من أنفسنا وجوداً باطناً هو الذي يشكّل كينونتنا الذاتيّة،

لاشيء آخر سواه، فلانعبّر عن أي جارحة من جوارحنا أو أي عضو من أعضائنا الجسدية، بـ«أنا» سواء أكانت أعضاء داخليّة كالقلب والكبد والمخ والمعدة وأمثالها، أو كانت أعضاء خارجيّة كالرأس واليد والرجل والبطن وأمثالها كلّ ذلك لايصحّ التعبير عنه بـ«أنا» بل ولا عن الجسم كلّه.

نعم عندما نريد النفس والذات ـ وهو وجود باطن حقيقيّ أصيل ـ نقول: أنا.

فالإنسان في كينونة ذاته وجود آخر غير وجوده الجسدي الظاهر.

* الإنسان يسند جميع مافي وجوده الجسدي ـ سواءً كانت خارجيّة أم داخليّة ـ إلى نفسه، فيقول: رأسي، يدي، رجلي، قلبي، مخّي، بدني، وهذا «المضاف إليه» في جميع ذلك، شيء وراء تلك «المضافات» كلّها. الأمر الذي يدلّ على تباين مابين الجسد وذلك الوجود الحقيقي الأصيل المنسوب إليه تلكم الأشياء.

وأمّا إضافة النفس أو الروح إلى الذات: «نفسي»، «روحي» فهي من إضافة الشيء إلى نفسه كما في «ذاتي» بشهادة الوجدان بعدم فهم تغاير مابين المضاف والمضاف إليه في ذلك، على عكسها في إضافة أعضاء الجسد إلى النفس.

* الإنسان ينسب جميع أفعاله وتصرّفاته وهكذا جميع حالاته وصفاته إلى نفسه، يقول: تكلّمت، تعلّمت، أعطيت، أخذت، سافرت، ذهبت، بعت، اشتريت ...

لايريد بذلك إسنادها إلى شيء من جوارحه، لايريد أنّ لسانه هو الذي تكلّم. أوقلبه هو الذي تعلّم. أويده هي التي أعطت أو أخذت. أورجله هي التي مشت أو ذهبت وإنّما يريد أنّه بذاته فعل هذه الأُمور، وكانت جوارحه آلات توصّل بها إلى مآربه وحاجاته.

فكلّ أحد يجد من نفسه وجوداً ـ وراء هذه الأعضاء الجسديّة ـ هوالذي يفعل ويتصرّف وينسب إليه جميع حالاته وتقلّباته.

* إنّا نوجّه الخطاب أو التكليف، وكلّ مايستتبعه من مدح أو ذمّ أو تحسين أو تقبيح، وكذا كلّ أمر أو نهي أو بعث أو زجر، إلى الإنسان، لانريد به جسده ولاشيئاً من أعضائه وجوارحه. وإنّما نريد بذلك ذاته ونفسه، وهوالمقصود بقولنا: «أنت» لاشيء آخر.

وتتساءل: من المخاطب بقولنا: أنت؟ ومَن المأمور أوالمنهي عندما نأمر أو نزجر؟ ومَن الموجّه إليه المدح أو القدح؟

لاشكّ أنّه وجود الإنسان الحقيقيّ الثابت وهو ذاته ونفسه، ليس إلّا.

* إنّ في وجود هذا الإنسان شيئاً لايغفل عنه أبداً، وما عداه فإنّه قد يغفل عنه أحياناً. الإنسان قد يغفل عن جسده وعن كلّ مايتعلّق بجسده من أعضاء وجوارح داخليّة وخارجيّة، لكنّه لايستطيع الغفلة عن ذاته هو. فذاته متمثّلة لديه في جميع حالاته وتقلّباته. فوجود الإنسان الحقيقيّ هو ذاته ـ الذي لايغفل عنه أبداً ـ لاجسده ولاأعضاؤه ـ ممّا يغفل عنه احياناً، لأنّ الذات ـ وهو حقيقة الشيء ـ هوالذي لايغفل عنه وأمّا الذي يغفل عنه فيبدو أنّه ليس من الذات الأصيل.[1]

الأمر الذي يدلّ على أنّ وجود الإنسان الحقيقيّ شيء وراء الجسد، وهو ذاته ونفسه، لاشيء في وجود الإنسان يمكن التعبير عنه بالذات أو النفس سوى الروح، فهو وجود الإنسان الحقيقيّ الأصيل.

٢ ـ الإنسان في صفاته وغرائزه

الإنسان يملك صفات وغرائز هي ثابتة له أو تبقى له طول الحياة، كما أنّ له صفات وحالات تتغيّر حسب تغيّر الأوضاع والأحوال. وأنّ صفاته الثابتة الغريزيّة صفات قائمة بنفسه ومن ثمّ فهي باقية مدى الحياة. وأمّا صفاته المتبدّلة ـ وتسمّى بعوارض ـ فهي قائمة بجسمه، ومن ثمّ فهي متغيّرة، الأمر الذي يدلّ على جانبين من وجود هذا الإنسان، وتوضيحاً لهذا الفرق بين نوعين من صفاته نشرح النقاط التالية:

* لاشك أنّ هذا الجسد، بما فيه من أجهزة وغدد وتلافيف وأعصاب وعروق،

---

١ ـ ومن هنا كان قولهم المعروف: «غير المغفول عنه غير المغفول عنه». لتكون الغير الأُولىٰ أداة معدولة، لأنّها صارت جزء الموضوع. والغير الثانية أداة سلب محصّلة، لأنّها لسلب النسبة حينئذٍ. أي الذي لايغفل عنه أبداً يختلف عن الذي يغفل عنه أحياناً.

وحتى العظام والغضاريف، في تغيّر وتبدّل دائب ـ ظاهرة الإحراق والتعويض ـ وقد قيل: إنَّ جسم الإنسان يتبدّل كليّاً في كلّ سبع سنوات.

وهذا التغيّر المستمرّ في جسم الإنسان يستدعي ـ طبعاً ـ تبدّلا في صفات وحالات قائمة بهذا الجسم. أمثال الصحة والمرض والسمن والهزال والقوّة والضعف والطفولة والشباب والكهولة والهرم.

لكن الإنسان يملك إلى جانب هذه الصفات و الأحوال المتغيّرة، صفات و غرائز ثابتة لايعرضها أيّ تغيّر أو تبدّل رغم تبدّل الجسم وتغيّره، وهي صفات الحبّ والبغض والرغبة والرهبة، وملكات الكرم والبخل، والشجاعة والجبن، والسماحة والحسد. وماشاكلها من صفات ذاتيّة لاترتبط مع الجسم أيّ ارتباط.

إذن فما هو المحلّ القائم به هذه الصفات الراسخة؟

لاشيء يصلح محلّا لها سوى النفس «الروح»!

وهنا اعتراض معروف نتعرّض له في الفصل القادم.[١]

* الإنسان لايزال ينمو وتستحكم قواه الجسديّة إلى حدّ معيّن، ثمّ يقف في مستوىً واحدٍ، ومن بعده يأخذ في الهبوط والانتكاس تدريجيّاً، فهو إلى العقد الثالث من عمره ـ تقريباً ـ آخذ في النموّ الجسدي، وإلى العقد الخامس هو على مستوىً واحدٍ وبعده يأخذ في ضعف تدريجي. حتى إذا طعن في السن يتسرّع هبوطه ضعفاً فوق ضعف.

«اللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَديرُ».[٢]

هذه طبيعة الإنسان الجسديّة. وأمّا حياته العقليّة فلاتتساوق مع ظاهرة الجسم في سرعة التبدّل والتغيّر، فهو لايزال ينمو في قواه العقليّة وتزداد حيويّة ونشاطاً عبر العقود الخمسة من عمره، فبينما الجسم آخذ في الهبوط التدريجي منذ العقد الرابع، وإذا بالجانب العقلي من الإنسان بعد، مستمرّ في طريقه إلى الكمال، الأمر الذي يدلنا على أنّ في وجود

---

١ ـ في ذيل الدليل الثاني من الأدلّة الحديثة الآتية.
٢ ـ الروم ٣٠: ٥٤.

الإنسان جانبين، هو من أحدهما آخذ في الهبوط ومن الآخر آخذ في الصعود. ذاك سائر في الاكتمال، وهذا راجع في طريقه إلى الانتكاس.

* قد يحصل نقص في عضو أو أعضاء من جسد الإنسان، فيصبح الجسم ناقصاً لامحالة، لكن هذا النقص الجسدي لا يؤثّر نقصاً في ذات الإنسان، فهو هو بعد، على كماله الإنساني الأوّل، ليس الإنسان الذي فقد رجله أو يده أو عضواً آخر من جسده خارجيّاً كان أم داخليّاً، إنساناً ناقصاً في إنسانيّته، وإن كان ناقصاً في هيكله الجسدي. ومن هنا نعرف أنّ في وجود الإنسان شيئين: روحاً وجسداً، والنقص في أحدهما لا يؤثّر نقصاً في الآخر.

وأمّا القولة المشهورة: العقل السليم في البدن السليم، فتعني: أنّ الآلة كلّما كانت أسلم كان العمل لها أتقن، نظراً لأنّ الروح يستخدم في فعالياته الحاضرة، آلات البدن مادام قيد هذا الجسد، فكلّما كان البدن أكمل وأنشط كان العمل به أيسر وأتمّ.

٣ ـ الإنسان وظاهرة الإدراك

الإنسان في داخل وجوده ذو طاقة جبّارة، تختلف تماماً عن قواه الجسديّة المحدودة. إنّه في جانب عقليّته يذهب إلى أبعاد شاسعة لانهاية لها، ويتحلّق في أجواء لاأمد لها، كما وينطلق إلى ماوراء المادّة وإلى آفاق واسعة، انطلاقة لاوقفة لها عند حدّ.

إنّه يدرك، وظاهرة الإدراك ذاته ظاهرة غير مادّية، إذ لا يوجد فيها أيّ خاصيّة من خواصّ المادّة إطلاقاً، إنّها لاتقبل انقساماً إلى أبعاد ثلاثة. ولاتحمل ثقلاً ولاهي محدود بالجهات.

إنّه يدرك، وقسم من مدركاته تفوق حدود المادّة في جميع أبعادها ومميّزاتها بصورة مطلقة: إنّه يدرك معاني كليّة ليست تتحقّق خارجياً ألبتة. إنّه يفهم ملازمات عقليّة، والملازمة ذاتها لاوجود لها سوى طرفيها اللازم والملزوم. إنّه يعلم بأُمور غائبة عن الحسّ. ويفكّر في شؤون ماوراء الإحساس.

وبكلمة جامعة: الإنسان يعرف، والمعرفة في كيان الإنسان ظاهرة غير ماديّة، في حين أنّ اللاماديّ لايقوم بماديّ، فأين محلّها من وجود الإنسان؟

ونتيجة على ذلك نعترف ـ بالضرورة من بديهة العقل ـ أنّ وراء وجود هذا الإنسان الجسدي الظاهر، وجوداً آخر لاماديّ، هو «النفس» الذي تقوم به ظاهرة الإدراك، ومجال النفس أوسع من المادّة بنسبة فائقة.

وتوضيحاً لهذا الجانب النفسي من ظاهرة الإدراك نقول:

قد تنعكس في ذهنية الإنسان ـ عندما يواجه منظراً طبيعياً ـ صورة منطبقة مع الواقع تمام الانطباق في جميع أبعادها وسماتها، من حركة ولون وزهور وأشجار، وجبال وأنهار، وأبعاد وأغوار. وتتجلّى هذه الصورة بنفس الأبعاد والسمات كلّما تذكّرها، فيجدها حاضرة نفسه على مقاييسها الأُولى... تلك ظاهرة التذكّر، فياترى أين محلّها الذي تقوم به؟

وثانية نقول: الإنسان يجد صورة المنظر كلّما تذكّرها بنفس الأبعاد والمقاييس والحركات والألوان، كأنّه يشاهدها الآن، صورة طبق الواقع تماماً، إنّ هذه الصفحة التي تقع عليها هذه الصورة، وتسمّى بصفحة الذهن صفحة ذات أبعاد توازي نفس أبعاد المنظر، حسبما يجدها الإنسان حاضرة نفسه الآن. أين تقع هذه الصفحة المتّسعة من وجود لإنسان؟

إنّ جزيئات المخ، تنطبع عليها صور المحسوسات، لكنّها في غاية الصغر. لاتتناسب والأبعاد التي يجدها الإنسان عند التذكّر.

إنّنا لاننكر وجود جزيئات مخيّة تحتفظ في نفسها صور المشاهدات، لكن ذلك وحده ليس إدراكاً ولاتذكّراً لأنّ هذه الصّور موجودة، وهي مستمرّة في وجودها حتى مع لغفلة، وتتجلّى مع التذكّر وعند التفات النفس. وهو إدراك متجدّد للصورة بعد أن كان دراكاً لذات الصورة.

لعلّك تقول، إنّ تلك الصّور المنطبعة على جزيئات المخّ قد تبدو للنفس وقد تخفى

وبهذا تعلّل ظاهرتي «التذكّر» و«الغفلة»!

لكنّا نتساءل: إذا كانت هذه الصّور تبدو وتخفى، فتجاه أي شيء تبدو، وعن أي شيء تخفى؟ وهذه المقابلة بين أي شيء وشيء؟ وبعبارة أُخرى إنّ هذه الصور تتجلّى. لكنّها لمن تتجلّى؟ ومَن المواجه له؟ لاشك أنّ المواجهة أمر قائم بجانبين، فإذا كانت الصّور المنطبعة تشكّل جانباً من هذه المواجهة، فأين الجانب الآخر المواجه له؟ نعم إنَّ الصّور المنطبعة على جزيئات المخّ تتجلّى أمام النفس، فالنفس شيء، وهذه الجزيئات شيء آخر. فالنفس وهو وجود الإنسان الباطن هوالذي يشكّل الجانب الآخر من هذه المواجهة النفسيّة. والنفس هي التي تدرك تلكم الصّور متى تذكّرتها، وهو إدراك متجدّد وإن شئت فسمّه التذكّر.

إنَّ جزيئات المخّ أفلام تنعكس صورها على صفحة النفس الواسعة عند التذكّر، وعندما تتّجه النفس إلى ماخزنتها في آلة الإدراك. وبذلك تتحقّق تلك المقابلة والمواجهة القائمة بطرفين.

فالصحيح: إنّ ظاهرة الإدراك والتذكّر، ظاهرة نفسيّة، تقوم بنفس الإنسان، وهو وجود الباطن «الروح» ومن ثمّ لاتوجد فيها خصائص المادّة إطلاقاً، فلا محدوديّة ولاتزاحم أبداً.

وأيضاً فإن الإدراك حكم للنفس: هذا ذاك أو ذاك هذا. و هذا يدلّنا على أمرين:

الأوّل: إنّ وراء هذه الصّور المنتقشة على صفحة الضمير، وجوداً آخر هوالذي يحكم عليها بأنّ هذا ذاك أو ذاك هذا، وليس سوى النفس التي تحكم بذلك.

الأمر الثاني: إنّ الحكم ذاته بما أنّه غير مادّي ـ لعدم وجود خواصّ المادّة فيه إطلاقاً ـ فإنّ الحاكم بذلك ـ وهو النفس ـ أيضاً غير مادّي، بالمعنى المعروف للمادّة. وذلك اقتضاء للسنخيّة بين الأثر ـ وهو الحكم ـ والمؤثّر ـ وهو الحاكم.

كما أنّ الإدراك يتعلّق بأُمور كلّيّة هي ثابتة في صقع النفس لاتتغيّر ولاتتجدّد، الأمر الذي يتنافى وظاهرة التغيّر والتجدّد المستمرّين في جميع جزيئات الجسم بصورة عامّة.

وأخيراً فإنّ ظاهرة التذكّر ليست سوى إعادة لإدراك أمر سابق، كان موجوداً وهو مستمرّ، وليس إدراكاً لشيء جديد، وإن كان نفس الإدراك جديداً.

إنّنا عندما نتذكّر شيئاً نجده عين ماوجدناه سابقاً، ومحفوظاً في خزانة الذهن، من غير ما تفاوت أو تغيير، فلو كان قائماً بغير النفس، أي بأجزاء هذا الجسم العنصري، لكان هذا المدرك ـ بالفتح ـ ثانياً غير المدرك أوّلاً، إذ لاشيء في الجسم إلّا وهو آخذ في التبدّل والتغيّر لفترة محدودة، ولاسيّما إذا كان التذكّر بعد أمد طويل.

فإمّا أن نخطّئ ذاكرتنا ـ التي حكمت بالعينيّة ـ أو نسلّم بلاماديّة ظاهرة الإدراك والتذكّر، الأمر الذي يجعل الأخير هوالصحيح، حيث كانت بداهة الوجدان هي المحكّمة في هذا الرفض أو القبول.

أدلّة حديثة على وجود الروح

أمّا الفلسفة الحديثة فأخذت من التعمّق في علم الفزيولوجيا «علم وظائف الأعضاء»، براهين جلية على صحّة وجود النفس وتمييزها عن الدماغ ووظيفته:

أوّلاً: إنّ الأعصاب المنتشرة على سطح الجسم لاتؤثّر فيها العوامل الخارجيّة على حدّ سواء، بل يقتضي لها مؤثّرات معيّنة لاهتزاز الألياف الدقيقة المؤلّفة منها. مثلاً انّ التأثيرات النظريّة لافعل لها في عصب السمع و بالعكس. فإذا اتّخذنا مثلاً حاسة البصر موضوعاً لبحثنا نرى أنّ الحركة التموّجيّة في الأثير، بتأثيرها في شبكة العين، تحدث اهتزازاً في العصب البصري، وهذا الاهتزاز يمتدّ إلى الطبقة البصريّة المستقرّة في وسط الدماغ ومن هناك يندفع إلى مركز الحواس، حيث ينتشر في القلالي الدقيقة، ويوقظ الخلايا العصبيّة المتعلّقة بالتأثيرات البصرية. وعليه فكلّ نوع من التأثيرات الحسيّة تتفرّق ثمّ تتجمّع في مكان مخصوص من الدماغ وقد أثبت التشريح وجود أماكن معيّنة في الدماغ، ونواح محدودة يتجمّع فيها ويتكاثف ويتحوّل ماتنقله إليها الحواس من التأثيرات الخارجيّة. وقد قام علماء الفزيولوجيا ببعض امتحانات على الحيوانات الحيّة،

أظهروا بها أنّهم بنزعهم عن هذه الحيوانات قطعاً أصليّة من المادّة المخيّة قد افقدوها قوّة إدراك التأثيرات النظريّة أَوالسمعيّة. بل أثبت العلّامة «شيف» بالامتحان، أنّ الحرارة ترتفع في جزء من أجزاء دماغ الكلب، نسبة لنوع التأثيرات الواصلة إليه من إحدى الحواس.

وإذا سألنا المادّيين: كيف تتحوّل هذه الحركات الاهتزازيّة، بعد وصولها إلى مراكزها النسبيّة من الدماغ، إلى أفكار فهميّة؟ فيجيبونا: أنّ هذه الاهتزازات، حينما تبلغ القلالي الحسّية من الدماغ يحدث فيها من ردّ الفعل ما يحدث في قلالي النخاع الشوكي!

لكن غيرخاف على أحد مايتمّ في حادث ردّ الفعل هذا، وهو: أنّ محركات الأعصاب الحسّية تنقل إلى القلالي الدقيقة من النخاع الشوكي تهيّجاً ينعكس إلى القلالي الغليظة، فتهتزّ له الأعصاب المحرّكة المناسبة لها، وعلى هذه الصورة يرتدّ الاهتزاز إلى نقطة مصدره تحت هيئة تأثير محرّك. هذا شرح ما يحدث في ضفدعة قطع رأسها، ومع هذا فتتشنّج رجلها لدى مسيسها بحامض مهيّج.

والأمر نفسه يحدث في مؤثّرات القلالي الحسّية من الدماغ، أي أنّ القلية القشريّة عندما يبلغها الاهتزاز الخارجي تنتصب لدرجة ما وتتنبّه حاسّيتها الذاتيّه، و تفرغ القوّة الكامنة فيها، ثمّ تمتدّ الحركة إلى ما جاورها من القلالي وتوقظ القوّة المضمورة فيها حتّى تبلغ القلالي الغليظة وهذه تنقلها إلى المادّة الرّماديّة ذات الأخاديد، من الدماغ، التي تقوّي الاهتزازات، وتدفعها إلى الأعضاء تحت هيئة تأثير، أو بالأحرى: آمر محرّك.

إنّنا نسلّم مع ناكري النفس بكيفيّة مجرى الحسّ هذا، المعبّر عنه بالاهتزاز العصبي، وبلوغه إلى الدماغ ثمّ ارتداده من هناك تحت هيئة آمر محرّك، ولكن فات غرماءنا حادث خطير جرى مابين البلوغ والارتداد وهو «حادث الإدراك» أي دراية الشخصيّة الإنسانية بما حدث لها من الأُمور الخارجيّة، لأنّ تلك الاهتزازات والتهيّجات العصبيّة ماهي إلّا حركات مادّيّة تولّد حركات أُخرى، ولكنّها لاتحدث إدراكاً ومانتيجتها سوى أنّ تنبّه القوّة العاقلة لإدراك مصدر هذا التنبيه، وعلّته وأثره. وبدون ذلك لايكون للاهتزاز أو الحركة الخارجيّة أدنى مفعول في قوّة الفهم.

إنَّ القلية العصبية المركّبة من كميّات، متناسبة من الكوليسترين والماء والفسفور وحامض الأُوميك... الخ ليست بذاتها قوّة مدركة. والحركة الاهتزازية هي بذاتها حركة ماديّة محضة، فكيف يولد اهتزاز هذه القلية العصبيّة وانتصابها إدراكاً؟

هذا ماعجز الماديون عن تبيانه، أمّا الفلاسفة الروحيّون فيعلموننا بوجود شخصيّة عاقلة فينا، تدعى «النفس» تنتبه بهذا الاهتزاز، إلى ما طرأ من الحوادث الخارجيّة وعندما يتمّ انتباهها هذا يحدثُ الإدراك!

ويؤيّد ذلك بأجلى بيان، حادث «الذهول».

مثلاً عندما نكون مستغرقين داخل حجرتنا في عمل من الأعمال، فربّما نغفل عن سماع تكتكة الساعة، بل حتى عن طرق ناقوسها أيضاً، ومع هذا فإنّ اهتزازات الصوت أثّرت في عصب سمعنا وبلغت حتى الدماغ من دون أن ننتبه لها. وما ذاك إلّا لكون نفسنا مشتغلة بأفكار أُخرى لم تنتبه، ولاأثّرت فيها اهتزازات القلالي الدماغية فلم يحصل الإدراك السمعي.

وبالاختصار نجد أنّ المادّة هي بذاتها عديمة الاختيار، لاتولّد شيئاً من تلقاء نفسها، والمادّة الدماغيّة هي آلة لتبيان إحساسات النفس العاقلة، وأفكارها، فلاتعقل هي لما يصدر بواسطتها من التعبيرات الفكريّة، كآلة الساعة مثلاً لاتدرك حركة الأوقات التي تشير إليها، كما لاتدرك قراطيس الكتاب الأفكار المسطّرة عليها. «ومن زعم أنّ الدماغ يدرك الفكر، فهو كمن يزعم أنّ الساعة تدرك حركة الوقت. أو القرطاس يدرك معاني الكتابة!».

ثانياً: قرّر علماء الفزيولوجيا ـ إجمالاً ـ أنّ كلّ حركة تصدر من الإنسان أو الحيوان، يصحبها احتراق جزء من المادّة العضليّة. وكلّ فعل من الإرادة أو الحسّ يتأتّى عنه فناء في الأعصاب. وكلّ عمل فكريّ ينتج عنه إتلاف في الدماغ.

وبكلمة جامعة: إنّه لايمكن لذرّة واحدة من المادّة أن تصلح مرّتين للحياة، فعندما يبدو من الحيوان أو الإنسان عمل عضليّ أو عقليّ، فالجزء من المادّة الحيّة التي صرفت

لصدور هذا العمل تتلاشى تماماً. وإذا تكرّر العمل فمادّة جديدة تصلح لصدوره ثـانية وثالثة وهلمّ جرّاً. وهذا الإتلاف هو بمناسبة قوّة الظهورات الحيويّة، فحيثما اشتدّ ظهور الحياة ازداد تلف المادّة الحيّة.

نعم هذا التلف الدائم يصحبه تعويض مستمرّ من المادّة المستجدّة الداخلة في الدم بواسطة الهواء والمواد الغذائيّة.

وهذان العاملان ـ أي عامل الإتلاف وعامل التجديد ـ مرتبطان ببعضهما في الكائن الحي ارتباطاً لاينفصم. وبالإجمال يمكن القول: إنّ الإتلاف شرط ضروريّ للتعويض. وهذا العمل الثاني ـ أي العمل التجديدي وهو عمل باطنيّ سريّ ـ لاظهور له في الخارج، في حين أنّ عوامل الإتلاف تبدو ظاهرة للعيان، فندعوها «ظواهر الحياة» ومـاهي إلّا بوادر الموت، لأنّ ظهورها لا يتمّ إلّا بإتلاف جزء من أنسجتنا العضويّة.

ينتج ممّا تقدّم: أنّ في وسط تنازع هذين العاملين، يتجدّد جسمنا مراراً عديدة في مدار الحياة. ويتمّ هذا التجديد على ما ارتأى الفزيولوجي «موليشوت» في كلّ ثلاثين يوماً. أمّا «فلورنس» فيزعم أنّ ذلك لايتمّ إلّا في سبع سـنين. وقـد قـام هـذا العـلّامة بامتحانات على الأرانب أثبت فيها تجدّد عظامها ذرّة فذّرة في مدّة محدودة.

وبعد فإنّ ناكري النفس يزعمون أنّ قوّة الذاكرة عبارة عـن اهـتزازات فسـفوريّة تتخزّن في القلية العصبيّة من الدماغ بعد وصول التأثيرات الخارجيّة إليها!

فإن صحّ ذلك ـ وإذ تقرّر أنّ كلّ مافينا من العظام والأنسجة العضليّة والقلالي العصبيّة تتلاشى وتتجدّد في مدّة معلومة لاتتجاوز السبع سنين ـ اقتضى لقوّة الذاكرة أن تتناقص فينا بالتدريج، إلى أن تتلاشى في كلّ سبع سنوات، وأن نضطرّ في كلّ سـبع سـنين إلى تجديد كلّ ما تعلمناه سابقاً، والحال أنّنا نشعر بأنّ الأمر ليس كـذلك وأنّ تـيار المـادّة المتجدّدة فينا باتصال، لم تحدث أدنى تغيير في ذاكرتنا. وأنّ اُموراً حدثت لنا أيام الصبا تخطر على بالنا زمن الهرم.

وبالإجمال: كلّ مافينا يؤيّد ثبات شخصيتنا، وعدم تغيّرها، رغماً عن استبدال كلّ

ذرّات كياننا المادّي.

وهذا دليل قاطع على وجود قوّة روحيّة فينا تدعى «النفس» يقيها جوهرها البسيط من التحوّلات والتقلّبات على المادّة الهيوليّة، وفيها ينطبع ذكر الحوادث الماضية والعلوم التي اكتسبناها بإجهاد العقل والفكر.

وقد يعترض البعض بأنّ الخلايا المخيّة في تنقّلات ذرّاتها تدريجياً، لعلّها تنقل ما عليها من صور ونقوش ذاكريّة،إلى ذرّات مستجدّة، كما تنتقل قسمات الوجه وألوان منطبعة على ظاهر الجسد، وحتى الخال، إلى ذرّات جديدة من البشرة، ومن ثمّ يبقى شكل الجسد ولون الخال طول الحياة، وبذلك يعلّل ـ أيضاً ـ ظاهرة بقاء الذاكرة المنتقلة من ذرّات فانية إلى ذرّات مستجدّة في المخّ.

لكن فات هذا المعترض: أنّ المنتقل من الصفات الباقية، هي الطبيعيّة الناتجة من داخل الذات، لاالعارضة التي طرأت من أحوال المحيط الخارج. مثلاً: لون الخال إنّما يبقى، أي ينتقل من ذرّات فانية إلى ذرّات مستجدّة، لأنّه طبيعيّ ذاتيّ، فلا بدّ أنّ نفس الذرّات التي كانت تشكّل ظاهرة الخال في حالة سابقة، أن تتبدّل وتتجدّد إلى ذرّات أُخرى تشكّل نفس الظاهرة أيضاً. أمّا الصفات العارضة كاللون العارض من لفحة الشمس، فإنّها تخصّ ذرّات الجسم المواجهة للعوامل الأُولى، فإذا فنيت تلك الذرّات المواجهة تدريجياً، فإنّ اللون العارض أيضاً يذهب تدريجياً، مالم تتجدّد تلك العوامل الأُولى.

وعليه فإنّ التي تودعها ذرّات مخيّة فانية إلى ذرّات مستجدّة، هي صفات ذاتيّة كقابلية الانطباع والانتقاش والتلقّي، أمّا نفس الصّور والنقوش، فبما أنّها صفات طارئة عليها، وليست ذاتيّة ناتجة من داخل الطبيعة، فلابدّ أن تذهب تدريجياً مع فناء ذرّات سابقة. ولاتعود باقية إلّا مع إعادة العوامل الأُولى. اللّهم إلّا أن نقول بأنّ النفس هي التي تكرّر بقاء الصّور على الذرّات المستجدّة، وهذا يلتئم مع مطلوبنا في هذا البحث.

ثالثاً: منذ قرن ونيّف وجدت طريقة بحثيّة تؤيّد وجود النفس بنوع حسّي، وهي

طريقة «المغنطيسيّة الحيوانيّة» وفيها يشاهد انفصال الروح عن الجسد وقيامها بأعمال مدهشة تنبي عن صحة وجودها الذاتي وصدور أعمال فكريّة بمعزل عن الحواس.

إنّ المغنطيسيّة الحيوانيّة ـ على ما حدّد منشئها الحديث «انطونيوس مزمر» ـ هي: عبارة عن سيّال رقيق جداً ينبعث من جسم الفاعل في المغنطيسيّة إلى الشخص المنفعل، بواسطة إشارات وحركات، بل نظرة حادقة تصدر من الأوّل إلى الثاني.

إنّ هذه الظاهرة الروحيّة قديمة جداً. لكنّها كانت أو كادت تعدّ متأخّراً من الخرافات البائدة، حتى جاء العلماء الروحيّون «فيسان» و«كرنيليوس» و«باراسلوس» ممّن عاشوا في القرن الرابع عشر والخامس عشر، فأحيوا هذا العلم الروحي من جديد ووضعوا له أُصولا وقواعد، نشرها فيما بعد «انطونيوس مزمر».[1] ومن ثمّ شاع وذاع هذا العلم واعترف به العلماء جميعاً، فهو اليوم من الحقائق الراهنة التي تنمو وتزداد صيتاً وأعواناً. الأمر الذي لا يبقى معه شكّ في أنّ الإنسان في كينونته الباطنة وجوداً آخر، ذا طاقة جبّارة، يفعل بها أفعالاً يعجز عنها هذا البدن المادّي. وتضعف عنها قواه الجسديّة.

وقد جمع من هذه الظواهر، وأسماء علماء قاموا بتحقيقها وتمحيصها، الأُستاذ رؤوف عبيد في كتابه «الإنسان روح لا جسد» ثمّ فصّلها في «مفصّل الإنسان روح لا جسد» فراجع.

وظاهرة روحيّة أُخرى: «تحضير الأرواح» جاءت أيضاً ـ في العصر الأخير ـ لتؤيّد وجود الروح وراء هذه البدن العنصري الماديّ، ليكون الإنسان وراء وجوده الظاهر المحسوس، وجوداً آخر باطنا، ينفصل عنه أحياناً ـ في هذه الحياة ـ ونهائياً بعد الممات.

وقد ظهرت آية ذلك لأوّل مرّة في أمريكا سنة ١٨٤٦م، وسرت منها إلى أُروبا كلّها، و أُثبتت بدليل علميّ تجريبيّ وجود عالم روحاني ـ وراء هذا العالم الماديّ ـ آهل بالعقول الكبيرة والأفكار الثاقبة، ومن ثمّ تغيّر وجه النظر في المسائل الروحانيّة، وحييت مسألة بقاء الروح بعد مفارقة الجسد من جديد بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة. وأعاد

---

١ ـ المذهب الروحاني، ص ٤٣.

العلماء البحث فيها على قواعد العلم التجريبيّ الحديث، ووصلوا إلى نتائج هامّة، كانت خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد أُحيل إلى عالم الخرافات.

تألّفت في لندرة من سنة ١٨٨٢م جمعيّة دعيت باسم «جمعية المباحث الروحيّة» تحت رئاسة الأُستاذ جويك المدرّس بجامعة كمبردج، وهو من أكبر العقول في إنجلترا. وعضويّة الأُستاذ السير اوليفر لودج الملقب بدارون علم الطبيعة، والسير وليم كروكس أكبر كيماوي الإنجليز، والأُستاذين فردريك ميرس، وهودسون، المدرّسين بجامعة كمبردج والأُستاذ وليم جيمس المدرس بجامعة هارفارد بأمريكا، والأُستاذ هيزلوب المدرّس بجامعة كولومبيا، والعلماء الكبار: غارني وباريت وبودمور، والعلّامة الكبير شارل ريشية المدرّس بجامعة الطب الباريزيّة والعضو بالمجمع العلميّ الفرنسيّ، والرياضيّ الكبير كاميل فلامريون الفلكيّ الفرنسيّ المشهور، وعدد كبير غيرهم من كبار علماء الأرض.

وكان الغرض من هذه الجمعيّة: البت في المسألة الروحيّة وتحقيق حوادثها بأُسلوب النقد الصارم، والحكم بقبولها نهائياً في العلم إن كانت حقيقة. أو تقرير إبعادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأُمور الوهميّة.

فمضى على هذه الجمعيّة حوالي نصف قرن، حقّقت في خلالها أُلوفاً من الحوادث الروحيّة، وعملت من التجارب في النفس وقواها، مالايكاد يدرك، لولا أنّه مدوّن في محاضر تلك الجمعيّة في نحو خمسين مجلّداً ضخماً. فكان من ثمرات جهادها إثبات شخصيّة ثانية للإنسان، أي أنّنا أحياء مدركون في حياتنا الحاضرة، لابكلّ قوى الروح التي فينا، بل بجزء من تلك القوى سمحت لنا بها حواسّنا الخمس القاصرة. ولكن لنا فوق ماتعطيه لنا حواسّنا هذه حياة أرقى من هذه الحياة، لاتظهر بشيء من جلالها إلّا إذا تعطّلت فينا هذه الشخصيّة العاديّة بالنوم العادي أو النوم الصناعي المغناطيسي أو بالموت.

وقد سجّل الأُستاذ «فريد وجدي» شهادات ضافية من علماء كبار بهذا الشأن، في

دائرة معارفه،[١] والأُستاذ «أمين الهلالي» في كتابه: المذهب الروحاني.[٢] والدكتور «رؤوف عبيد» في كتابه: الإنسان روح لاجسد.[٣] والأُستاذ «جيمس آرثر. نندلاي» في كتابه: على حافة العالم الأثيري،[٤] وغيرهم كثيرون، فراجع.

فذلكة البحث

وخلاصة ما سبق من الأبحاث: انّ الإنسان يملك في وجوده جانبين، هو من أحدهما جسمانيّ، ومن الآخر روحانيّ، فلاغرو أن يتّصل ـ أحياناً ـ بعالم وراء المادّة ويكون هذا الاتصال مرتبطا بجانبه الروحي الباطن. وهو اتّصال خفيّ، الأمر الذي يشكّل ظاهرة الوحي.

الوحي: ظاهرة روحيّة، قد توجد في آحاد من الناس، يمتازون بخصائص روحيّة تؤهّلهم للاتصال بالملأ الأعلى، إمّا مكاشفة في باطن النفس أو قرعاً على مسامع، يحسّ به الموحى إليه إحساساً مفاجئاً يأتيه من خارج وجوده، وليس منبعثاً من داخل الضمير، ومن ثمّ لايكون الوحي ظاهرة فكريّة تقوم بها نفوس العباقرة ـ كما يزعمه ناكرو الوحي ـ كلّا، بل إلقاء روحانيّ صادر من محلّ أرفع إلى مهبط صالح أمين.

قال تعالى: «أَكَانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاسَ».[٥]

نعم شيء واحد لانستطيع إدراكه، وإن كنّا نعتبره واقعاً حقّاً، ونؤمن به إيماناً صادقا، وهو: كيف يقع هذا الاتصال الروحيّ؟ هذا شيء يخفى علينا إذا كنّا نحاول إدراكه

---

١ ـ دائرة المعارف: إثبات الروح بالبراهين الحسّية، مادة روح: ج ٤، ص ٣٦٤-٤٠٠؛ والوحي وفلاسفة الغرب، مادّة وحي، ج ١٠، ص ٧١٢-٧٢٠.

٢ ـ الباب الثاني: إثبات وجود النفس بالأدلّة الطبيعيّة، ص ٣٦-٤٤؛ والباب الثالث: إثبات خلود النفس بالحوادث الروحيّة، ص ٦٢-٦٤.

٣ ـ مطوّل الإنسان روح لاجسد، الفصل التاسع، بين العقل والمخ، ج ١، ص ٦٤٩-٦٨١.

٤ ـ الفصل الثالث، المادة والعقل: ص ٤٧-٥١، ترجمة أحمد فهمي.

٥ ـ يونس ١٠: ٢.

بأحساسيسنا المادّية أو نريد التعبير عنه بمقاييسنا اللفظيّة الكلاميّة، إنّها ألفاظ وضعت لمفاهيم لاتعدو الحسّ أو لاتكاد. وكلّ ماباستطاعتنا إنّما هو التعبير عنه على نحو التشبيه والاستعارة أو المجاز والكناية لا أكثر، فهو ممّا يدرك ولا يوصف، فالوحي ظاهرة روحيّة يدركها من يصلح لها. ولا يستطيع غيره أن يصفها وصفاً بالكنه، ماعدا التعبير عنها بالآثار والعوارض هذا فحسب.

الوحي عند فلاسفة الغرب

أشرنا فيما سبق أنّ فلاسفة أُروبا بعد أن عادوا إلى الاعتراف بوجود شخصيّة باطنة للإنسان، تسمّى بالروح، وعلموا أنّها هي التي كوّنت جسمه في الرحم وهي التي تحرّك جميع عضلاته وأعضائه التي ليست تحت إرادته كالكبد و القلب والمعدة وغيرها، فهو إنسان بها لابهذه الشخصيّة العاديّة... عادوا يعترفون أيضاً بالوحي، الوحي الذي يدّعيه الأنبياء ملء كتبهم النازلة المنسوبة إلى السماء.

ولكن فسّروه تفسيراً يختلف عمّا قرّره علماء الدين الإسلامي ـ على ماسبق تعريفه بأنّه إلقاء من خارج الوجود إمّا قذفاً في قلب أو قرعاً في سمع ـ.

قالوا: الوحي عبارة عن إلهامات روحيّة تنبعث من داخل الوجود، أي الروح الواعية هي التي تعطينا تلكم الإلهامات الطيبّة الفجائيّة في ظروف حرجة، وهي التي تنفث في روع الأنبياء مايعتبرونه وحياً من اللّه، وقد تظهر نفس تلك الروح المتقبّعة وراء جسمهم، متجسّدة خارجاً فيحسبونها من ملائكة اللّه هبطت عليهم من السماء، وماهي إلّا تجلّي شخصيّتهم الباطنة، فتعلّمهم مالم يكونوا يعلمونه من قبل، وتهديهم إلى خير الطرق لهداية أنفسهم وترقية أُمّتهم وليس بنزول ملك من السماء ليلقي عليهم كلاماً من عند الله.

هذا مايراه العلم الأُروبي التجريبي الحديث في مسألة الوحي.

ودليلهم على ذلك: أنّ اللّه أجلّ وأعلى من أن يقابله بشر أو يتصل به مخلوق، وأنّ الملائكة مهما قيل في روحانيّتهم وتجرّدهم عن المادّة فلا يعقل أنّهم يقابلون اللّه أو

يستمعون إلى كلامه، لأنّ هذا كلّه يقتضي تحيّزاً في جانبه تعالى، ويستدعي عدم التنزيه المطلق اللائق بشأنه جلّ شأنه. ولأنّ الملائكة مهما ارتقوا فلايكونون أعلى من الروح الإنساني التي هي من روح الله نفسه، فمثلهم ومثلها سواء.

وبهذه النظريّة حاولوا حلّ ما عسى أن يصادفوه في بعض الكتب السماويّة من أنواع المعارف المناقضة للعلم الصحيح طبيعيّاً وإلهيّاً. فهم لا يقولون بأنّ تلك الكتب قد حرّفت عن أصلها الصحيح النازل من عند الله، ولكنّهم يقولون بأنّ الشخصيّة الباطنة لكلّ رسول إنّما تؤتي صاحبها بالمعلومات على قدر درجة تجلّيها وعبقريّتها، وعلى قدر استعداده لقبول آثارها ومن ثمّ قد تختلط معارفها العالية بمعارف باطلة آتية من قبل شخصيّته العاديّة، فيقع في الوحي خلط كثير بين الغثّ والسمين، فترى بجانب الأُصول العالية التي لم يعرفها البشر إلى ذلك الحين، أُصولاً أُخرى عاميّةً اصطلح عليها الناس إلى ذلك الزمان.[1]

وبعد: فإذا ما أخضعتهم الحقيقة العلميّة، على طريقة تجريبيّة قاطعة، بأنّ وجود الإنسان الحقيقيّ هو شخصيّته الثانية القابعة وراء هذا الجسد، وأنّه يبقى خالداً بعد فناء الجسد، فما عساهم امتنعوا من الاعتراف بحقيقة الوحي كما هي عند المسلمين؟! لاشكّ أنّماوصلوا إليه خطوة كبيرة نحو الواقعيّة، لانزال نقدّرها تقديراً علميّاً، لكنّها بلاموجب توقّفت أثناء المسير ودون أن تنتهي إلى الشوط الأخير.

إنّ منار العلم وضوء الحقيقة قد هدياهم إلى الدرب اللائح، وكادوا يلمسون الحقيقة مكشوفة بعيان، فوجدوا وراء هذا العالم عالماً آخراً مليئا بالعقول. ووجدوا من واقع الإنسان شخصيّة أُخرى وراء شخصيّته الظاهرة: فهاتان مقدّمتان أذعنوا لهما،وقد أشرفتا بهم على الاستنتاج الصحيح وصاروا منه قاب قوسين أو أدنى، لكنّهم بلاموجب توقّفوا، وأنكروا حقيقة كانوا على وشك لمسها.

---

١ ـ راجع: دائرة معارف القرن العشرين، ج ١٠، ص ٧١٥، فيما نقله عن العلّامة «ميرس ـ myers» من كتابه «الشخصيّة الإنسانيّة»، ص ٧٧ فما بعد.

فعلى ضوء هاتين المقدّمتين، لامبرّر لعدم فهم حقيقة اتّصال روحيّ خفيّ يتحقّق بين ملأ أعلى وجانب روحانيّة هذا الإنسان. فيتلقّى بروحه إفاضات تأتيه من ملكوت السماء وإشراقات نوريّة تشعّ على نفسه من عالم وراء هذا العالم الماديّ. وليس اتصالاً أو تقارباً مكانياً لكي يستلزم تحيّزاً، في جانبه تعالى. وأظنّهم قاسوا من أُمور ذاك العالم غير الماديّ بمقاييس تخصّ العالم الماديّ. مع العلم أنّ الألفاظ هي التي تكون قاصرة عن أداء الواقع، وأنّ التعبير بنزول الوحي أو الملك تعبير مجازيّ، وليس سوى إشراق وإفاضة قدسيّة ملكوتيّة يجدها النبيّ صلى الله عليه وآله حاضرة نفسه، ملقاة عليه من خارج روحه الكريمة. وليست منبعثة من داخل كيانه هو.

هذا هو حقيقة الوحي الذي نعترف به، من غير أن يقتضي تحيّزاً في ذاته تعالى.

أمّا التعليل الذي يعلّلون به ظاهرة الوحي، فهو في واقعه إنكار للوحي وتكذيب ملتوٍ للأنبياء بصورة عامّة، كماهم فسّروا معجزة إبراء الأكمه والأبرص بظاهرة الهبنوتوزم (المغناطيسيّة الحيوانيّة) فجعلوا من المسيح عليه السلام إنساناً مشعوذاً ـ حاشاه ـ يستغلّ من عقول البسطاء مجالاً متسعاً لترويج دعوته، بأساليب خدّاعة ينسبها إلى الباريء تعالى ...!

ونحن نقدّس ساحة الأنبياء من أيّ مراوغة أو احتيال مسلكيّ، وحاشاهم من ذلك. وماهي إلّا واقعيّة بنوا عليها دعوتهم الإصلاحيّة العامّة، واقعيّة يعترف بها العلم سواء في مراحله القديمة أو الجديدة الحاضرة. إذن لامبرّر لتأويل ماجاء في كتب الأنبياء من ظاهرة الوحي، اتصالاً حقيقياً بمبدأ أعلى.

نعم: إنّ مابقي بأيدي الناس من تراجم كتب منسوبة إلى الأنبياء السالفين، لم تبق سالمة من تطاول أيدي المحرّفين، ومن ثمّ ففيها من الغثّ والسمين الشيء الكثير، ونحن نربأ بعلماء محقّقين أن يجعلوا من موضوع دراستهم لشؤون الأنبياء عليهم السلام تلكم التراجم المحرّفة.

أنحاء الوحي الرسالي

قال تعالى: «وَما كانَ لِبَشرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّه إلّا وَحْياً» أي إلهاماً وقذفاً في روعه، وهو إلقاء في الباطن، يحسّ به الموحى إليه كأنّما كتب في ضميره صفحة لامعة، أو رؤياً في منام «أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ» أي يكلّمه تكليماً يسمع صوته ولا يرى شخصه، كما كلّم موسى عليه السلام بخلق الصوت في الهواء يخرق مسامعه، ويأتيه من كلّ مكان، وكما كلّم نبيناصلى الله عليه وآله ليلة المعراج.

والتكليم من وراء حجاب كناية أو تشبيه بمن يتكلّم محتجباً، أو المراد بالحجاب الحجاب المعنوي، لبعد الفاصلة بين كمال الواجب ونقص الممكن.

«أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً»: ملكاً من الملائكة «فَيُوحِيَ بإذْنِهِ مايَشاءُ» إمّا إلقاء على السمع أو نقراً في القلب «إنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»

«وكَذٰلِكَ» أي على هذه الأنحاء الثلاثة: إلهاماً وتكليماً وإرسال ملك[١] «أوْحَيْنا إلَيْكَ رُوحاً»: هي الشريعة أو القرآن «مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْري ما الْكِتابُ وَلاَ الايمانُ وَلٰكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادنا وَإنَّكَ لَتَهْدي إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ».[٢]

هذه أنحاء الوحي بوجه عامّ وبصورة إجماليّة. أمّا بالنسبة إلى نبيّنا محمدصلى الله عليه وآله فكان يأتيه الوحي تارة في المنام، وهذا ـ أكثرياً ـ كان في بدء نبوّته. وأُخرى وحياً مباشريّاً من جانب الله، بلاتوسيط ملك. وثالثة مع توسيط جبرائيل عليه السلام. غير أنّ الوحي القرآني كان يخصّ الأخيرين إمّا مباشرة أو على يد ملك. وإليك بعض التفصيل:

١ ـ الرؤيا الصادقة

كان أوّل ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة، كانصلى الله عليه وآله لايرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح ـ وهو كناية عن تشعشع نورانيّ كان ينكشف لروحه المقدّسة، تمهيداً لإفاضة روح القدس عليه صلوات اللّه عليه و آله ـ ثمّ حبّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء

---

١ ـ راجع: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٤٦.

٢ ـ الشورى ٤٢: ٥١-٥٢.

يتحنّث فيه،[١] الليالي أُولات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثمّ يرجع إلى خديجة فتزوّده لمثلها،[٢] حتى فجأه الحقّ، وهو في غار حراء: جاءه الملك فقال: «إقرأ...».[٣]

قال علي بن إبراهيم القمّي: «إن النبيّ ﷺ لمّا أتى له سبع وثلاثون سنة، كان يرى في منامه كأنّ آتياً يأتيه، فيقول: يا رسول‌الله. ومضت عليه برهة من الزمن وهو على ذلك يكتمه، وإذا هو في بعض الأيّام يرعى غنما لأبي طالب في شعب الجبال إذ رأى شخصاً يقول له: يا رسول‌الله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرائيل أرسلني اللّه إليك ليتّخذك رسولاً...».[٤]

قال الإمام الباقر عليه السلام: «وأمّا النبيّ فهو الذي يرى في منامه، نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول‌الله ﷺ من أسباب النبوّة قبل الوحي، حتى أتاه جبرائيل عليه السلام من عند الله بالرسالة ...».[٥]

قوله: «قبل الوحي» أي قبل الوحي الرسالي المأمور بتبليغه. لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «النبيّ» قبل أن يكون رسولاً. وهو إنسان أُوحي إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه. فهو يتصل بالملأ الأعلى اتصالاً روحيّاً، وينكشف له الملكوت كما حصل لنبيّنا ﷺ قبيل بعثته المباركة.

قال صدرالدين الشيرازي: «يعني أنّه ﷺ اتصفت ذاته المقدّسة بصفة النبوّة وجاءته الرسالة من عند اللّه، باطناً وسرّاً، قبل أن يتصف بصفة الرسالة أو ينزل عليه جبرائيل معاينا محسوساً بالكلام المنزل المسموع. وإنّما جاءه جبرائيل معاينا حين جمع له من

---

١ ـ التحنّث: التحنّف، وهو الميل إلى الحنيفية، كناية عن التعبّد الذي هو مطهرة للعبد. قال ابن هشام: تقول العرب: التحنّث والتحنّف. فيبدلون الفاء من الثاء، كما في جدث وجدف أي القبر. قال: وحدّثني أبوعبيدة أنّ العرب تقول: فمّ في موضع ثمّ. راجع: السيرة، ج ١، ص ٢٥١.

٢ ـ التزوّد: استصحاب الزاد.

٣ ـ صحيح البخاري، ج ١، ص ٣؛ وصحيح مسلم، ج ١، ص ٩٧؛ وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٨.

٤ ـ بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٨٤، ح ١٤ و ص ١٩٤، ح ٣٠.

٥ ـ الكافي، ج ١، ص ١٧٦، ح ٣؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٦، ح ٢٧.

أسباب النبوّة ماجمع للأنبياء الكاملين، كإبراهيم، من الرؤيا الصادقة والإعلامات المتتالية بحقائق العلوم والإيحاءات بالمغيّبات. والحاصل: أنّ النبيّ ﷺ استكمل باطنه وسرّه قبل أن يتعدّى صفة الباطن منه إلى الظاهر، فتصف القالب بصفة القلب محاكياً له، والأوّل نهاية السفر من الخلق إلى الحقّ، والثاني نهاية السفر من الحقّ بالحقّ إلى الخلق». [١]

نعم ربّما كانت الرؤيا الصادقة سبيل الوحي إليه ﷺ فيلقى إليه العلم أحياناً في المنام. قال أميرالمؤمنين عليه السلام: «رؤيا الأنبياء وحي». [٢] ولكن لم يكن شيء من ذلك قرآنا، إذ لم يعهد نزول قرآن عليه في المنام. نعم وإن كان بعض رواه أسباباً لنزول القرآن، كما في قوله تعالى: «لَقَدْ صَدَقَ اللّه رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شاءَ اللّه...» [٣] فقد رأى النبيّ ﷺ ذلك، عام الحديبيّة [٤] وصدقت عام الفتح. [٥] وكما في قوله: «وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلّا فِتْنَةً لِلنّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ في الْقُرْآنِ» [٦] فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر، عن سعيد بن المسيّب، قال: رأى رسول الله ﷺ بني أُميّة على المنابر، فساءه ذلك، فأوحى اللّه إليه: إنّما هي دنيا أعطوها وهي قوله تعالى: «وَما جَعَلْنا الرُّؤْيَا ...» يعني بلاء للناس. [٧]

هذا... وقد ذكر بعضهم أنّ سورة الكوثر نزلت على رسول الله ﷺ في المنام، لرواية أنس بن مالك، قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثمّ رفع رأسه متبسّماً. فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله ﷺ؟ فقال: أُنزلت عليّ آنفا سورة، فقرأ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمانِ الرَّحيمِ. إنّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ...» الخ. [٨]

قال الرافعي: إنّهم فهموا من ذلك أنّ السورة نزلت في تلك الإغفاءة، لكن الأشبه أنّه

---

١ ـ شرح أُصول الكافي، (صدر المتألهين): كتاب الحجة، ج ٣، ص ٤٥٤.

٢ ـ أمالي الشيخ الطوسي، ص ٢١٥؛ راجع: بحار الأنوار، ج ١١، ص ٦٤، ح ٤.

٣ ـ الفتح ٤٨: ٢٧.

٤ ـ وهي سنة ست من الهجرة.

٥ ـ وهي سنة ثمان.

٦ ـ الإسراء ١٧: ٦٠.

٧ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩١؛ وجامع البيان، ج ١٥، ص ٧٧.

٨ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤٠١.

خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة عليه قبل ذلك، فقرأها عليهم وفسّرها لهم. قال: وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ـ ويقال لها: برحاء الوحي ـ وهي سبتة شبه النعاس كانت تعرضه من ثقل الوحي.

قال جلال الدين: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، و التأويل الأخير أصحّ من الأوّل لأنّ قوله «آنفاً» يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نزلت في تلك الحالة، ولم يكن الإغفاء إغفاء نوم بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي[1] وآنف بمعنى: قبيل هذا الوقت.

أقول: لاشكّ أنّ سورة الكوثر مكّية، وهذا هو المشهور بين المفسّرين شهرة تكاد تبلغ التواتر. قالوا: نزلت بمكة عندما عابه المشركون بأنّهأبتر لاعقب له،أو أنّهمبتور من قومه منبوذ.

وهكذا لمّا مات ابنه عبدالله مشت قريش بعضهم إلى بعض متباشرين، فقالوا: إنّ هذا الصابي قد بتر الليلة.

قال ابن عباس: دخل رسول‌اللهﷺ من باب الصفا وخرج من باب المروة، فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أباعمرو آنفاً؟ قال: ذلك الأبتر ـ يريد به النبيّﷺ ـ فأنزل اللّه ـ جلّ جلاله ـ سورة الكوثر، تسلية لنفس نبيّه الزكيّة.[2]

هذا وأنس عند وفاة النبيّﷺ لم يبلغ العشرين، إذ كان عند مقدمهﷺ المدينة طفلا لم يتجاوز التسع وقيل: ثماني سنوات،[3] فكيف نثق بحديث منه يخالف إطباق الأُمّة على خلافه، وأنّها نزلت بمكة في قصة جازت حدّ التواتر؟!

الأمر الذي يرجّح الوجه الأوّل من اختيار الإمام الرافعي، أو نجعل من رواية أنس حبلها على غاربها!

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٦٥-٦٦.

٢ ـ راجع: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ج ٢، ص ١٤٢؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤٠١.

٣ ـ أُسد الغابة، ج ١، ص ١٢٧.

نعم أخرج مسلم والبيهقي هذه الرواية من وجه آخر، ليس فيه «اُنزلت عليّ». قال أغفى النبيّ صلى الله عليه وآله إغفاءة ثمّ رفع رأسه فقرأ: «بِسمِ اللّه الرَّحْمانِ الرَّحيم. إنّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ ....» الخ ثمّ فسّرها بنهر في الجنّة. قال البيهقي: وهذا اللفظ أولى، حيث لايتنافى وما عليه أهل التفاسير والمغازي من نزول سورة الكوثر بمكة.[١]

٢ ـ نزول جبرائيل

كان الملك الذي ينزل على النبيّ صلى الله عليه وآله بالوحي هو جبرائيل عليه السلام فكان يلقيه على مسامعه الشريفة، فتارة يراه، إمّا في صورته الأصليّة ـ وهذا حصل مرّتين ـ أو في صورة دحية بن خليفة. واُخرى لايراه، وإنّما ينزل بالوحي على قلبه صلى الله عليه وآله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمينُ عَلىٰ قَلْبِكَ».[٢]

قال تعالى: «وَما يَنطِقُ عَنِ الْهَوىٰ. إنْ هُوَ إلّا وَحْيٌ يُوحىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ»: جبرائيل. مثال قدرته تعالى «ذُو مِرَّةٍ» أي ذو عقليّة جبّارة «فَاسْتَوىٰ» استقام على صورته الأصليّة. وهذا هو المرّة الاُولى في بدء الوحي «وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلىٰ»: سدّ ما بين الشرق والغرب «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّىٰ».

فجعل يقترب من النبيّ صلى الله عليه وآله «فَكانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنىٰ. فَأَوْحىٰ» اللّه بواسطة جبرائيل «إلىٰ عَبْدِهِ» محمد صلى الله عليه وآله «ما أَوْحىٰ. ماكَذَبَ الْفُؤادُ»: فؤاد محمد صلى الله عليه وآله «ما رَأىٰ» فكان قلبه صلى الله عليه وآله يصدّق بصره فيما يرى أنّه حقّ «أَفَتُمارُونَهُ عَلىٰ مايَرىٰ. وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً اُخْرىٰ» مرّة ثانية في مرتبة أنزل من الاُولى «عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوىٰ. إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشىٰ. ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغىٰ»[٣] فكان الذي يراه حقيقة واقعة، ليس وهماً ولاخيالاً.

وقال: «إنّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»: جبرائيل «ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذي الْعَرْشِ مَكينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَما صَاحِبُكُمْ»: محمد صلى الله عليه وآله «بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَءاهُ»: رأى جبرائيل في صورته الأصليّة «بِالْأُفُقِ

---

١ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤٠١.
٢ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.
٣ ـ النجم ٥٣: ٣-١٧.

المُبِينِ»[١] إشارة إلى المرّة الأُولى أيضاً.

قال ابن مسعود، إنّ رسول‌اللهﷺ لم ير جبرائيل في صورته إلّا مرّتين، إحداهما أنّه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسدّ الأُفق. وأمّا الثانية فحيث صعد به ليلة المعراج، فذلك قوله «وَهُوَ بِالأُفقِ الأعْلىٰ».[٢]

والصحيح أنّ المرّتين كانت إحداهما في بدء الوحي بحراء. ظهر له جبرائيل في صورته التي خلقه اللّه عليها، مالئاً أُفق السماء من المشرق والمغرب، فتهيّبه النبيّﷺ تهيّباً بالغاً، فنزل عليه جبرائيل في صورة الآدميّين فضمّه إلى صدره، فكان لاينزل عليه بعد ذلك الّا في صورة بشر جميل.

والثانية كانت باستدعائهﷺ الذي جاءت به الروايات: كان لايزال يأتيه جبرائيل في صورة الآدميّين. فسأله رسول‌اللهﷺ أن يريه نفسه مرّة أُخرى على صورته التي خلقه اللّه، فأراه صورته فسدّ الأُفق. فقوله تعالى: «وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلىٰ» كانت المرّة الأُولىٰ. وقوله «نَزْلَةً أُخْرىٰ» كانت المرّة الثانية.[٣]

قال رسول‌اللهﷺ: وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً، فيكلّمني فأعي مايقول.[٤]

وقال الإمام الصادقؑ: إنّ جبرائيل كان إذا أتى النبيّﷺ لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد.[٥]

هذا... وكان جبرائيل ـ عندما يتمثّل لرسول‌اللهﷺ ـ يبدو في صورة دحية بن خليفة الكلبي. وبتعبير أصحّ: يبدو في صورة شبيهة بدحية. كما جاء في تعبير ابن شهاب: كان رسول‌اللهﷺ يشبّه دحية الكلبي بجبرائيل، حينما يتصوّر بصورة بشر.[٦]

وذلك لأنّ دحية كان أجمل إنسان في المدينة، كان إذا قدم البلد خرجت الفتيات ينظرن إليه.[٧]

---

١ ـ التكوير ٨١: ١٩-٢٣.
٢ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٢٣.
٣ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ١٧٣ و ١٧٥ و ج ١٠، ص ٤٤٦؛ والصافي في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٦١٨.
٤ ـ صحيح البخاري، ج ١، ص ٣.
٥ ـ كمال الدين، ص ٨٥.
٦ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة: ج ١، ص ٤٧٤.
٧ ـ الإصابة، ج ١، ص ٤٧٣.

والسبب في ذلك: أنّ جبرائيل كان حينما يتمثّل بشراً، يتمثّل صورة إنسان خلقة اللّه على الفطرة الأُولى، والإنسان في أصل خلقته جميل، فكان يتمثّل جبرائيل في أجمل صورة إنسانيّة. وبما أنّ دحية كان أجمل انسان في المدينة، كان الناس يزعمون من جبرائيل ـ وهو يتمثّل بشراً ـ إنّه دحية الكلبي، ومن ثمّ كان العكس هو الصحيح. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبي، وكان دحية رجلاً جميلاً. والظاهر أنّ الجملة الأخيرة هي من كلام أنس، راوي الحديث[١] أي على صورة تشبهها صورة دحية. وكان الصحابة يزعمونه دحية حقيقة، ومن ثمّ نهاهم رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدخلوا عليه إذا وجدوا دحيّة عنده. قال: إذا رأيتم دحية الكلبي عندي فلايدخلن عليّ أحد.[٢]

وكان جبرائيل قد يتمثّل للصحابة أيضاً بصورة دحية، كما في غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة شاهده الصحابة على بغلة بيضاء.[٣]

وشاهده أيضاً عليّ عليه السلام دفعات بمحضر النبيّ صلى الله عليه وآله وتكلّم معه، والنبيّ صلى الله عليه وآله راقد.[٤]

وأمّا نزول الملك عليه بالوحي من غير أن يراه فكثير أيضاً، إمّا إلقاء على مسامعه وهو يصغي إليه، أو إلهاماً في قلبه فيعيه بقوّة. قال تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأَمينُ عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ».[٥]

كان صلى الله عليه وآله في أوائل نزول الملك عليه بالوحي، يخشى أن يفوته اللفظ ومن ثمّ كان يحرّك لسانه وشفتيه ليستذكره ولاينساه، فكان يتابع جبرائيل في كلّ حرف يلقيه عليه، فنهاه تعالى عن ذلك ووعده بالحفظ والرعاية من جانبه تعالى، قال: «لاتُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ»[٦] وربّما كان صلى الله عليه وآله

١ ـ المصدر: واسد الغابة، ج ٢، ص ١٣٠.

٢ ـ بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ٣٢٦، ح ٦٠، عن كتاب حجة التفصيل لابن الأثير.

٣ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ٣، ص ٢٤٥.

٤ ـ بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٠ وج ٢٢، ص ٣٣١-٣٣٢، ح ٤٣؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٣٥١.

٥ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٢-١٩٥.

٦ ـ القيامة ٧٥: ١٦-١٩.

يقرأ على أصحابه فور قراءة جبرائيل عليه، وقبل أن يستكمل الوحي أو تنتهي الآيات النازلة، حرصاً على ضبطه وثبته، فنهاه تعالى أيضاً وقال: «وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِ زِدْنِي عِلْماً»[1] فاطمأنّه تعالى بالحفظ والرعاية الكاملة. فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك إذا أتاه جبرائيل، استمع له، فإذا انطلق قرأه كما أقرأه.[2] قال تعالى: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسىٰ».[3]

وإشارة إلى هذا النحو من الوحي الذي هو نكت في القلب قال صلى الله عليه وآله: «إنّ روح القدس نفث في روعي»[4] وهو سواد القلب، كناية عن السرّ الباطن، والمقصود: روحه الكريمة.

٣ ـ الوحي المباشر

ولعلّ أكثريّة الوحي، كان مباشريّاً لايتوسّطه ملك، على ماجاء في وصف الصحابة حالته صلى الله عليه وآله ساعة نزول الوحي عليه، كان ذا وطءٍ شديد على نفسه الكريمة، يجهد من قواه وتعتريه غشوة منهكة، فكان ينكّس رأسه ويتربّد وجهه ويتصبّب عرقا، وتسطو على الحضور هيبة رهيبة، ينكّسون رؤوسهم صموداً، من روعة المنظر الرهيب. قال تعالى: «إِنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً».[5] قال الإمام الصادق عليه السلام: كان ذلك إذا جاءه الوحي وليس بينه وبين اللّه ملك، فكانت تصيبه تلك السبتة[6] ويغشاه ما يغشاه، لثقل الوحي عليه. أمّا إذا أتاه جبرائيل بالوحي فكان يقول: هو ذا جبرائيل أو قال لي جبرائيل...[7]

قال الشيخ أبوجعفر الصدوق: «إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يكون بين أصحابه فيغمى عليه وهو ينصاب عرقاً، فإذا أفاق قال: قال الله كذا وكذا؛ أمركم بكذا ونهاكم عن كذا. قال: وكان يزعم أكثر مخالفينا أنّ ذلك كان عند نزول جبرائيل. فسئل الإمام الصادق عليه السلام عن الغشية التي كانت تأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله أكانت عند هبوط جبرائيل؟ فقال: لا، إنّ جبرائيل كان إذا أتى

---

١ ـ طه ٢٠: ١١٤.

٢ ـ الطبقات، ج ١، ص ١٣٢.

٣ ـ الأعلى ٨٧: ٦.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٢٩.

٥ ـ المزمل ٧٣: ٥.

٦ ـ هي إغماءة تشبه النعسة.

٧ ـ محاسن البرقي، كتاب العلل، ج ١، ص ٦٩، ح ١٢١؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٧١، ح ٣٦.

النبيّ صلى الله عليه وآله لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، وإنّما ذلك عند مخاطبة اللّه عزّوجلّ إيّاه بغير ترجمان وواسطة».[١]

وفيما يلي أوصاف جرت على ألسنة الصحابة، يذكرون مشهوداتهم عن الحالة التي كانت تعتري رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة نزول الوحي عليه:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «نزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله سورة المائدة، وهو على بغلته الشهباء، فثقل عليه الوحي حتى وقفت، وتدلّى بطنها، حتى رأيت سرّتها تكاد تمسّ الأرض، وأُغمي على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وضع يده على ذؤابة شيبة بن وهب الجمحي...».[٢]

وقال عبادة بن الصامت: «كان إذا نزل الوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله كرب له وتربّد وجهه».[٣] وفي رواية: «نكّس رأسه ونكّس أصحابه رؤوسهم فلمّا سرى عنه رفع رأسه».[٤]

وقال عكرمة: «كان إذا أُوحي إلى رسول صلى الله عليه وآله وقذ لذلك ساعة كهيأة السكران».[٥]

وقال ابن أروى الدوسي: «رأيت الوحي ينزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وإنّه على راحلته فترغو، وتفتل يديها حتى أظنّ أنّ ذراعها ينقصم، فربّما بركت وربّما قامت موَتِّدة يديها حتى يُسرّى عنه، من ثقل الوحي. وإنّه ليتحدّر منه مثل الجمان».[٦]

وقالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً».[٧] وقالت أيضاً: «إنّه كان ليوحى على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو على

---

١ ـ كمال الدين، ص ٨٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠، ح ١٢.

٢ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٨٨، ح ٢ والذؤابة، شعر مقدّم الرأس.

٣ ـ الطبقات، ج ١، ص ١٣١. «كرب» ـ بالبناء للمجهول ـ: أي انقبضت نفسه وتغيّرت حالته. «تربّد» أي تغيّر لون وجهه إلى الغبرة.

٤ ـ دائرة معارف القرن العشرين، ج ١٠، ص ٧١٢.

٥ ـ الطبقات، ج ١، ص ١٣١. «وقذ» ـ بالبناء للمجهول ـ: أي غشي عليه. والموقوذ: من غلبه النعاس فصار كهيأة السكران.

٦ ـ الطبقات، ج ١، ص ١٣١. «ترغو» أي تضجّ وتكابد من شدّة الثقل. «تفتل يديها» أي تباعد بينهما. «ينقصم» أي ينكسر. «قامت موتّدة» أي وقفت جامدة لاحراك لها، وثبتت قوائمها كالمسمار المثبت في الأرض. «التحدّر»: الانصباب السريع، «الجمان»: اللؤلؤ. والواحدة: جمانة شبّه بذلك قطرات عرق جبينه الطّيب.

٧ ـ صحيح البخاري، ج ١، ص ٣. «التفصّد»: قطع العرق الذي ينصب منه الدم بتدفّق، استعارة لكثرة انصباب عرقه الطيّب حين نزول الوحي.

راحلته فيضرب بجرانها».[١]

وقال ابن‌عباس: «كان النبيّ ﷺ إذا نزل عليه الوحي، يعالج من ذلك شدّة، وألماً شديداً وثقلاً، ويتصدّع رأسه».[٢]

وقال ابن شهرآشوب: وروي أنّه كان إذا نزل عليه الوحي، نكّس رأسه ونكّس أصحابه رؤوسهم. ومنه يقال: برحاء الوحي.[٣]

وروى ابن قيم: «أنّه ﷺ جاءه الوحي مرّة، وفخذه على فخذ زيدبن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضّها».[٤]

وروى صاحب المنتقى، قال: وفي الحديث المقبول أنّه ﷺ أُوحي إليه وهو على ناقته فبركت ووضعت جرانها بالأرض فماتستطيع أن تتحرّك. وأنّ عثمان كان يكتب للنبيّ ﷺ وفخذه على فخذ عثمان فغشيه الوحي، فثقلت فخذه على فخذ عثمان حتى قال: خشيت أن ترضّها.[٥]

وأخيراً فقد وصف هو ﷺ نزول الوحي عليه بما يدهش:

سأله عبدالله بن‌عمر: هل تحسّ بالوحي؟ فقال: أسمع صلاصل، ثمّ أسكت عند ذلك، فما من مرّة يوحى إليّ إلّا ظننت أنّ نفسي تُقبض![٦]

وسأله الحارث بن هشام، قال: يارسول‌الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة‌الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصم‌عنّي وقد وعيت‌عنه ما قال.[٧]

---

١ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٧٨؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٤٦، ح ٢٠. «الجران» من البعير مقدم عنقه. يقال: ألقى البعير جرانه أي برك.

٢ ـ بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٦١، ح ١٣؛ عن المناقب، ج ١، ص ٤٤.

٣ ـ بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦١، ح ١٣؛ والمناقب، ج ١، ص ٤٣-٤٤. البرحاء: شدّة الكرب والألم.

٤ ـ زادالمعاد، ج ١، ص ١٨.

٥ ـ بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٣-٢٦٤، ح ٢٠ وص ٢٦٨ و ٢٦٩، ح ٣٢. وعثمان هذا هو ابن‌مظعون، كما جاء التصريح به في رواية عن الإمام‌الباقر عليه السلام في كتاب سعد السعود: ص ١٢٢.

٦ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٢٨. عن مسند أحمد بن حنبل.

٧ ـ سنشرح هذا الكلام فيما ننبّه عليه تالياً.

وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني، فأعي ما يقول[١] وهو أهونه عليّ».[٢]

وتذييلاً على هذه الرواية ـ وهي متواترة إلى حدّ ما ـ يجب أن ننبّه القارئ على نقاط هامّة:

أولاً: صلصلة الجرس في هذه الرواية، كناية عن صوت متعاقب كصوت الناقوس المصلصل المجلجل، كان ﷺ يسمع صوتا متداركاً كجلجلة الناقوس، هوصوت الوحي المباشر، فكان ﷺ ينصت له بكلّ وجوده حتى يتلقّاه كملا. وكان ذا وقع شديد على نفسه الكريمة. وهذا التعبير «صلصلة الجرس» يشي بشدّة الوقع، حيث تتابع الصوت المتدارك يؤثّر على حاسة السمع تأثيراً نافذاً في الأعماق، فكأنّما يأخذ بلبّ القلب، أخذاً متواصلاً قويّاً ومن ثمّ قال ﷺ: ظننت أنّ نفسي تقبض.

والظاهر أنّ هذه الصلصلة كانت تمهيداً لنزول الوحي عليه ﷺ كي يستعدّ لذلك الاتصال الروحي الشديد. ومن ثمّ قال: ثمّ أسكت عند ذلك، أي أنصت حيث الإشعار بنزول الوحي.

نعم كان للوحي ذاته دويّ شديد بالغ الشّدة، لم يكن يتحمّله أهل السماوات العلى.

قال أبوجعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: «حَتّىٰ إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قالُوا ماذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبيرُ».[٣] «كان أهل السماوات لم يسمعوا وحياً في الفترة بين المسيح عليه السلام وبعثة محمد ﷺ فلمّا بعث اللّه محمداً ﷺ سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا، فصعقوا أجمعين. فلمّا فرغ اللّه من الوحي، انحدر جبرائيل كلّما مرّ بأهل سماء فزع عن قلوبهم، أي كشف عنهم تلك الغشية. فجعل بعضهم يقول لبعض: «ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكبيرُ».[٤]

وفي حديث ابن مسعود: «إذا تكلّم اللّه بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة

---

١ ـ صحيح البخاري، ج ١، ص ٣: والطبقات، ج ١، ص ١٣٢؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠. والصلصلة: صوت تداكّ الحديد بعضه مع بعض.

٢ ـ هذه الزيادة جاءت في رواية أبي عوانه في صحيحه. راجع: فتح الباري، ج ١، ص ٢٠؛ والإتقان: ج ١، ص ١٢٩.

٣ ـ سبأ ٣٤: ٢٣.

٤ ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٠٢.

كصلصلة السلسلة على الصفوان ـ الحجر الأملس ـ فيفزعون». [١]

وقال ابن عباس: «كان إذا نزل الوحي كان صوته كوقع الحديد على الصفوان، فيصعق أهل السماء «حَتّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلوبِهِمْ» أي رفع عنهم الفزع «قالُوا ماذَا قالَ رَبُّكُمْ» قالت الرسل عليهم السلام: «الْحَقّ». [٢]

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إذا أراد اللّه أن يوحي بأمر، تكلّم بالوحي، فإذا تكلّم أخذت السماء رجفة شديدة من خوف اللّه تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صُعقوا وخرّوا سجّداً...». [٣]

وبعد... فلانكاد نستغرب من غشية تعتري رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة نزول الوحي عليه إذا كان أهل السماوات لاتتحمّل وقع صوته المدهش.

ثانياً: هذا النمط من الوحي الشديد الواقع على نفسه الكريمة، كان يخصّ الوحي المباشر، كما تقدّم حديثه. كما أنّ الرواية ذاتها تشي بهذا التفصيل، حيث جعلت من النوع الأوّل مثل صلصلة الجرس، فكان صوت الوحي النازل عليه مباشرة. ومن ثمّ قال صلى الله عليه وآله: وكان أشدّه عليّ، وجعلت من النوع الثاني مايكلّمه الملك مشافهة فيعي مايوحى إليه في حينه، لأنّه صلى الله عليه وآله كان حينئذ في حالته العاديّة.

وزعم جلال الدين، أنّ النوعين اللذين أشارت إليهم الرواية: أحدهما ما كان الملك النازل بالوحي مختفيا. والآخر ماكان متمثّلاً [٤] وهذا مخالف لما يفهم من الرواية ذاتها، كما نبّه بذلك شيخنا الصدوق. [٥] ومرّ في حديث الإمام الصادق عليه السلام. [٦]

ثالثاً: إنّ الجذبة الروحيّة القويّة في الصورة الأُولى ربّما كانت توهم انفلات شيء من الوحي، حينما يفقد صلى الله عليه وآله وعيه الظاهر. لكنّه صلى الله عليه وآله تدارك هذا الوهم بأنّه كان بعدما يتقشّع غشوته يجد كلّ ما أوحي إليه حاضرة ذهنه الشريف، كأنّما كتب في كتاب، ولم ينفلت منه

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٢٧.

٢ ـ الدرّ المنثور، ج ٥، ص ٢٣٥.

٣ ـ المصدر، ص ٢٣٦.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٢٨-١٢٩.

٥ ـ كمال الدين، ص ٨٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠، ح ١٢.

٦ ـ محاسن البرقي، كتاب العلل، ج ١، ص ٦٩، ح ١٢١؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٧١، ح ٣٦.

شيء. وهذا معنى قوله ﷺ: «فيفصم عنّي وقد وعيت».

والسبب في ذلك: أنّ الوحي في صورة المباشرة كان يخالط لبّه، ويتسرّب إلى أعماق وجوده ﷺ بما أنفذه اللّه في قلبه الكريم «سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَىٰ».[١]

وبهذا يتضح معنى الحديث الذي رواه ابن أبي سلمة عن عمّه، أنّه بلغه أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «كان الوحي يأتيني على نحوين، يأتيني جبرائيل فيلقيه عليّ، كما يلقي الرجل على الرجل،[٢] فذلك الذي يتفلّت منّي. ويأتيني في شيء[٣] مثل صوت الجرس، حتى يخالط قلبي، فذاك الذي لا يتفلّت منّي».[٤]

قوله ﷺ: فذلك الذي يتفلّت منّي، أي الذي كان يكاد يتفلّت منه، لأنّه كان سماعاً مباشراً من ملك الوحي، وسرعان ماينسى الإنسان مايسمعه من غيره إذا لم يعه وعياً. فهذا النمط من الوحي كان بمعرض النسيان وخوف التفلّت ـ كما هو شأن السماع المجرّد إذا لم يتقيّد بالكتابة في وقته ـ لا أنّه كان يتفلّت منه بالفعل. أمّا في صورة الوحي المباشر فحيث كان يخالط لبّه وينفذ في أعماق قلبه الكريم، فلم يكن يخشى عليه التفلّت أصلاً.

هذا وقد وقع بعض الباحثين، في خلط من هذا الحديث[٥] ورفضه آخرون. لكن المعنى على ماذكرنا صحيح، توافقه سائر الأحاديث.

تجربة روحيّة

رأينا من المناسب أن نأتي هنا بذكر شاهد واحد من مئات الشواهد، والتي مرّت الإشارة إليها على صحّة وجود النفس، وأنّ للإنسان روحاً مستقلّة عن الجسم، وهي لاتنحلّ بانحلاله، ويمكنها الاتصال بعالم ماوراء المادّة... وهي طريقة التنويم الصناعي أو التنويم المغناطيسي. وهذه التجربة حضرها الأُستاذ الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني

---

١ ـ الأعلى ٨٧: ٦.

٢ ـ أي كما يلقي الرجل بكلامه على صاحبه. وهذا هو الصورة الثانية ممّا تقدّم.

٣ ـ أي الوحي ذاته يأتيني بلا توسيط ملك. وهي الصورة الأُولى ممّا تقدّم.

٤ ـ الطبقات، ج ١، ص ١٣١.

٥ ـ فتح الباري، ج ١، ص ١٨.

سنة ١٣٥١ هجرية بالقاهرة مع حشد مثقّف، وشهد تفاصيلها بنفسه بمرأى الملأ ومسمع. وهذه التجربة أثبتت كيف يمكن التأثير على ذهنية الوسيط وتغيير عقيدته بفعل المنوّم، فيوحي إليه وهو في حالة الإغماء، ويأمره بالاحتفاظ به إلى مدّة كذا، ثمّ يوقظه وإذا بالذي أُوحي إليه حاضر ذهنه إلى تمام المدّة:

قام المحاضر ـ وهو أُستاذ في التنويم المغناطيسي ـ وأحضر الوسيط، وهو فتى فيه استعداد خاصّ للتأثّر بالأُستاذ، والأُستاذ فيه استعداد خاصّ للتأثير على الوسيط، فالأوّل ضعيف النفس، والثاني قويّها. نظر الأُستاذ في عين الوسيط نظرات عميقة نافذة، وأجرى عليه حركات يسمّونها سحبات، فماهي إلّا لحظة حتى رأينا الوسيط يغط غطيط النائم، وقد امتقع لونه، وهمد جسمه، وفقد إحساسه المعتاد، حتى لقد كان أحدنا يخزّه بالأُبرة وخزات عدّة، ويخزّه كذلك ثان وثالث، فلايبدي الوسيط حراكاً، ولا يظهر أي عرض لشعوره وإحساسه بها. وحينئذ تأكّدنا أنّه قد نام ذلك النوم الصناعي.

وهنالك تسلّط الأُستاذ على الوسيط يسأله: ما اسمك؟ فاجابه باسمه الحقيقيّ، فقال الأُستاذ: ليس هذا هو اسمك، إنّما اسمك كذا (وافترى عليه اسماً آخر) ثمّ أخذ يقرّر في نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق، بواسطة أغاليط يلقّنها إيّاه في صورة الأدلّة، وبكلام يوجّهه إليه في صيغة الأمر والنهي، وهكذا أملى عليه هذه الأُكذوبة املاء وفرضها عليه فرضاً، حتى خضع لها الوسيط وأذعن.

ثمّ أخذ الأُستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرّة بعد الأُخرى في فترات متقطّعة، وفي أثناء الحديث على حين غفلة، كلّ ذلك وهو لايجيب، ثمّ نناديه كذلك باسمه المصنوع فيجيب دون تردّد ولاتلعثم.

ثمّ أمر الأُستاذ وسيطه أن يتذكّر دائماً أنّ هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته. ثمّ أيقظه وأخذ يتمّ محاضرته ونحن نفجأ الوسيط بالاسم الحقيقي فلايجيب، ثمّ نفجؤه باسمه الثاني فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط إلى حاله الأُولى من العلم باسمه الحقيقيّ...

قال الأُستاذ الزرقاني: وبهذه التجربة ثبت لي ماقرب إلى الوحي فهماً عمليّاً، فالوحي اتصال روحيّ يتأثّر الموحى إليه بما يلقي إليه الموحي في حالة يتسلّخ من الرسولﷺ حالته العاديّة، ويظهر أثر التغيّر عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقّي، وينطبع ماتلقّاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأُولى، وجد ماتلقّاه ماثلاً في نفسه، حاضراً في قلبه، كأنّما كتب في صحيفة فؤادة كتاباً.

ثمّ يقول: أتظنّ أنّ المخلوق يستطيع التأثير في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير الغريب، ولايستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثّر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي؟ كلا ثمّ كلا، إنّه على كلّ شيء قدير.[١]

أقول: ونحن إذ لانسلّم بجميع التفاصيل التي جاءت بها طريقة التنويم المغناطيسي، ولانصدّق بجميع مظاهرها بصورة مطلقة، إذ لاتخلوا أحياناً عن الشعوذة لكنّا نعترف بصحّتها وإمكانها في الجملة، ومن ثمّ فباستطاعة هذه الطريقة العلميّة الحديثة المعترف بها إجمالياً، إثبات ظاهرة الوحي -ولو إجمالياً- وفي هذا كفاية على نحو الإيجاب الجزئي.

موقف النبيّ من الوحي

هنا موضوعان لهما أهميّة كبيرة بشأن رسالة الأنبياء وصدق دعوتهم إلى اللّه، لابدّ من معالجتهما بصورة علميّة مقبولة. وقد تكلّم فيهما عامّة أهل السنّة بطريقة غير مألوفة، وربّما لايستسيغها العقل الفطري في شيء. أمّا علماؤنا الإماميّة فتكلّموا فيهما بطريقة عقليّة على أساس الاستدلال البرهاني مدعماً بالنقل المأثور عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

الأوّل: كيف عرف النبيّﷺ أنّه مبعوث؟ وَلِمَ لم يشكّ في أنّ الذي أتاه شيطان، واطمأنّ أنّه جبرائيل؟

الثاني: هل يجوز على النبيّﷺ أن يخطأ فيما يوحى إليه، فيلتبس عليه تخيّلات

---

١ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٦٧.

باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحي، أو يلقي عليه ابليس ما يظنّه وحياً من اللّه؟

والأكثر في الموضوع الأوّل جعلوا من النبيّ ﷺ مرتاعاً في أوّل أمره، خائفاً على نفسه من مسّ جنون، عائذاً إلى أحضان زوجه الوفيّة، لتستنجد هي بدورها إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، فيطمئنّه هذا بأنّه نبيّ ويؤكّد عليه ذلك حتى يطمئن ويستريح باله.

أمّا الموضوع الثاني فقد أجازوا الإبليس أن يتلاعب بوحي السماء فيلقي على النبيّ ما يظنّه وحياً ـ كما في حديث الغرانيق ـ لولا أن يتداركه جبرائيل فيذهب بكيد الشيطان.

وقد ذهب أئمّة أهل البيت عليهم السلام في كلا الموضوعين مذهباً نزيهاً، وجعلوا من النبيّ ﷺ أكرم على اللّه من أن يتركه إلى إنسان غيره ولا ينير عليه الدلائل الواضحة على نبوّته الكريمة في تلك الساعة الحرجة. كما لا يدع للشيطان أن يستحوذ على مشاعر نبيّه الكريم: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ».[١]

هذا... ويجدر بنا ونحن نحاول تنزيه جانب رسول الله ﷺ ممّا ألصقوه بكرامته، أنّ نتكلّم في كلا المجالين بصورة مستوفاة، كلّاً على حدة.

النبوّة مقرونة بدلائل نيّرة

يجب على اللّه ـ وجوباً منبعثا من مقام لطفه ورأفته بعباده ـ أن يقرن تنبيئه إنساناً بدلائل نيّرة لا تدع لمسارب الشّك مجالاً في نفسه، كما أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، ليكون من الموقنين.[٢] وكما «نوديَ ياموسىٰ. إِنِّي أَنا رَبُّكَ»[٣] «ياموسىٰ إِنَّهُ أَنَا اللّه الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»[٤] «ياموسىٰ لاتَخَفْ إِنِّي لايَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ».[٥]

هذا هو مقتضى قاعدة اللطف، وقد بحث عنها علماء الكلام،[٦] وتتلخّص في تمهيد سبيل الطاعة. فواجب عليه تعالى أن يمهّد لعباده جميع ما يقرّبهم إلى الطاعة ويبعدهم عن

١ ـ الطور ٥٢: ٤٨.

٢ ـ مقتبس من الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

٣ ـ طه ٢٠: ١١-١٢.

٤ ـ النمل ٢٧: ٩.

٥ ـ النمل ٢٧: ١٠.

٦ ـ علم منشعب عن الفلسفة الحكميّة، يبحث عن أحوال المبدأ والمعاد في ضوء العقل وإرشاد الشريعة.

المعصية. وهذا الوجوب منبعث من مقام حكمته تعالى إذا كان يريد من عباده الانقياد، وإلّا كان نقضاً لغرضه من التكليف. ومن ثمّ وجب عليه تعالى أن يبعث الأنبياء وينزل الشرائع ويجعل في الأُمم ما ينير لهم درب الحياة، إمّا إلى سعادة فباختيارهم، أو إلى شقاء فباختيارهم أيضاً.[١]

وطبقا لهذه القاعدة لايدع ـ تعالى ـ مجالاً لتدليس أهل الزيغ والباطل، إلّا ويفضحهم من فورهم «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاويلِ. لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتينَ».[٢] فالحقّ دائماً يعلو ولايعلى عليه، والحقّ والباطل كلاهما، على وضح الجلاء، لايكدّر وجه الحقّ غبار الباطل أبداً: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذا هُوَ زاهِقٌ».[٣] «إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذينَ آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنْيا».[٤] وهذا إنّما هو نصر واعتلاء مبدئي، فالحقّ دائماً ظاهر منصور، وأنّ رسالة الأنبياء دائماً تكون هي الغالبة الظافرة، «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعبادِنَا الْمُرْسَلينَ. إنَّهُمْ لَهُمُ المَنصُورُونَ. وَإنَّ جُندَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ».[٥] نعم «إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعيفاً».[٦]

قال الإمام الصادق عليه السلام: «أبى اللّه أن يعرّف باطلا حقّاً. أبى اللّه أن يجعل الحقّ في قلب المؤمن باطلا لاشك فيه. وأبى اللّه أن يجعل الباطل في قلب الكافر المخالف حقّاً لاشكّ فيه. ولولم يجعل هذا هكذا ما عُرف حقّ من باطل».

وقال: «ليس من باطل يقوم بإزاء الحقّ، إلّا غلب الحقّ الباطل. وذلك قوله تعالى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذا هُوَ زاهِقٌ».[٧]

هذا... وقد سأل زرارة بن أعين، الإمام أبا عبدالله الصادق عليه السلام عن نفس الموضوع قال: قلت لأبي عبدالله: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل اللّه أن يكون ممّا

---

١ ـ راجع: شرح تجريد الاعتقاد للعلّامة الحلّي، ص ٣٢٤.

٢ ـ الحاقة ٦٩: ٤٤-٤٦.

٣ ـ الأنبياء ٢١: ١٨.

٤ ـ غافر ٤٠: ٥١.

٥ ـ الصافات ٣٧: ١٧١-١٧٣.

٦ ـ النساء ٤: ٧٦.

٧ ـ الأنبياء ٢١: ١٨. راجع: محاسن البرقي، كتاب مصابيح الظلم، ج ٢، ص ٣٥٤، ح ١٥٣.

ينزغ به الشيطان؟ فقال عليه السلام: «إنّ اللّه إذا اتخذ عبداً رسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار ـأي الطمأنينة والاتزان الفكري ـ فكان الذي يأتيه من قبل اللّه، مثل الذي يراه بعينه»[١] أي يجعله في وضح الحقّ، لاغبار عليه أبداً، فيرى الواقع ناصعاً جليّاً لايشكّ ولايضطرب في رأيه ولا في عقله. وقد أوضح الإمام عليه السلام ذلك في حديث آخر، سئل عليه السلام: كيف علمت الرسل أنّها رسل؟ قال:«كشف عنهم الغطاء»...[٢]

قال العلّامة الطبرسي: «إنّ اللّه لايوحي إلى رسوله إلّا بالبراهين النيّرة والآيات البيّنة، الدالّة على أنّ مايوحى إليه إنّما هو من اللّه تعالى فلايحتاج إلى شيء سواها، ولايفزع ولايفرق».[٣]

وقال القاضي عياض: «لايصحّ ـأي في حكمته تعالى، وهو إشارة إلى قاعدة اللطف ـ أن يتصوّر له الشيطان في صورة الملك، ويلبس عليه الأمر، لافي أوّل الرسالة ولابعدها. والاعتماد ـأي اطمئنان النبيّ ـ في ذلك دليل المعجزة. بل لايشك النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ ما يأتيه من اللّه هو الملك ورسوله الحقيقي إمّا بعلم ضروريّ يخلقه اللّه له، أو ببرهان جليّ يظهره اللّه لديه. لتتمّ كلمة ربّك صدقاً وعدلا لامبدّل لكلمات اللّه».[٤]

إذن فلابدّ أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله حين انبعاثه نبيّاً على علم يقين، بل عين يقين من أمره، لايشكّ ولايضطرب، مستيقنا مطمئنّاً باله مرعيّاً بعناية اللّه تعالى ولطفه الخاص، منصوراً مؤيّداً، ولاسيّما في بدء البعثة فيأتيه الناموس الأكبر وهو الحقّ الصراح معايناً مشهوداً، وهي موقعيّة حاسمة لاينبغي لنبيّ أن يتزلزل فيها أو يتروّع في موقفه ذلك الحرج العصيب: «إنّي لايَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ».[٥]

وأيضاً فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يختره اللّه لنبوّته، إلّا بعد أن أكمل عقله وأدّبه فأحسن تأديبه. وعرّفه من أسرار ملكوت السماوات والأرض مايستأهله للقيام بمهمّة السفارة

---

١ ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠١، ح ١٠٦؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٢، ح ١٦.

٢ ـ بحار الأنوار، ج ١١، ص ٥٦، ح ٥٦.

٣ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٨٤.

٤ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج ٢، ص ١١٢.

٥ ـ النمل ٢٧: ١٠.

وتبليغ رسالة اللّه إلى العالمين. كما فعل بإبراهيم الخليل عليه السلام. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد قرن اللّه به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيما أعظمَ ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالَم ليله ونهاره...»[١] وقال الإمام العسكري عليه السلام: «إنّ اللّه وجد قلب محمد صلى الله عليه وآله أفضل القلوب وأوعاها فاختاره لنبوّته...».[٢] كما قال صلى الله عليه وآله: «ولابعث اللّه نبيّاً ولارسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أُمّته...».[٣]

قال العلّامة المجلسي: «منذ أن أكمل اللّه عقله، لم يزل مؤيّداً بروح القدس يكلّمه ويسمع صوته ويرى الرؤيا الصادقة، حتى بعثه اللّه نبياً رسولاً».[٤]

والدلائل على أنّه صلى الله عليه وآله منذ بدايته كان مورد لطفه تعالى وعنايته الخاصّة كثيرة، وقد عرف قومه فيه النبوغ والجدارة الذاتيّة، ولمسوا فيه الصدق والأمانة والذكاء والفطنة، فوجدوه مزيجاً من الاستقامة وحصافة العقل، حتى حبّب إلى الناس جميعاً ولقبّوه بالصادق الأمين، أميناً في رأيه، وأميناً في سلوكه.

وكان قبيل بعثته تظهر له علائم النبوّة، فقد ظهرت آياتها قبل ثلاث سنوات من بعثته وهو في سن السابع والثلاثين ـ كما في رواية علي بن إبراهيم القمي ـ[٥] فكان يرى الرؤيا الصادقة، وكان يختلي بنفسه في غار حراء، متفكّراً في أسرار الملكوت، متعمّقاً في ذات اللّه متطلّعاً سرّ الخليقة، حتى فجأه الحقّ وقد بلغ سن الأربعين. فقد كان ممهّداً نفسه لذلك، عارفاً بسمات أمر قد أشرفت طلائعه منذ حين.

وهكذا إنسان لايفزع ولايفرق ولايظنّ بنفسه الجنّة أو عارضة سوء، ليلتجأ إلى امرأة لاعهد لها بأسرار النبوّات أو رجل[٦] كان حظّه من العلم أن قرأ كتباً محرّفة وآثاراً بائدة، لم يثبت آنذاك أنّه لمس حقائق ومعارف من الملك والملكوت كانت موجودة فيها لحدّ ذاك، غير ممسوخة عن فطرتها الأُولى.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، ١٩٢، ص ٣٠٠.

٢ ـ بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٥-٢٠٦، ح ٣٦.

٣ ـ الكافي الشريف، ج ١، ص ١٢-١٣.

٤ ـ بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٧٧.

٥ ـ المصدر، ص ١٨٤، ح ١٤ وص ١٩٤، ح ٣٠.

٦ ـ هو: ورقة بن نوفل ابن عم خديجة.

على أنّ النّبيّ محمداًﷺ كان أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين وخاتم سفراء ربّ العالمين، فكان أكرم عليه تعالى من أن يتركه ونفسه يتلوّى في أحضان القلق والاضطراب، خائفاً على نفسه مسّ جنون أو الاستحواذ على عقله الكريم ـ على ماجاءت في روايات آتية لاقيمة لها عندنا ـ.

إذن فقد كان موقف النبيّﷺ تجاه نزول الحقّ عليه ـ في بدء البعثة ـ موقف إنسان واع بجليّ الأمر، عارف بحقيقة الحقّ النازل عليه، في اطمئنان بالغ وسكون نفس وانشراح صدر، لم يتردّد ولم يشك ولم يضطرب، كما لم يفزع ولم يفرق. وسنذكر قصّة بدء البعثة على ماجاءت في روايات أهل البيتعليهم السلام وهي تشرح جوانب من موقف النبيّﷺ آنذاك ملؤها عظمة وإكبار وأُبّهة وجلال.

قصة ورقة بن نوفل

تلك كانت قصة البعثة، وفق ماجاءت في أحاديث أهل البيت، وهم أدرى بما في البيت. وإليك الآن حديثاً آخر عن بعثة النبيّ محمدﷺ على ماجاءت في روايات غيرهم:

روى البخاي ومسلم وابن هشام والطبري وأضرابهم: «بينما كان النبيّﷺ مختلياً بنفسه في غار حراء إذ سمع هاتفا يدعوه، فأخذه الروع ورفع رأسه وإذا صورة رهيبة هي التي تناديه، فزاد به الفزع وأوقفه الرعب مكانه، وجعل يصرف وجهه عمّا يرى، فإذا هو يراه في آفاق السماء جميعاً ويتقدّم ويتأخّر فلاتنصرف الصورة من كلّ وجه يتّجه إليه. وأقام على ذلك زمناً، ذاهلاً عن نفسه، وكاد أن يطرح بنفسه من حالق من جبل، من شدّة ما ألمّ به من روعة المنظر الرهيب. وكانت خديجة قد بعثت أثناءه من يلتمس النبيّﷺ في الغار فلايجده، حتى إذا انصرفت الصورة، عاد هو راجعاً، وقلبه مضطرب ممتلئاً رعبا وهلعاً، حتى دخل على خديجة وهو يرتعد فرقاً كأنّ به الحمّى، فنظر إلى زوجه نظرة العائذ المستنجد، قائلا: يا خديجة: مالي؟! وحدّثها بما رأى، وأفضى إليها بمخاوفه أن

تخدعه بصيرته. قال: لقد اشفقت على نفسي، وما أراني إلّا قد عرض لي[١] وقال: إنّ الأبعد ـ يعني نفسه الكريمة ـ لكاهن أو مجنون!

فرنت إليه زوجه الوفيّة بنظرة الإشفاق، وقالت: كلّا يا ابن عم، أبشر واثبت، والله لايخزيك أبداً. فوالذي نفس خديجة بيده، إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأُمّة، إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتقري الضيف، وتعين على النوائب، وما أوتيت بفاحشة قط. وهكذا طمأنته بحديثها المرهف.

ثمّ قامت بتجربة ناجحة: قالت: يا ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فاخبرني به. فجاءه الملك كما كان يأتيه. فقال رسول الله ﷺ: ياخديجة، هذا هو قد جاءني. فقالت: نعم، فقم يا ابن عم واجلس على فخذي اليسرى. فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحوّل واقعد على فخذي اليمنى، فتحوّل رسول الله ﷺ فجلس عليها. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قال فتحوّل واجلس في حجري، فتحول وجلس في حجرها، ثمّ تحسّرت[٢] وألقت خمارها، ورسول الله ﷺ جالس في حجرها. فقالت: هل تراه يا ابن عم؟ قال: لا. فقالت: يا ابن عم، أبشر واثبت، فوالله إنّه لملك وما هو بشيطان.

ثمّ توكيداً لما استنتجته من تجربتها، انطلقت إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل وكان متنصّراً قارئاً للكتب، فقصّت عليه خبر ابن عمّها محمد ﷺ فقال ورقة: قدّوس قدّوس لئن كنت صدقتني يا خديجة، فقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى. فقولي له: فليثبت. وأنّه لنبيّ هذه الأُمة. ولوددت أن أدرك أيّامه فأؤمن به وأنصره. فعادت خديجة إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بما قال، فعند ذلك اطمأنّ باله، وذهبت روعته، وأيقن أنّه نبيّ.[٣]

قلت: لاشكّ أنّ قصة ارتياع النبيّ ﷺ بتلك الصورة الفظيعة، أُسطورة خرافة حاكتها

---

١ ـ قال ابن الأثير: أي أصابني مسّ من الجن. ٢ ـ أي كشفت عن نفسها.

٣ ـ راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٥٢-٢٥٥؛ وصحيح البخاري، ج ١، ص ٣-٤؛ وصحيح مسلم، ج ١، ص ٩٧-٩٩؛ وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٨-٣٠٣؛ وجامع البيان، ج ٣٠، ص ١٦١؛ وحياة محمد لمحمدحسين هيكل، ص ٩٥-٩٦.

عقول ساذجة، جاهلة بمقام أنبياء الله الكرام. ومن ثمّ فهي إزراء بشأنهم الرفيع. وحطّ من منزلتهم الشامخة، إن لم تكن ضعضعة بأقوى دعامة رسالة اللّه!

أوّلاً النبيّ صلى الله عليه وآله أكرم على اللّه من أن يروّعه في ساعة حرجة هي نقطة حاسمة في حياة رسوله الكريم، هي نقطة تحوّل عظيم، من إنسان كامل كان مسؤول نفسه، إلى إنسان رسول هو مسؤول أُمّة بأجمعها، كان قبل أن يصل إلى موقفه هذا العصيب، يسير قدماً إلى قمة الاكتمال الإنساني الأعلى، في سفرة خطرة كان مبدؤها الخلق ومنتهاها الحقّ تعالى. فكان يسير من الخلق إلى الحقّ. والآن وقد وصل القمّة، فعاد من الحقّ، حاملاً للحقّ، إلى الخلق.[١]

فساعة البعثة هي الفترة الحاسمة، وهي الحلقة الواصلة بين السفرتين الذاهبة والراجعة، وهي موقف حرج، حاشاالله أن يترك حبيبه يكابد الأمرّين حينما بلغ قمّة اللقاء والآن يريد أن يختاره رسولاً إلى الناس، فيتركه يتلوّى في هواجس مخطرة، ويروّعه بتلك الصورة الفضيعة التي تكاد تذهب بنفسه الكريمة أو تستحوذ على عقله روعة المنظر الرهيب!!

أليس محمد صلى الله عليه وآله أكرم على اللّه من إبراهيم الخليل وموسى الكليم وغيرهما من أنبياء عظام، لم يتركهم في ساعة العسرة، ليلتجأوا إلى إنسان غيره، حاشاه من ربّ رؤوف رحيم!!

ثانياً: إنّا لنربأ بعلماء ـ هم أهل تحقيق وتمحيص ـ أن يفضّلوا عقليّة امرأة لاشأن لها وأسرار النبوّات، على عقلية إنسان كامل كان قد بلغ القمّة التي استأهلته لحمل رسالة اللّه. ثمّ تقوم هي بتجربة حاسمة يجهلها رسول ربّ العالمين. ليطمئن إلى قولتها، أو قولة رجل كان شأنه أن كان قارئاً للكتب، وليس لذلك العهد كتب فيها حقائق ومعارف غير محرّفة قطعيّاً. ولم نعرف ماالذي وجده رسول الله صلى الله عليه وآله في قولتهما فكان منشأ اطمئنانه، لم يجده في الحقّ النازل عليه من عند الله العزيز الحكيم؟!

---

١ ـ على ما جاء في تعبير الفيلسوف الإلهي، الحكيم صدرالدين الشيرازي تقدّم كلامه في «الرؤيا الصادقة».

ألم تكن الرؤيا الصادقة التي سبقت البعثة، ولم يكن تسليم الملك النازل عليه حينها: السلام عليك يا رسول‌الله. وتسليم الشجر والحجر كلّما مرّ بهما في طريقه راجعاً إلى بيت خديجة. ولم يكن عرفانه الذاتي الذي كان يتعمّقه مدّة اختلائه بحراء. كلّ ذلك لم يستوجب استيقانه بالأمر، ليستيقن من طمأنة امرأة أو رجل متنصّر!! إن هذا إلّا إزراء فظيع بمقام رسالة اللّه، إن لم يكن مسّاً شنيعاً بكرامة رسول‌الله صلى الله عليه وآله المنيعة.

ثالثاً: اختلاف سرد القصّة، بما لا يلتئم مع بعضها البعض، لدليل على كذبها رأساً. ففي رواية: انطلقت خديجة لوحدها إلى ورقة، فأخبرته بما جرى. وفي أُخرى: انطلقت بي إلى ورقة وقالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته، فقال: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى. وفي ثالثة: لقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت فقال: يابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت. فأخبره رسول‌الله صلى الله عليه وآله. فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنَّك لنبيّ هذه الأُمَّة. ولئن أدركت ذلك لأنصرنّ اللّه نصراً يعلمه. وفي رابعة: عن ابن عباس عن ورقة بن نوفل. قال: قلت: يامحمد أخبرني عن هذا الذي يأتيك، يعني جبرائيل عليه السلام فقال: يأتيني من السماء جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه أخضر.[١] وهذا ليس في روايات خديجة مع ورقة. على ما جاءت في الصحاح المتقدّمة. وفي خامسة: إنّ أبابكر دخل على خديجة، فقالت: انطلق بمحمد إلى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه...[٢]

ثمّ لو صحّت القصّة، فلماذا لم يؤمن به ورقة، حين ذاك وقد علم أنّه نبيّ مبعوث؟!

فقد صحّ أنّه مات كافراً لم يؤمن به. قال سبط ابن الجوزي: هو آخر من مات في الفترة (السنوات الأُولى بعد البعثة) ودفن بالحجون. قال: فلم يكن مسلماً. وهكذا روي عن ابن عباس: أنّه مات على نصرانيّته.[٣] وقضيّة رؤيا النبيّ صلى الله عليه وآله: كان ورقة في ثياب بيض؛ أيضاً مكذوبة وسندها مقطوع. وإلّا لسُجّل اسمه فيمن آمن به. قال ابن عساكر: لاأعرف أحداً

---

١ ـ أُسد الغابة، ج ٥، ص ٨٨ والرواية ضعيفة بروح بن مسافر. ولم يدرك ابن‌عباس ورقة.

٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٧١.

٣ ـ راجع: السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ٢٥٠.

قال: إنّه أسلم.[١] هذا وقد عاش ورقة إلى زمن بعد البعثة، ذكر صاحب «الإمتاع»: أنّ ورقة بن نوفل مات في السنة الرابعة من المبعث. قال برهان الدين الحلبي: ويوافقه ماجاء في سيرة ابن إسحاق. وكذا ما عن كتاب الخميس.[٢] فقد روي أنّه مرّ ببلال وهو يعذّب[٣] قال ابن‌حجر: وهذا يدلّ على أنّه عاش حتى ظهرت دعوته صلى الله عليه وآله ودعا بلالاً فأسلم. إذن فَلِمَ بقي على كفره ولم يُسلم كما أسلم الآخرون؟ ولِمَ لم ينصره كما نصره الآخرون؟ وقد خالف عهده كما جاء في الأُسطورة.

الوحي لايحتمل التباساً

هذا هو الموضوع الثاني ـ فيما أشرنا سابقاً ـ النبيّ صلى الله عليه وآله لايخطأ فيما يوحى إليه، ولايلتبس عليه الأمر قط. النبيّ كان عندما يوحى إليه، يكشف عن عينه الغطاء، فيرى الواقعيّة فيما يتصل بجانب روحه الملكوتي، منقطعاً عن صوارف المادّة، إنّه صلى الله عليه وآله حينذاك يلمس تجلّيات وإشراقات نوريّة تغشاه من عالم الملكوت، لينصرف بكلّيته إلى لقاء روح الله وتلقّي كلماته، فيرى حقيقة الحقّ النازل عليه بشعور واع وبصيرة نافذة، كمن يرى الشمس في وضح النهار، لايحتمل خطأ في إبصاره ولا التباساً فيما يعيه.

وهكذا الوحي إذ لم يكن فكرة نابعة من داخل الضمير، ليحتمل الخطأ في ترتيب مقدّمات استنتاجها. أو إبصاراً من بعيد ليتحمّل التباساً في الانطباق.[٤] بل هي مشاهدة

---

١ ـ الإصابة، ج ٣، ص ٦٣٣.
٢ ـ السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٥٠.
٣ ـ الإصابة، ج ٣، ص ٦٣٤.
٤ ـ الخطأ إنّما يحتمل في مجالين: إمّا في مجال التفكير أو في مجال الإبصار الخارجي ـ مثلاً ـ وذلك لأنّ للاستنتاج الفكري شرائط وأحكاماً، إذا ما أهملها المتفكّر فسوف يقع في خطأ التفكير. وكذلك إبصار العين الخارجيّة إذا كان من بعيد، فربّما يقع الخطأ فيه من ناحية تطبيق ما عند النفس من مرتكزات ومعلومات على خصوصيّات يراه موجودة في العين الخارجيّة. فالخطأ إنّما هو في هذا التطبيق النفسي، لا في العين المشاهدة. لأنّ الإبصار عبارة عن انطباع صورة الخارج ـ وهي واقعيّة لاتتغيّر ـ في الشبيكة العصبيّة خلف بؤرة العين.

وهذه ظاهرة طبيعيّة تتحقّق ذاتياً إذا ماتحققت شرائطها. نعم كانت النفس هي التي تحكم على ماشاهدته العين بأنّه كذا وكذا، والخطأ إنّما هو في هذا الحكم، لا في ذاك الإبصار الطبيعي. إذن فبما أنّ الوحي خارج عن الأمرين، لا تفكير ولا إبصار من بعيد ـ مثلاً ـ وإنّما هو لمس حقيقة حاضرة فلا موقع للخطأ فيه أصلاً.

حقيقة حاضرة بعين نافذة. فاحتمال الخطأ فيه مستحيل.

تلك طريقة علميّة فلسفيّة[١] تهدينا إلى الاعتراف بعدم احتمال الوحي الخطأ أبداً. ومن ثمّ فإنّ شريعة اللّه النازلة على أيدي رسله الأُمناء، مصونة عن احتمال الخطأ رأساً.

وهناك طريقة أُخرى عقليّة تحتّم لزوم عصمة الأنبياء، فيما يبلّغون من شرائع اللّه، يفصّلها علماء الكلام. وتتلخّص في أنّ النبيّ المبلّغ عن اللّه، يجب ـ في ضوء قاعدة اللطف ـ أن ينعم بصحّة كاملة في أجهزة إحساسه، وسلامة تامّة في قوى مشاعره، وفي مقدرته العقليّة، فيكون مستقيماً في آرائه ونظريّاته، معتدلاً في خلقه وسيرته، مستوياً في خلقته وصورته. وبكلمة جامعة: يجب أن يختار اللّه لرسالته إنساناً كاملاً في خَلْقه وخُلُقه. كي لايتنفّر الناس من معاشرته، ويطمئنّوا إلى مايبلّغه عن اللّه. وإلّا كان نقضاً لغرض التشريع.

فالنبيّ صلى الله عليه وآله معصوم من الخطأ والنسيان، ولاسيّما فيما يخصّ تبليغ أحكام الشريعة. وهذا إجماع من المسلمين ومن غيرهم من عقلاء أذعنوا برسالة الأنبياء. ولولاه لكان الالتزام بشرائع الدين سفهاً يأباه العقل.[٢]

هذا مضافاً إلى ما عهدالله لنبيّه بالرعاية والحفظ: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسىٰ».[٣] كان صلى الله عليه وآله في بدء نزول القرآن، يخشى أن يفوته شيء فكان يساوق جبرائيل فيما يلقي عليه كلمة بكلمة فنهي عن ذلك: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ فَإذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ»[٤] «وَلا تَعْجَلْ بالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَن يُقْضىٰ إلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً»[٥] قال ابن عباس: فكان رسول اللّه صلى الله عليه وآله بعد ذلك إذا أتاه جبرائيل استمع له، فإذا انطلق قرأ كما أقرأه.[٦] وأخيراً فإنّ قوله تعالى: «إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنّا لَهُ لَحافِظُونَ»[٧] يقطع أيّ

---

١ ـ راجع: ماكتبه الأُستاذ العلّامة الطباطبائي بهذا الصدد في رسالة الوحي «وحي يا شعور مرموز»، ص ١٠٤.

٢ ـ راجع: مباحث العصمة من شرح تجريد الاعتقاد: المسألة الثالثة من المقصد الرابع من مباحث النبوّة العامة، ص ١٩٥.

٣ ـ الأعلى ٨٧: ٦.

٤ ـ القيامة ٧٥: ١٦ ـ ١٩.

٥ ـ طه ٢٠: ١١٤.

٦ ـ الطبقات، ج ١، ص ١٣٢.

٧ ـ الحجر ١٥: ٩.

احتمال الدسّ والتزوير في نصوص القرآن الكريم.

وأمّا احتمال تلبيس إبليس ليتدخّل فيما يُوحى إلى النبيّ ﷺ ويجعل من تسويلاته الشيطانيّة في صورة وحي ويلبسه على النبيّ ﷺ ليزعمه وحياً من اللّه، فهو أمر مستحيل. لأنّ الشيطان لايستطيع الاستحواذ على عقليّة رسل اللّه وعباده المكرمين: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ».[١] ومتناف مع قوله تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاوِيلِ. لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ...».[٢] وقوله تعالى: «وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ. إِنْ هُوَ إِلّا وَحْيٌ يُوحىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ».[٣] وقد قال الشيطان: «وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِن سُلْطانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي»[٤] ومتناف مع قاعدة اللطف الآنفة، ومتناقض مع حكمته تعالى في بعث الأنبياء عليهم السلام في شرح سبق تفصيله.

نعم ذهب أصحاب الحديث من العامّة إلى إمكان استحواذ الشيطان على عقليّة الرسول ﷺ كما جاءت روايتهم لقصّة الغرانيق، الأمر الذي نراه مستحيلا إطلاقاً، ومن ثمّ فهي أُسطورة وضعها من يريد الإمتهان بمقام الرسالة، ليعبّر بها على عقول البسطاء، فكانت غنيمة بأيدي أعداء الإسلام. وإليك نصّ الأُسطورة ونقدها تباعاً:

أُسطورة الغرانيق

روى ابن جرير الطبري بإسناد زعمها صحيحة، عن محمدبن كعب، ومحمد بن قيس، وسعيد بن جبير، وابن عباس، وغيرهم: أنّ النبيّ ﷺ كان في حشد من مشركي قريش، بفناء الكعبة، أو في ناد من أنديتهم. وكانت تساوره نفسه لو يأتيه شيء من القرآن يقارب بينه وبين قومه الألدّاء. إذ كان يتألّم من مباعدتهم، وكان يرجو الائتلاف معهم مهما كلّف الأمر. فلمّا نزلت عليه سورة النجم، فجعل يتلوها حتى إذا بلغ: «أَفَرَأَيْتُمُ اللّاتَ

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٦٥.
٢ ـ الحاقة ٦٩: ٤٤-٤٥.
٣ ـ النجم ٥٣: ٣-٥.
٤ ـ إبراهيم ١٤: ٢٢.

وَالْعُزّىٰ. وَمَناةَ الثّالِثَةَ الأُخْرىٰ»[١] ألقى عليه الشيطان: «تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى»[٢] فحسبها وحياً، فقرأها على ملأ من قريش، ثمّ مضى وقرأ بقيّة السورة. حتى إذا أكملها سجد وسجد المسلمون، وسجد المشركون أيضاً، تقديراً بما وافقهم محمدﷺ في تعظيم آلهتهم ورجاء شفاعتهم. وطار هذا النبأ حتى بلغ مهاجري الحبشة، فجعلوا يرجعون إلى بلدهم مكة، فرحين بهذا التوافق المفاجئ. كما فرح النبيّﷺ أيضاً بتحقيق أُمنيته القديمة على ائتلاف قومه.

ويقال: إنَّ شيطاناً أبيض هوالذي تمثّل للنبيّ في صورة جبرائيل وألقى عليه تينك الكلمتين.

ويقال: كان النبيّﷺ يصلّي عند المقام إذ نعس نعسة فجرت على لسانه هاتان الكلمتان من غير شعور بهما.

ويقال: النبيّﷺ هوالذي تكلّم بهما من تلقاء نفسه حرصاً على ائتلاف قلوب المشركين. ثمّ ندم من فعله هذا الذي كان افتراء على اللّه!

ويقال: أنَّ الشيطان أجبره على النطق بهذا الكلام... الخ.

ثمّ لمّا أمسى الليل أتاه جبرائيل، فقال له: أعرض عليّ السورة. فجعل النبيّﷺ يقرأها عليه حتى إذا بلغ الكلمتين قال جبرائيل: مه، من أين جئت بهاتين الكلمتين؟ فتندّم رسول اللهﷺ وقال: لقد افتريت على اللّه، وقلت على اللّه مالم يقل؟! فحزن حزنا شديداً، وخاف من اللّه خوفاً كبيراً.

ويقال: إنَّ النبيّﷺ قال لجبرائيل: انَّه أتاني آتٍ على صورتك فألقاها على لساني. فقال جبرائيل: معاذالله أن أكون أقرأتك هذا... فاشتدّ ذلك على رسول الله. فنزلت: «وَإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَيْنا إلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإذاً لاَتَّخَذُوكَ خَليلاً. وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ

---

١ ـ النجم ٥٣: ١٩ ـ ٢٠.

٢ ـ الغرانيق: جمع الغرنوق. وهو الشاب الناعم الأبيض. وفي الأصل: اسم لطير الماء (مالك الحزين) وهو تشبيه آلهة المشركين بطيور بيض متحلّقة في أجواء السماء، كناية عن قربهم من اللّه.

لَقَدْ كِدْتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً. إذاً لأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَاتِ ثُمَّ لاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصيراً».[١]

فاشتدّ حزن رسول الله ﷺ على هذه البادرة المباغتة، ولم يزل مغموماً مهموماً، حتى نزلت عليه: «وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍ إلاّ إذا تَمَنّىٰ أَلْقَى الشَّيْطانُ في اُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّه ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّه آياتِهِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ»[٢] وكانت تسلية لقلبه الحزين. فعند ذلك سرى عنه الهمّ وطابت نفسه.[٣]

نقد الحديث سنداً

تلك اُسطورة الغرانيق، مفتراة على النبيّ الكريم ﷺ وقد أولع المستشرقون والطاعنون في الدين الإسلامي الحنيف، بهذه الاُسطورة المصطنعة وأذاعوها وأثاروا حولها عجاجة من القول البذيء.[٤]

في حين أنّها اُكذوبة مفتعلة، صنعتها قرائح القصّاصين، ونسبوها إلى بعض التابعين، ومن الصحابة إلى ابن عباس، ودلائل الكذب والافتراء بادية على محيّاها القذر.

أولاً: لم يتصل تسلسل سند الحديث إلى صحابي إطلاقاً. وإنّما اُسند إلى جماعة من التابعين ومن لم يدرك حياة رسول الله ﷺ وعليه فالحديث مرسل غيرموصول السند إلى من شاهد القضية ـ فرضاً ـ.

وأمّا النسبة إلى ابن عباس فلا تقلّ عن غيرها، بعد أن كانت ولادة ابن عباس في السنة الثالثة قبل الهجرة، فلم يشهد القصة بتاتاً، وإنّما نقلت إليه على الفرض.

فالرواية من جميع وجوهها غير موصولة الإسناد إلى شهود القصة لوصحّت الواقعة.

وقواعد فنّ التمحيص في إسناد الروايات تأبى جواز الاحتجاج بمثل هذا الحديث المرسل.

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٧٣-٧٥. ٢ ـ الحج ٢٢: ٥٢. وسنتكلّم عن الآيتين في نهاية المقال.

٣ ـ جامع البيان، ج ١٧، ص ١٣١-١٣٤؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩٤ و ٣٦٦-٣٦٨؛ وفتح الباري، ج ٨، ص ٣٣٣.

٤ ـ انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، ص ٣٤.

هذا وقد شذّ ابن حجر في قوله: فيها ثلاث مراسيل رجالها ثقات على شرط الصحّة. ثمّ أخذ يتهجّم على من زعمها مختلقة، قائلا: إذا كثرت الطرق وتباينت مخارجها، دلّ ذلك على أنّ لها أصلاً، قال: وتلك المراسيل يحتجّ بها ولو عند من لايحتجّ بالمراسيل، لاعتضاد بعضها ببعض.[١]

أقول: وهل الكذبة إذا راجت تنقلب في ماهيّتها وتصبح صادقة؟!

ثانياً: شهادة جلّ أئمة الحديث بكذب هذا الخبر، وأنّ الطرق إليه ضعاف واهية، فهو فيما يشتمل عليه من السند أيضاً ساقط في نظر الفنّ.

قال ابن حجر نفسه: وجميع الطرق إلى هذه القصة ـ سوى طريق ابن جبير ـ إمّا ضعيف (يكون الراوي غير موثوق به أو مرميّاً بالوضع والكذب) أو منقطع (أي كانت حلقة الوصل بين الراوي الأوّل والراوي الأخير مفقودة)[٢] وسنذكر أنّ بلاء طريق ابن جبير هو الإرسال والضعف أيضاً.

وقال أحمد بن الحسين البيهقي ـ أكبر أئمّة الشافعيّة، مشهوراً بدقّة النقد والتمحيص ـ: «هذا الحديث من جهة النقل غير ثابت ورواته مطعون فيهم».[٣]

وقال أبوبكر ابن العربي: «كلّ مايرويه الطبري في ذلك باطل لاأصل له»[٤] وصنّف محمد بن إسحاق بن خزيمة رسالة، فنّد فيها هذا الحديث المفتعل، ونسبه إلى وضع الزنادقة.[٥]

وقال القاضي عياض: «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحّة، ولارواه ثقة بسند سليم متصل، وإنّما أولع به وبمثله المفسّرون والمؤرّخون المولعون بكلّ غريب، المتلقّفون من الصحف كلّ صحيح وسقيم. قال: وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلّق بذلك الملحدون مع ضعف

---

١ ـ فتح الباري، ج ٨، ص ٣٣٣.
٢ ـ المصدر.
٣ ـ التفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥٠.
٤ ـ فتح الباري، ج ٨، ص ٣٣٣.
٥ ـ التفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥٠.

نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته».[١]

وأمّا طريق ابن جبير فذكر أبوبكر البزّاز: أنّ هذا الحديث لم يسنده عن شعبة إلّا أُمية بن خالد وغيره، يرسله عن سعيد بن جبير، وإنّما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ثمّ يذكر شكّه في صحّة الإسناد إلى ابن عباس أيضاً فيما اسند إلى ابن جبير.[٢] وأمّا طريق الكلبي إلى ابن عباس عن طريق أبي‌صالح فموهون بالاتفاق، قال جلال‌الدين السيوطي: هي أوهى الطرق.[٣]

ثالثاً: اتفاق كلمة المحقّقين من علماء الإسلام قديماً وحديثاً، على أنّه حديث مفترى وحكموا عليه بالكذب الفاضح، غير آبهين بجانب السند، متصل أم منقطع، صحيح أم سقيم، لأنّه قبل كلّ شيء متناقض مع صريح القرآن الذي «لايَأْتيهِ الْباطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ».[٤] وهادم لأقوى أُسس الشريعة وأقوم دعامته الرصينة.

قال الشريف المرتضى: فأمّا الأحاديث المرويّة في هذا الباب فلا يلتفت إليها، من حيث أنّها تضمّنت ما قد نزّهت العقول الرسل عليهم‌السلام عنه. هذا لولم تكن في أنفسها مطعونة ضعيفة عند أصحاب الحديث. وكيف يجيز ذلك على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله من يسمع قول الله تعالى: «كَذٰلِكَ لِنُثَبِّت بِهِ فُؤادَكَ».[٥] وقوله: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاويلِ»[٦] وقوله: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسىٰ»[٧]... ثمّ أخذ في توضيح الاستدلال.[٨]

وقال الإمام الفخر: هذه رواية عامّة المفسّرين الظاهريّين. وأمّا أهل التحقيق فيرونها باطلة موضوعة، واحتجّوا عليها بوجود من العقل والنقل.[٩]

وقال السيد الطباطبائي: الأدلّة القطعيّة على عصمة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله تكذّب متن الحديث، وإن فرضت صحّة أسناده. فمن الواجب تنزيه جانب قدسيّة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله عن أمثال هذه

---

١ ـ الشفا، ج ٢، ص ١١٧.

٢ ـ المصدر، ص ١١٨.

٣ ـ الإتقان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٤ ـ فصلت ٤١: ٤٢.

٥ ـ الفرقان ٢٥: ٣٢.

٦ ـ الحاقة ٦٩: ٤٤.

٧ ـ الأعلى ٨٧: ٦.

٨ ـ تنزيه الأنبياء، ص ١٠٧-١٠٩.

٩ ـ التفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥٠.

الرذائل التي تمسّ كرامة الأنبياء.[١]

وتكلّم القاضي عياض في تفنيد هذا الحديث بوجوه عديدة اقتبسنا منها فصولاً في هذا العرض. وأخيراً أخذ الدكتور حسين هيكل في تفنيد القصّة بأُسلوب حديث، لخّصناه في نهاية المقال.

نقد الحديث مدلولاً

هذا الحديث، فضلا عن سنده الموهون، فإنّ مضمونه باطل على كلّ تقدير: أوّلاً: مناقضته الصريحة مع كثير من نصوص القرآن الكريم في شتّى الجهات.

ثانياً: منافاته الظاهرة مع مقام عصمة الأنبياء، الثابتة بدليل العقل والنقل المتواتر والإجماع.

ثالثاً: عدم إمكان التئامه مع سائر آيات السورة نفسها، لحناً وأُسلوباً، بحيث لا يمكن التباس هذا الجانب على من يعرف أساليب الكلام الفصيح، وبالأحرى أن لا يلتبس الأمر على أفصح من نطق بالضاد، وعلى أُولئك الحضور، وهم صناديد قريش وأفلاذ العرب.

وتوضيحاً لهذه الجوانب الثلاث الخطيرة نستعرض ما يلي:

١ ـ مناقضته مع القرآن

إنّا لنربأ بمسلم نابه ـ فضلا عن ناقد خبير كابن حجر ـ أن يتسلّم صدق هذا الحديث المفتعل، نظراً لما زعمه من صحّة إسناده المراسيل، ثمّ لا يتدبّر في متنه الفاسد، الظاهر التنافي مع كثير من نصوص الكتاب العزيز، وإليك طرفاً من ذلك:

أ ـ تبدأ السورة بقوله تعالى: «وَالنَّجْمِ إِذا هَوىٰ. ماضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوىٰ. وَما يَنطِقُ عَنِ الْهَوىٰ. إنْ هُوَ إِلّا وَحْيٌ يُوحىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ».[٢]

وهي شهادة صريحة من اللّه، بأنّ محمداً ﷺ لا يضلّ ولا يغوى ولا ينطق إلّا عن

---

١ ـ تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٤٣٥.

٢ ـ النجم ٥٣: ١-٥.

وحي من اللّه، يعلّمه الروح الأمين.

فلو صحّ ماذكروه في رأس الآية العشرين، لكان تكذيباً فاضحاً لهذه الشهادة، وتغليباً لجانب الشيطان على جانب الرحمان، وهو القائل تعالى: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعِيفاً».[١] والقائل: «كَتَبَ اللّه لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللّه قَوِيٌّ عَزِيزٌ».[٢]

فكيف ـ ياترى ـ يتغلّب إبليس على ضمان يضمنه اللّه تعالى، فيبطله صريحاً، قبل أن يفرغ من كلامه عزّشأنه؟! وهل يتغلّب ضعيف في كيده على قوي في إرادته؟! وهل هذا إلّا تهافت باهت، وكلام فارغ، لايستطيع عاقل تصديقه!

ب ـ وأيضاً فإنّه تعالى يقول: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لَأَخَذنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ»[٣] كناية عن أنّ أحداً لايستطيع التقوّل على اللّه، تلبيساً للحقيقة إلّا ويهلكه اللّه من فوره. الأمر الذي تقتضيه حكمته تعالى، جرياً مع قاعدة اللطف، وقد سبقت الإشارة إليها.

أفهل ترى ـ بعد هذا التأكيد ـ يستطيع إبليس، وهو صاحب الكيد الضعيف أن يتقوّل على اللّه، ويلبس الأمر على رسول اللهﷺ بما يحسبه وحياً آتياً به جبرائيل الأمين؟! إذن فأين الضمان الذي ضمنه اللّه تعالى الغالب على أمره، وتعهّده على نفسه في الآية المذكورة؟!

ج ـ وقال تعالى: «إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ»[٤] فقد ضمن تعالى سلامة القرآن من تلاعب أيدي المبطلين، وحفظه عن دسائس المعاندين، أفهل يعقل ـ بعد ذلك ـ أن يترك إبليس وشأنه في سبيل التلاعب بالذكر الحكيم، فور نزوله على رسوله الكريم؟! وهل هذا إلّا تهافت في الرأي، وإبطال لضمان اللّه؟! ومعه لاتبقى ثقة بما وعد اللّه المؤمنين من النصر والغلبة، تعالى اللّه عن ذلك علوّاً كبيراً!!

---

١ ـ النساء ٤: ٧٦.

٢ ـ المجادلة ٥٨: ٢١.

٣ ـ الحاقة ٦٩: ٤٤-٤٦.

٤ ـ الحجر ١٥: ٩.

د ـ وقال تعالى: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[١] وقال: «إِنَّ عِبَادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكيلاً».[٢] فكيف نجوّز ـ بعد هذا الضمان الصريح المؤكّد ـ أن يتسلّط إبليس على أخلص عباد الله المكرمين، فيلبس عليه ناموس الكبرياء، وفي أمسّ شؤون رسالته المضمونة؟!

على أنّ القرآن يصرّح: أن لا سلطة لإبليس على أحد إطلاقاً، سوى وسوسته الخدّاعة ودعوته إلى شرور، أمّا التدخل عمليّاً في شؤون الخلق أو الخالق، فهذا لا سبيل لإبليس إليه إطلاقاً، وقد حكى اللّه سبحانه عن لسان إبليس: «وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إلاّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي».[٣]

٢ ـ منافاته لمقام العصمة

قال القاضي عياض: «وقد قامت الحجّة وأجمعت الأُمّة على عصمته صلى الله عليه وآله ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، أمّا تمنّيه أن ينزل عليه مثل هذا، من مدح آلهة غير اللّه، وهو كفر. أو أن يتسوّر عليه الشيطان ويشبّه عليه القرآن، حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ من القرآن ما ليس منه، حتى ينبّهه جبرائيل عليه السلام وذلك كلّه ممتنع في حقّه صلى الله عليه وآله.

أو يقول النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر. أو سهواً، وهو معصوم من هذا كلّه.

وقد قرّرنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وآله من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لا عمداً ولا سهواً.

أو أن يتشبّه عليه ما يلقيه الملك ممّا يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو يتقوّل على اللّه مالم ينزل عليه، وقد قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاويلِ... الآية».[٤] وقال تعالى: «إِذَنْ لأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ... الآية».[٥]

---

١ ـ النحل ١٦: ٩٩.
٢ ـ الإسراء ١٧: ٦٥.
٣ ـ إبراهيم ١٤: ٢٢.
٤ ـ الحاقة ٦٩: ٤٤.
٥ ـ الإسراء ١٧: ٧٥. راجع: الشفا، ج ٢، ص ١١٨-١١٩.

وأيضاً فلولا العصمة الملحوظة في أداء رسالة اللّه، لزالت الثقة بالدين، ولأخذت الشكوك مواضعها من أحكام وتكاليف وشرائع يبلّغها النبيّ ﷺ عن اللّه تعالى!!

وامتداداً لجانب عصمته ﷺ وأن لاسبيل لإبليس إلى شأن من شؤونه المعتصمة بعصمة اللّه تعالى، قال: «من رآني فقد رآني فإنّ الشيطان لايتمثّل بي».[1] وقد فهم العلماء من هذا الحديث قاعدة كليّة: لايستطيع إبليس التمثّل بأيّ وليّ من أولياء اللّه العباد المخلصين، وبالأحرى: عدم استطاعته التمثّل بجبرائيل، ملك الوحي المقرّب الأمين!!

إذن فأنّى لإبليس التلاعب بوحي السماء، أو أن ينتحل صورة رسول من رسل اللّه الأكرمين! كلّا، «لايَسَّمَّعُونَ إلَى الْمَلَإِ الْأَعْلىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جانبٍ».[2]

٣ ـ تهافته مع آي السورة

قال القاضي عياض ـ أيضاً: «ووجه ثان، وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً وذلك أنّ هذا الكلام لوكان ـ كما روي ـ لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذمّ، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبيّ ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممّن يخفى عليه ذلك. وهذا لايخفى على أدنى متأمّل، فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه».[3]

أفهل يتصوّر بشأن النبيّ محمد ﷺ وهو العارف بمواقع الكلام، الناقد لأفصح أقوال العرب الفصحاء، أن يلتبس عليه شأن كلام ساقط، لايتناسب وسائر جمل وآيات كانت تنزل عليه حينذاك؟! أم كيف ينسجم ماذكروه مع قوله تعالى: «إن هِيَ إلّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللّه بِها مِنْ سُلْطانٍ»[4] أم كيف يقتنع المشركون ـ وهم أهل نقد وفصاحة ـ بتلك المجاملة المفضوحة: يقترن مدح مشكوك، بذلك القدح الصارم، ليأخذوه تقارباً

١ ـ صحيح مسلم، ج ٧، ص ٥٤.

٢ ـ الصافات ٣٧: ٨.

٣ ـ الشفا، ج ٢، ص ١١٩.

٤ ـ النجم ٥٣: ٢٣.

مبدئيّاً بين إشراكهم والدعوة التي قام بها محمدﷺ والتي قامت على محق الشرك وإخلاص الدين الحنيف. ولاسيّما مع تعقيبها بقوله أيضاً: «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماوَاتِ لاتُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً»[1] أفهل يلتئم هذا الكلام التوحيديّ الخالص مع تلك الأُكذوبة: «وإن شفاعتهنّ لترتجى»؟!

وأخيراً فلو صحّت الحكاية لشاعت وذاعت، ولأخذها المشركون مستمسكاً في وجه المسلمين طول الدعوة، ولم يصدّقوا النبيّﷺ في دعواه النسخ مهما كلّف الأمر. هذا في حين أنّ التاريخ لم يضبط من تلك الأُقصوصة المفتعلة سوى حكايتها عن أُناس تأخّروا عن ظرفها بزمان بعيد ولم يسجّل التاريخ من يقول: حضرتها! الأمر الذي يجعلنا قاطعين بكذبها. ولعلّها من الإسرائيليّات المفضوحة التي نسجتها أيدي النكاة بالإسلام، في عهد سلطة المظالم على أرجاء البلاد الإسلاميّة، في ظلّ حكومة بني أُميَّة أعداء الدين والقرآن، وهذا هو الأرجح في نظرنا. وفي فصول هذا الكتاب الآتية يتّضح موقف هذه الفئة الباغية على الإسلام أكثر.

قال الأُستاذ هيكل: «حديث الغرانيق حديث ظاهر التهافت، ينقضه قليل من التمحيص. وهو بعد حديث ينقض ما لكلّ نبي من العصمة في تبليغ رسالات ربّه. فمن العجب أن يأخذ به بعض كتّاب السيرة وبعض المفسّرين المسلمين. ولذلك لم يتردّد ابن إسحاق حين سئل عنه في أن قال: إنّه من وضع الزنادقة. لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فاستندوا إلى قوله تعالى: «وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ».[2] وإلى قوله: «إلّا إذا تَمَنّىٰ أَلْقَى الشَّيْطانُ»[3] ويضيف «سير وليم موير» أنّ مرجع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة بعد ثلاثة أشهر من إقامتهم هناك لدليل قاطع على صحّة هذه القصة.

وهذه الحجج التي يسوقها القائل بصحّة حديث الغرانيق، حجج واهية لاتقوم أمام التمحيص: أمّا رجوع المسلمين فكان سببه اضطراب سياسيّ، عمّ أرجاء الحبشة على أثر

---

١ ـ النجم ٥٣: ٢٦.
٢ ـ الإسراء ١٧: ٧٣.
٣ ـ الحج ٢٢: ٥٢.

ثورة جديدة قامت فيها.

أمّا الاحتجاج بالآيات فاحتجاج مقلوب، لأنّ الآية الأُولى لاتشي بوقوع الأمر: «وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ».[١]

فالآية تقول: إنَّ اللّه ثبّته فلم يفعل. وأمّا آية التمنّي فلاصلة لها بحديث الغرانيق، وقد تقدّم شأنها.

ودليل آخر أقوى وأقطع: سياق السورة وعدم احتماله لمسألة الغرانيق، فإنّها ذمّ صريح، ولهجة تقريع لا ينسجم وإدراج هكذا جملة، الأمر الذي لا يكاد يخفى على العرب آنذاك.

وأيضاً فإنّ وصف آلهة قريش بالغرانيق لم يأت في نظمهم هم ولافي خطبهم ولاشيء من معنى الغرنوق يلائم معنى الآلهة التي وصفها العرب ـ كما قاله الشيخ محمد عبده ـ.

وبقيت حجّة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرانيق هذه، من حياة محمد نفسه، «فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرَّب عليه الكذب قط، حتى سمّي الأمين. وكان صدقه أمراً مسلّماً به من الناس جميعاً، فكيف يصدق إنسان أنّه يقول على ربّه مالم يقل، ويخشى الناس والله أحقّ أن يخشاه! هذا أمر مستحيل، يدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القويّة الممتازة التي تعرف الصلابة في الحقّ ولاتداجي فيه لأي اعتبار».[٢]

والآيتان ـ من سورة الإسراء وسورة الحج ـ لاتمسّان قصة الغرانيق في شيء، وإنّما تعنيان شيئاً آخر ذكره المفسّرون. وسيأتي تفصيل الكلام فيهما في خاتمة الجزء الثالث من هذا الكتاب عند التعرض لمسألة العصمة عند الكلام عن عصمة خاتم النبيّين ﷺ وإليك الآن إجمال الكلام فيهما:

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٧٤.

٢ ـ حياة محمد لمحمد حسين هيكل، ص ١٢٤-١٢٩.

أمّا الآية من سورة الإسراء: «وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً...»[١] فهي ـكما أشار إليه هيكل ـ صريحة في أنّهﷺ لم يفعل... بدليل «لولا» الامتناعيّة.. فهي إن دلّت فإنّما تدلّ على أنّ مقام عصمتهﷺ التي هي عناية من اللّه خاصّة بأوليائه المنتجبين هي التي تحول دائماً دون ارتكاب أيّة رذيلة مهما كانت صغيرة أو كبيرة...

وكم حاول أهل الزيغ والفساد أن يميلوا بمنهج الإسلام المستقيم، سواء بدسائسهم حال حياة الرسولﷺ أم بعد وفاته... ولكن أنّى لهم التناوش من مكان بعيد... «إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ».[٢]

فالآية تضمين بسلامة هذه الشريعة دون تحريف المبطلين... وكافُ الخطاب إنّماوردت من باب «إيّاك أعني واسمعي ياجارة».. كما ورد في التفسير.. وليكون ذلك اعتباراً لأولياء المسلمين طول عهد التاريخ أبداً..

وكذا الآية من سورة الحج: «وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلّا إذا تَمَنّىٰ أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللّه ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّه آياتِهِ»[٣] لامساس لها بقصّة الغرانيق، بعد أن كانت تشير إلى ظاهرة طبيعيّة كانت تخالج نفوس كبار المصلحين أبداً.. وهي: تحكيم مباني دعوتهم الإصلاحية، وتدعيم أُسسها وقوائمها، دون تضعضع أو ضياع أو فساد، وأن تطبّق شريعة اللّه عامّة الخلائق وكافّة الأُمم، وأن تزدهر معالمها وتزهو أنوارها في أرجاء العالم المعمور. هذه هي أُمنية كلّ رسول أو نبيّ، بل وكلّ قائم بالإصلاح خالصاً مخلصاً له الدين.[٤] غير أنّ دسائس أهل الزيغ والفساد قد تحول دون تحقّق هذه الأُمنية؛ لكنّه حوؤل لاقرار له، لأنّه من كيد الشيطان. «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعيفاً»[٥] وقد «كَتَبَ اللّه لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلي»،[٦] «إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذينَ آمَنوا فِي الحَياةِ

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٧٤.
٢ ـ الحجر ١٥: ٩.
٣ ـ الحج ٢٢: ٥٢.
٤ ـ وقد عبّر عنه في لسان أحاديث أهل البيتعليهم‌السلام بالمحدث، أي الملهم بأُصول الخير ومناشئ البركات، بإشراق ملكوتيّ مفاض عليه من عند ربّ العالمين. راجع: الصافي، ج ٢، ص ١٣٠.
٥ ـ النساء ٤: ٧٦.
٦ ـ المجادلة ٥٨: ٢١.

الدُّنْيا»[١] «إنَّ اللّه قَويٌّ عَزيز»[٢] «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ الْباطلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذا هُوَ زاهِقٌ»[٣] «فأمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً، وَأمّا ماينْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الْأَرْضِ».[٤] فهذه الآية أيضاً ضمان لبقاء هذا الدين وسلامته عن تطاول أيدي المحرّفين. «إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنّا لَهُ لَحافِظونَ».

كُتّاب الوحي

كان النبيّ ﷺ حسبما عرفه قومُه أُمّياً لايقرأ ولايكتب وهكذا وصفه القرآن: «الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الّذي يَجِدونَهُ مَكْتوباً عِنْدَهُمْ في التَّوْراةِ وَالْإنْجيلِ...».[٥] «فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِماتِهِ...».[٦] ولقد كان قومه أُمّةً أُمّيّين لايعلمون الكتاب: «هُوَ الَّذي بَعَثَ في الْأُمِّيّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ...».[٧] أي المنسوبين إلى أُمّ القرى كما جاء في قوله تعالى: «وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَمَنْ حَوْلَها».[٨] أو الذين لايعلمون الكتاب كما جاء في قوله: «وَمِنْهُم (اليهود) أُمِّيُّونَ لايَعْلَمُونَ الْكِتابَ إلّا أَمانِيَّ».[٩] أي لادراية لهم في فهمم الكتاب سوى تلاوته حفظاً لأمانيّ يبتغونها، وهم الجهلة من عوامّ الناس.

وقد صرّح القرآن بأُمّيّة النبيّ بهذا المعنى الثاني في الآية: «وَما كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ».[١٠] والآية لاتنفي معرفته بذلك وإنّما هو نفيٌ لمعرفة قومه إيّاه بذلك. الأمر الذي يفي بغرض الآية. فكان النبيّ ﷺ لم يُعْرف بالكتابة[١١] وكانت المصلحة أن لايعرفوه بذلك. إذن فمسّت الحاجة إلى استخدام كتبة يكتبون رسائله إلى جنب كتابة الوحي فلايضيع.

---

١ ـ غافر ٤٠: ٥١.
٢ ـ الحديد ٥٧: ٢٥.
٣ ـ الأنبياء ٢١: ١٨.
٤ ـ الرعد ١٣: ١٧.
٥ ـ الأعراف ٧: ١٥٧.
٦ ـ الأعراف ٧: ١٥٨.
٧ ـ الجمعة ٦٢: ٢.
٨ ـ الشورى ٤٢: ٧.
٩ ـ البقرة ٢: ٧٨.
١٠ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٨.
١١ ـ الأمر الذي لاينفي المعرفة ذاتاً وهو كمال لاينبغي لنبيٍّ العراء منه.

كان علي عليه‌السلام أوّل من كتب له صلى‌الله‌عليه‌وآله في مكّة ودام حتى آخر حياته.

ومن ميزاته عليه‌السلام أنّه لم يفته شيئ من الوحي إلّا وسجّله في كتاب، حتى الذي كان ينزل في غيابه فيحفظه له النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله حتى يحضر ويملي عليه ليكتب.

وميزة أُخرى: أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لم يكن ليقتصر على إملاء الوحي عليه نصّاً، بل وكان يردفه بما احتاج إلى تفسير وتأويل. فأملى عليه التنزيل والتأويل معاً.

روى سليم بن قيس الهلالي العامري (من أصحابه الأجلّاء توفي حدود ٩٠) قال: جلست إلى علي عليه‌السلام بالكوفة في المسجد والناس حوله. فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب اللّه فوالله مانزلت آية من كتاب اللّه إلّا وقد أقرأنيها رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وعلّمني تأويلها! فقال ابن الكوّاء:[١] فما كان ينزل عليه وأنت غائب؟ فقال: بلى، يحفظ عَلَيَّ ما غبتُ عنه، فإذا قدمت عليه قال لي: ياعليّ، أنزل اللّه بعدك كذا وكذا فيقرأنيه وتأويله كذا وكذا فيعلّمنيه.[٢]

وأوّل من كتب له في المدينة أُبيّ بن كعب الأنصاري كان من المعدودين الذين يُجيدون الكتابة ذلك العهد. وهو أوّل من ختم الرسائل بـ «وكتب فلان...» وقد تولّى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله عرض القرآن عليه كملاً وقد حضر العرضة الأخيرة فيمن حضر، ومن ثَمَّ تولّى الإشراف على الكتبة على عهد عثمان وكان هو المرجع فيما كانوا يختلفون فيه.[٣]

كان زيد بن ثابت يسكن في جوار النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وكان شابّاً جلداً يحسن الكتابة، وكان النبيّ إذا غاب أُبيٌّ أرسل إلى زيد ليكتب له، حتى أصبح من كتّابه الرسميّين. والأغلب كان يتصدّى كتابة رسائله. وأمره أن يتعلّم العبريّة في مدارس يهودية كانت هناك باسم

---

١ ـ اسمه عبدالله من بني يشكر كان من رؤوس الخوارج حين خرجوا على عليّ عليه‌السلام في وقعة صفّين. ثمّ رجع هو وجماعة بعد أن نصحهم ابن عباس. كان يلازم عليّاً ويسائله المشاقّ فيما يراه وكان يسأل فيما يسأل ـ أكثريّاً ـ تعنّتاً لاتفهّماً. وكان الإمام يجيبه برحابة صدر أجوبة رشيدة بقيت لنا رصيداً حافلاً بأنواع العلوم والمعارف طول الأيام.

٢ ـ كتاب سليم برواية أبان (ط نجف)، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

٣ ـ راجع: الطبقات، ج ٣، ق ٢، ص ٥٩؛ والإصابة لابن حجر، ج ١، ص ١٩؛ والاستيعاب لابن عبدالبرّ بهامش الإصابة، ج ١، ص ٥٠ ـ ٥١؛ والمصاحف للسجستاني، ص ٣٠.

«ماسلة» ليستعين بها على كتابة رسائله العبريّة.

فعمدة الكتّاب الرسميّين هم هؤلاء الثلاثة: عليٌّ وَأُبَيّ وزيدٌ. أمّا غيرهم فـهم فـي الدرجة الثانية. يقول ابن الأثير: كان عبدالله بن الأرقم الزهري من المواظبين على كتابة الرسائل، أمّا العهود والمواثيق فكان يكتبها علي عليه السلام وعدّ من كتّابه جماعة منهم الخلفاء الثلاثة و زبيربن العوام و خالد و أبان إبنا سعيد بن العاص و حنظلة الأُسيدي و علاء بن الحضرمي و خالد بن الوليد وعبدالله بن رواحة ومحمدبن مسلمة وعبدالله بن أبي سلول ومغيرة بن شعبة وعمربن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وجهم او جـهيم بـن الصـلت ومعيقب بن أبي فاطمة وشرحبيل بن حسنة.

ويضيف قائلاً: أوّل من كتب له من قريش عبدالله بن سعد بى أبي سرح وهاجر معه إلى المدينة ثُمَّ ارتدّ وهرب إلى مكّة يعيب على رسول الله صلى الله عليه وآله تساهله بأمر الوحي.

كان يقول لقريش: إنّي كنت أصرف محمداً حيث أريد، كان يُـملي عَـلَيَّ «عـزيز حكيم» فأقول: أو عليم حكيم؟ فيقول: نعم كلٌّ صواب! فلمّا كان يوم الفتح أهدر النّبي صلى الله عليه وآله دمه. ولكن عثمان ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ تشفّع له وأصرّ ولم يزل به حتى أعفاه النبيّ بعد صمت طويل يريد أن يبادر أحد فيقتله. ومات في كنف معاوية سنة سبع وثلاثين.[1]

قال ابن أبي الحديد: الذي عليه المحقّقون من أهل السيرة أنّ الوحي كـان يكـتبه علي عليه السلام وزيدبن ثابت وزيد بن أرقم. وأنّ حنظلة بن الربيع التيميّ ومعاوية بن أبي سفيان كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل، ويكتبان حوائجه بين يـديد، ويكـتبان مايُجبى من أموال الصدقات ومايقسَّم في أربابها.[2]

ويبدو أنّ من ذكرناهم كانوا هم العـدّة المـعروفين بـمعرفة الكـتابة واسـتخدمهم رسول الله صلى الله عليه وآله في حوائجه.

يروي البلاذري عن الواقدي قال: ظهر الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً يعرفون

---

١ ـ أُسد الغابة لابن الأثير، ج ١، ص ٥٠، ذيل ترجمة أُبيّ بن كعب؛ وج ٣، ص ١٧٣ في ترجمة عبدالله نفسه.

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٣٣٨.

الكتابة: علي بن أبي طالب و عمربن‌الخطّاب وعثمان بن عفّان وأبوعبيدة بن الجرّاح وطلحة بن عبيدالله ويزيد بن أبى سفيان وأبوحذيفة بن عتبة بن ربيعة وحاطب بن عمرو أخوسهيل بن عمرو العامري وأبوسلمة بن عبدالأسد المخزومي وأبان بن سعيد بن العاص بن أُميّة وخالد بن سعيد أخوه وعبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري وحويطب بن عبدالعزّى العامري وأبوسفيان بن حرب بن أُميّة ومعاوية بن أبي سفيان وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطّلب بن عبد مناف والعلاء بن الحضرمي.

ومن النساء اللاتي كنّ يعرفن الكتابة مذ ظهر الإسلام: أُمّ كلثوم بنت عقبة وكريمة بنت المقداد والشفاء بنت عبدالله العدويّة فطلب منها رسول‌الله صلى الله عليه وآله أن تعلّم حفصة بنت عمر الكتابة كما عَلَّمَتْهَا رَقْيَة النملة.[١] وكانت أُمّ سلمة تقرأ المصحف ولاتكتب وكذا عائشة بنت أبي‌بكر.

قال الواقدي: كتب حنظلة بن الربيع بن رباح الأُسَيدي من بني تميم بين يدي رسول‌الله صلى الله عليه وآله مرّةً فسمّي حنظلة الكاتب. قال: كان الكتاب بالعربيّة في الأوس والخزرج قليلاً. وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربيّة وكان تَعَلَّمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأوّل، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدّة يكتبون، وهم: سعدبن عبادة بن دليم والمنذر بن عمرو وأُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، فكان يكتب العربيّة والعبرانيّة[٢] ورافع بن مالك وأُسيد بن حضير ومعن بن عديّ البلوي و بشير بن سعد و سعدبن الربيع و أوس بن خوليّ و عبد اللّه بن أبي المنافق.

قال: أوّل من كتب لرسول‌الله صلى الله عليه وآله عند مقدمه المدينة أُبيّ بن كعب الأنصاري، وهو أوّل من كتب في آخر الكتاب: وكتب فلان. فكان إذا لم يحضر، دعا رسول‌الله صلى الله عليه وآله زيد بن ثابت الأنصارى فكتب له. فكان أُبيّ وزيد يكتبان الوحي بين يديه ورسائله إلى الآفاق.[٣]

---

١ ـ الرقنة: التزيين بالحنّاء أو الزعفران. ولعلّ رقنة النملة كانت نوع تزيين تتزيّن به النساء.

٢ ـ ذكر الواقدي بإسناده عن خارجة بن زيد: أنّ أباه زيد بن ثابت قال: أمرني رسول‌الله صلى الله عليه وآله أن أتعلّم له كتاب يهود. وقال لي: إنّي لا آمن يهوداً على كتابي. فلم يمرّ بي نَصَف (أي برهة قصيرة من الزمن)حتى تعلّمته فكنْت أكتب له إلى اليهود. و إذا كتبوا إليه قرأت كتابهم.

٣ ـ فتوح البلدان للبلاذري، ص ٤٥٦ ـ ٤٦٠.

نزول القرآن

هناك مسألة ذات أهمية تمسّ جانب نزول الوحي قرآناً، وارتباطه مع بدء الرسالة، حيث اقترنت البعثة ـ وكانت في شهر رجب ـ بنزول شيء من القرآن (خمس آيات من أوّل سورة العلق) في حين تصريح القرآن بنزوله في ليلة القدر من شهر رمضان! فما وجه التوفيق؟ وهكذا تعيين المدّة التي نزل القرآن خلالها تدريجاً، والسور التي نزلت قبل الهجرة لتكون مكيّة ـ اصطلاحاً ـ والتي نزلت بعدها لتكون مدنيّة. وهل هناك استثناء لآيات على خلاف السور التي ثبتت فيها؟ والأرجح أن لااستثناء، وأنّ السورة إذا كانت مكّيّة فجميع آيها مكيّة، وهكذا السور المدنيّات. إذ لادليل على الاستثناء على ماسنبيّن.. وإليك تفصيل هذه الجوانب:

بدء نزول الوحي «البعثة»

قال الشيخ الجليل الثقة علي بن إبراهيم القمّي: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لما أتى له سبع وثلاثون سنة، كان يرى في منامه كأنّ آتياً يأتيه فيقول: يا رسول الله! ومضت عليه برهة من الزمان وهو على ذلك يكتمه، وإذا هو في بعض الأيام يرعى غنماً لأبي طالب في شعب الجبال، إذ رأى شخصاً يقول له: يا رسول الله! فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرائيل، أرسلني اللّه

إليك ليتّخذك رسولاً، فجعل يعلّمه الوضوء والصلاة. وذلك عندما تـمّ له أربـعون سـنة. فدخل عليّ عليه السلام وهو يصلّي. قال: يا أباالقاسم ما هذا؟ قال: هذه الصلاة التي أمرني اللّه بها. فجعل يصلّي معه. وكانت خديجة ثالثتهما. فكان عليّ عليه السلام يصلّي إلى جناح رسـول الله الأيمن، وخديجة خلفه، فأمر أبوطالب ابنه جعفراً أن يصلّي إلى جناح رسول الله الأيسر. وكان زيدبن حارثة عتيق رسول الله[١] قد أسلم عند ما نبّيء رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يصلّي معهم أيضاً. وبهذا الجمع انعقدت بذرة الإسلام.[٢]

وفي تفسير الإمام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يغدو كلّ يوم إلى حراء، وينظر إلى آثار رحمة اللّه، متعمّقاً في ملكوت السماوات والأرض، ويعبد الله حقّ عبادته، حتى استكمل سنّ الأربعين، ووجد اللّه قلبه الكريم أفضل القلوب وأجلّها وأطوعها وأخشعها. فأذن لأبواب السماء ففتحت، وأذن للملائكة فنزلوا، ومحمد صلى الله عليه وآله ينظر إلى ذلك، فنزلت عليه الرحمة من لدن ساق العرش، ونظر إلى الروح الأمين جبرائيل مطوّقاً بالنور، هبط إليه وأخذ بضبعه وهزّه، فقال: يامحمد! إقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: يامحمّد! «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَـلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذي عَلَّمَ بالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسانَ مالَمْ يَعْلَم»[٣].

ثمّ أوحى إليه ما أوحى. وصعد جبرائيل إلى ربّه، ونزل محمد صلى الله عليه وآله من الجـبل وقـد غشيه من عظمة اللّه وجلال ابُّهته ماركبه الحمّى النافضة[٤] وقد اشتدّ عليه ما كان يخافه من تكذيب قريش ونسبته إلى الجنون وقد كان أعقل خلق اللّه وأكرم بريّته. وكان أبغض الأشياء إليه الشيطان وأفعال المجانين. فأراد اللّه أن يشجّع قلبه ويشرح صدره، فجعل كلّما يمرّ بحجر وشجر ناداه: السلام عليك يارسول الله صلى الله عليه وآله.[٥]

---

١ ـ قيل: اشتراه رسول الله صلى الله عليه وآله لخديجة، فلمّا تزوّجها وهبته له، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وآله وقيل: استوهبته خديجة من ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد، عندما قدم مكة برقيق فيهم زيد وصيف أي غلام لم يراهق. فقال لها: يا عمّة! اختاري أيّ هؤلاء الغلمان شئت. فاختارت زيداً، ثمّ وهبته لرسول الله صلى الله عليه وآله فأعتقه رسول الله وتبنّاه.

٢ ـ بحارالأنوار، ج ١٨، ص ١٨٤، ح ١٤ وص ١٩٤، ح ٣٠.

٣ ـ العلق ٩٦: ١ ـ ٥.

٤ ـ وهي الشديدة.

٥ ـ تفسير الإمام، ص ١٥٧، وهو منسوب إلى الإمام الحاديعشر: الحسن بن علي العسكري عليه السلام وقد طعن بـعض ←

وفي شرح النهج: أنّ بعض أصحاب أبي جعفر محمدبن علي الباقر عليه السلام سأله عن قول اللّه ـ عزّوجلّ ـ: «إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً»[1] فقال: يوكّل اللّه تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدّون إليه تبليغهم الرسالة، ووكّل بمحمد صلى الله عليه وآله ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوىء الأخلاق، وهو الذي كان يناديه: السلام عليك يامحمد يارسول‌الله، وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظن أنّ ذلك من الحجر والأرض، فيتأمّل فلايرى شيئاً.[2]

و راجع الخطبة القاصعة من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام بهذا الشأن، وقد نقلنا فيما سبق شطراً منها. وهي الخطبة رقم: ۲۳۸ في شرح النهج لابن أبي الحديد.

وفي تاريخ الطبري: كان رسول‌الله صلى الله عليه وآله من قبل أن يظهر له جبرائيل عليه السلام برسالة اللّه إليه، يرى ويعاين آثاراً وأسباباً من آثار من يريد اللّه إكرامه واختصاصه بفضله، فكان من ذلك مامضى من خبره عن الملكين اللذين أتياه فشقّا بطنه[3] واستخرجا ما فيه من الغلّ والدنس، وهو عند أُمّه من الرضاعة حليمة، ومن ذلك أنّه كان إذا مرّ في طريق لايمرّ بشجر ولاحجر إلّا سلّم عليه. وهكذاكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لايرى بيتاً، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية. فلايمرّ بحجر ولاشجرة إلّا قالت: السلام عليك يا رسول‌الله صلى الله عليه وآله فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً.[4]

← المحقّقين في نسبته إلى الإمام عليه السلام لما فيه من مناكير. لكن لو كان المقصود أنّه من تأليف الإمام بقلمه وإنشائه الخاصّ، فهذا شيء لايمكن قبوله بتاتاً. وأمّا إذا كانت النسبة بملاحظة أنّ الراوي كان يحضر مجلس الإمام عليه السلام ويسأله عن أشياء ممّا يتعلّق بتفسير آي القرآن، ثمّ عندما يعود إلى منزله يسجّله حسب ما حفظه ووعاه، وربّما يزيد عليه أشياء أو ينقص، وفق معلوماته الخاصّة أيضاً. فهذا شيء لاسبيل إلى إنكاره. ونحن نقول بذلك، ومن ثمّ نعتمد على كثير ممّا جاء في هذا التفسير، ممّا يوافق سائر الآثار الصحيحة: وراجع أيضاً: بحارالأنوار، ج ۱۸، ص ۲۰۵ ـ ۲۰٦، ح ۳٦.

۱ ـ الجن ۷۲: ۲۷.

۲ ـ شرح نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد، ج ۱۳، ص ۲۰۷.

۳ ـ لم يرد بهذا التعبير حديث من طريق أهل البيت عليهم السلام ولعلّ هذه التعابير كانت كناية عن أُمور معنويّة بإبعاد الصفات الخسيسة عن طباعه صلى الله عليه وآله

٤ ـ تاريخ الطبري، ج ۲، ص ۲۹٤ ـ ۲۹٥.

قال اليعقوبي: كان جبرائيل يظهر له ويكلّمه أو ربّما ناداه من السماء ومن الشجرة ومن الجبل. ثمّ قال له: إنَّ ربّك يأمرك أن تجتنب الرجس من الأوثان، فكان أوّل أمره. فكان رسول‌الله يأتي خديجة ابنة خويلد ويقول لها ماسمع وتكلّم به، فتقول له: استر يا ابن عم! فوالله إنّي لأرجو أن يصنع اللّه بك خيراً.[١]

وكان رسول‌الله ﷺ يوم بعث قد استكمل الأربعين، لعشرين مضين من ملك كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان.[٢] قال اليعقوبي: كان مبعثه ﷺ في شهر ربيع الأوّل. وقيل: في رمضان. ومن شهور العجم: في شباط. قال: وأتاه جبرائيل ليلة السبت وليلة الأحد، ثمّ ظهر له بالرسالة يوم الاثنين.[٣] قال ابن سعد: نزل الملك على رسول‌الله ﷺ بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان.[٤]

قال أبوجعفر الطبري: وهذا ـ أي نزول الوحي عليه بالرسالة يوم الاثنين ـ ممّا لاخلاف فيه بين أهل العلم وإنّما اختلفوا في أي الاثانين كان ذلك؟ فقال بعضهم: نزل القرآن على رسول‌الله ﷺ لثماني عشرة خلت من رمضان. وقال آخرون: لأربع وعشرين خلت منه. وقال آخرون: لسبع عشرة خلت من شهر رمضان. واستشهدوا لذلك بقوله تعالى: «وَما أَنْزَلْنا عَلىٰ عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَقَى الْجَمْعَانِ»[٥] وذلك ملتقى رسول‌الله ﷺ والمشركين ببدر، وكان صبيحة سبع عشرة من رمضان.[٦]

لكن لادلالة في الآية على أنّ مبعثه كان مصادفاً لذلك اليوم.

أولاً: لأنّ المقصود: ما أُنزل عليه ذلك اليوم من دلائل الحقّ وآيات النصر، لاالقرآن كلّه ولامبدأ نزوله.

وثانياً: سوف نذكر: أنّ مبدأ نزول القرآن ـ بعنوان كونه كتاباً سماوياً ـ كان متأخّراً عن يوم مبعثه بالرسالة، فقد بعث ﷺ رسولاً إلى الناس في ٢٧ رجب، و أُنزل عليه القرآن في

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧. طبعة النجف الثانية.

٢ ـ الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٩ ـ ٣٠.

٣ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧ ـ ١٨.

٤ ـ الطبقات، ج ١، ص ١٢٩.

٥ ـ الأنفال ٨: ٤١.

٦ ـ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

شهر رمضان ليلة القدر، وربّما كان بعد فترة ثلاث سنين كما يأتي.

وثالثاً: معنى يوم الفرقان: اليوم الذي فرق فيه بين الحقّ والباطل، وغلب الحقّ على الباطل فكان زهوقاً، وكان يوماً حاسماً في حياة المسلمين، وقد أيس الشيطان فيه أن يعبد أو يطاع إلى الأبد.[١]

قال المسعودي: أوّل ما نزل عليه ﷺ من القرآن: «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك». وأتاه جبرائيل في ليلة السبت ثمّ في ليلة الأحد وخاطبه بالرسالة يوم الاثنين، وذلك بحراء، وهو أوّل موضع نزل فيه القرآن، وخاطبه بأوّل السورة إلى قوله: «عَلَّمَ الإنسانَ مَالَمْ يَعْلَمْ» ونزل تمامها بعد ذلك.

وكان ذلك بعد بنيان الكعبة بخمس سنين، على رأس عشرين سنة من ملك كسرى أبرويز، وعلى رأس مائتي سنة من يوم التحالف بالربذة.[٢]

وكانت سنة ستمائة وتسع من تاريخ ميلاد المسيح عليه السلام.[٣]

والصحيح عندنا في تعيين يوم مبعثه ﷺ: أنّه اليوم السابع والعشرون من شهر رجب الأصب، على ماجاء في روايات أهل البيت عليهم السلام ويستحبّ صيامه والقيام بآداب وعبادات تخصّه، تلتزم بها الشيعة الإماميّة، كلّ عام تقديساً لهذا اليوم المبارك، الذي أُنزلت الرحمة فيه على الناس جميعاً، وافتتحت أبواب البركة العامّة على أهل الأرض، إذ بعث النبيّ ﷺ رحمة للعالمين، فياله من يوم مبارك!

قال الإمام الصادق عليه السلام: «في اليوم السابع والعشرين من رجب نزلت النبوّة على رسول الله ﷺ»[٤] وقال: «لاتدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب فإنّه هو اليوم الذي نزلت فيه النبوّة على محمد ﷺ».[٥]

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «بعث اللّه ـ عزّوجلّ ـ محمداً ﷺ رحمة للعالمين في سبع

---

١ ـ راجع: تفسير شبّر، ص ١٩٥.
٢ ـ مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٨٢.
٣ ـ تاريخ التمدّن الإسلامي لجرجي زيدان، ج ١، ص ٤٣.
٤ ـ الأمالي لابن الشيخ، ص ٢٨. راجع: بحارالأنوار، ج ١٨، ص ١٨٩، ح ٢١.
٥ ـ الكافي، ج ٤، ص ١٤٩، ح ١.

وعشرين من رجب، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستّين شهراً».[١]

والروايات بهذا الشأن من طرق أهل البيت عليهم السلام كثيرة.[٢]

وهكذا وردت روايات من طرق أهل السنة، بتعيين نفس اليوم:

أورد الحافظ الدمياطي في سيرته عن أبي هريرة، قال: «من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً، وهو اليوم الذي نزل فيه جبرائيل على النبيّ صلى الله عليه وآله بالرسالة وأوّل يوم هبط فيه جبرائيل».[٣]

وروى البيهقي في شعب الايمان، عن سلمان الفارسي، قال: «في رجب يوم وليلة، من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام مائة سنة وقام مائة سنة، وهو لثلاث بقين من رجب، وفيه بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله».[٤]

وروى صاحب المناقب عن ابن عباس، وأنس بن مالك: أنّهما قالا: «أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وآله يوم الاثنين، السابع والعشرين من رجب، وله من العمر أربعون سنة».[٥]

قال العلّامة المجلسي رحمه الله: اختلفوا في اليوم الذي بُعث فيه النبيّ محمد صلى الله عليه وآله على خمسة أقوال:

الأوّل: سابع عشر شهر رمضان.

الثاني: ثامن عشر شهر رمضان.

الثالث: أربع وعشرون شهر رمضان.

الرابع: ثاني عشر ربيع الأوّل.

الخامس: سابع وعشرون شهر رجب.

قال: وعلى الأخير اتفاق الإماميّة.[٦]

---

١ ـ المصدر، ح ٢.

٢ ـ راجع: وسائل الشيعة، باب ١٥ من أبواب الصوم المندوب، ج ٧، ص ٣٢٩، ح ١.

٣ ـ السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٣٨.

٤ ـ منتخب كنزالعمال بهامش المسند، ج ٣، ص ٣٦٢.

٥ ـ المناقب، ج ١، ص ١٧٣؛ وبحارالأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٤، ح ٣٤.

٦ ـ بحارالأنوار، ج ١٨، ص ١٩٠.

أقول: وهناك قول سادس: ثامن ربيع الأوّل. وقول سابع: ثالث ربيع الأوّل. ذكرهما ابن برهان الحلبي في سيرته. ثمّ ذكر القول بأنّه الثاني عشر من ربيع الأوّل، يوم مولده الشريف، ليوافق القول بأنّه بعث على رأس تمام الأربعين.[١]

وسنذكر: أنّ أكثريّة القائلين ببعثته صلّى الله عليه وآله في شهر رمضان، لعلّه قد اشتبه عليهم مبدأ حادث النبوّة بمبدأ حادث نزول القرآن كتاباً فيه تبيان كلّ شئ وهذا الاشتباه يبدو من استدلالهم على تعيين يوم البعثة بما دلّ على أنّ القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان. وسنتحقّق: أن لاصلة بين الحادثين، فقد بعث صلّى الله عليه وآله في رجب: ٢٧. ولكنّ القرآن بسمته كتاباً مفصّلاً، بدأ نزوله على النبيّ صلّى الله عليه وآله في شهر رمضان: ليلة القدر. بعد ثلاث سنين من نبوّته صلّى الله عليه وآله فكانت مدّة نبوّته صلّى الله عليه وآله ثلاثاً وعشرين سنة. ولكن فترة نزول القرآن مفرّقاً استغرقت عشرين عاماً، بدأت بدخول السنة الرابعة من البعثة، وختمت في عاشر الهجرة بوفاته صلّى الله عليه وآله.

بدء نزول القرآن

لاشكّ أنّ القرآن نزل على رسول الله صلّى الله عليه وآله في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، لقوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ».[٢] وقوله: «إِنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ»[٣] وقوله: «إِنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ»[٤]

وليلة القدر ـ عندنا ـ مردّدة بين ليلتين في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك: إحدى وعشرين أم ثالثة وعشرين؟ والأرجح أنّها الثانية، لحديث الجهني.[٥]

وقال الصدوق عليه السلام: اتفق مشايخنا على أنّها ليلة ثلاث وعشرين.[٦]

والكلام في تعيّن ليلة القدر ليس من مبحثنا الآن، وإنّما يهمّنا التعرّض لجوانب من

---

١ ـ السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٣٨.
٢ ـ البقرة ٢: ١٨٥.
٣ ـ الدخان ٤٤: ٣.
٤ ـ القدر ٩٧: ١.
٥ ـ راجع: وسائل الشيعة، باب ٣٢ من أبواب أحكام شهر رمضان، ج ٧، ص ٢٦٢، ح ١٦.
٦ ـ الخصال، ص ٥١٩.

هذا التحديد، أي نزول القرآن في ليلة واحدة ـ هي ليلة القدر ـ من شهر رمضان.

أوّلاً: منافاته ـ ظاهراً ـ مع ما أسلفناه من اتفاق الإماميّة وعدد من أحاديث غيرهم، على أنّ البعثة كانت في رجب، ولاشكّ أنّ البعثة كانت مقرونة بنزول آي من القرآن: خمس آيات من أوّل سورة العلق. فكيف يتمّ ذلك مع القول بنزول القرآن ـ كلّه أو بدء نزوله ـ في شهر رمضان في ليلة القدر؟

ثانياً: ماذا يكون المقصود من نزول القرآن في ليلة واحدة هي ليلة القدر؟ هل نزل القرآن كلّه جملة واحدة تلك الليلة؟ مع العلم أنّ القرآن نزل نجوماً لفترة عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً، حسب المناسبات والظروف المختلفة، ودعيت باسم «أسباب النزول»، فكيف ذلك؟

ثالثاً: ما هي أوّل آية أو سورة نزلت من القرآن، فإن كانت هي سورة العلق أو آي منها، فلم سُمّيت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنى: أنّها كتبت في بدء المصحف! لأنّ هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله أو لاأقل في عهد متأخّر من حياته ـ فرضاً ـ في حين أنّها كانت تسمّى بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها: «لاصلاة إلّا بفاتحة الكتاب»[1] حديث مأثور عن لسان النبيّ صلى الله عليه وآله!

وللإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة ـ بصورة إجماليّة ـ نقول: إنّ بدء البعثة يختلف عن بدء نزول القرآن ككتاب سماويّ. لأنّه صلى الله عليه وآله نبّيء ولم يؤْمَر بالتبليغ العام إلّا بعد ثلاث سنوات، كان خلالها يدعو في اختفاء حتى نزلت الآية: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ».[2] ومن هذا الحين جعل القرآن ينزل تباعاً، بسمة كونه كتاباً أُنزل من السماء وكان يسجّل على العسب واللخاف، يكتبه من كان يعرف الكتابة من المؤمنين، وهم عدد قليل، خلال عشرين عاماً.

وقد كان بدء نزول القرآن ـ بعد تلك الفترة ـ في ليلة القدر من شهر رمضان. وبهذا

---

١ ـ صحيح مسلم، ج ٢، ص ٩؛ ومنتخب كنزالعمال بهامش المسند، ج ٣، ص ١٨٠.

٢ ـ الحجر ١٥: ٩٤.

الاعتبار صحّ التعبير بأنّ القرآن نزل في ليلة القدر، وإن كان نزوله تباعاً استغرق عشرين عاماً. إذ كلّ حدث خطير تكون له مدّة وامتداد، فإنّ تاريخه يسجّل حسب مبدأ شروعه، كما سنفصّل الكلام عنه.

أمّا أوّل آية نزلت فهي الآيات الخمس من أوّل سورة العلق، ونزلت بقيّتها في فترة متأخّرة. غير أنّ أوّل سورة كاملة نزلت من القرآن هي سورة الحمد، ومن ثمّ سمّيت بفاتحة الكتاب.

هذا إجمال الكلام حول هذه المواضيع الثلاثة، وأمّا التفصيل فهو كما يلي:

فترة ثلاث سنوات

ولنفرض أنّ البعثة كانت في رجب، حسب رواية أهل البيت ولفيف من غيرهم، لكن القرآن ـ بسمة كونه كتاباً سماويّاً ودستوراً إلهياً خالداً ـ لم ينزل عليه إلّا بعد فترة ثلاث سنين. كان النبيّ ﷺ خلالها يكتم أمره من ملأ الناس، ويدعو إلى الله سرّاً، ومن ثمّ لم يكن المشركون يتعرّضون أذاه، سوى طعنات لسنية، حيث لا يرون من شأنه ما يخشى على دينهم.

وكان يصلّي إذ ذاك مع رسول الله ﷺ أربعة: علي وجعفر وزيد وخديجة. وكلّما مرّ بهم ملأ من قريش سخروا منهم.

قال علي بن إبراهيم القمّي: فلمّا أتى لذلك ثلاث سنين، أنزل الله عليه: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ»[1] قال: وكان ذلك بعد أن نبّئ بثلاث سنين.[2]

وقال اليعقوبي: وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين يكتم أمره.[3]

---

١ ـ الحجر ١٥: ٩٤-٩٥.

٢ ـ تفسير القمّي، ج ١، ص ٣٧٨؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٥٣، ح ٧ وص ١٧٩، ح ١٠.

٣ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٩.

وقال محمد بن‌إسحاق: وبعد ثلاث سنين من مبعثه نزل «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» فأمر أن يجهر بالدعوة ويعمّ الإنذار.[١]

قال الإمام الصادق عليه‌السلام: «مكث رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بمكة بعد ما جاءه الوحي عن اللّه تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر أمره، حتى أمره الله أن يصدع بما أُمر به، فأظهر حينئذٍ الدعوة».[٢]

وهذه الروايات، إذا لاحظناها مع روايات قائلة: إنَّ فترة نزول القرآن على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله استغرقت عشرين عاماً، تعطينا: أنّ مبدأ نزول القرآن كان متأخّراً عن البعثة بثلاث سنوات، إذ لاشك أنّ القرآن كان ينزل عليه صلى‌الله‌عليه‌وآله حتى عام وفاته صلى‌الله‌عليه‌وآله وبذلك يلتئم القول بأن بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان، ليلة القدر كما نصّ عليه القرآن الكريم.

قال الإمام الصادق عليه‌السلام: «ثمّ نزل القرآن في طول عشرين عاماً». كما جاء في رواية الكليني[٣] والعياشي[٤] وأشار إليه الصدوق[٥] والمجلسي.[٦] والنصّ على تحديد فترة نزول القرآن بعشرين عاماً كثير.[٧]

وإلى هذا المعنى تشير الرواية عن سعيد بن المسيب، قال: أُنزل على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو ابن ثلاث وأربعين[٨] أي أُنزل عليه القرآن عند ذلك. إذ لاشكّ أنّ النبوّة نزلت عليه صلى‌الله‌عليه‌وآله عند اكتمال الأربعين، وهذا إجماع الأُمّة، وعليه اتفاق كلمتهم، فكيف يخفى على مثل سعيد؟!

وروى الواحدي بإسناده إلى الشعبي، قال: فرّق الله تنزيله فكان بين أوّله وآخره عشرون أو نحو من عشرين سنة.[٩]

وأوضح من ذلك مارواه الإمام أحمد بسند متصل إلى عامر الشعبي: أنّ رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله

---

١ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٢٨٠؛ والمناقب، ج ١، ص ٤٣؛ وبحارالأنوار، ج ١٨، ص ١٩٣-١٩٤، ح ٢٩.

٢ ـ الغيبة للشيخ الطوسي، ص ٣٣٣؛ وكمال الدين، ج ٢، ص ٣٤٤، رقم ٢٩؛ وبحارالأنوار، ج ١٨، ص ١٧٧، ح ٤.

٣ ـ الكافي، ج ٢، ص ٦٢٨-٦٢٩، ح ٦.

٤ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ٨٠، ح ١٨٤.

٥ ـ الاعتقادات، ص ١٠١.

٦ ـ بحارالأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٠، ح ٣ و ص ٢٥٣.

٧ ـ راجع: الإتقان، ج ١، ص ١١٨؛ وتفسير شبّر، ص ٣٥٠.

٨ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٦١٠.

٩ ـ أسباب النزول، ص ٣.

نزلت عليه النبوّة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوّته إسرافيل ثلاث سنين. فكان يعلّمه الكلمة والشيء، ولم ينزل القرآن. فلمّا مضت ثلاث سنين، قرن بنبوّته جبرائيل. فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة، فمات ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة. قال ابن كثير: وهو إسناد صحيح إلى الشعبي.[١]

وهذه الرواية وإن كانت فيها أشياء لانعرفها، ولعلّها من اجتهاد الشعبي الخاصّ، لكن الذي نريده من هذه الرواية هو جانب تحديد نزول القرآن في مدّة عشرين عاماً، وأنّ نزوله تأخّر عن البعثة بثلاث سنين، وهذا شيء متّفق عليه.

آراء وتأويلات

وأمّا تأويل نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، مع العلم أنّ القرآن نزل منجّماً طول عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً، في فترات ومناسبات خاصّة، تدعى بأسباب النزول، فللعلماء في ذلك آراء وتأويلات:

١ ـ إنّ بدء نزوله كان في ليلة القدر من شهر رمضان.

وهذا اختيار محمد بن إسحاق[٢] والشعبي.[٣] قال الإمام الرازي: وذلك لأنّ مبادئ الملل والدول هي التي تؤرّخ بها. لكونها أشرف الأوقات. ولأنّها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة.[٤] وهكذا فسّر الزمخشري الآية بذلك، قال: «ابتدئ فيه إنزاله».[٥]

وهو الذي نرتأيه، نظراً لأنّ كلّ حادث خطير، إذا كانت له مدّة وامتداد زمنّي، فإنّ بدء شروعه هو الذي يسجّل تاريخيّاً كما إذا سُئل عن تاريخ دولة أو مؤسّسة أو تشكيل حزبيّ، أو إذا سئل عن تاريخ دراسة طالب علم أو تلبُّسه الخاصّ وأمثال ذلك، فإنّ الجواب هو تعيين مبدأ الشروع أو التأسيس لاغير.

---

١ ـ البداية والنهاية، ج ٣، ص ٤؛ والإتقان، ج ١، ص ١٢٩؛ والطبقات، ج ١، ص ١٢٧؛ وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٧٦.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ١١٨.

٤ ـ التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٥.

٥ ـ الكشاف، ج ١، ص ٢٢٧.

وأيضاً: فإنّ قوله تعالى: «أُنزِلَ فيهِ الْقرْآنُ»[١] والآيات الأُخر، حكاية عن أمر سابق لا يشمل نفس هذا الكلام الحاكي وإلّا لكان اللفظ بصيغة المضارع أو الوصف. فنفس هذا الكلام دليل على أنّ من القرآن مانزل متأخّراً عن ليلة القدر، اللّهمّ إلّا بضرب من التأويل غير المستند، على ماسيأتي.

كما أنّ اختلاف مناسبات الآيات، حسب الظروف والدواعي، أكبر دليل على اختلاف مواقع نزولها، إذ يربط ذلك كلّ آية بحادثة في قيد وقتها، وهذا في كلّ آية نزلت بشأن حدث أو واقعة وقعت في وقتها الخاصّ، وجاءت آية تعالجها في نفس الوقت. كلّ ذلك دليل على أنّ القرآن لم ينزل جملة واحدة. وإلّا لما كان موقع لقولة المشركين: «لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً» قال تعالى ـ ردّاً على هذا الاعتراض ـ: «كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتيلاً».[٢] أي كان نزول القرآن تباعاً وفي فترات مناسبة أدعم لاطمئنان قلبك، حيث الشعور بعناية الله المتواصلة في كلّ آونة ومناسبة.[٣]

وذهب إلى هذا الرأي ـ أيضاً ـ ابن شهرآشوب في المناقب، قال: شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن أي ابتدأ نزوله. وقال في متشابهات القرآن: والصحيح أنّ «القرآن» في هذا الموضع لا يفيد العموم، وإنّما يفيد الجنس: فأيّ شيء نزل فيه فقد طابق الظاهر.[٤]

ويبدو من الشيخ المفيد ﴿رحمه الله﴾ من آخر كلامه ردّاً على أبي جعفر الصدوق ﴿رحمه الله﴾ فيما يأتي، اختيار هذا القول أيضاً، قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر، أنّه نزلت جملة منه ليلة القدر، ثمّ تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبيّ ﷺ. فأمّا أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر، فهو بعيد عمّا يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الأخبار، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء.[٥]

٢ ـ كان ينزل على النبيّ ﷺ في كلّ ليلة قدر من كلّ عام، ماكان يحتاج إليه الناس

---

١ ـ بقرة ٢: ١٨٥.
٢ ـ الفرقان ٢٥: ٣٢.
٣ ـ راجع: الإتقان، ج ١، ص ١١٩.
٤ ـ المناقب، ج ١، ص ١٧٣؛ ومتشابهات القرآن، ج ١، ص ٦٣.
٥ ـ شرح عقائد الصدوق، ص ٥٨.

في تلك السنة من القرآن، ثمّ ينزله جبرائيل حسب مواقع الحاجة شيئاً فشيئاً بما يأمره اللّه تعالى. فيكون المقصود من شهر رمضان: هوالنوع. لارمضان خاصّ ـ وهو احتمال الإمام الرازي أيضاً ـ.[1]

وهذا اختيار ابن جريج[2] والسدّي، وأسنده الأخير إلى ابن عباس أيضاً.[3] ونقله القرطبي عن مقاتل بن حيّان. ووافقه الحليمي والماوردي وغيرهما.[4]

غير أنّ هذا الاختيار، يخالفه ظاهر قوله تعالى: «أُنزِلَ فيهِ» أو «أَنْزَلْناهُ» حكاية عن حدث سابق، فلوصحّ هذا القول لكان المناسب أن يقول: ننزله، صفة للحال!

وأيضاً يردّه ما استبعدناه على الرأي الخامس الآتي: ماهي الفائدة المتوخّاة من نزول قرآن قبل الحاجة إليه، ولاسيّما في صيغة جملة الماضي أو الحال، المستدعية كونها نزلت لمناسبة وقتيّة، لاموقع لنزولها قبل ذلك، حسب التعبير اللفظي!

٣ ـ شهر رمضان الذي نزل في شأنه القرآن، أي في فرض صيامه، كما يقال: نزل في فلان، أو في مناسبة كذا قرآن. والمراد من القرآن آية أو آيات منه.[5]

قال الضحّاك: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ»،[6] أي الذي أُنزل صومه في القرآن.[7] وقال سفيان بن عيينة: معناه: أُنزل في فضله القرآن. واختاره الحسين بن الفضل وابن الأنباري.[8]

لكن هذا الوجه يخصّ آية البقرة، ولايجري في آيتي الدخان والقدر، كما لايخفى. فضلا عن أنّه تأويل في اللفظ لامبرّر له ولامستند.

٤ ـ إنّ معظمه نزل في أشهر رمضان، ومن ثمّ صحّ نسبة الجميع إليه.

وهذا احتمال ثان احتملهما سيّد قطب، قال: الشهر الذي أُنزل فيه القرآن إمّا بمعنى أنّ

---

١ ـ التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٥.
٢ ـ الدرّ المنثور، ج ١، ص ١٨٩.
٣ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٧٦.
٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ١١٨.
٥ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٧٦؛ والكشاف، ج ١، ص ٢٢٧.
٦ ـ البقرة ٢: ١٨٥.
٧ ـ الدرّ المنثور، ج ١، ص ١٩٠.
٨ ـ التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٥.

بدء نزوله كان في رمضان، أو أنّ معظمه نزل في أشهر رمضان.[١]

لكن لادليل على أنّ معظم آيات القرآن نزلت في أشهر رمضان وفي ليلة القدر بالخصوص. ولعلّ الواقعيّة تأبى هذا الاحتمال رأساً.

٥ ـ القرآن نزل جملة واحدة في ليلة واحدة، هي ليلة القدر، إلى بيت العزّة أو البيت المعمور، ثمّ نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله في فترات ومناسبات، طول عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً.

ذهب إلى هذا القول جماعة من أرباب الحديث. نظراً لظاهر أحاديث رويت في ذلك.

قال الشيخ الصدوق ـ عليه الرحمة ـ: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، جملة واحدة إلى البيت المعمور، في السماء الرابعة، ثمّ نزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة. وأنّ اللّه أعطى نبيّه العلم جملة واحدة، ثمّ قال له: «وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضىٰ إلَيْكَ وَحْيُهُ».[٢]

قال العلّامة المجلسي ـ تعقيباً على هذا الكلام ـ: قد دلّت الآيات على نزول القرآن في ليلة القدر. والظاهر نزوله جميعاً فيها. ودلّت الآثار والأخبار على نزول القرآن في عشرين[٣] أو ثلاث وعشرين سنة.[٤] وورد في بعض الروايات: أنّ القرآن نزل في أوّل ليلة من شهر رمضان.[٥] ودلّ بعضها على أنّ ابتداء نزوله في المبعث.[٦] فيجمع بينها بأنّ في ليلة القدر نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الرابعة (البيت المعمور) لينزل من السماء الرابعة إلى الأرض تدريجاً.

---

١ ـ في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٢٤٥.
٢ ـ طه ٢٠: ١١٤؛ راجع: الاعتقادات، ص ١٠١.
٣ ـ الكافي، ج ٢، ص ٦٢٨ ـ ٦٢٩، ح ٦.
٤ ـ هي مدّة نبوّته صلى الله عليه وآله بناء على ابتداء نزول القرآن بيوم مبعثه واختتامه بوفاته صلى الله عليه وآله.
٥ ـ الكافي، ج ٤، ص ٦٦، ح ١.
٦ ـ وهي روايات دلّت على أنّ أوّل سورة نزلت هي سورة العلق، نزلت في بدء البعثة في اليوم ٢٧ من رجب. راجع: بحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٣٩، ح ١، وج ١٨، ص ٢٠٦، ح ٣٦.

ونزل في أوّل ليلة من شهر رمضان جملة القرآن على النبيّ صلى الله عليه وآله ليعلمه هو، ولا يتلوه على الناس، ثمّ ابتدأ نزوله آية آية وسورة سورة في المبعث أو غيره ليتلوه على الناس...[١]

وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس: قال: أنزل القرآن ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ووضع في بيت العزّة، ثمّ اُنزل نجوماً على النبيّ صلى الله عليه وآله في عشرين سنة.

قال جلال‌الدين: وهذا هو أصحّ الأقوال وأشهرها. وروى في ذلك روايات كثيرة، حكم على أكثرها بالصحّة، رواها عن الحاكم والطبراني والبيهقي والنسائي وغيرهم.[٢]

وروى الطبري بإسناده عن واثلة بن الأسقع عن النبيّ صلى الله عليه وآله: قال: «اُنزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من شهر رمضان. واُنزلت التوراة لست مضين من رمضان. واُنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت. واُنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان».[٣]

وفيه عن السّدي عن ابن عباس، قال: شهر رمضان، والليلة المباركة ليلة القدر، فإنّ ليلة القدرهي الليلة المباركة، وهي في رمضان، نزل القرآن جملة واحدة من الزبر إلى البيت المعمور، وهي مواقع النجوم في السماء الدنيا، حيث وقع القرآن، ثمّ نزل على محمد صلى الله عليه وآله بعد ذلك في الأمر والنهي وفي الحروب رسلاً رسلاً.[٤]

وكان عطيّة بن الأسود قد وقع في نفسه الشكّ من هذه الآية، وقد نزل القرآن في جميع شهور السنة، فسأل ابن عباس عن ذلك، فأجابه بما تقدّم.[٥]

وهكذا روى جلال‌الدين بسنده إلى جابر بن عبدالله الأنصاري ـ رضوان‌الله عليه ـ قال: أنزل الله صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان، وأنزل التوراة على موسى لست خلون من رمضان، وأنزل الزبور على داود لاثنتي عشرة خلت من رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد صلى الله عليه وآله لأربع وعشرين خلت من رمضان.[٦]

---

١ ـ بحارالأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤، ح ٣.
٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ١١٦-١١٨.
٣ ـ جامع البيان، ج ٢، ص ٨٤.
٤ ـ المصدر، ص ٨٤-٨٥.
٥ ـ الدرّ المنثور، ج ١، ص ١٨٩.
٦ ـ المصدر.

ومن طرقنا روى العياشي عن إبراهيم، أنّه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ»[١] كيف أُنزل فيه القرآن، وإنّما أُنزل القرآن في طول عشرين سنة، من أوّله إلى آخره؟! فقال الإمام عليه السلام: «نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ أُنزل من البيت المعمور في طول عشرين سنة. ثمّ قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان. وأُنزلت الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان وأُنزل الزبور لثماني عشرة من رمضان. وأُنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان».[٢]

وجاء الحديث في الكافي، إلّا أنّ في آخره: «وأُنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان» والرواية هي عن الحفص بن غياث.[٣]

وفي التهذيب جاء قسم من الحديث برواية أبي بصير، وفي آخره: «ونزل الفرقان في ليلة القدر».[٤]

هذه جملة من روايات مأثورة، تفسّر نزول القرآن جملة واحدة في ليلة واحدة، إمّا إلى البيت المعمور في السماء الرابعة، كما في روايات الخاصّة. أو إلى بيت العزّة في السماء الدنيا، كما في بعض روايات العامّة، ثمّ منها نزلت آياته مفرّقة على رسول الله صلى الله عليه وآله حسب الظروف والمناسبات رسلاً رسلاً...

وقد أخذ الظاهريّون من أصحاب الحديث بظاهر هذه الروايات، مستريحين بأنفسهم إلى مدلولها الظاهري تعبّداً محضاً.

أمّا المحقّقون من العلماء فلم يرقهم الأخذ بما لا يمكن تعقّله، ولا مقتضى للتعبّد بما لا يرجع إلى أُصول العباديات، ومن ثمّ أخذوا ينقدون هذه الأحاديث نقداً علميّاً. متسائلين: ما هي الفائدة الملحوظة من وراء نزول القرآن جملة واحدة في إحدى السماوات العلى، ثمّ ينزل تدريجياً على رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

---

١ ـ البقرة ٢: ١٨٥.

٢ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ٨٠، ح ١٨٤.

٣ ـ الكافي، ج ٢، ص ٦٢٨ ـ ٦٢٩، ح ٦.

٤ ـ تهذيب الأحكام، ج ٤، ص ١٩٣ ـ ١٩٤، ح ٧.

وإجابة على هذا السؤال، قال الفخر الرازي: ويحتمل أن يكون ذلك تسهيلا على جبرائيل أو لمصلحة النبيّ صلى الله عليه وآله في توقّع الوحي من أقرب الجهات.[١]

وهذا الجواب غاية في الوهن والسقوط، مضافاً إلى أنّه تخرّص بالغيب، ونستغرب صدور مثل هذا الكلام الفارغ من مثل هذا الرجل المضطلع بالتحقيق!!

وقال المولى الفيض الكاشاني: وكأنّه أُريد بذلك: نزول معناه على قلب النبيّ صلى الله عليه وآله، كما قال تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ. عَلىٰ قَلْبِكَ».[٢] ثمّ نزل طول عشرين سنة نجوماً من باطن قلبه إلى ظاهر لسانه، كلّما أتاه جبرائيل عليه السلام بالوحي وقرأه عليه بألفاظه.[٣]

فقد أوّل رحمه الله البيت المعمور إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله. وربّما أراد الصدوق رحمه الله أيضاً هذا المعنى من قوله: وأعطى نبيّه العلم جملة واحدة.

وهكذا وقع اختيار الشيخ أبي عبدالله الزنجاني في تأويل هذه الرواية، قال: ويمكن أن نقول بأنّ روح القرآن وهي أغراضه الكلّية التي يرمي إليها، تجلّت لقلبه الشريف في تلك الليلة «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ عَلىٰ قَلْبِكَ»[٤] ثمّ ظهرت بلسانه الأظهر مفرقّة في طول سنين «وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً».[٥]

وقد أخذ العلّامة الطباطبائي رحمه الله هذا التأويل وزاد عليه تحقيقاً، قال: إنّ الكتاب ذا حقيقة أُخرى وراء مانفهمه بالفهم العادي، وهي حقيقة ذات وحدة متماسكة لاتقبل تفصيلاً ولاتجزئة، لرجوعها إلى معنى واحد لا أجزاء فيه ولافصول. وإنّما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طرأ عليه بعد ذلك الإحكام، قال تعالى: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ».[٦] وقال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَريمٌ. في كِتابٍ مَكْنُونٍ. لايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ».[٧] وقال: «وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلىٰ عِلْمٍ»...[٨] إذن فالمراد بإنزال القرآن في ليلة القدر: إنزال حقيقة الكتاب المتوحّدة إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله دفعة، كما أُنزل القرآن المفصّل في

---

١ ـ التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٥.

٢ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.

٣ ـ الصافي في تفسير القرآن، ج ١، ص ٤٢.

٤ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.

٥ ـ الإسراء ١٧: ١٠٦. راجع: تاريخ القرآن، ص ١٠.

٦ ـ هود ١١: ١.

٧ ـ الواقعة ٥٦: ٧٧ ـ ٧٩.

٨ ـ الأعراف ٧: ٥٢.

فواصل وظروف، على قلبه ﷺ أيضاً تدريجاً في مدّة الدعوة النبويّة...[١]

أقول: هذا كلام لطيف، لكنّه لايعدو تأويلاً غير مستندٍ إلى دليل، والمسألة قبل كلّ شيء نقليّة وليست بالعقليّة النظريّة، ومن ثمّ نتساءل هؤلاء الأعلام: بم أوّلتم البيت المعمور الذي هو في السماء الرابعة ـ حسب روايات الخاصّة ـ أو بيت العزّة ـ حسب روايات العامّة ـ إلى قلب رسول الله ﷺ؟! ولم هذا التعبير جاء في هذا اللفظ؟! وسوف نناقش السيد العلّامة في اختيار وجود آخر للقرآن بسيط، وراء هذا الوجود المفصّل، سيأتي الكلام عليه في فصل المتشابهات إن شاء الله.[٢]

تحقيق مفيد

قال المحقّق العلّامة الشيخ أبوعبدالله المفيد: الذي ذهب إليه أبوجعفر ﵀[٣] في هذا الباب، أصله حديث واحد ـ أي ليس من المتواتر المقطوع به ـ لايوجب علماً ولاعملاً. ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالا فحالا يدلّ على خلاف ما تضمّنه هذا الحديث. وذلك أنّ القرآن قد تضمّن حكم ما حدث وذكر ماجرى على وجهه، وذلك لايكون على الحقيقة إلّا لوقت حدوثه عند السبب...

مثلاً قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللّه قَوْلَ الَّتي تُجادِلُكَ فِي زَوجَها وَتَشْتَكي إلَى اللّهِ وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرُكما»،[٤] نزلت هذه الآية بشأن خولة بنت خويلد جاءت تشتكي زوجها أوس بن الصامت الذي كان قد ظاهرها، وكان ذلك طلاقاً في الجاهليّة.[٥]

وقوله تعالى: «وَإذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْلَهْواً انفَضُّوا إلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً».[٦] وقوله: «رِجالٌ صَدَقُوا

---

١ ـ تفسير الميزان، ج ٢، ص ١٤ ـ ١٦.

٢ ـ عند الكلام عن حقيقة التأويل في الجزء الثالث من الكتاب.

٣ ـ نقلنا كلامه سابقاً. وكلام المفيد هنا ردّ عليه، وعلى كلّ من ذهب مذهبه من اختيار ظاهر تلكم الأحاديث.

٤ ـ المجادلة ٥٨: ١.

٥ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٤٦.

٦ ـ الجمعة ٦٢: ١١.

ماعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَابَدَّلُوا تَبْديلاً».[١]

وكثير في القرآن لفظة «قالوا» و«قال» و«جاؤوا» و«جاء» ـ بلفظ الماضي ـ كما أنّ فيه ناسخاً ومنسوخاً... كلّ ذلك لايتناسب ونزوله جملة واحدة في وقت لم يحدث شيء من ذلك.

قال: ولو تتبّعنا قصص القرآن، لجاء ممّا ذكرناه كثيراً لايتّسع به المقال. وماأشبه ماجاء به هذا الحديث بمذهب المشبّهة الذين زعموا أنّ اللّه سبحانه لم يزل متكلّماً بالقرآن ـ أي القول بقدم القرآن ـ ومخبراً عمّا سيكون بلفظ كان، وقد ردّ عليهم أهل التوحيد بنحو ماذكرناه.

قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر: أنّه نزلت جملة منه ليلة القدر، ثمّ تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله فأمّا أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد عمّا يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الأخبار، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء...[٢]

وقال المرتضى علم الهدى: «والذي ذهب إليه أبوجعفر ابن بابويه من القطع على أنّه أُنزل جملة واحدة...» إن كان معتمداً في ذلك على الأخبار المرويّة التي رواها، فتلك أخبار آحاد لاتوجب علماً ولاتقتضي قطعاً. وبإزائها أخبار كثيرة أشهر منها وأكثر، تقتضي أنّه أُنزل متفرّقاً، وأنّ بعضه نزل بمكة وبعضه بالمدينة، ولهذا نسب بعض القرآن إلى أنّه مكّيّ وبعضه مدنيّ. وأنّه صلى الله عليه وآله كان يتوقّف عند حدوث حوادث، كالظهار وغيره، على نزول ما ينزل إليه من القرآن، ويقول صلى الله عليه وآله: ما أُنزل إليّ في هذا شيء ولو كان القرآن أُنزل جملة واحدة لماجرى ذلك، ولكان حكم الظهار وغيره ممّا يتوقّف فيه معلوماً له. ومثل هذه الأُمور الظاهرة المنتشرة لايرجع عنها بأخبار الآحاد خاصة.

---

١ ـ الأحزاب ٣٣: ٢٣.

٢ ـ شرح عقائد الصدوق (تصحيح الاعتقاد)، ص ٥٨.

فأمّا القرآن نفسه فدالّ على ذلك، وهو قوله تعالى: «وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً» ولو كان أُنزل جملة واحدة لقيل في جوابهم قد أُنزل على ما اقترحتم، ولا يكون الجواب: «كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتيلاً»[١] وفسّر المفسّرون كلّهم ذلك بأن قالوا: المعنى إنّا أنزلناه كذلك أي متفرّقاً يتمهّل على إسماعه ويتدرّج إلى تلقّيه. والترتيل أيضاً إنّما هو ورود الشيء في أثر الشيء، وصرْف ذلك إلى العلم به غير صحيح، لأنّ الظاهر خلافه. ولم يقل القوم: لولا علمنا بنزوله جملة واحدة، بل قالوا: لولا أُنزل إليك جملة واحدة. وجوابهم إذا كان أُنزل كذلك أن يقال: قد كان الذي طلبتموه، ولا يحتجّ لإنزاله متفرقّاً بماورد بنزوله في تمام الآية.

فأمّا قوله: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ»[٢] فإنّما يدلّ على أنّ جنس القرآن (معظمه أو بدء شروعه) نزل في هذا الشهر، ولا يدلّ على نزول الجميع فيه.

فأمّا قوله: «وَلاتَعْجَل بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضىٰ إلَيْكَ وَحْيُهُ»[٣] فلا ندري من أي وجه دلّ على أنّهُ أُنزل جملة واحدة. وقد كان أنّه ﷺ يبيّن وجه دلالته على ذلك. وهذه الآية بأن تدلّ على أنّه ما أُنزل جملة واحدة أولى، لأنّه تعالى قال: «قَبْل أَنْ يُقْضىٰ إلَيْكَ وَحْيُهُ» وهذا يقتضي أنّ في القرآن منتظراً ماقضى الوحي به وقوع منه.

وقد كنّا سئِلنا إملاء تأويل هذه الآية قديماً، فأملينا فيها مسألة مستوفاةً، وذكرنا عن أهل التفسير فيها وجهين، وضممنا إليهما وجهاً ثالثاً تفرّدنا به. فأحد الوجهين: إنّه كان ﷺ إذا نزل عليه الملك بشيء من القرآن قرأه مع الملك المؤدّي له إليه قبل أن يستتمّ الأداء. حرصاً منه ﷺ على حفظه وضبطه. فأمر ﷺ بالتثبّت حتى ينتهي غاية الأداء، لتعلّق الكلام بعضه ببعض.

والوجه الثاني: إنّه ﷺ نهى أن يبلّغ شيئاً من القرآن قبل أن يوحى إليه بمعناه وتأويله

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٣٢. ٢ ـ البقرة ٢: ١٨٥.

٣ ـ طه ٢٠: ١١٤.

وتفسيره.

والوجه الثالث ـ الذي انفردنا به ـ إنّه ﷺ نهى عن أن يستدعي من القرآن مالم يوح إليه به لأنّ مافيه مصلحة منه لابدّ من إنزاله وإن لم يستدع، لأنّه تعالى لا يدّخر المصالح عنهم. ومالا مصلحة فيه لايُنزله على كلّ حال، فلا معنى للاستدعاء.

فلا تعلق للآية بالموضع الذي وقع فيه...[١]

إنزال وتنزيل

وممّا تعلّق به أصحاب القول بنزول القرآن مرّتين: دفعيّة وتدريجيّة، هوالفرق بين التعبيرين (إنزال وتنزيل) بشأن نزول القرآن: قالوا: متى جاء التعبير بإنزال القرآن فالمراد نزوله الدفعي، كما في قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآن».[٢] وقوله: «إِنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ».[٣] و«إِنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ».[٤]

أمّا التعبير بالتنزيل فيعني نزوله التدريجي: «وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرأهُ عَلَى النّاسِ عَلىٰ مُكث وَنزّلْناهُ تَنْزيلاً».[٥]

قال الزمخشري ـ في قوله تعالى: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التوراةَ وَالْإِنْجيلَ»[٦] ـ: لِمَ قال بشأن الكتاب: نزّل. وبشأن التوراة والإنجيل: أنزل؟ فأجاب: لأنّ القرآن نزل منجّماً ونزل الكتابان جملةً![٧]

وقال الراغب: والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة: أنّ التنزيل يختصّ بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرّقاً ومرّةً بعد أُخرى، والإنزال عامّ.

قال ـ في الآيات الثلاث الأُولى ـ: وإنّما خصّ لفظ الإنزال دون التنزيل، لما روي أنّ القرآن نزل دفْعَةً واحدة إلى سماء الدنيا، ثُمَّ نزل نجماً فنجماً. وفي قوله تعالى: «الأعرابُ

---

١ ـ جواب المسائل الطرابلسيّات الثالثة. ضمن المجموعة الأُولىٰ من رسائل الشريف المرتضى، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥.

٢ ـ البقرة ٢: ١٨٥.

٣ ـ الدخان ٤٤: ٣.

٤ ـ القدر ٩٧: ١.

٥ ـ الإسراء ١٧: ١٠٦.

٦ ـ آل‌عمران ٣: ٣.

٧ ـ الكشاف، ج ١، ص ٣٣٦.

أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأجدَرُ أَنْ لايَعْلَمُوا حُدودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلىٰ رَسولِهِ».[١] فخصّ لفظ الإنزال ليكون أعمّ. وقوله: «لَوْ أنْزَلْنا هٰذا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ»[٢] ولم يقل: لونزّلنا، تنبيهاً أنّا لوخوّلناه مرّةً ماخوّلناك مراراً «لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً»...[٣]

وتابعهما على ذلك سيدنا العلّامة الطباطبائي مؤكّداً عليه ومصرّاً على أنّ التعبير بالإنزال إنّما كان باعتبار نزول حقيقة القرآن البسيطة دفعة في ليلة القدر من شهر رمضان. وأمّا التنزيل فهو نزول تفاصيله تدريجيّاً في تمام مدّة الرسالة.[٤]

لكن الحقيقة تبدو غيرذلك، فقد حكى الله عن العرب قولتهم: «لَوْلا نُزِّلَ عَلَيهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً»،[٥] فجاء التعبير عن نزول جملة القرآن دفعة بالتنزيل. وأيضاً قوله تعالى: «لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً»،[٦] والملك شخص وهو لاينزل شيئاً فشيئاً مدرّجاً.

وقوله: «وَقالُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيةٌ مِّنْ رَّبِّهِ»،[٧] والآية تنزل لفردها.

وقوله: «وَيَقولُ الَّذينَ آمَنُوا لَولا نُزِّلَتْ سُورَةٌ»،[٨] أي نزولها جملةً.

وقوله: «وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرطاسٍ فَلَمسُوهُ»[٩] أي نزوله بجملته.

ويرد على العلّامة فيما حسبه من اختصاص لفظة الإنزال بالبسائط، قوله تعالى: «هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمات هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٍ»[١٠] والكتاب المنزل الذي فيه المحكم والمتشابه هو هذا القرآن الذي فيه تفصيل وتبيين.

وقوله: «وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتاب مُفَصَّلاً».[١١] والنازل مفصّلاً هو هذا القرآن الذي نزل منجّماً.

وقد جمع بين التعبيرين بشأن هذا القرآن في آية واحدة: «وَأَنْزَلْنا اِلَيْكَ الذِّكْر لِتُبَيِّنَ

---

١ ـ التوبة ٩: ٩٧.

٢ ـ الحشر ٥٩: ٢١.

٣ ـ المفردات للراغب، ص ٤٨٩.

٤ ـ تفسير الميزان، ج ٢، ص ١٤.

٥ ـ الفرقان ٢٥: ٣٢.

٦ ـ الإسراء ١٧: ٩٥

٧ ـ الأنعام ٦: ٣٧.

٨ ـ محمد ٤٧: ٢٠.

٩ ـ الأنعام ٦: ٧.

١٠ ـ آل‌عمران ٣: ٧.

١١ ـ الأنعام ٦: ١١٤.

لِلنّاس مانُزِّلَ إلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرونَ».[١]

وقد وهم الزمخشري هنا مرّتين، أُولاهما: ما حسبه بشأن الإنجيل أنّه كتاب وماهو إلّا بشائر ألقاها على الحواريين. ولم يكن له كتاب بمعناه المصطلح.[٢] وقوله: «آتانِيَ الكِتابَ»[٣] يعني به الشريعة ذاتها وهو تعبير مصطلح شائع، قال تعالى: «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالْحِكْمَةَ»،[٤] أي يعلّمهم الشريعة إلى جنب الحكمة وهي البصيرة في الدين.

وثانيتهما: ماحسبه بشأن التوراة أنّها نزلت من السماء بصورة كتاب. في حين أنّها ألواح أخذها موسى عليه السلام معه ليكتب عليها ما يُمليه عليه الرحمان على جبل طور. فكان كتاب موسى (على حدّ تعبير القرآن)[٥] كتبه بيده. أمّا الذي أنزله الله عليه فهي إملاءات أملاها عليه تدريجيّاً طول إقامته على جبل طور.[٦]

أوّل ما نزل

اختلف الباحثون في شؤون القرآن، في أنّ أيّ آياته أو سوره نزلت قبل؟ والأقوال في ذلك ثلاثة:

١ ـ سورة العلق. لأنّ نبوّته صلى الله عليه وآله بدأت بنزول ثلاث أو خمس آيات من أوّل سورة العلق. وذلك حينما فجأه الحقّ وهو في غار حراء، فقال له الملك: اقرأ فقال: ما أنا بقارىء، فغطّه غطّاً ثمّ قال له: «إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ. خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ.[٧] الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ».[٨]

وفي تفسير الإمام: هبط إليه جبرائيل وأخذ بضبعه وهزّه، فقال: يامحمد صلى الله عليه وآله إقرأ:

١ ـ النحل ١٦: ٤٤.

٢ ـ راجع: التمهيد، الجزء الثامن، أين صار الإنجيل النازل على المسيح: وقصص الأنبياء للنجار، ص ٣٩٩.

٣ ـ مريم ١٩: ٣٠.

٤ ـ البقرة ٢: ١٢٩.

٥ ـ «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسىٰ إماماً وَرَحْمَةً»، الأحقاف ٤٦: ١٢.

٦ ـ راجع: سفر الخروج ٣٤: ٢٧.

٧ ـ صحيح البخاري، ج ١، ص ٣.

٨ ـ العلق ٩٦: ١-٥. راجع: صحيح مسلم، ج ١، ص ٩٧.

قال: وما أقرأ؟ قال: يامحمد «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ».[١]

وروي عن الإمام الصادق عليه‌السلام: «أوّل ما نزل على رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله «بِسْمِ اللّـه الرَّحْمانِ الرَّحيمِ. إقْرأ بِاسْمِ رَبِّكَ» وآخر ما نزل عليه «إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ».[٢]

٢ ـ سورة المدثّر. لما روي عن ابن سلمة، قال: «سألت جابر بن‌عبدالله الأنصاري: أي القرآن أُنزل قبل؟ قال: يا أَيُّها الْمُدَّثِّرُ. قلت: أو إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ؟ قال: أُحدّثكم ما حدّثنا به رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: إنّي جاورت بحراء، فلمّا قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي ـ ولعلّه سمع هاتفاً ـ ثمّ نظرت إلى السماء فإذا هو ـ يعني جبرائيل ـ فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثّروني، فأنزل اللّه «يا أَيُّها الْمُدَّثِّرُ. قُم فَأَنْذِرْ».[٣]

هذا.. ولعلّ جابراً اجتهد من نفسه أنّها أوّل سورة نزلت، إذ ليس في كلام رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله دلالة على ذلك، والأرجح أنّ ماذكره جابر، كان بعد فترة انقطاع الوحي، فظنّه جابر بدء الوحي.[٤] وإليك حديث فترة انقطاع الوحي برواية جابر أيضاً:

قال: سمعت رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يحدّث عن فترة الوحي، قال: فبينما أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسيّ بين السماء والأرض، فجئثت منه فرقاً ـ أي فزعت ـ فرجعت، فقلت: زمّلوني زمّلوني فدثّروني، فأنزل اللّه تبارك وتعالى: «يا أَيُّها الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِر وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ»[٥] ـ وهي الأوثان ـ قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: ثمّ تتابع الوحي. وفي لفظ البخاري: فحمى الوحي وتتابع.[٦]

---

١ ـ تفسير الإمام، ص ١٥٧؛ وبحارالأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٦، ح ٣٦؛ وتفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٧٨.

٢ ـ الكافي، ج ٢، ص ٦٢٨ ـ ٦٢٩، ح ٥؛ وعيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٥-٦، ح ١٢؛ وبحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٣٩، ح ١؛ وتفسير البرهان، ج ١، ص ٢٩.

٣ ـ صحيح مسلم، ج ١، ص ٩٩.

٤ ـ راجع: البرهان، ج ١، ص ٢٠٦.

٥ ـ المدثّر ٧٤: ١-٥.

٦ ـ صحيح مسلم، ج ١، ص ٩٨؛ وصحيح البخاري، ج ١، ص ٤.

٣ ـ سورة الفاتحة. قال الزمخشري: أكثر المفسّرين على أنّ الفاتحة أوّل ما نـزل.[١] وروى العلّامة الطبرسي عن الأُستاذ أحمد الزاهد في كتابه «الإيضاح» بإسناده عن سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي‌طالب عليه‌السلام أنّه قال: «سألت النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأوّل ما نزل عليه بمكة: فاتحة الكتاب، ثمّ: إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ثمّ: ن وَالْقَلَمِ...».[٢]

وروى الواحدي في أسباب النزول بسنده عن أبي ميسرة عمروبن شرحبيل، قال: كان رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا خلى وحده سمع نداء فيفزع له، وللمرّة الأخيرة ناداه الملك: يامحمد! قال: لبّيك، قال: قل: «بِسْمِ اللّه الرَّحْمانِ الرَّحيمِ. الْحَمدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمينَ (حتى بلغ:) وَلا الضّالّينَ».[٣]

قلت: لاشكّ أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يصلّي منذ بعثته، وكان يصلّي معه علي وجعفر وزيدبن حارثة وخديجة.[٤] ولاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[٥] فقد ورد في الأثر: أوّل ما بدأ به جبرائيل: أن علّمه الوضوء والصّلاة[٦] فلابدّ أنّ سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة. قال جلال الدين السيوطي: لم يحفظ أنّه كان في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب.[٧]

وبعد.. فلانرى تنافياً جوهرياً بين الأقوال الثلاثة، نظراً لأنّ الآيات الثلاث أو الخمس من أوّل سورة العلق إنّما نزلت تبشيراً بنبوّته صلى‌الله‌عليه‌وآله وهذا إجماع أهل الملّة، ثمّ بعد فترة جاءته آيات ـ أيضاً ـ من أوّل سورة المدثّر، كما جاء في حديث جابر ثانياً. أما سورة الفاتحة فهي أُولى سورة نزلت بصورة كاملة، وبسمة كونها سورة من القرآن كتاباً سماوياً للمسلمين، فهي أوّل قرآن نزل عليه صلى‌الله‌عليه‌وآله بهذا العنوان الخاص، وأمّا آيات غيرها سبقتها

---

١ ـ الكشاف، ج ٤، ص ٧٧٥. وناقشه ابن‌حجر مناقشة سطحيّة لامجال لها بعد توضيحنا الآتي في وجه الجمع بين الأقوال الثلاثة. وراجع: فتح الباري، ج ٨، ص ٥٤٨.

٢ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥.

٣ ـ أسباب النزول، ص ١٠.

٤ ـ تفسير علي بن إبراهيم القمّي، ج ١، ص ٣٧٨.

٥ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ١، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ وصحيح مسلم، ج ٢، ص ٩.

٦ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٨٤، ح ١٤ وص ١٩٤، ح ٣٠.

٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٠.

نزولاً، فهي إنّما نزلت لغايات أُخرى، وإن سجّلت بعدئذ قرآناً ضمن آياته وسوره.

ومن هنا صحّ التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة، أي أوّل سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصّة. وهذا الاهتمام البالغ بشأنها في بدء الرسالة، واختصاص فرضها في الصلوات جميعاً، جعلها ـ في الفضيلة ـ عدلاً للقرآن العظيم: «وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثاني وَالْقُرآنَ الْعَظيم».[١] فقد امتنّ الله على رسوله بهذا النزول الخاصّ تجاه سائر القرآن.

نعم لواعتبرنا السور باعتبار مفتتحها فسورة الحمد تقع الخامسة، كماجاء في رواية جابربن زيد[٢] الآتية.

آخر مانزل

جاء في رواياتنا: أنّ آخر مانزل هي سورة النصر، روي أنّها لمّا نزلت وقرأهاﷺ على أصحابه، فرحوا واستبشروا، سوى العباس بن‌عبدالمطلب، فإنّه بكى، قالﷺ: مايبكيك ياعم! قال: أظنّ أنّه قد نعيت إليك نفسك يارسول‌اللهﷺ فقال: إنّه لكما تقول. فعاشﷺ بعدها سنتين.[٣]

قال الإمام الصادق عليه‌السلام: «وآخر سورة نزلت إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ».[٤]

وأخرج مسلم عن ابن عباس، قال: آخر سورة نزلت، إذا جاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحُ.[٥]

وروي آخر سورة نزلت براءة. نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعهﷺ من غزوة تبوك، نزلت آيات من أوّلها، فبعث بها النبيّ مع علي عليه‌السلام ليقرأها على ملأ من المشركين.[٦]

وروي: آخر آية نزلت «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيهِ إِلَى الله ثُمَّ تُوَفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ماكَسَبَتْ وَهُمْ لايُظْلَمُونَ».[٧] نزل بها جبرائيل، وقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة.

---

١ ـ الحجر ١٥: ٨٧.

٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٧٢.

٣ ـ مجمع‌البيان، ج ١٠، ص ٥٥٤.

٤ ـ تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٩.

٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ٧٩.

٦ ـ الصافي في تفسير القرآن، ج ١، ص ٦٨٠.

٧ ـ البقرة ٢: ٢٨١.

وعاش الرسولﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل سبعة أيام.[١]

قال ابن‌واضح اليعقوبي: وقد قيل: إنّ آخر ما نزل عليهﷺ «الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسلاٰمَ ديناً»[٢] قال: وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة. وكان نزولها يوم النصّ على أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (صلوات‌الله عليه) بغدير خم.[٣]

أقول: لاشكّ أنّ سورة النصر نزلت قبل براءة، لأنّها كانت بشارة بالفتح، أو بمكة عام الفتح[٤] وبراءة نزلت بعد الفتح بسنة. فطريق الجمع بين هذه الروايات: أنّ آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر، فقالﷺ: أما أنّ نفسي نعيت إليّ.[٥] وآخر سورة نزلت باعتبار مفتتحها هي سورة براءة. وأمّا آية «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيهِ إِلَى اللّه» فإن صحّ أنّها نزلت بمنى يوم النحر في حجة الوداع ـ كما جاء في‌رواية الماوردي ـ[٦] فآخر آية نزلت هي آية الإكمال ـ كما ذكرها اليعقوبي. لأنّها نزلت في مرجعهﷺ من حجة الوداع ثامن عشر ذي الحجّة. وإلّا فلوصحّ أنّ النبيّ عاش بعد آية «وَاتَّقُوا...» أحداً وعشرين يوماً أو سبعة أو تسعة أيام، فهذه هي آخر آية نزلت عليهﷺ.

والأرجح عندنا: هو ما ذهب إليه اليعقوبي، نظراً لأنّها آية الإعلام بكمال الدين، فكانت إنذاراً بانتهاء الوحي عليهﷺ بالبلاغ والأداء. فلعلّ تلك الآية كانت آخر آيات الأحكام، وهذه آخر آيات الوحي إطلاقاً.

وهناك أقوال وآراء أُخر لاقيمة لها، إنّها غير مستندة إلى نصّ معصوم.

قال القاضي أبوبكر ـ في الانتصار ـ: وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبيّﷺ ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظنّ وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ماطعن به الطاعنون من عدم الضبط. ويحتمل أنّ كلاً

---

١ ـ تفسير شبّر، ص ٨٣.
٢ ـ المائدة ٥: ٣.
٣ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.
٤ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ١٤٥.
٥ ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٤.
٦ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٨٧.

منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ، وغيره سمع منه بعد ذلك. ويحتمل ـ أيضاً ـ أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم مانزل معها، وتلاوتها عليهم بعد رسم مانزل آخراً وتلاوته، فيظنّ سامع ذلك أنّه آخر مانزل في الترتيب.[١]

المكّي والمدني

لمعرفة المكّي من المدني، سواء أكانت سورة أم آية، فائدة كبيرة تمسّ جوانب أسباب النزول، وتمدّ المفسّر والفقيه في تعيين اتجاه الآية، وفي مجال معرفة الناسخ من المنسوخ، والخاصّ من العامّ، والقيد من الإطلاق، وما أشبه. ومن ثمّ حاول العلماء جهدهم في تعيين المكّيات من المدنيّات، ووقع إجماعهم على قسم كبير، واختلفوا في الباقي. كما استثنوا آيات مدنيّة في سور مكّية أو بالعكس، ولذلك تفصيل طريف يأتي.

اتجاهات في تعيين المكّي والمدنيّ

والملاك في تعيين المكّي والمدنيّ مختلف حسب اختلاف الآراء والأنظار في ذلك، وفيما يلي ثلاث نظريّات جاءت مشهورة:

الأُولى: اعتبار ذلك بهجرة النبيّ ﷺ ووصوله إلى المدينة المنوّرة. فما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المدينة، فهو مكّيّ، وما نزل بعد ذلك فهو مدنيّ.

والملاك عل هذا الاعتبار ملاك زمني، فما نزل قبل وقت الهجرة، ولوفي غير مكّة فهو مكّي. وما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة حتى ولونزل في مكة عام الفتح أو في حجة الوداع، فهو مدنيّ باعتبار نزوله بعد الهجرة. وعلى هذا الاصطلاح فجيمع الآيات النازلة في الحروب وفي أسفاره ﷺ بما أنّها نزلت بعد الهجرة، كلّها مدنيّات.

قال يحيى بن سلام: مانزل بمكّة أو في طريق المدينة قبل أن يبلغها ﷺ فهو مكّي. وما نزل بعدما قدم ﷺ المدينة أو في بعض أسفاره وحروبه فهو مدنيّ. قال جلال الدين:

---

١ ـ المصدر، ج ١، ص ٢١٠.

وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أنّ مانزل في سفر الهجرة مكّيّ اصطلاحاً.[١]

وذلك كقوله تعالى: «إنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرادُّكَ إِلىٰ مَعادٍ»[٢] قيل: نزلت بالجحفة والنبيّ عليه‌السلام في طريق هجرته إلى المدينة.[٣]

الثانية: ما نزل بمكّة وحواليها ـ ولو بعد الهجرة ـ فهو مكّي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدنيّ. وما نزل خارج البلدين، بعيداً عنهما فهو لامكّيّ ولامدنيّ، كقوله تعالى: «كَذٰلِكَ أَرْسَلْناكَ في أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحمانِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ مَتابِ».[٤] قيل: نزلت بالحديبيّة حينما صالح النبيّ عليه‌السلام مشركي قريش فقال رسول‌الله عليه‌السلام لعلي عليه‌السلام: اكتب: بسم‌الله الرّحمان الرّحيم... فقال سهيل بن عمرو وسائر المشركين: مانعرف الرحمان إلّا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذّاب، فنزلت الآية[٥] وهكذا آية الأنفال[٦] نزلت في بدر عندما اختصم المسلمون في تقسيم الغنائم[٧] لامكّية ولامدنيّة، على هذا الاصطلاح.

الثالثة: ماكان خطاباً لأهل مكة فهو مكّي، وما كان خطاباً لأهل المدينة فهو مدنيّ، وهذا الاصطلاح مأخوذ من كلام ابن‌مسعود: كلّ شيء نزل فيه يا أيّها الناس فهو بمكة. وكلّ شيء نزل فيه يا أيّها الّذين آمنوا فهو بالمدينة.[٨] قال الزركشي: لأنّ الغالب على أهل مكة الكفر، والغالب على أهل المدينة الإيمان.[٩]

وهذا الاختلاف في تحديد المكّيّ والمدنيّ أوجب اختلافاً في كثير من آيات وسور: أنّها مكّية أم مدنيّة.[١٠] غير أنّ المعتمد من هذه المصطلحات هو الأوّل، وهو المشهور الذي

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٢٣.

٢ ـ القصص ٢٨: ٨٥.

٣ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٩٧.

٤ ـ الرعد ١٣: ٣٠.

٥ ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٩٣.

٦ ـ الأنفال ٨: ١.

٧ ـ راجع: السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٣٢٢.

٨ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٨.

٩ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٨٧.

١٠ ـ كما في آية الأمانات من سورة النساء ٤: ٥٨ زعمها النحاس مكّية لرواية ابن جريج. راجع: مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٣.

جرى عليه أكثريّة أهل العلم[١] وكان تحديدنا الآتي في نظم السور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

نعم، الطرق إلى معرفة مواقع النزول: أنّها كانت بمكة أو بالمدينة أو بغيرهما، قليل جداً، لأنّ الأوائل لم يعيروا هذه الناحية المهمّة اهتماماً معتدّاً به، سوى ما ذكروه في عرض الكلام استطراداً، وهي استفادة ضئيلة للغاية، ومن ثمّ يجب لمعرفة ذلك ملاحظة شواهد وقرائن من لفظ الآية أو استفادة من لهجة الكلام، خطاباً مع نوعيّة موقف الموجّه إليهم: أكان في حرب أم في سلم، وعد أم وعيد، إرشاد أو تكليف...؟ فيما إذا أوجب ذلك علماً أو حلّاً قطعيّاً لمشكلة في لفظ الآية، كما في قوله: «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِما»[٢] فإنّ مشكلة دلالتها على مطلق الترخيص دون الإلزام والإيجاب، تنحلّ بما أثر في سبب نزولها.[٣] الأمر الذي يوجب الثقة بصحة الأثر، مع غضّ النظر عن ملاحظة السند، ومن ثمّ فهي مدنيّة.

قال الجعبري: لمعرفة المكّيّ والمدنيّ طريقان: سماعيّ وقياسيّ. فالسماعيّ ماوصل إلينا نزوله بأحدهما. والقياسيّ، قال علقمّة عن ابن مسعود: كلّ سورة فيها «يا أيّها الناس» فقط، أو «كلّا» أو أوّلها حروف تهجّ سوى الزهراوين (البقرة وآل‌عمران) والرعد ـ في وجه ـ أو فيها قصّة آدم وإبليس سوى الطولى (البقرة) أوفيها قصص الأنبياء والأُمم الخالية، فهي مكّية. وكلّ سورة فيها حدّ أو فريضة، فهي مدنيّة. وفي رواية: وكلّ سورة فيها: «ياأيُّها الذين آمنوا» فهي مدنيّة.

قال الزركشي: وهذا القول ـ الأخير ـ إن أُخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإنّ سورة البقرة مدنيّة وفيها: «يا أَيُّها النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ»،[٤] وفيها: «يا أَيُّها النّاسُ كُلُوا مِمّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً

---

١ ـ راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٨٧؛ والإتقان: ج ١، ص ٢٣.

٢ ـ البقرة ٢: ١٥٨.

٣ ـ كان المسلمون يتحرّجون السعي بين الصفا والمروة، زعما أنّها عادة جاهلية تكريماً بمقام أُساف ونائلة، فنزلت الآية دفعاً لهذا الوهم. راجع: مجمع البيان، ج ١، ص ٢٤٠. ٤ ـ البقرة ٢: ٢١.

طَيِّباً».[١] وسورة النساء مدنية وفيها: «يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم».[٢] وفيها: «إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ».[٣] فإن أراد المفسّرون أنّ الغالب ذلك فهو صحيح، ولذا قال مكي بن حموش: هذا إنّما هو في الأكثر وليس بعامّ. وفي كثير من السور المكّية «يا أَيُّها الّذينَ آمنوا».[٤]

وقال القاضي أبوبكر: كانت العادة تقضي بحفظ الصحابة ذلك، غير أنّه لم يكن من النبيّ ﷺ في ذلك قول، ولا ورد عنه ﷺ أنّه قال: ما نزل بمكة كذا وبالمدينة كذا. وإنّما لم يفعله لأنّه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأُمّة، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم، لمّا لم يعتبروا ذلك من فرائض الدين، لم تتوفّر الدواعي على إخبارهم بـه، ومواصلة ذلك على أسماعهم. وإذا كان الأمر على ذلك ساغ أن يختلف من جاء بعدهم في بعض القرآن: هل هو مكّي أو مـدنيّ؟ وأن يـعملوا فـي القـول بـذلك ضـرباً مـن الرأي والاجتهاد...[٥]

شبهات حول المكّي والمدنيّ

أثيرت لعهد قريب شبهات حول موضوع المكّي والمـدنيّ وكـانت عـلى أسـاس مزعومة تأثّر القرآن بالبيئة وأنّه قد خضع لظروف بشريّة مختلفة تـركت آثـارها عـلى أُسلوب القرآن وطريقة عرضه، وعلى مادّته والموضوعات التي عنى بها.

لكن لابدّ لنا أن نفرّق بين فكرة تأثّر القرآن وانفعاله بالظروف الموضوعيّة من البيئة وغيرها بمعنى انطباعه بها، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظروف بـقصد تأثـيره فـيها وتطويرها لصالح الدعوة.

---

١ ـ البقرة ٢: ١٦٨. ٢ ـ النساء ٤: ١.

٣ ـ النساء ٤: ١٣٣.

٤ ـ لم نجد في سورة مكّية «يا أيّها الذين آمنوا» نعم فيها كثير ذكر «الذين آمنوا» بلاخطاب. كما في سورة ص والزمر وغافر وفصّلت وغيرها. نعم ذكر الزركشي مثالاً لذلك، قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا ارْكَعُوا وَاسْجُدوا». الحج ٢٢: ٧٧. فزعمها مكّية. لكن الصحيح أنّها مدنية وسيأتي ذلك. ٥ ـ راجع: البرهان للزرشكي، ج ١، ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

فإنّ الفكرة الأُولى تعني في الحقيقة: بشريّة القرآن، حيث تفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش وجزءاً من البيئة الاجتماعيّة يتأثّر بها كما يؤثّر فيها. وهذا على خلاف الفكرة الثانية فإنّها لاتعني شيئاً من ذلك. لأنّ طبيعة الموقف القرآني الذي يستهدف التغيير، وطبيعة الأهداف والغايات التي يرمي القرآن إلى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة، حيث تُحدّد الغاية والهدفُ، شاكلةَ الأُسلوب الذي يجب سلوكه للوصول إليه.

فهناك فرق بين أن تفرض الظروف والواقع أنفسهما على الرسالة، وبين أن تفرض الأهداف والغايات التي ترمي الرسالة إلى تحقيقها من خلال الواقع، أُسلوباً ومنهجاً للرسالة. والهدف والغاية ليسا شيئين منفصلين عن ذات الرسالة حتى يكون تأثيرهما عليها تأثيراً مفروضاً من الخارج.

والشبهات المعروضة في هذا المجال تتلخّص في الفرق البائن بين القسم المكّي من القرآن والمدنيّ منه بالقصر والإيجاز الملاحظ في السور والآيات المكّية على خلاف التفصيل والإسهاب في المدنيّات، ممّا يدلّ على انقطاع الصلة بين القسمين وتأثّر كلّ منهما بالبيئة التي كان يعيشها نبيّ الإسلام. فإنّ مجتمع مكّة لمّا كان مجتمعاً أُمّيّاً لم يكن النبيّ بقدرته التبسّط في شرح المفاهيم وتفصيلها وإنّما واتته القدرة على ذلك عندما أخذ يعيش مجتمع المثقّفين المتحضّر في يثرب.

وكذا الفرق بطابع الشدّة والعنف الذي وُسمت به السور المكّية على العكس من المدنيات الموسومة بطابع اللين والهدوء. ويغلب على المكّيات عرض الأدلة والبراهين وفي المدنيّات التشريعات والأحكام.

ولكنّها فوارق تعود إلى طبيعة الدعوة في حركتها بدءاً وهي في حالة كفاح، وبعد التمكّن والظهور وهي في حالة هدوء بال لتتفرّغ إلى البسط والتوسّع والتفصيل.

على أنّ تلك الفوارق ليست بمطّردة إذا ما وجدنا في المدنيّات سوراً قصاراً في مثل سورة النصر وسورة الزلزلة والبيّنة المدنيّات. وفي المكّيات طوالاً في مثل سورة الأنعام

وسورة الأعراف. كما أنّ في سور مدنيّة كثيراً من التأنيب والتقريع [١] ولاسيما بشأن المنافقين ومن رافقهم من أهل الكتاب.

هذا مع ملاحظة اختلاف الظروف في مكة من اضطهاد وقسوة على عكس المدينة من رحاب ورأفة، وبذلك يفترق لون الدعوة والتبليغ بطبيعة الحال.

ترتيب النزول

اعتمدنا في هذا العرض على عدّة روايات متفق عليها. وثق بها العلماء أكثريا، وعمدتها رواية ابن عباس بطرق وأسانيد اعترف بها أئمّة الفنّ. [٢]

قال الإمام بدرالدين الزركشي: وعلى هذا الترتيب استقرّت الرواية من الثقات. [٣] وقد أخذناها الأصل الأوّل في هذا العرض، وأكملنا ما سقط منها على رواية جابربن زيد وغيره، وكذا نصوص تاريخيّة معتمدة، [٤] نعم كان بينها بعض الاختلاف إمّا للاختلاف في تحديد المكّي والمدنيّ، أوفي عدد المكّيات من المدنيّات، ومن ثمّ جاء اختلافهم في نيف وثلاثين سورة أنّها مكّيات أم مدنيّات.

والنظر في هذا العرض كان إلى مفتتح السور، فالسورة إذا نزلت من أوّلها بضع آيات، ثمّ نزلت أُخرى، وبعدها اكتملت الأُولى، كانت الأُولى متقدّمة على الثانية في ترتيب النزول حسب هذا المصطلح.

وإليك قائمة السور المكّية، وعددها: ست وثمانون سورة. متقدّمة على السور المدنيّة، وعددها: ثمان وعشرون سورة. مع غضّ النظر عن سور مختلف فيها، وسنتكلّم عن ذلك في فصل قادم.

---

١ ـ كما في سورة الأنفال وسورة براءة وكثير من آيات في سور مدنيّات.

٢ ـ راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٦ و ٧٢.

٣ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

٤ ـ راجع: الفهرست، ص ٤٤؛ وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦.

السور المكيّة

(٨٦)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
١	العلق	٩٦	٢٠	الفلق	١١٣
٢	القلم	٦٨	٢١	الناس	١١٤
٣	المزّمل	٧٣	٢٢	التوحيد	١١٢
٤	المدّثر	٧٤	٢٣	النجم	٥٣
٥	الفاتحة[١]	١	٢٤	عبس	٨٠
٦	المسد	١١١	٢٥	القدر	٩٧
٧	التكوير	٨١	٢٦	الشمس	٩١
٨	الأعلى	٨٧	٢٧	البروج	٨٥
٩	الليل	٩٢	٢٨	التين	٩٥
١٠	الفجر	٨٩	٢٩	قريش	١٠٦
١١	الضحى	٩٣	٣٠	القارعة	١٠١
١٢	الشرح	٩٤	٣١	القيامة	٧٥
١٣	العصر	١٠٣	٣٢	الهمزة	١٠٤
١٤	العاديات	١٠٠	٣٣	المرسلات	٧٧
١٥	الكوثر	١٠٨	٣٤	ق	٥٠
١٦	التكاثر	١٠٢	٣٥	البلد	٩٠
١٧	الماعون	١٠٧	٣٦	الطارق	٨٦
١٨	الكافرون	١٠٩	٣٧	القمر	٥٤
١٩	الفيل	١٠٥	٣٨	ص	٣٨

---

١ ـ سقطت الفاتحة من رواية ابن عباس، فأثبتناها على رواية جابر بن‌زيد. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٢٥ وعلى نصّ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦.

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٣٩	الأعراف	٧
٤٠	الجن	٧٢
٤١	يس	٣٦
٤٢	الفرقان	٢٥
٤٣	فاطر	٣٥
٤٤	مريم	١٩
٤٥	طه	٢٠
٤٦	الواقعة	٥٦
٤٧	الشعراء	٢٦
٤٨	النمل	٢٧
٤٩	القصص	٢٨
٥٠	الإسراء	١٧
٥١	يونس	١٠
٥٢	هود	١١
٥٣	يوسف	١٢
٥٤	الحجر	١٥
٥٥	الأنعام	٦
٥٦	الصافّات	٣٧
٥٧	لقمان	٣١
٥٨	سبأ	٣٤
٥٩	الزمر	٣٩
٦٠	غافر	٤٠
٦١	فصّلت	٤١
٦٢	الشورى	٤٢

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٦٣	الزخرف	٤٣
٦٤	الدخان	٤٤
٦٥	الجاثية	٤٥
٦٦	الأحقاف	٤٦
٦٧	الذاريات	٥١
٦٨	الغاشية	٨٨
٦٩	الكهف	١٨
٧٠	النحل	١٦
٧١	نوح	٧١
٧٢	إبراهيم	١٤
٧٣	الأنبياء	٢١
٧٤	المؤمنون	٢٣
٧٥	السجدة	٣٢
٧٦	الطور	٥٢
٧٧	الملك	٦٧
٧٨	الحاقّة	٦٩
٧٩	المعارج	٧٠
٨٠	النبأ	٧٨
٨١	النازعات	٧٩
٨٢	الانفطار	٨٢
٨٣	الانشقاق	٨٤
٨٤	الروم	٣٠
٨٥	العنكبوت	٢٩
٨٦	المطففين	٨٣

السور المدنيّة

(٢٨)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٨٧	البقرة	٢	١٠١	الحشر	٥٩
٨٨	الأنفال	٨	١٠٢	النصر	١١٠
٨٩	آل‌عمران	٣	١٠٣	النور	٢٤
٩٠	الأحزاب	٣٣	١٠٤	الحج	٢٢
٩١	الممتحنة	٦٠	١٠٥	المنافقون	٦٣
٩٢	النساء	٤	١٠٦	المجادلة	٥٨
٩٣	الزلزال	٩٩	١٠٧	الحجرات	٤٩
٩٤	الحديد	٥٧	١٠٨	التحريم	٦٦
٩٥	محمد	٤٧	١٠٩	الجمعة	٦٢
٩٦	الرعد	١٣	١١٠	التغابن	٦٤
٩٧	الرحمان	٥٥	١١١	الصف[١]	٦١
٩٨	الإنسان	٧٦	١١٢	الفتح	٤٨
٩٩	الطلاق	٦٥	١١٣	المائدة[٢]	٥
١٠٠	البيّنة	٩٨	١١٤	براءة	٩

---

١ ـ جعل الزركشي في البرهان سورة الصف بعد التحريم وقبل الجمعة.

٢ ـ قدّم الزركشي في البرهان البراءة على المائدة، وجعل هذه الأخيرة آخر السور.

وإليك قائمة أُخرىٰ مرتبّة على حروف التهجّي، والرقم يشير إلى ترتيب السورة في المصحف:

الف

٣ـ آل عمران	مدنيّة	نزلت بعد الأنفال
١٤ ـ إبراهيم	مكّية	نزلت بعد نوح
٣٣ ـ الأحزاب	مدنيّة	نزلت بعد آل عمران
٤٦ ـ الأحقاف	مكّية	نزلت بعد الجاثية
١٧ ـ الإسراء	مكّية	نزلت بعد القصص
٧ ـ الأعراف	مكّية	نزلت بعد ص
٨٧ ـ الأعلى	مكّية	نزلت بعد التكوير
٢١ ـ الأنبياء	مكّية	نزلت بعد إبراهيم
٧٦ ـ الإنسان	مدنيّة	نزلت بعد الرحمان
٨٤ ـ الانشقاق	مكّية	نزلت بعد الانفطار
٦ ـ الأنعام	مكّية	نزلت بعد الحجر
٨ ـ الأنفال	مدنيّة	نزلت بعد البقرة
٨٢ ـ الإنفطار	مكّية	نزلت بعد النازعات

ب

٩ ـ براءة	مدنيّة	نزلت بعد المائدة
٨٥ ـ البروج	مكّية	نزلت بعد الشمس
٢ ـ البقرة	مدنيّة	نزلت بعد المطففين
٩٠ ـ البلد	مكّية	نزلت بعد ق
٩٨ ـ البيّنة	مدنيّة	نزلت بعد الطلاق

ت

٦٦ ـ التحريم	مدنيّة	نزلت بعد الحجرات
٦٤ ـ التغابن	مدنيّة	نزلت بعد الجمعة
١٠٢ ـ التكاثر	مكّية	نزلت بعد الكوثر
٨١ ـ التكوير	مكّية	نزلت بعد المسد
١١٢ ـ التوحيد	مكّية	نزلت بعد الناس
٩٥ ـ التين	مكّية	نزلت بعد البروج

ج

٤٥ ـ الجاثية	مكّية	نزلت بعد الدخان
٦٢ ـ الجمعة	مدنيّة	نزلت بعد التّحريم
٧٢ ـ الجن	مكّية	نزلت بعد الأعراف

ح

٦٩ ـ الحاقّة	مكّية	نزلت بعد الملك
٢٢ ـ الحجّ	مدنيّة	نزلت بعد النور
١٥ ـ الحجر	مكّية	نزلت بعد يوسف
٤٩ ـ الحجرات	مدنيّة	نزلت بعد المجادلة
٥٧ ـ الحديد	مدنيّة	نزلت بعد الزلزال
٥٩ ـ الحشر	مدنيّة	نزلت بعد البيّنة

د

٤٤ ـ الدخان	مكّية	نزلت بعد الزخرف

ذ

٥١ ـ الذاريات	مكّية	نزلت بعد الأحقاف

ر

٥٥ ـ الرحمان	مدنيّة	نزلت بعد الرعد
١٣ ـ الرعد	مدنيّة	نزلت بعد محمد
٣٠ ـ الروم	مكّية	نزلت بعد الانشقاق

ز

٤٣ ـ الزخرف	مكّية	نزلت بعد الشورى
٩٩ ـ الزلزال	مدنيّة	نزلت بعد النساء
٣٩ ـ الزمر	مكّية	نزلت بعد سبأ

س

٣٤ ـ سبأ	مكّية	نزلت بعد لقمان
٣٢ ـ السجدة	مكّية	نزلت بعد المؤمنون

ش

٩٤ ـ الشرح	مكّية	نزلت بعد الضحى
٢٦ ـ الشعراء	مكّية	نزلت بعد الواقعة
٩١ ـ الشمس	مكّية	نزلت بعد القدر
٤٢ ـ الشورى	مكّية	نزلت بعد فصّلت

ص

٣٨ ـ ص	مكّية	نزلت بعد القمر
٣٧ ـ الصافّات	مكّية	نزلت بعد الأنعام
٦١ ـ الصفّ	مدنيّة	نزلت بعد التغابن

ض

٩٣ ـ الضحى	مكّية	نزلت بعد الفجر

ط

٨٦ ـ الطارق	مكّية	نزلت بعد البلد
٢٠ ـ طه	مكّية	نزلت بعد مريم
٦٥ ـ الطلاق	مدنيّة	نزلت بعد الإنسان
٥٢ ـ الطور	مكّية	نزلت بعد السجدة

ع

١٠٠ ـ العاديات	مكّية	نزلت بعد العصر
٨٠ ـ عبس	مكّية	نزلت بعد النجم
١٠٣ ـ العصر	مكّية	نزلت بعد الشرح
٩٦ ـ العلق	مكّية	هي أوّل ما نزلت
٢٩ ـ العنكبوت	مكّية	نزلت بعد الروم

غ

٨٨ ـ الغاشية	مكّية	نزلت بعد الذاريات
٤٠ ـ غافر	مكّية	نزلت بعد الزمر

ف

١ ـ الفاتحة	مكّية	نزلت بعد المدّثر
٣٥ ـ فاطر	مكّية	نزلت بعد الفرقان
٤٨ ـ الفتح	مدنيّة	نزلت بعد الصف
٨٩ ـ الفجر	مكّية	نزلت بعد الليل
٢٥ ـ الفرقان	مكّية	نزلت بعد يس
٤١ ـ فصّلت	مكّية	نزلت بعد غافر
١١٣ ـ الفلق	مكّية	نزلت بعد الفيل
١٠٥ ـ الفيل	مكّية	نزلت بعد الكافرون

ق

٥٠ ـ ق	مكّية	نزلت بعد المرسلات
١٠١ ـ القارعة	مكّية	نزلت بعد قريش
٩٧ ـ القدر	مكّية	نزلت بعد عبس
١٠٦ ـ قريش	مكّية	نزلت بعد التين
٢٨ ـ القصص	مكّية	نزلت بعد النمل
٦٨ ـ القلم	مكّية	نزلت بعد العلق
٥٤ ـ القمر	مكّية	نزلت بعد الطارق
٧٥ ـ القيامة	مكّية	نزلت بعد القارعة

ك

١٠٩ ـ الكافرون	مكّية	نزلت بعد الماعون
١٨ ـ الكهف	مكّية	نزلت بعد الغاشية
١٠٨ ـ الكوثر	مكّية	نزلت بعد العاديات

ل

٣١ ـ لقمان	مكّية	نزلت بعد الصافات
٩٢ ـ الليل	مكّية	نزلت بعد الأعلى

م

٥ ـ المائدة	مدنيّة	نزلت بعد الفتح
١٠٧ ـ الماعون	مكّية	نزلت بعد التكاثر
٥٨ ـ المجادلة	مدنيّة	نزلت بعد المنافقون
٤٧ ـ محمد	مدنيّة	نزلت بعد الحديد
٧٤ ـ المدّثر	مكّية	نزلت بعد المزّمل
٧٧ ـ المرسلات	مكّية	نزلت بعد الهمزة
١٩ ـ مريم	مكّية	نزلت بعد فاطر
٧٣ ـ المزمل	مكّية	نزلت بعد القلم
١١١ ـ المسد	مكّية	نزلت بعد الفاتحة
٨٣ ـ المطففين	مكّية	نزلت بعد العنكبوت
٧٠ ـ المعارج	مكّية	نزلت بعد الحاقّة
٦٧ ـ الملك	مكّية	نزلت بعد الطور
٦٠ ـ الممتحنة	مدنيّة	نزلت بعد الأحزاب
٦٣ ـ المنافقون	مدنيّة	نزلت بعد الحج
٢٣ ـ المؤمنون	مكّية	نزلت بعد الأنبياء

ن

١١٤ ـ الناس	مكّية	نزلت بعد الفلق
٧٩ ـ النازعات	مكّية	نزلت بعد النبأ
٧٨ ـ النبأ	مكّية	نزلت بعد المعارج
٥٣ ـ النجم	مكّية	نزلت بعد التوحيد
١٦ ـ النحل	مكّية	نزلت بعد الكهف
٤ ـ النساء	مدنيّة	نزلت بعد الممتحنة
١١٠ ـ النصر	مدنيّة	نزلت بعد الحشر
٢٧ ـ النمل	مكّية	نزلت بعد الشعراء
٧١ ـ نوح	مكّية	نزلت بعد النمل
٢٤ ـ النور	مدنيّة	نزلت بعد النصر

و

٥٦ ـ الواقعة	مكّية	نزلت بعد طه

هـ

١٠٤ ـ الهمزة	مكّية	نزلت بعد القيامة
١١ ـ هود	مكّية	نزلت بعد يونس

ى

٣٦ ـ يس	مكّية	نزلت بعد الجن
١٢ ـ يوسف	مكّية	نزلت بعد هود
١٠ ـ يونس	مكّية	نزلت بعد الإسراء

سور مختلف فيها

نتيجة على ماسبق كانت السور المكّية ستاً وثمانين سورة، أولهنّ سورة العلق وآخرهنّ سورة المطفّفين. والسور المدنيّة ثماني وعشرين سورة، أوّلهنّ سورة البقرة، وآخرهنّ سورة براءة.

لكن هذا التحديد لم يكن متّفقاً عليه عند الجميع، فهناك في أكثر من ثلاثين سورة خالف بعضهم ما أثبتناه في القائمتين. وفيما يلي عرض موجز على هذا الاختلاف، مع إلمامة قصيرة إلى وجه اختيارنا في الموضوع، ونؤجّل التفصيل إلى تفسيرنا الوسيط:

١ ـ سورة الفاتحة

قال مجاهد: إنّها مدنيّة.[١]

قال الحسين بن الفضل: هذه هفوة من مجاهد، لأنّ العلماء على خلاف قوله[٢] ولقول عليّ عليه السلام: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش.[٣]

ولقوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»[٤] وسورة الحجر مكّية باتّفاق، وهذا إخبار عن ماض سبق.

ولأنّها أوّل سورة كاملة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله علّمه إيّاها جبرائيل[٥] ومن ثمّ سمّيت بفاتحة الكتاب[٦] فكان صلى الله عليه وآله يصلّي بها في أُولى جماعة انعقدت بهم نطفة الإسلام، ولاصلاة إلّا بفاتحة الكتاب.[٧] قال جلال الدين: ولم يحفظ صلاة بغير فاتحة الكتاب.[٨]

٢ ـ سورة النساء

زعم النحّاس أنّها مكّية، نظراً إلى قوله تعالى: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى

---

١ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٧.
٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٠.
٣ ـ المصدر.
٤ ـ الحجر ١٥: ٨٧.
٥ ـ السيرة النبويّة (بهامش السيرة الحلبية)، ج ١، ص ١٦١.
٦ ـ تقدّم ذلك في «أوّل ما نزل».
٧ ـ صحيح مسلم، ج ٢، ص ٩؛ والمستدرك للحاكم، ج ١، ص ٢٣٨ و ٢٣٩.
٨ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣١.

أَهْلِها»[1] فقد قال ابن جريج: إنّها نزلت بمكة عام الفتح بشأن مفتاح البيت الحرام. أراد النبيّ ﷺ أن يدفعه إلى العباس بن عبدالمطّلب. فأمره الله أن يدفعه إلى عثمان بن طلحه، حيث كان ﷺ قد أخذه منه.[2]

لكن المفسّرين اتفقوا على أنّها مدنيّة، نظراً لضعف إسناد هذا الحديث. على أنّ نزول آية أو سورة بمكة عام الفتح لايجعلها مكّية، على الاصطلاح المشهور: مانزل بعد الهجرة فهو مدنيّ ولو كان نزوله بمكة.

وأخيراً فإنّ السورة بكاملها لاتتّسم بسمة آية واحدة فيها: كان نزولها على غير نزول السورة.

٣ ـ سورة يونس

في رواية شاذّة عن ابن عباس: أنّها مدنيّة.[3] ولم تثبت هذه الرواية، فضلا عن مخالفتها للنصّ المتقدّم عن ابن عباس نفسه في ترتيب نزول السور، وكان متفقاً عليه تقريباً.

٤ ـ سورة الرعد

قال محمد بن السائب الكلبي ومقاتل وعطاء إنّها مكّية.[4] وكذا في رواية رواها مجاهد عن ابن عباس.[5]

ورجّح سيّد قطب هذا القول، قال: ومكّية هذه السورة شديدة الوضوح، سواء في طبيعة موضوعها أو طريقة أدائها أو في جوّها العام الذي لايخطىء تنسّمه من يعيش في ظلال هذا القرآن.[6]

لكن روايات الترتيب اتفقت على أنّها مدنيّة نزلت بعد سورة القتال، كماجاء في رواية عكرمة والحسين بن أبي‌الحسن ورواية خصيف عن مجاهد عن ابن عباس نفسه.[7]

---

١ ـ النساء ٤: ٥٨.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٣.

٣ ـ الإتقان: ج ١، ص ٣١.

٤ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٤٢؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٢٧٣.

٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ٢٤.

٦ ـ في ظلال القرآن، ج ١٣، ص ٦٣ الهامش.

٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٢٧.

وكذا قال الحسن وقتادة.[١]

وأمّا سياق السورة فإنّه توجيه عام للبشرية إلى آيات التحدّي، الأمر الذي تشترك فيها السور المكّية والمدنية، ككثير من آيات سورة البقرة وغيرها من سور مدنيات.

والعمدة: اتفاق روايات الترتيب. ويتضح ذلك أكثر عند الكلام عن سورة الرحمان.

٥ ـ سورة الحج

قال أبو محمد مكي بن أبي‌طالب: إنّها مكّية.[٢] وروى ذلك عن مجاهد بسند فيه ضعف[٣] قال: سألت ابن عباس عن نزول السور، حتى انتهى إلى سورة الحج، فقال أُنزلت بمكة سوى الآيات الثلاث (١٩ و ٢٠ و ٢١) نزلن بالمدينة[٤] ولما رواه الطبري من حديث الغرانيق[٥] وأيضاً فإنّ لهجتها الشديدة تناسب نزولها بمكة!

قلت: كلّ ذلك لايقاوم اتفاق كلمة روايات الترتيب ونصوص المؤرّخين. ورواية مجاهد ـ مع ضعف سندها ـ معارضة بروايات الترتيب المتفق عليها.[٦] أمّا حديث الغرانيق فحديث خرافة لاأصل لها.[٧] وأمّا اللّهجة فهي غالبيّة وليست دائميّة، ومن ثمّ لاتصلح مستنداً للحكم عليها.

٦ ـ سورة الفرقان

زعم الضحّاك أنّها مدنيّة، نظراً لآيات في آخرها قيل فيها: إنّها مدنيّة.[٨] وهذا لوحده لايصلح دليلاً على مدنيّتها بعد اتفاق روايات الترتيب.

---

١ ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٧٣؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ٤٢.

٢ ـ الكشف عن القراءات السبع، ج ٢، ص ١١٦.

٣ ـ بسبب أبي عبيدة معمر بن المثنى، (ت ٢١٠) قيل: كان يرى رأي الخوارج بذيئاً متهتّكاً، قليل العناية بالقرآن، وإذا قرأه قرأه نظراً. كان من أكابر اللغويين الأُدباء. هو أوّل من صنّف في غريب القرآن وله في مثالب العرب كتاب. وأخذ عنه أبوعبيد القاسم بن‌سلام. راجع: الفهرست، ص ٨٥؛ وميزان الاعتدال، ج ٤، ص ١٥٥؛ وتهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٢٤٧.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٢٤.

٥ ـ جامع البيان، ج ١٧، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

٦ ـ راجع: الإتقان، ج ١، ص ٢٧ و ٧٢؛ والفهرست، ص ٤٤؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ٣٤٢.

٧ ـ تقدم ذلك في «أُسطورة الغرانيق».

٨ ـ المصدر.

٧ـ سورة يس

قيل: إنّها مدنيّة.[١] ولم يعرف هذا القائل ولادليله الذي استند إليه. والإجماع منعقد على أنّها مكّية.

٨ـ سورة ص

أيضاً قيل: مدنيّة[٢] وهو شاذّ مخالف للإجماع.

٩ـ سورة محمدﷺ

فيها قول ضعيف: إنّها مكّية[٣] وهو غريب بعد أن كانت سورةَ القتال!

١٠ـ سورة الحجرات

قيل: إنّها مكّية. وهي مدنيّة بالإجماع قولا واحداً.[٤]

١١ـ سورة الرحمان

جاء في نصّ الفهرست واليعقوبي: أنّها مكّية. وذهب المشهور أيضاً إلى ذلك.

قال جلال‌الدين: وهو الصواب، لمارواه الترمذي والحاكم عن جابر قال: لمّا قرأ رسول‌اللهﷺ سورة الرحمان على أصحابه حتى فرغ. قال: مالي أراكم سكوتاً؟ للجنّ كانوا أحسن منكم ردّاً! ماقرأت من مرّة «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ»[٥] إلّا قالوا: ولابشيء من نعمك ربّنا نكذّب، فلك الحمد. قال جلال الدين: وقصّة الجنّ كانت بمكة.[٦]

قال: وأصرح من ذلك ما رواه أحمد في مسنده عن أسماء بنت أبي‌بكر، قالت: سمعت رسول‌اللهﷺ وهو يصلّي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ»[٧] قال: وهذا دليل على أنّها نزلت قبل سورة الحجر.

وقال سيّد قطب: نسق السورة تتضح فيه سمات القرآن المكّي.[٨]

أقول: لاشكّ أنّ رنّتها الأخّاذة تشبه رنّة غالبيّة السور المكّية، بل من أوقعها على

---

١ ـ المصدر.
٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٢.
٣ ـ المصدر.
٤ ـ المصدر.
٥ ـ الرحمان ٥٥: ١٣.
٦ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٣.
٧ ـ مسند أحمد، ج ٦، ص ٣٤٩.
٨ ـ في ظلال القرآن، ج ٢٧، ص ٦٧٠.

مسامع النفس. لكن ليس هذا وحده دليلاً على مكّيتها بعد أن لم يكن ميزة اختصاصيّة، وكانت توجد في سور مدنيّة أيضاً، كما في سورة الزلزلة وسورة البيّنة وسورة الإنسان وغيرهنّ. وكثير من سور مكّية جاءت في لهجة هادئة كسورة يوسف ويونس وهود والأنعام والأعراف وغيرهنّ كثير.

وأمّا حديث الجنّ فلا دليل على أنّه كان بمكة، إذ لاملازمة بين هذا الحديث وحديث نزول سورة الجنّ بمكة، فلعلّها قصة أُخرى كانت بالمدينة.

وأمّا حديث أسماء ـ إن صحّ ـ فهو يدلّ على نزولها في باكورة البعثة، ولاقائل بذلك لأنّها قالت: قبل أن يصدع بالأمر.

هذا فضلاً عن ضعف إسناد هذا الحديث ـ كما جاء في المسند ـ بسبب وجود ابن لهيعة قاضي مصر، في طريقه، وهو مطعون فيه، فقد ضعّفه ابن‌معين وقال: لايحتّج بحديثه. وكان يحيى بن سعيد لايراه شيئاً.[١]

وأخيراً فإنّ هكذا تعليلات ضعيفة لاتقاوم روايات الترتيب المتفق عليها.[٢]

١٢ ـ سورة الحديد

قال قوم: إنّها مكّية[٣] استناداً إلى حديث إسلام عمربن الخطاب، دخل على أُخته فوجد عندها صحيفة فيها سورة الحديد، فقرأها حتى بلغ: «إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ»[٤] فحبّب إليه الإسلام فأتى النبيّ ﷺ وأسلم على يديه.[٥]

وهذا الحديث معارض بحديث ابن إسحاق: كانت في الصحيفة سورة طه، فقرأها حتى انتهى إلى قوله تعالى: «لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعىٰ».[٦] وقيل إنّ الصحيفة كان فيها مع سورة طه: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». وإنّ عمر انتهى في قراءتها إلى قوله: «عَلِمَتْ نَفْسٌ ما

---

١ ـ راجع: ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٤٧٥؛ وتهذيب التهذيب، ج ٥، ص ٣٧٤.

٢ ـ راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٧ و ٧٢.

٣ ـ قال ابن‌حزم: هي مدنيّة إلّا في قول الكلبي: إنّها مكّية. راجع: رسالة الناسخ والمنسوخ، ج ٢، ص ١٩٧.

٤ ـ الحديد ٥٧: ٨.

٥ ـ أُسدالغابة، ج ٤، ص ٥٤.

٦ ـ طه ٢٠: ١٥.

أَحْضَرَتْ».[١] فلان قلبه ورغب في الإسلام.[٢]

ومعارض أيضاً بحديث شريح بن عبيد، قال: قال عمر: خرجت أتعرّض رسول‌الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقّة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فلمّا أتمّها وقع الإسلام في قلبي كلّ موقع.[٣]

هذا وذاك الحديث مرسل، أرسله من لايوثق به. قال ابن حجر: والحديث بسند فيه إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة.[٤] وأشار بذلك إلى غمز في السند، لأنّ ابن أبي فروة هذا مطعون فيه، متروك الحديث.[٥]

وتمسّك بعضهم بحديث ابن‌مسعود: قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بقوله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّه... (إلى قوله:) فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ»[٦] إلّا أربع سنين، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً.[٧]

قلت: وهذا الحديث أيضاً معارض بأحاديث تنصّ على أنّها نزلت بعد الهجرة بسنة، بشأن المنافقين[٨] أو بعد ما أترف المؤمنون فكادت تقسي قلوبهم.[٩]

١٣ ـ سورة الصف

قال ابن‌حزم: مكّية[١٠] لكن الجمهور وروايات الترتيب على خلاف قوله، فالصحيح أنّها مدنيّة، ونسب ابن الغرس ذلك إلى الجمهور.[١١]

١٤ ـ سورة الجمعة

مدنيّة بالإجماع، والمخالف غيرمعروف. قال جلال‌الدين: ثبت في نصوص صحيحة

---

١ ـ التكوير ٨١: ١٤.
٢ ـ سيرة ابن‌هشام وهامشه، ج ١، ص ٣٧٠.
٣ ـ أُسد الغابة، ج ٤، ص ٥٣؛ والإصابة، ج ٢، ص ٥١٩.
٤ ـ الإصابة، ج ٢، ص ٥١٩.
٥ ـ راجع: تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٢٤٠؛ والمغني للذهبي، ج ١، ص ٧١؛ وميزان الاعتدال، ج ١، ص ١٩٣.
٦ ـ الحديد ٥٧: ١٦.
٧ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٧؛ والإتقان، ج ١، ص ٣٣.
٨ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٧.
٩ ـ لباب النقول في أسباب النزول، ج ٢، ص ٩٤.
١٠ ـ رسالة الناسخ والمنسوخ، ج ٢، ص ١٩٩.
١١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٣.

أنّها مدنية كلّها.[١]

١٥ ـ سورة التغابن

قيل: مكّية إلى قوله تعالى: «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»[٢] نسب ذلك إلى ابن‌عباس[٣] غير أنّ روايات الترتيب مطبقة على أنّها مدنيّة كلّها.

١٦ ـ سورة الملك

فيها قول غريب: أنّها مدنيّة[٤] والصحيح أنّها مكّية قولاً واحداً.

١٧ ـ سورة الإنسان

قال عبدالله بن‌الزبير: نزلت بمكّة[٥] وتبعه على ذلك جماعة ممّن يروقهم إنكار أي فضيلة لأهل البيت عليهم‌السلام وهي النقطة المركزيّة التي تدور عليها رحى هذا التبجّح الغريب![٦] وعداء ابن الزبير لأهل البيت مشهور!

وهكذا أصرّ سيّدقطب على أنّها مكّية، مستشهداً بالسياق وقال: واحتمال أنّ هذه السورة مدنيّة ـ في نظرنا ـ هو احتمال ضعيف جداً، يمكن عدم اعتباره.[٧]

قال الحافظ الحسكاني: اعترض بعض النواصب بأنّ هذه السورة مكّية باتفاق المفسّرين، وهذه القصّة ـ إن كانت ـ فهي مدنيّة، فكيف كانت سبب نزول السورة؟!

فقال ـ ردّاً على هذا القائل ـ: كيف يسوغ له دعوى الإجماع، مع قول الأكثر: أنّها مدنيّة!... ثمّ ذكر نصوص الأئمة على ترتيب السور مصرّحة بأنّها نزلت في المدينة بعد سورة الرحمان وقبل سورة الطلاق، وفق ماقدّمنا.[٨]

وهكذا حقّق العلّامة الطبرسي في تفسيره وغيره من محقّقي المفسّرين.

والعمدة: إطباق روايات الترتيب، لاتشذّ منها في ذلك ولارواية واحدة[٩] وعليه

---

١ ـ المصدر، ص ٣٤.
٢ ـ التغابن ٦٤: ١٣.
٣ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٩٦.
٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٤.
٥ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٩٧؛ وتفسير شبّر، ص ٥٤٢.
٦ ـ راجع: شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٩٩.
٧ ـ في ظلال القرآن، ج ٢٩، ص ٣٩١.
٨ ـ شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣١٠ و ٣١٥.
٩ ـ راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥.

فقضيّة السياق واهية، بعد أن لم تكن كلّية دائميّة.

قال السيّد شبّر: القول بأنّها مكّية يكذّبه النقل الصحيح.[١]

١٨ ـ سورة المطففين

قال اليعقوبي: أوّل سورة نزلت بالمدينة[٢] وقيل: نزلت عليهﷺ وهو مهاجر في طريقه إلى المدينة.[٣] قال جلال‌الدين: أخرج النسائي وغيره بسند صحيح عن ابن عباس، قال: لمّا قدمِ النبيّﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله هذه السورة فأحسنوا الكيل.[٤]

قلت: هذا يناقض روايات الترتيب المتّفقة على أنّها آخر السور المكّية، كما أنّ لهجة السورة العنيفة لاتتناسب وبدء قدوم نبيّ الرحمة إلى المدينة في أوّل عهده بأهلها المستسلمين له، ولاسيّما مع هذا التكرار في لفظة «كلّا» التي تشي بعناد المخاطب وإنكاره الخبيث ممّا لايلتئم مع جوّ الإيمان السليم الذي أبداه أهل المدينة آنذاك!! وقد سبق كلام الجعبري: كلّ سورة فيها «كلّا» فهي مكّية.[٥]

١٩ ـ سورة الأعلى

قيل: إنّها مدنيّة، استناداً إلى قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى»[٦] إشارة إلى صلاة العيد وزكاة الفطرة.[٧]

قلت: الآية عامّة. والرواية ـ إن صحّت ـ جاءت لتطبّق هذا العموم على مصداق من مصاديقه، لاأنّه هو المقصود الذاتي لاغير. ثمّ لو سلّمنا أنّ هاتين الآيتين نزلتا بالمدينة، فلا يدلّ ذلك على أنّ جميع السورة بكاملها مدنيّة.

فالصحيح أنّ السورة مكّية حتى ولو كانت بعض آيها مدنيّة. هذا فضلاً عن شهادة اللّهجة بمكّيتها!

---

١ ـ تفسير شبّر، ص ٥٤٢.

٢ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.

٣ ـ رسالة الناسخ والمنسوخ، ج ٢، ص ٢٠٢.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٤.

٥ ـ تقدّم ذلك في «اتجاهات في تعيين المكّي و المدني».

٦ ـ الأعلى ٨٧: ١٤ ـ ١٥.

٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٤.

٢٠ ـ سورة الفجر

مكّية بالاتفاق. والقائل بالخلاف غير معروف.[١]

٢١ ـ سورة البلد

مكّية بالإجماع، لأنّ البلد هي مكة المكرّمة بالاتفاق، فكيف يقول القائل: إنّها مدنيّة؟!.[٢]

٢٢ ـ سورة الليل

قيل: إنّها مدنيّة، نظراً لما روي في سبب نزولها: كانت نخلة متدلّية في دار رجل فقير، وكان صبيانه يتناولون تمرها، أمّا صاحب النخلة ـ وهو رجل ثريّ ـ فكان يجفوهم. فساومه النبيّ ﷺ على نخلة في الجنة فأبى، حتى ساومه أنصاريّ على أربعين نخلة، فاشتراها منه ووهبها للنبيّ ﷺ فوهبها النبيّ ﷺ إلى الرجل الفقير. قيل: فنزلت: «وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنىٰ».[٣] غير أنّ السند مقطوع غير موصول. على أنّ الآية لاتنطبق تماماً على فحوى القصّة.

فالصحيح: أنّ الآية عامّة في كلّ بخيل بحقّ الله سبحانه فلايخشى عقابه، كما جاء في رواياتنا، وفي كثير من روايات غيرنا.[٤]

٢٣ ـ سورة القدر

قال ابن‌حزم وأبومحمد: إنّها مدنيّة[٥] لما رواه الحاكم عن الحسن بن عليّ عليه السلام قال: رأى النبيّ ﷺ بنيّ أُميّة ينزون على منبره نزو القردة. فساءه ذلك فنزلت تسلية لخاطره الكريم.[٦]

قال جلال‌الدين: قال المزي: وهو حديث منكر![٧] لكنّه تعصّب مفضوح، لأنّ الحاكم

---

١ ـ المصدر، ص ٣٥. ٢ ـ المصدر.

٣ ـ الليل ٩٢: ٨-٩. راجع: الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٥٧؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠١.

٤ ـ راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٢؛ وجامع البيان، ج ٣٠، ص ١٤٢؛ والصافي في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٨٢٥.

٥ ـ الكشف، ج ٢، ص ٣٨٥؛ ورسالة الناسخ والمنسوخ، ج ٢، ص ٢٠٣.

٦ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٧١. ٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٦.

رواها بسند صحيح، قال: هذا إسناد صحيح. وقرّره على ذلك الحافظ الذهبي في التلخيص. وأضاف إليه طريقاً آخر ووثّقه أيضاً، ثمّ قال وما أدري آفته من أين؟![1]

قلت: جاءت آفته من قبل نزعة أُمويّة اشربت في قلوب تحكّمت فيها نزعات قوميّة جاهلية، ومن ثمّ يصعب عليها الرضوخ للحق مهما بلغ حدّ التواتر واليقين![2]

وبعد فإنّ دلالة هذا الحديث على مدنيّة السورة، جاءت من قبل لفظ «المنبر» إذ لم يكن للنبيّ صلى الله عليه وآله وهو بمكة منبر!

لكن هذا وحده لايصلح دليلاً على ذلك، إذ يجوز ـ قريباً ـ أنّه صلى الله عليه وآله أُري ذلك بمكة قبل هجرته لتكون بشارة له باعتلاء ذكره، وإلمامة إلى الاغتصاب الذي يرتكبه شرار أُمّته. فلاتتنافى هذه الرواية مع روايات الترتيب أصلاً.

وتأييداً لذلك نقول: الآية: «وَما جَعَلْنا الرُّؤْيا الَّتي أَرَيْناكَ إلّا فِتنَةً لِلنّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ في الْقُرآنِ»،[3] تشير إلى نفس الرؤيا المذكورة، والآية من سورة الإسراء المكّية بالاتفاق، ولم يستثن أحد هذه الآية، وإن استثنوا غيرها، كما سيأتي.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن‌عمر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنّهم القردة، وأنزل الله في ذلك: «وَما جَعَلْنا الرُّؤْيا الَّتي أَرَيْناكَ إلّا فِتْنَةً لِلنّاسِ». قال: والشجرة الملعونة، يعني الحكم وولده».

وأخرج أيضاً عن يعلى بن مرة، قال: قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: «أريت بني أُميّة على منابر الأرض، وسيتملّكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتمّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله فنزلت الآية».

وأخرج ابن‌مردويه عن عائشة أنّها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول‌الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن».

وأخرج ابن أبي‌حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن‌عساكر عن سعيد بن‌المسيّب، قال:

---

١ ـ تلخيص المستدرك بالهامش، ج ٣، ص ١٧٠.

٢ ـ راجع: جامع البيان، ج ١٥، ص ٧٧ و ج ٣٠، ص ١٦٧؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩١ وج ٦، ص ٣٧١؛ ومروج الذهب، ج ٣، ص ٢٥٠.

٣ ـ الإسراء ١٧: ٦٠.

رأى رسول الله ﷺ بني أُميّة على المنابر فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: إنّما هي دنيا أُعطوها. فقرّت عينه، وهي قوله تعالى: «وَماجَعَلْنا الرُّؤْيا الّتي أَرَيْناكَ إلّا فِتْنَةً لِلنّاسِ». يعني بلاء للناس.[١]

قال النيسابوري: واعترض بعضهم بأنّ أيّام بني أُميّة كانت مذمومة فكيف تذكر في مقام تفخيم أمر ليلة القدر؟ فأجاب: إنّه تفضيل لسعادة معنويّة، وجلال حقيقيّ دائم، على سعادة ظاهريّة، وجلال صوريّ زائل.[٢] وفي حديث ابن المسيّب الآنف إشارة إلى هذا الجواب.

٢٤ ـ سورة البيّنة

قال مكّي بن أبي‌طالب: مكّية.[٣]

لكن اتفاق روايات الترتيب ونصوصه على أنّها مدنيّة، ويؤيّدها ماورد أنّها لمّا نزلت على النبيّ ﷺ دعا أُبيّ بن‌كعب فقرأها عليه[٤] وأُبيّ، أنصاريّ، أسلم على يدي رسول الله ﷺ بالمدينة.

٢٥ ـ سورة الزلزلة

قال ضحّاك وعطاء: مكّية. وهكذا قال مكّي بن أبي‌طالب، ووافقهم سيّد قطب، نظراً للهجتها المثيرة.[٥]

لكن اتفقت كلمة الروايات على أنّها مدنيّة[٦] وأيضاً فقد أخرج ابن أبي‌حاتم عن أبي‌سعيد الخدري، قال: لمّا نزلت «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ»[٧] قلت: يا رسول الله ﷺ إنّي لراءٍ عملي؟ قال: نعم. قلت: تلك الكبار الكبار؟ قال: نعم، قلت: الصغار الصغار؟ قال: نعم، قلت: واثكل أُمي!...[٨] وأبوسعيد أنصاريّ، لم يبلغ إلّا بعد وقعة أُحد.[٩]

---

١ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩١.
٢ ـ تفسير النيسابوري: ج ٣٠، ص ١٣٦.
٣ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج ٢: ص ٣٨٥.
٤ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٧٨.
٥ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٤؛ والكشف، ج ٢، ص ٣٨٦؛ وفي ظلال القرآن، ج ٣٠، ص ٦٣٩.
٦ ـ الفهرست، ص ٤٤؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٧؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩.
٧ ـ الزلزلة ٩٩: ٧.
٨ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٨١.

٢٦ ـ سورة العاديات

عن قتادة: أنّها مدنيّة،[١٠] لرواية منسوبة إلى ابن عباس، قال: نزلت في خيل بعثها رسول‌الله صلى الله عليه وآله في سريّة فأبطأت، فشقّ ذلك عليه، فأخبره الله بما كان من أمرهم.[١١]

لكن الرواية فيها تمحّل وتهافت ظاهر، وفي نفس الوقت معارضة بمارواه ابن جرير وابن أبي حاتم و ابن الأنباري والحاكم ـ وصحّحه ـ وابن مردويه، عن ابن عباس أيضاً أنّ علياً عليه السلام نهره عن تفسير العاديات بالخيل تغير في سبيل‌الله. وأوضح له: أنّها الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة... قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت إلى قول عليّ عليه السلام.[١٢]

٢٧ ـ سورة التكاثر

اختار جلال‌الدين أنّها مدنيّة، وتمسّك لاختياره بالأُمور التالية:

١ ـ حديث ابن‌بريدة: أنّها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا.

٢ ـ وقال قتادة: إنّها نزلت في اليهود.

٣ ـ وعن أُبيّ بن‌كعب ـ وهو أنصاريّ ـ: كنّا نزعم أنّ «لوكان لابن آدم واديان من ذهب لتمنّى ثالثاً...» آية قرآنيّة، حتى نزلت «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ...».

٤ ـ وعن عليّ عليه السلام: كنّا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت. قال جلال‌الدين: وعذاب القبر لم يذكر إلّا بالمدينة، كما في الصحيح في قصّة اليهوديّة.[١٣]

قلت: جميع ماتمسّك به باطل:

أوّلا: هذه السورة لاتمسّ مسألة التفاخر، وإنّما تعرّضت لناحية التكاثر!

وثانياً: كيف يبقى أُبيّ بن‌كعب في شكّ من آية قرآنية، ولايسأل رسول‌الله صلى الله عليه وآله وهو كاتبه الأوّل إلى أن يذهب شكّه بنزول سورة لاشأن لها ونفي قرآنيّة غيرها!

وثالثاً: كيف نجيز لأنفسنا تصديق رواية تنسب الشكّ إلى مثل أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام

---

٩ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٦؛ والمستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ٥٦٣.

١٠ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٧.

١١ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٨٣.

١٢ ـ المصدر، وجامع البيان، ج ٣٠، ص ١٧٧.

١٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٧.

في مسألة من مسائل الآخرة، وهو عليه السلام باب علم النبيّ صلى الله عليه وآله!

وأمّا اختصاص نزولها باليهود، فتضايق في فحوى السورة العام، إذ هي تعالج مسألة عامّة تمسّ حياة البشريّة الظاعنة في مطاليب سافلة!

والصحيح ـ كما جاء في روايات الترتيب المتّفقة ـ: أنّها من أوّليات السور المكّية، وقد نصّ على ذلك جلال‌الدين نفسه في الدرالمنثور، ورواه عن ابن عباس.[١]

هذا مضافاً إلى مانلمسه من لهجة السورة العنيفة، التي تناسب أجواء مكة المسيطر عليها النزعة الماديّة بشدّة، ويزيد العنف استعمال لفظة «كلّا» الخاصة بأهل مكة كما مرّ.

٢٨ ـ سورة الماعون

قال الضحّاك: إنّها مدنيّة.[٢]

لكن روايات الترتيب ونصوصه المتّفق عليه ترفض هذا القول، مضافاً إلى أنّ لهجة السورة تقريع عنيف بأولئك المكذّبين بالدين، فهي بأوّليّات السور المكيّة أشبه، فقد كانت السابعة عشرة في الترتيب، نزلت بعد سورة التكاثر.[٣]

٢٩ ـ سورة الكوثر

عن عكرمة والضحّاك: أنّها مدنيّة.[٤] ورجّحه جلال‌الدين، وكذا النووي في شرح مسلم، لما رواه مسلم عن أنس، قال: بينا رسول‌الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة فرفع رأسه وقال: أُنزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأها.

لكنّا تكلّمنا عن هذا الحديث[٥] وزيّفنا دلالته على نزول قرآن عليه صلى الله عليه وآله تلك الحالة، وذكرنا تأويل الرافعي للحديث إلى أنّها قد خطرت له في تلك الحالة فقرأها عليهم، لاأنّها نزلت عليه حينذاك. كما ويؤيّد ذلك: أنّ مسلم نفسه روى هذا الحديث بسند آخر ليس فيه «أُنزلت عليّ». قال: أغفى النبيّ صلى الله عليه وآله إغفاءة، ثمّ رفع رأسه فقرأها.[٦]

---

١ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٨٦.
٢ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٦.
٣ ـ الفهرست، ص ٢٨؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٧.
٤ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٨.
٥ ـ تقدم ذلك في «الرؤيا الصادقة».
٦ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤٠١.

وأخيراً فقد أطبق المفسّرون على أنّها مكّية، نزلت تسلية لخاطر رسول الله ﷺ عندما شنأه ذلك الأبتر اللعين.[١] هذا مضافاً إلى اتفاق روايات الترتيب: أنّها نـزلت بـمكة. إذن لايصلح حديث مضطرب أن يقاوم ذلك الإجماع وهذا الاتفاق!

٣٠ ـ سورة التوحيد

رجّح جلال الدين كونها مدنيّة، لأحاديث رواها بشأن نزولها. قال: نزلت في طائفة من يهود المدينة سألوا رسول الله ﷺ أن يصف لهم ربّه، فنزل جبرائيل بسورة التوحيد.[٢]

لكن تجاه هذه الروايات روايات أُخرى تذكر هذا السؤال للمشركين، قالوا: أنسب لنا ربّك يامحمد ﷺ فنزلت[٣] مضافاً إلى اتفاق روايات الترتيب.

ومن ثمّ قال بعض الباحثين: إنّها نزلت مرّتين!

قلت: لايبعد ذلك، ولكن معنى نزول السورة مرّتين: أنّ الثانية كانت تذكيراً للنبيّ ﷺ بمناسبتها الحاضرة، فمن المحتمل ـ على هذا الفرض ـ: أنّ اليهود سألوا النبيّ ﷺ سؤالا، كان المشركون قد سبقوهم إلى مثله، فتردّد النبيّ ﷺ في أن يقرأ عليهم السورة التي كانت إجابة على سؤال المشركين من ذي قبل، وذلك نظراً للفرق بين مستوى اليهود ومستوى المشركين، فعند ذلك نزل جبرائيل بكفاية نفس الإجابة الأُولى، بعد أن لم تكن السور القرآنية خاصّة بقوم دون قوم، وبمستوى دون مستوى، إذ الناس على مختلف مستوياتهم يستفيدون من جميع آي القرآن، وإن كانت نوعيّة الاستفادة تختلف حسب مراتب الثقافات.

وعلى ذلك فالسورة مكّية وإن تكرّر نزولها بالمدينة أيضاً.

٣١ و ٣٢ ـ المعوذتان

عدّهما اليعقوبي من أواخر المدنيّات.[٤] وقال جلال الدين: المختار أنّهما مدنيّتان،

---

١ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ١٤٢؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤٠٤؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٩.

٢ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ١٤٧؛ والإتقان، ج ١، ص ٣٧. ٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٠.

٤ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.

لأنّهما نزلتا في قصة سحر لبيدبن الأعصم.[١]

والقصّة ـكما جاءت في الصحيحين ـ[٢] حدّثت بها عائشة، قالت: «سحر رسول‌اللهﷺ رجل من يهود بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم. قالت: حتى كان رسول‌اللهﷺ يخيّل إليه أنّه يفعل الشيء ومايفعله ـوفي لفظ آخر: سحر حتى كان يرى أنّه يأتي النساء ولايأتيهنّ. قال سفيان: وهذا أشدّ مايكون من السحر ـ.[٣] قالت: حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة، دعا رسول‌اللهﷺ ثمّ دعا ثمّ دعا. ثمّ قال: يا عائشة، أشعرت[٤] أنّ اللّه أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان[٥] فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي: ماوجع الرجل؟ قال: مطبوب.[٦] قال: من طبّه؟ قال: لبيدبن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومُشاطة، وجُفّ طلعة نخل ذكر.[٧] قال: فاين هو؟ قال: في بئر ذروان. قالت: فأتاها رسول‌اللهﷺ في أُناس من أصحابه،رجع وقال: ياعائشة، والله لكأنّ ماءها نقاعة الحنّاء[٨] ولكأنّ نخلها رؤوس الشياطين. قالت: فقلت: هلّا استخرجته؟ فقالﷺ: لا، أمّا أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرّاً. ثمّ أمر بالبئر فدفنت».

وفي لفظ: «قال: وأين؟ قال: في جفّ طلعة ذكر تحت راعوفة[٩] في بئر ذروان. قالت: فأتى النبيّﷺ البئر حتى استخرجه. فقال: هذا البئر التي أريتها، وكأنّ ماءها نقاعة الحنّاء وكأنّ نخلها رؤوس الشياطين. قالت: فقلت: أفلا، أي تنشرت؟ فقال: أمّا الله فقد شفاني،

---

١ ـ الإتقان، ج ١،ص ٣٧.

٢ ـ صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٤٨ وج ٧، ص ١٧٦؛ وصحيح مسلم، ج ٧، ص ١٤.

٣ ـ صحيح البخارى، ج ٧، ص ١٧٧.

٤ ـ أي أعلمت ـبصيغة استفهام خطاباً إليها ـ.

٥ ـ في رواية: جبرائيل وميكائيل، فسأل الأوّل الثاني. راجع: فتح الباري، ج ١٠، ص ١٩٤.

٦ ـ أي مسحور.

٧ ـ المشاطة: ما ينزع من الشعر عند المشط ـبالفتح ـ وهو تسريح الشعر، وبالضم: آلته. والجفّ: غشاء الطلع.

٨ ـ أي لون مائها لون نقيع الحنّاء.

٩ ـ الراعوفة: صخرة أو حجر صلد، توضع عند فم البئر، لايستطاع قلعها، يقف عليها المستقي أو توضع في أسفلها ليجلس عليها الذي ينظّف البئر.

وأكره أن أُثير على أحد من الناس شرّاً».[1]

هذه القصّة كما هي مذكورة في الصحيحين ليس فيها شاهد بنزول السورتين. وقد تنبّه السيوطي لذلك، ومن ثمّ استدرك الأمر بماورد من طرق أُخرى لم تصحّ إسنادها. فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن عائشة، قالت: «كان لرسول الله صلى الله عليه وآله غلام يهوديّ يخدمه، يقال له لبيد بن أعصم. فلم تزل به اليهود حتى سحر النبيّ صلى الله عليه وآله فكان يذوب ولا يدري ماوجعه ـ وفي لفظ: فكان يدور ولا يدري ماوجعه ـ[2] فبينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات ليلة نائم إذ أتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الأوّل للثاني: ماوجعه؟ قال: مطبوب. قال: من طبّه؟ قال: لبيدبن أعصم. قال: بم طبّه؟ قال: بمُشط ومُشاطة وجُفّ طلعة ذكر بذي أروان، وهي تحت راعوفة البئر. فلمّا أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله غدا ومعه أصحابه إلى البئر فنزل رجل فاستخرج الجفّ، فإذا فيها: مُشط رسول الله صلى الله عليه وآله ومن مُشاطة رأسه، وإذا تمثال من شمع، تمثال رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا فيها إبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة. فأتاه جبرائيل بالمعوّذتين، فقال: يامحمد، قل: أعوذ برب الفلق، وحلّ عقدة. من شرّ ما خلق، وحلّ عقدة. حتى فرغ منها، وحلّ العقد كلّها، وجعل لاينزع إبرة إلّا يجد لها ألماً، ثمّ يجد بعد ذلك راحة، فقيل: يارسول الله صلى الله عليه وآله لوقتلت اليهودي! فقال: قد عافاني الله، وماوراءه من عذاب الله أشدّ».

وفي رواية: «سحر النبيّ صلى الله عليه وآله يهوديّ، فاشتكى فأتاه جبرائيل بالمعوّذتين، وقال: إنّ رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئرفلان. فأرسل علياً عليه السلام وجاء به، فأمره أن يحلّ العقد ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلّ حتى قام النبيّ صلى الله عليه وآله كأنّما نشط من عقال».[3]

وقيل: إنّ بنات لبيد كنّ ساحرات فهنّ سحرن وأبوهنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وعقدن له إحدى عشرة عقدة. فأنزل الله المعوّذتين، إحدى عشرة آية بعدد العقد وشفى الله رسوله صلى الله عليه وآله.[4]

---

١ ـ صحيح البخاري، ج ٧، ص ١٧٨.
٢ ـ فتح الباري، ج ١٠، ص ١٩٣.
٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٧.
٤ ـ التسهيل لعلوم التنزيل، ج ٤، ص ٢٢٥.

وبعد... فهذه القصة ـ لو تسلّمناها ـ فلاشاهد في رواية الصحيحين على أنّ المعوّذتين نزلتا بشأنها. أمّا سائر الطرق فلاتصحّ مستنداً للثقة بها، فضلا عن أخذها مستمسكاً للحكم في شأن من شؤون القرآن، الذي لاينبغي لمسلم أن يتكلّم فيه بغير علم ولاعن مستند وثيق.

قال جلال‌الدين: أمّا أصل القصة فله شاهد في الصحيحين، دون نزول السورتين. ثمّ قال: ولكن له شاهد من غيرهما... وأراد بذلك ما أخرجه البيهقي عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وفيه ذكر القصّة ونزول السورتين.[١]

لكن ذكر جلال‌الدين نفسه ـ في الإتقان ـ أنّ أوهى الطرق إلى ابن‌عباس، هو طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن‌عباس.[٢] ثمّ ذكر شاهداً آخر فيما أخرجه أبونعيم في كتاب الدلائل من طريق أبي‌جعفر الرازي عن الربيع بن‌أنس عن أنس بن‌مالك.[٣]

هذا.. وابن‌حبان قال: إنّ أهل الحديث يتّقون من حديث الربيع بن أنس إذا كان من رواية أبي جعفر الرازي عنه، لأنّ في أحاديثه عنه اضطراباً كثيراً.[٤]

إذن أفلا تعجب من رجل هو مضطلع بفنّ الحديث والتفسير، كيف يورّط بنفسه في تناقض الاختيار؟! ويضطرب في التماس الحجّة من غير وجهها الوجيه؟! ومن ثمّ يتكلّم في شأن جانب من كتاب الله العزيز من غير استناد وثيق؟!

أمّا نحن ـ الإمامية ـ فإنّ أُصول معتقداتنا تنفي إمكان التأثير على قلب نبيّ كريم، هو مهبط وحي الله وعيبة علمه الأمين! وبالأحرى فإنّ لبيداً أعجز من أن يستطيع التصرّف في عقليّة مثل رسول‌الله صلى الله عليه وآله أفضل خلق الله وأكرم أنبيائه!!

يقول تعالى: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفىٰ بِرَبِّكَ وَكيلاً»[٥] فأجدر بلبيد عدم قدرته على الاستحواذ على قلب أكرم عباد الله، وقلبه صلى الله عليه وآله بيت الإله تعالى، لايدع لخبيث

---

١ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ١٤٨.

٢ ـ الإتقان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٣ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ١٤٨.

٤ ـ تهذيب التهذيب، ج ٣، ص ٢٣٩.

٥ ـ الإسراء ١٧: ٦٥.

الاقتراب منه أبداً!

على أنّا لوجوّزنا إمكان التأثير على شعور النبيّ الكريم بحيث يكاد يخيّل إليه أنّه يفعل ولايفعل، فإنّ الثقة بما يقوله وحياً تزول، فلعلّه مفعول سحر ساحر خبيث، خيّل إليه أنّه وحي؟!

قال العلّامة الطبرسي: هذا لايجوز، لأنّ من وصفه بأنّه مسحور فكأنّه قد خبل عقله، وقد أبى الله سبحانه ذلك في قوله: «وَقالَ الظّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إلّا رَجُلاً مَسْحُوراً. انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثالَ فَضَلُّوا».[١]

ولكن يمكن أن يكون اليهوديّ أو بناته ـ على ماروي ـ اجتهدوا في ذلك فلم يقدروا عليه، واطلع اللّه نبيّه صلى الله عليه وآله على مافعلوه من التمويه حتى استخرج، وكان ذلك دلالة على صدقه. وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم؟! ولو قدروا على ذلك لقتلوه، وقتلوا كثيراً من المؤمنين، مع شدّة عداوتهم لهم.[٢]

وقال العلّامة المجلسي: المشهور بين الإماميّة عدم تأثير السحر في الأنبياء والأئمّة (صلوات‌الله عليهم) ومن ثمّ أوّلوا بعض الأخبار الواردة في ذلك، وطرحوا بعضها أي مالايقبل التأويل.[٣]

وقال القطب الراوندي: روي أنّ امرأة يهوديّة عملت له صلى الله عليه وآله سحراً، فظنّت أنّه ينفذ فيه صلى الله عليه وآله كيدها والسحر باطل محال! إلّا أنّ اللّه دلّه عليه، فبعث من استخرجه. وكان على الصفة التي ذكروها، وعلى عدد العقد التي عقد فيها ووصف ما لو عاينه معاين لغفل عن بعض ذلك.[٤]

وجاء في طبّ الأئمة: أنّ جبرائيل أتى النبيّ صلى الله عليه وآله وقال له: إنّ فلاناً اليهودي سحرك، ووصف له السحر وموضعه. فبعث النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام حتى أتى القليب فبحث عنه فلم يجده، ثمّ اجتهد في طلبه حتّى وجده فأتى به إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وإذا هو حقّة فيها قطعة كرب

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٨ ـ ٩.

٢ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٦٨.

٣ ـ بحارالأنوار، ج ١٨، ص ٧٠.

٤ ـ المصدر، ص ٥٧، ح ١١.

نخل في جوفه وتر عليها إحدى عشرة عقدة، وكان جبرائيل عليه السلام قد أنزل المعوّذتين. فأمر النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام أن يقرأهما على الوتر، فجعل كلّما قرأ آية انحلّت عقدة حتى فرغ منها، فكشف الله عن نبيّه ماسحر به وعافاه.[١]

وهذه الرواية ـ وإن لم يصحّ إسنادها ـ ليس فيها التأثير على عقليّة الرسول صلى الله عليه وآله نعم في رواية أُخرى جاء التأثير على جسمه الشريف، فكان يحسّ بوجع شديد، وهذا معنى «كشف الله عن نبيّه وعافاه» في رواية طبّ الأئمّة. أي عافاه من الوجع الذي كان يحسّ به. وهذا أمر ممكن، غير أنّ الأصحّ عندنا هو ماذكره القطب الراوندي: أنّ السحر لم ينفذ فيه صلى الله عليه وآله فقد أرادوا به كيداً لكنّهم أصبحوا هم الخاسرين.

آيات مستثنيات

تعرّض الأوائل لاستثناء آيات من سور تخالفها في النزول، فربّ سورة مكّية فيها آيات مدنيّة أو بالعكس، واستقصى ذلك جلال‌الدين السيوطي في «الإتقان» مستوعباً، غير أنّه اعتمد في الأكثر على روايات ونقول ضعيفة، ثمّ جاء المتأخرون ليأخذوا بذلك تقليداً من غير تحقيق[٢] في حين أنّ غالبيّة القائلين بهذه الاستثناءات قالوا بها عن حدس

---

١ ـ طب الأئمة، ص ١١٨.

٢ ـ جاءت في المصحف الأميري المطبوع بالقاهرة بإذن مشيخة الأزهر وبإشراف لجنة مراقبة البحوث الإسلاميّة، استثناءات بأرقام كبيرة، لكنّه تقليد محض لا أصل لأكثريّتها الساحقة. وهكذا سجّلها من غير تحقيق الشيخ أبوعبدالله الزنجاني في تاريخ قرآنه.

أضف إلى ذلك تناقضات جاءت في هكذا اختيارات تقليديّة:

مثلاً: جاء في المصحف الأميري أنّ سورة الم تنزيل (السجدة) نزلت بعد سورة المؤمن وأنّ سورة حم تنزيل (فصّلت) نزلت بعد سورة غافر! في حين أن المؤمن وغافر اسمان لسورة واحدة!

وأثبت أبوعبدالله في تاريخ قرآنه قائمتين بشأن ترتيب نزول السور فذكر في القائمة الأُولى: أنّ سورة الأنعام نزلت بعد الحجر. وفي الثانية: أنّها نزلت بعد الكهف! كما ذكر في الأُولى أنّ الأعراف نزلت بعد ص وفي الثانية نزلت بعد الأنفال! وذكر أنّ السور المكّية: ٨٥. والسور المدنيّة: ٢٨. ولم يلتفت أنّها تنقص مجموع سور القرآن بواحدة! وأظنّه في ذلك قلّد الإمام بدرالدين الزركشي!!

←

أو اجتهاد في الرأي، من غير أن يستندوا إلى نصّ صحيح مأثور. قال ابن الحصّار: إنّ من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل.[١]

ونحن إذ نستطرق هذا الباب، نضرب عن كلّ ما قالوه بهذا الشأن صفحاً، إذ لم يكن مستنداً إلى دليل مقبول. إذ لاشكّ أنّ الآيات كانت تسجّل تباعاً في كلّ سورة بعد نزول بسملتها، واحدة تلو أُخرى ترتيباً طبيعياً حسب النزول. أمّا أن تبقى آية مكّية غيرمسجّلة في سورة، حتى تنزل سورة بالمدينة ثمّ تسجّل فيها، فهذا أمر غريب خارج عن طريقة التّبت المعروف، كما أنّ آية مدنيّة تسجّل في سورة مكّية بحاجة إلى نصّ صريح خاص وليس بالأمر الذي يتدخّل فيه الحدس أوالاجتهاد النظري!

قال ابن حجر: وأمّا نزول شيء من سورة بمكة، ثمّ يتأخّر نزول أصل السورة إلى المدينة، فلم أره إلّا نادراً، فقد اتفقوا على أنّ الأنفال مدنيّة، لكن قيل: إنّ قوله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...»[٢] نزلت بمكة، ثمّ نزلت سورة الأنفال بالمدينة. وهذا غريب جداً.[٣] وسوف نذكر بطلان هذه المزعومة!

وإليك نماذج من النوعين مردفة بما نشير إليه من تحقيق الرأي إجماليّاً:

استثناءات من سور مكّية:

١ ـ سورة الفاتحة: مكّية

حكى أبوالليث السمرقندي قولاً بأنّ نصفها نزلت بالمدينة.

قال جلال‌الدين: لادليل لهذا القول.[٤] كما سبق: أنّها من أوائل مانزلت بمكة كاملة، وكان المسلمون يقرأون بها في الصلاة.

← كما جاء في مصحف مطبوع في إيران على عهد القاجاريّة قائمتان. الأُولى تسجّل عام نزول كلّ سورة، والثانية تسجّل ترتيب النزول. فجاء في الأُولى: نزلت الصافات في العام الخامس من البعثة، ونزلت الأنعام في العام الثالث‌عشر. ثمّ جاء في القائمة الثانية: أنّ الصّافات نزلت بعد الأنعام!! وأمثال هذا التناقض كثير.

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٨.
٢ ـ الأنفال ٨: ٣٠.
٣ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ٣٨.
٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٠ و ٣٨.

٢ ـ سورة الأنعام: مكّية

«نزلت بمكة جملة واحدة، وشيّعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد وقد طبّقوا مابين السماء والأرض، وكانت ليلة جمعة، وكانت لنزولهم هيبة وعظمة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم، وخرّ ساجداً. ثمّ دعا الكتّاب فكتبوها من ليلتهم».

هذا الحديث مستفيض رواه الفريقان بطرق يعضد بعضها بعضاً.[١] قال جلال الدين: فهذه شواهد يقوّي بعضها بعضاً.[٢] ومن ثمّ لاوقع لقول أبي عمرو بن الصلاح: أنّ الخبر المذكور جاء من حديث أُبيّ بن كعب، وفي إسناده ضعف، ولم نر له إسناداً صحيحاً، وقد روي مايخالفه.[٣]

قلت: استفاضة الطرق إلى عدّة من الأصحاب غير أُبيّ بن كعب أيضاً كافية للاستناد إليها.

هذا... وأمّا رواية المخالف فضعيفة وغير ثابتة.

قال ابن الحصّار: استثني منها تسع آيات، ولايصحّ به نقل.[٤] وسنتكلّم فيما زعموا صحّتها من روايات الاستثناء.[٥]

وجاء في المصحف الأميري وفي بعض كتب المقلّدة استثناء تسع آيات من غير تحقيق، نبحث عن كلّ واحدة واحدة فيما يلي:

الأُولى: قوله تعالى: «الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ».[٦]

الثانية: قوله تعالى: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلّا أن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنا مَاكُنّا مُشْرِكينَ».[٧]

ولاشاهد للاستثناء في هاتين الآيتين إطلاقاً. ولعلّ السبب مجيء ذكر أهل الكتاب فيهما، على غموض في الثانية. ولادليل في ذلك، بعد أن جاء ذكر أهل الكتاب في كثير من

---

١ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٥٣، ح ١؛ ومجمع البيان، ج ٤، ص ٢٧١؛ والدرّ المنثور، ج ٣، ص ٢.

٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٠٨.

٣ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٩٩.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٨.

٥ ـ عند استثناء الآيات رقم: ٧ و ٨ و ٩.

٦ ـ الأنعام ٦: ٢٠.

٧ ـ الأنعام ٦: ٢٣.

سور مكّية. كقوله تعالى: «وَلاَ تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»،[1] ولم يستثنها أحد. وكذلك قوله تعالى: «وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يؤمِنُونَ بِهِ».[2] وأمثال ذلك كثير.

الثالثة: قوله تعالى: «وَما قَدرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالوا ما أَنْزَلَ اللّهُ عَلى بَشَرٍ مِن شَيءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذي جاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثيراً وَعُلِّمْتُمْ مالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللّه ثُمَّ ذرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».[3]

قرأ ابن كثير وأبوعمرو: «يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً»[4] قيل: نزلت في جماعة من اليهود، قالوا: يامحمدﷺ أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم. قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً.

وقيل: نزلت في مالك بن الصيف، وكان حبراً من أحبار يهود قريظة، وكان سميناً، فقال له النبيّﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة: «إنّ الله يبغض الحبر السمين»؟. فغضب وقال: ما أنزل اللّه على بشر من شي وقيل: الذي خاصم النبيّﷺ في هذا المقال هو فنحاص بن‌عازوراء اليهودي.

وقيل: نزلت في مشركي قريش، حيث أنكروا النبوّات رأساً.[5]

قال أبوجعفر الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب، هو القول الأخير، إذ لم يجر لليهود ذكر قبل ذلك. وليس إنكار نزول الوحي على بشر ممّا تدين به اليهود، بل المعروف من دينهم الإقرار بصحف إبراهيم وموسى وزبور داود. ولم يكن الخبر بأنّها نزلت في اليهود خبراً صحيحاً متصل السند، ولا أجمع المفسّرون على ذلك. وكان سياق السورة من أوّلها إلى هنا جارياً في المشركين، فناسب أن تكون هذه الآية أيضاً موصولة بما قبلها لامفصولة منه. فلم يجز لنا أن ندّعي فصلها إلّا بحجّة قاطعة من خبر أو عقل. ولعلّ الذي

---

١ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٦.
٢ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٧.
٣ ـ الأنعام ٦: ٩١.
٤ ـ الكشف، ج ١، ص ٤٤٠.
٥ ـ جامع البيان، ج ٧، ص ١٧٧؛ ومجمع البيان، ج ٤، ص ٣٣٣.

أوقع هذا القائل في الوهم المذكور ما وجده في قوله تعالى: «تجعلونه...» على وجه الخطاب. ولكن الأصوب من القراءة أنّها بياء الغيبة.[١]

قلت: ونحن إذ نصادق أباجعفر في هذا التحقيق، نضيف إليه: أنّ القصة التي ذكروها بشأن مالك بن الصيف في محاورته تلك مع النبيّ ﷺ تتنافى تماماً مع خُلق رسول اللّه الكريم، النبيّ لايجرح من عاطفة إنسان إطلاقاً، كما وننزّه كتاب اللّه العزيز عن التعرّض لهكذا أُمور تافهة لاقيمة لها، أو تنزل بشأنها آية!!

إذن فقوله: «وعُلِّمتم...» خطاب موجّه إلى المشركين، بعد تلك الحكاية ـ بصورة الغيبة كما رجّحها أبوجعفر ـ عن أهل الكتاب.

وأمّا القراءة المشهورة بتاء الخطاب في الجميع، فلاتستدعي اختصاص الخطاب بأهل الكتاب، بل إلى البشرية باعتبار فعل بعضهم ممّن نزل عليهم الكتاب. ولاسيّما ومساس العرب المشركين مع اليهود ومخالطتهم معهم في الجزيرة، ومن ثمّ جاء الكلام عن بني إسرائيل في سور مكّية كثيراً، كما في سورة الأعراف.[٢]

ويشهد بذلك قوله تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ»[٣] خطاباً مع أهل مكة، وسورة الأنبياء المكّية ايضاً.[٤] وقد كان للعرب صلة وثيقة وثقة بأهل الكتاب، ويعرفونهم أهل علم وثقافة، وكثيراً مايسألونهم عن تاريخ الأُمم والأنبياء ويعتمدون كلامهم، فجاز أن يخاطبوا بخطاب اليهود المجاورين لهم المخالطين معهم الموثوق بهم عندهم!

الرابعة: قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللهُ».[٥]

قالوا: نزل قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى...» في عبدالله بن سعد بن أبي سرح أخي عثمان من الرضاعة. وكان أسلم وكتب الوحي لرسول الله ﷺ ولمّا نزلت: «وَلَقَدْ خَلَقْنا

---

١ ـ جامع البيان، ج ٧، ص ١٧٨. وهكذا وافقه سيد قطب في «في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣».

٢ ـ الآية: ١٠٢ و ١٦٠.

٣ ـ النحل ١٦: ٤٣.

٤ ـ الآية: ٧.

٥ ـ الأنعام ٦: ٩٣.

الإنسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طينٍ»[١] دعاه النبيّ ﷺ فأملاها عليه. فلمّا انتهى إلى قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ»[٢] عجب عبدالله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك اللّه أحسن الخالقين. فقال رسول الله ﷺ: هكذا أُنزلت عليّ، فشك عبدالله حينئذ، وقال: لئن كان محمد ﷺ صادقاً لقد أُوحي إليّ كما أُوحي إليه. ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال. فارتدّ عن الإسلام، ولحق أهل مكة، فجعلوا يقولون له: كيف كنت تكتب لابن أبي كبشة القرآن؟ قال: كنت أكتب كيف شئت. وذلك أنّه كان رسول الله ﷺ يملي عليه «عَليماً حَكيماً» فيكتب «غَفُوراً رَحيماً» يزيد وينقص ويبدّل في كتاب الله، ولا يشعر به النبيّ ﷺ ومن ثمّ شك في رسالته، وكفر ولحق بقريش. فأهدر النبيّ ﷺ دمه! لكن عثمان أجاره يوم الفتح، وألحّ على رسول الله ﷺ حتى عفى عنه.[٣]

وقالوا ـ أيضاً ـ: إنّ قوله: «أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» نزل في مسيلمة والأسود العنسي، كانا قد تنبّئا في حياة الرسول ﷺ.[٤]

لكن الحديث مكذوب من أصله. لأنّ سورة «المؤمنون» مكّية، ولم يستثن أحد تلك الآية. فكيف يكتبها ابن أبي سرح بالمدينة ثمّ يرتدّ إلى مكة؟! ثمّ أنّى لبشر أن يتقوّل على اللّه كذباً وينتحله وحياً، وقد ضمن الله لكتابه الكريم بالحفظ. ثمّ لا يشعر الرسول بدسّ كاذب مفتر على اللّه فيما أنزله الله عليه!! وهل تبقى ـ بعد هذا الاحتمال ـ ثقة بنصوص الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟!

نعم هناك ثلاث آيات من ثلاث سور، قيل في كلّ واحدة منها: انّها نزلت بشأن ابن أبي سرح. هذه إحداها!

والثانية قوله: تعالى: «وَلٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً».[٥]

---

١ ـ المؤمنون ٢٣: ١٢.
٢ ـ المؤمنون ٢٣: ١٤.

٣ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٣٥؛ والدرّ المنثور، ج ٣، ص ٣٠؛ وجامع البيان، ج ٧، ص ١٨١؛ والتفسير الكبير، ج ١٣، ص ٨٤؛ وفي ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٠٦؛ والبرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٠٠.

٤ ـ نفس المصادر.
٥ ـ النحل ١٦: ١٠٦. راجع: جامع البيان، ج ٧، ص ١٨١.

والثالثة: «إِنَّ الَّذِينَ آمنوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازدادُوا كُفْراً».[١]

وهذه الأخيرة أنسب وأولى بالقبول، كما روي ذلك عن الإمامين: محمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام.[٢]

إذن فالصحيح في الآية الأُولى هو ماقاله أبوجعفر الطبري: هي عامّة، تصف موقف الإنسان عموماً تجاه رسالات الأنبياء عليهم السلام: فمن منكر معاند لايصدّق بأي رسالة جاءت من قبل الله. وآخر مسترسل ضعيف يؤمن بكلّ دعوى رساليّة، حتى ولو كانت نزغة شيطانيّة من غير تدبّر ولاتفكير صحيح. ومن ثمّ وبّخت الآية هذا النمط من الاسترسال الهابط، وتلك الجرأة الظالمة تجاه ربّ العزّة، فيفترى عليه تعالى ظلماً وعدواناً. ولامساس للآية بقضية ابن أبي‌سرح بالخصوص.

على أنّ قوله تعالى: «سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللهُ»[٣] لاينطبق مع موقف ابن أبي‌سرح تجاه رسول‌الله صلى الله عليه وآله. نعم كان ينطبق عليه لو كانت الآية هكذا: «سأُنزل مثل ما أنزل محمد»...!

وقد ناقض سيد قطب هنا بشأن الآية، ففي موضع رجّح كون السورة مكّية كلّها، وفي موضع آخر اعتمد على روايات الاستثناء.[٤]

الخامسة قوله تعالى: «أَفَغَيْرَ اللّه أَبْتَغي حَكَماً وَهُوَ الَّذي أَنْـزَلَ إلَـيْكُمُ الْكِتابَ مُـفَصَّلاً وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ».[٥]

وليس في الآية مايدعو إلى الظنّ بأنّها مدنيّة إلّا ذكر أهل الكتاب فيها. وقد سبق أنّ هذا وحده ليس دليلاً، فقد ورد مثلها في آيات مكّية كثيراً. ويرجع السبب إلى ثقة العرب المشركين بمن جاور بلادهم من أهل الكتاب، فيرونهم أهل علم ودراية، ومن ثمّ قال

---

١ ـ النساء ٤: ١٣٧.

٢ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٨١، ح ٢٨٨. وامّا الذي جاء في التفسير المنسوب إلى علي إبراهيم القمي، ج ١، ص ٢١٠ من نزول آية الأنعام (٩٣) بشأن ابن أبي‌سرح، ففيه من المناكير مايرفض صدوره من المعصوم عليه السلام إذ فيه أنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله كان يُقرّه على تبديله النصّ ويقول له: هو واحد...!!

٣ ـ الأنعام ٦: ٩٣.

٤ ـ في ظلال القرآن، ج ٧، ص ١٠٦ و ٣٠٦.

٥ ـ الأنعام ٦: ١١٤.

تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ»[١] يعني أهل الكتاب ولاسيّما اليهود. وهذه الآية مكيّة بالإجماع، ما خلا مانسب إلى جـابربن زيـد، وقـد ردّ عـليه السيوطي من وجهين فراجع.[٢]

السادسة: قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذي أَنشَأَ جَنّاتٍ مَعْروشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ... (إلى قوله:) كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ».[٣]

ولعلّ القائل بمدنيّتها فسّر الحقّ الواجب بالزكاة، والزكاة لم تقرّر بأنصبتها المحددة في الزروع والثمار إلّا في المدينة.

ولكن هذا المعنى ليس متعيّنا في الآية، لأنّها فسّرت بمطلق الصدقة من غير تحديد، وهي بهذا الإطلاق كانت واجبة في مكة، وجاءت الإشارة إليها في قوله: «وَفي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» الآية رقم ١٩ من سورة الذاريات المكيّة بإجماع. وجاء ذكر الإنـفاق والصدقة في كثير من آيات مكّية.

وجاءت روايات مأثورة، بأنّ الحقّ في هذه الآية: يعني الإنفاق وإعـطاء اليـتامى والمساكين ـ عن سعيد بن جبير وغيره ـ ثمّ نسخت بآية الزكاة فيما بعد[٤] وروي ذلك عن الإمام أبي عبدالله الصادق، عن آبائه عليهم السلام.[٥]

السابعة: قوله تعالى: «قُلْ تَعالَوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...».[٦]

الثامنة: قوله تعالى: «وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتيمِ إلّا بالَّتي هِيَ أَحسَنُ...».[٧]

التاسعة: قوله تعالى: «وَأَنَّ هٰذا صِراطي مُستَقيماً فَاتَّبِعُوهُ...».[٨]

قال السيوطي: وقد صحّ النقل عن ابن عباس باستثناء هذه الآيات الثلاث[٩] والرواية

---

١ ـ النحل ١٦: ٤٣ ـ ٤٤؛ وفي سورة الأنبياء ٢١: ٧ بدون الذيل.

٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٩.

٣ ـ الأنعام ٦: ١٤١.

٤ ـ راجع: الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٤٩؛ وجامع البيان، ج ٨، ص ٤٤.

٥ ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٧٥.

٦ ـ الأنعام ٦: ١٥١.

٧ ـ الأنعام ٦: ١٥٢.

٨ ـ الأنعام ٦: ١٥٣.

٩ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٩.

هي: ما أخرجه أبوجعفر النحّاس فيكتابه «الناسخ والمنسوخ» عن طريق أبي عبيدة معمّر بن‌المثنى، عن يونس عن أبي‌عمرو عن مجاهد عن ابن‌عباس...[١]

وأبوعبيدة هذا كان رجلاً به شذوذ، كان يرى رأي الخوارج، وكان بذيء اللسان متهتّكاً قليل العناية بالقرآن، وإذا قرأه قرأه نظراً،[٢] ومن ثمّ لايعتمد على نقله فيما يخصّ الكتاب والسنّة، اللّهمّ إلّا في رواية الشعر والأدب. ولاندري بم صحّح جلال‌الدين سند هذا النقل؟!

هذا وقد روى أبونعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن علي بن أبي طالب عليه‌السلام قال: لمّا أمر الله نبيّه أن يعرض نفسه على القبائل، خرج إلى منى وأنا معه وأبوبكر، وكان رجلاً نسّابة، فوقف على مضاربهم بمنى وسلّم عليهم فردّوا عليه‌السلام، فتكلّم معه القوم، حتى سألوه: إلى ماتدعوا يا أخا قريش؟ فتلا رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله «قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ (إلى قوله:) لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» تمام الآيات الثلاث. فأعجبهم كلام الله، وقالوا: فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان لعرفناه...[٣] فالآيات كانت نازلة حينذاك بمكة.[٤] على أنّ لحن الآيات وأُسلوب التعبير فيها ـ أيضاً ـ يشهد بمكّيتها.

وتلخّص: أنّ سورة الأنعام كّلها مكّية، ليست منها آية مدنية إطلاقاً. ولم يثبت شيء ممّا قيل باستثنائه أصلاً، لانقلاً ولاعقلاً، على ماأسلفنا.

٣ ـ سورة الأعراف: مكّية

أخرج ابن ضريس والنحّاس وابن مردويه من عدّة طرق عن ابن عباس: أنّها نزلت بمكة.[٥]

قال قتادة: سوى آية واحدة: «وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ».[٦] قال: نزلت

---

١ ـ المصدر، ٢٤.

٢ ـ الفهرست، ص ٨٥؛ وتهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٢٤٧؛ وميزان الاعتدال، ج ٤، ص ١٥٥.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٥٤.

٤ ـ جامع البيان، ج ٨، ص ٦٠.

٥ ـ الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٦٧.

٦ ـ الأعراف ٧: ١٦٣.

بالمدينة.[١]

وقال غيره: إلى نهاية الآية رقم ١٧١.[٢] وهي قوله: «وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ...».

قلت: ودليل قتادة هو الأمر بسؤال اليهود، وهو يناسب ـكما زعم ـ أيّام كونه صلى الله عليه وآله بالمدينة. وهذا ليس دليلاً، إذ لا مستند لعود الضمير إلى اليهود، فلعلّه يعود إلى المشركين أنفسهم، لمكان معرفتهم بقصّة أصحاب السبت، والقرية ـوهي أيلة ـ كانت على ساحل البحر الأحمر، ممايلي الشام. وهي آخر الحجاز وأوّل الشام، مدينة يهوديّة صغيرة كانت عامرة،[٣] وكانت قريش تمرّ عليها في رحلتها الصيفيّة التجاريّة، وكانت تتصّل بهم أخبارها، ومن ثمّ كانوا على معرفة من أهلها اليهود الذين عتوا عن أمر ربّهم.

وأمّا قول غيره فلامستند له إطلاقاً، ولاسند معروف. فالصحيح أنّ هذه الآيات متناسقة مع غيرها من قصص أُمم الأنبياء نزلت على قريش ليعتبر أُولوا البصائر منهم، إذن يكون الترجيح مع القول بأنّ جميعها مكّية، لا استثناء فيها.

٤ ـ سورة يونس: مكّية

استثنى بعضهم منها أربع آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَنْ لايُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِين».[٤] زعم بعضهم أنّها نزلت في اليهود.[٥] لكن السياق يأباه.

الثانية: قوله تعالى: «فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍ مِمّا أَنزَلْنا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذينَ يَقْرَأُونَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ...».[٦]

الثالثة: قوله تعالى: «وَلاتَكُونَنَّ مِنَ الَّذينَ كَذَّبُوا...».[٧]

الرابعة: قوله تعالى: «إِنَّ الَّذينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ...».[٨]

زعموها ـأيضاً ـنزلت في اليهود. ولادليل لهم في ذلك، والسياق واحد متّصل. ولعلّ

---

١ ـ الكشف، ج ١، ص ٤٦٠.
٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٩.
٣ ـ معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩٢.
٤ ـ يونس ١٠: ٤٠.
٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٠.
٦ ـ يونس ١٠: ٩٤.
٧ ـ يونس ١٠: ٩٥.
٨ ـ يونس ١٠: ٩٦.

ذكر أهل الكتاب هو الذي أوقعهم في هذا الزعم! مع العلم بأنّ هذه الآيات ليست بأصرح من قوله: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ»[١] الآية المكّية بالإجماع.

وقيل: من الآية رقم ٤٠ إلى نهاية السورة كلّها نزلت بالمدينة[٢] ولا شاهد لهذا القول إطلاقاً. ولحن الآيات ولهجتها أيضاً تأباه.

والخلاصة: القائل بالاستثناء في هذه السورة، لايملك دليلاً موثوقاً به ولاسنداً يعتمد عليه. كما أنّ سياقها ينادي بمكّيتها بوضوح. ومن ثمّ نرجّح كونها مكّية أجمع.

٥ ـ سورة هود: مكّية

استثني منها ثلاث آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ مايُوحىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ».[٣]

لكن السياق يشهد ـ صراحة ـ بأنّها مكّية. وقد روي في سبب نزولها مايجعلها أيضاً مكّية قطعيّاً.[٤]

الثانية: قوله تعالى: «أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسىٰ إماماً وَرَحْمَةً أُوْلٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزابِ فَالنّارُ مَوْعِدُهُ».[٥] استشهد من قال بمدنيّتها بقوله: «كتاب موسى». وبقوله: «من الأحزاب».

لكن لاشاهد فيهما، بعد أن جرى ذكر موسى في كثير من آيات مكّية.

والأحزاب إشارة إلى قبائل عربيّة متحزّبة ضدّ الرسول، وقد كانت تحزّبت منذ أن شعر المشركون بخطر نفوذ الإسلام في الجزيرة وسرعة انتشار الدعوة.[٦] ولا شاهد على إرادة وقعة الأحزاب.

الثالثة: قوله تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ

---

١ ـ النحل ١٦: ٤٣.
٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٠.
٣ ـ هود ١١: ١٢.
٤ ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٤٦.
٥ ـ هود ١١: ١٧.
٦ ـ التبيان، ج ٥، ص ٤٦١.

السَّيِّئاتِ».[١]

روى أبوجعفر الطبري بإسناده عن أبي ميسرة. قال: جاءتني إمراة تبتاع منّي تمراً، فقلت لها: إنّ في البيت تمراً أجود، فأدخلتها البيت وأهويت إليها أقبّلها وآتي منها ما يأتي الرجل من امرأته سوى الجماع، حتى مسست بيدي دبرها. ثمّ خرجت فذكرت ذلك لأبي بكر وعمر، فقالا: استرذلك على نفسك ولاتخبرنّ أحداً. ثمّ ذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وآله فقال: هل جهّزت غازياً؟ قلت: لا. فقال: هل خلفت غازياً في أهله؟ قلت: لا. فقال: استغفر ربّك وصلّ أربع ركعات. ثمّ تلا: «وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» ثمّ قال: إنّها للناس عامّة، وفي رواية: نزل بها جبرائيل لساعته.[٢]

وهذه الرواية بهذا السياق باطلة عندنا ألبتة. لأنّها تجرئة على المعاصي، فليفعل أيّ إنسان مايريد ثمّ يعمد إلى صلاة يصلّيها لتكون كفّارة عن كلّ ذنب يقترفه. هذا فضلا عن التهافت في نفس الرواية وعدم انسجامها مع الآية، وهو دليل آخر على وهنها. وأخيراً ففي أكثر الروايات: ثمّ تلا عليه الآية، وليس فيها أنّها نزلت حينذاك. كما روي غير هذه الاُقصوصة أيضاً.

والصحيح عندنا: أن سورة هود مكيّة بأجمعها، نظراً لوحدة سياقها المنتظم على اُسلوب تفريعي بديع يتناسب والدعوة في مكة.

٦ ـ سورة يوسف: مكّية

في المصحف الأميري: استثناء ثلاث آيات من أوّلها (١ ـ ٣) وقوله: «لَقَدْ كانَ في يُوسُفَ وإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسّائِلِينَ».[٣] قال جلال‌الدين: وهو واه جداً، لايلتفت إليه.[٤] قلت: ونحن نربأ بمثل العلّامة أبي عبدالله الزنجاني أن يتابع ثبت المصحف المصري من غير تحقيق، فيسجّله في كتابه القيّم.[٥] وفضح الأمر أوضح من أن يستره وهم.

---

١ ـ هود ١١: ١١٤.
٢ ـ جامع البيان، ج ١٢، ص ٨٢ ـ ٨٣.
٣ ـ يوسف ١٢: ٧.
٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٠.
٥ ـ تاريخ القرآن لأبي‌عبدالله الزنجاني، ص ٢٨.

٧ ـ سورة إبراهيم: مكّية

قال الزركشي: سوى آيتين نزلتا في قتلى بدر من المشركين وهما قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللّه كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ».[١]

والأصل في ذلك: ماروي عن سعد، عن عمربن الخطاب قال: الذين بدّلوا نعمة الله كفراً، هما: الأفجران من قريش: بنوالمغيرة وبنوأُميّة. أمّا بنوالمغيرة فكفيتموهم يوم بدر. أو قال: استأصلهم الله يوم بدر. وأمّا بنو أُميّة فمتّعوا إلى حين.[٢] وهكذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام وزاد: بلى هي قريش قاطبة.[٣]

لكن لادلالة في ذلك على أنّهما نزلتا يوم بدر أو بعده. وإنّما كانت وقعة بدر مصداقاً من مصاديق البوار الذي أُنذروا به. أمّا المصداق الأوفى فهي جهنّم يصلونها وبئس القرار. فهذا الاستثناء كان نتيجة عدم التدبّر في تأويل الآية بزعم أنّه السبب الداعي للنزول!

٨ ـ سورة الحجر: مكّية

قال جلال‌الدين: وينبغي استثناء قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتأْخِرينَ».[٤] لما أخرجه الترمذي: أنّها نزلت في صفوف الصلاة.[٥]

وقال الحسن: إلّا قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبعاً مِنَ الْمَثاني...»[٦] وقوله تعالى: «كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمينَ. الَّذينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضينَ».[٧]

قلت: سياق الآية الأُولى يأبى حملها على صلاة الجماعة. بشاهد قوله تعالى قبل هذه الآية: «وَإِنّا لَنَحنُ نُحْيي وَنُميتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ»،[٨] وكذا الآية بعدها: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكيمٌ عَليمٌ»،[٩] وإنّما المعنى: ولقد علمنا بالأموات الماضين وبالأحياء الباقين.[١٠]

---

١ ـ إبراهيم ١٤: ٢٨ ـ ٢٩. راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٠٠.

٢ ـ جامع البيان، ج ١٣، ص ١٤٦.

٣ ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٢٩، ح ٢٢؛ والصافي في تفسير القرآن، ج ١، ص ٨٨٧–٨٨٨.

٤ ـ الحجر ١٥: ٢٤.

٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤١.

٦ ـ الحجر ١٥: ٨٧.

٧ ـ الحجر ١٥: ٩٠ ـ ٩١. راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٢٦.

٨ ـ الحجر ١٥: ٢٣.

٩ ـ الحجر ١٥: ٢٥.

أمّا رواية الترمذي فهي مقطوعة وفي إسنادها ضعف مضافاً إلى عدم انسجامها مع الآية.

وامّا استثناء الآية الثانية فمستند إلى قول مجاهد: إنّ سورة الفاتحة نزلت بالمدينة. وتقدّم أنّها هفوة منه، والإجماع على خلاف قوله.[١١]

وأمّا آية المقتسمين، فزعموها نزلت في اليهود والنصارى ممّن آمنوا ببعض القرآن وكفروا بالبعض.[١٢] لكنّه زعم باطل، لأنّ اليهود لم يؤمنوا بالقرآن إطلاقاً، ولم يكونوا هم المنزل عليهم. نعم كان إيمانهم بالكتب النازلة عليهم كذلك، يؤمنون بالبعض ويكفرون بالبعض.

والصحيح أنّ الآية المذكورة نزلت في المشركين الذين جعلوا من القرآن بعضه سحراً وبعضه أساطير الأوّلين وبعضه مفترى وغير ذلك، وكانوا يتفرّقون على أبواب مكّة يصدّون الناس عن القرآن ويقولون على اللّه الكذب.[١٣] وقدروى العياشي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: أنّها نزلت في قريش.[١٤]

٩ ـ سورة النحل: مكّية

قال قتادة: إلّا قوله: «وَالَّذينَ هاجَروا فِي اللّه مِنْ بَعدِ ماظُلِمُوا...»[١٥] وقيل: إلى آخر السورة نزلن بالمدينة.[١٦]

وعن عطاء بن يسار: استثناء قوله: «وإن عاقَبْتُم فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقِبْتُمْ بِهِ...»[١٧] إلى آخر السورة ـ وهنّ ثلاث آيات ـ نزلن في حادثة اُحد، بعد مقتل حمزة عليه السلام.[١٨]

وفي رواية عن ابن عباس قوله: «وَلا تَشْتَرُوا بَعَهْدِاللهِ ثَمَناً قَليلاً... (إلى قوله:) بِأَحْسَنِ ما

---

١٠ ـ راجع: تفسير الطبري، ج ١٤، ص ١٦ و ١٨.

١١ ـ راجع: الإتقان، ج ١، ص ٣٠.

١٢ ـ جامع البيان، ج ١٤، ص ٤٢.

١٣ ـ راجع: الميزان، ج ١٢، ص ٢٠٥.

١٤ ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢، ح ٤٣ و ٤٤.

١٥ ـ النحل ١٦: ٤١.

١٦ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤١؛ وفي مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٤٧ نسبه إلى الحسن وقتادة.

١٧ ـ النحل ١٦: ١٢٦.

١٨ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٣٥.

كَانُوا يَعْمَلُونَ»[١] نزلتا بالمدينة.[٢]

قلت: أمّا الآية رقم ٤١ و ٤٢ فلا دلالة فيها على أنّ المراد هي الهجرة الثانية إلى المدينة، بل الظاهر منها أنّها: الهجرة الأُولى إلى الحبشة، كما روي ذلك عن قتادة أيضاً.[٣] وأمّا القول بنزول ما بعد آية الأربعين إلى آخر السورة بالمدينة فلا مستند له وسياق الآيات أيضاً ينافيه.

وأمّا الآية رقم ٩٥ و ٩٦ فقيل: نزلت بشأن امرئ القيس الكندي، كان قد غصب أرضاً من عبدان الأشرع الحضرموتي. فشكاه إلى النبيّ ﷺ فأنكر امرؤ القيس، فاستحلفه فاستعظم أن يحلف كاذباً، فنزلت الآية.[٤] وهذه القصة وقعت بالمدينة!

لكن القصّة لم تثبت، ولهجة الآية عامّة، وسياقها يشهد بانسجامها الوثيق مع آيات قبلها، تهدف تقريعاً عنيفاً بأُولئك المشركين المعاندين. وملاحظة عابرة بالآية تجعلنا نطمئنّ بأنّها مرتبطة تمام الارتباط مع الآية رقم: ٩١ «وَأَوْفُوا بِعَهْدِالله إِذَا عاهَدْتُمْ» توكيداً منها، وتثبيتاً بموقف المؤمنين آنذاك، فلا يشتروا بما عاهدوا الله عليه ثمناً بخساً: عرض هذه الحياة الدنيا، تجاه مااُعدّ لهم من عظيم الأجر والثواب وحسن الخاتمة.[٥]

وأمّا آية «وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْل ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ»[٦] فقد اختلف المفسّرون فيها على ثلاثة أقوال:

الأوّل: أنّها نزلت يوم أُحد، عندما وقف النبيّ ﷺ على حمزة وقد مُثّل به، فما كان أوجع لقلبه الكريم، فقال: أما والله لأُمثّلنّ بسبعين، أوقال: بثلاثين منهم مكانك!

وهكذا لمّا سمع المسلمون ذلك، قالوا: لئن أمكننا الله منهم لنمثّلنّ بالأحياء منهم فضلاً عن الأموات، وقال بعضهم: لنمثّلنّ بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب! فنزل جبرائيل بالآية، فكفّر النبيّ ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذي أراد!

---

١ ـ النحل ١٦: ٩٥ ـ ٩٦.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٤٧.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١١٨.

٤ ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٨٤.

٥ ـ راجع: الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٢٩.

٦ ـ النحل ١٦: ١٢٦.

الثاني: أنّها نزلت يوم الفتح، فهمّ المسلمون أن يقعوا في المشركين، ويقتلوهم شرّ قتلة، تشفّياً بما كانوا فعلوا بهم يوم أُحد: كان قد أُصيب من الأنصار يومذاك أربعة وستون. ومن المهاجرين ستة منهم حمزة بن عبدالمطلب، وقد مثّل بهم المشركون! فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربينّ عليهم، فلمّا كان يوم فتح مكة، وأمكن الله المسلمين من المشركين، نزلت الآية للأخذ من حدّة المسلمين، وأن لا يتجاوزوا حدود ما أنزل اللّه!

الثالث: أنّها عامّة في كلّ ظلم، يحاول المظلوم الانتقام من الظالم، بعد ما يمكّنه اللّه منه.

وهذه الآية جاءت مزيجة بين الانتقام العادل والصفح الجميل، الأمر الذي يتناسب مع حالة المسلمين يوم كانوا بمكة. ومن ثمّ قالوا: إنّها منسوخة بآية القتال. وهي نظيرة قوله تعالى: «وَقاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إنَّ اللّهَ لايُحِبُّ الْمُعْتَدينَ» وقوله: «فَإنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»[1] نزلت أوائل عهد المسلمين بالمدينة.

وهذا الرأي الأخير هو الصحيح، نظراً إلى سياق الآية نفسها، ومناسبتها الوثيقة مع آيات قبلها وبعدها:

قال تعالى: «اُدْعُ إلىٰ سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هيَ أَحْسَنُ...». «وَإنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقِبْتُمْ بِهِ...». «وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إلّا بِاللهِ وَلاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاتَكُ في ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ».[2]

وهذه الآية جاءت تصبّر النبيّ ﷺ على أذى المشركين وتسلّيه عن حزنه عليهم لاحزنه منهم، وهو دليل على أنّ الآية نزلت يوم كان المشركون صموداً تجاه دعاء النبيّ ﷺ ومتعرّضين أذاه. وكانت نفوس مؤمنة تأبى تحمّل الضيم، وتحاول الانتقام منهم مهما كلّف الأمر.[3]

---

١ ـ البقرة ٢: ١٩٠ و ١٩١. ٢ ـ النحل ١٦: ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧.

٣ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٩٣؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٣٥.

١٠ـ سورة الإسراء: مكّية

قالوا: فيها سبع عشرة آية نزلن بالمدينة، وهنّ: ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ٦٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٨، ١٠٧.

وهذه مبالغة في القول، لاسند لأكثرها، وإليك بعض التفصيل:

الآية الأُولى: قوله تعالى: «وآتِ ذَاالْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكينَ وَابْنَ السَّبيلِ وَلاتُبَذِّرْ تَبْذيراً».[١]

قيل: نزلت بالمدينة بعدما فتح الله خيبر على رسول الله صلى الله عليه وآله فأعطى فاطمة فدكاً.[٢]

وأخرج أبوجعفر الطبري عن السدّي عن أبي الديلم، قال: قال عليّ بن الحسين عليه السلام لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم! قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: «وَآتِ ذَاالْقُرْبىٰ حَقَّهُ»؟ قال: وإنّكم للقرابة التي أمر الله جلّ ثناؤه أن يؤتى حقّه؟ قال عليه السلام: نعم.[٣]

وأخرج الحافظ الحسكاني حديث نزول الآية بشأن إعطاء رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فدكاً، بأسانيد وطرق عديدة.[٤]

قلت: ولكن ظاهر الآية كونها شريعة عامّة، وظيفة لكلّ مسلم، وجاءت مجملة بوجوب الإنفاق على ذوي القربى والمساكين، كما هو طابع التشريعات المكّية، ثمّ فصّلت حدودها بعد الهجرة بالمدينة.

والآية بعمومها شاملة للنبيّ صلى الله عليه وآله فهو أيضاً مأمور بمواصلة الأرحام والإنفاق عليهم وعلى الفقراء، كأحد المسلمين.

إذن فالآية ـ لعلّها ـ نزلت للمرّة الثانية بعد فتح خيبر، وبعد ما أفاء الله على رسوله والمؤمنين، نزل بها جبرائيل يذكّره بها وجوب مواصلة قرباه. فدعى فاطمة عليها السلام وأعطاها فدكاً، ولادليل على أنّ الآية نزلت ـ في أوّل نزولها ـ حينذاك.

أو لعلّ الآية التي نزلت بخيبر، بشأن مواصلة القربى، كانت غيرها: فقد ورد في

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٢٦.

٢ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٧٧؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٤١١.

٣ ـ جامع البيان، ج ١٥، ص ٥٣.

٤ ـ شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٣٨ ـ ٣٤١.

حديث «منهال بن عمرو» بالشام ـ أيضاً ـ عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في قوله تعالى: «ما أَفاءَ اللّهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ فَلِلّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتامىٰ وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ».[١]

وأهل القرى: هم بنوقريظة وبنوالنضير. والقرى، هي: فدك وخيبر وعرينة وينبع، أصبحت غنائم في يد المسلمين. وقد نزلت الآية بشأنها حينذاك.[٢]

فلوصحّ أنّ جبرائيل عليه السلام جاء بالآية الأُولى أيضاً، فهو تذكير للنبيّ صلى الله عليه وآله بحكم سابق، وتأكيد لحكم حاضر. هذا إذا لم يكن الراوي قد اشتبهت عليه إحدى الآيتين بالأُخرى!

الآية الثانية: قوله تعالى: «وَلاٰ تَقْرَبُوا الزِّنا إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً».[٣]

الآية الثالثة: قوله تعالى: «وَلاٰتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلّا بِالْحَقِّ».[٤]

والقائل باستثناء هاتين الآيتين لم يعلّل استثناءه بشيء.[٥] ولعلّه نظر إلى ظاهر تشريع حرمة الزنا وقتل النفس، حيث كان تشريع الأحكام بالمدينة!

لكن فاته أنّ تحديدات الحدود وتفاصيل الأحكام جاءت بالمدينة، أمّا أُسس الشريعة وكلّيات الأحكام في صورها الإجمالية فقد جاءت في سور مكّية وبمكة كثيراً. وهاتان الآيتان جاءتا بمكة على نفس النمط.

قال السدّي: آية: «وَلاٰتَقْرَبُوا الزِّنا» نزلت يوم لم تكن حدود. فجاءت بعد ذلك في سورة النور ـ وهي مدنيّة ـ.[٦] وقال الضحّاك في آية القتل: كان هذا بمكة، والنبيّ صلى الله عليه وآله بها. وهو أوّل شيء نزل من القرآن في شأن القتل، كان المشركون يغتالون أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله يومذاك، فهمّ أصحابه صلى الله عليه وآله أن يفعلوا بهم مثل ذلك، فقال جلّ ثناؤه: من قتلكم فلايحملنّكم عمله على أن تقتلوا أباه أو أخاه أو أحداً من المشركين، كما كانت العادة الجاهليّة جارية

---

١ ـ الحشر (المدنيّة) ٥٩: ٧.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ وجاء في الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٨٩ إشارة.

٣ ـ الإسراء ١٧: ٣٢.

٤ ـ الإسراء ١٧: ٣٣.

٥ ـ تاريخ القرآن لأبي‌عبدالله الزنجاني، ص ٢٨.

٦ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٧٩.

على قتل الأخ بأخيه أو آخرين من أفراد قبيلته، فلا يقتلنّ أحدكم إلّا القاتل نفسه.[١]

الآية الرابعة: «أُولٰئِكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلىٰ رَبِّهِمُ الوَسيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ».[٢]

والآية، بقرينة الآية قبلها تتناسب مع نزولها بمكة، ولم نعرف وجه هذا الاستثناء الذي جاء في المصحف الأميري وغيره!

الخامسة: «وَما جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتي أَرَيْنَاكَ إِلّا فِتْنَةً لِلنّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ في الْقُرآنِ».[٣]

جاء هذا الاستثناء في كلام جلال‌الدين، نظراً لأنّ الآية نزلت في رؤيا رسول‌الله صلى الله عليه وآله أهمّته، رأى بني أُميّة ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك، ولم يرَ ضاحكاً حتى مات صلى الله عليه وآله.[٤]

هذا... والنبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن له منبر بمكة!

وقد تقدّم كلامنا في ذلك، وأنّه صلى الله عليه وآله أُري اعتلاء دعوته المباركة، وأُري أيضاً تطاول أيدي الغاصبين لمنصبه الإلهي فساءه ذلك.[٥]

السادسة والسابعة والثامنة: قوله تعالى: «وَإِن كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَينا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وإذاً لاتَّخَذُوكَ خَليلاً. وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً. إذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعفَ الْمَماتِ ثُمَّ لاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصيراً».[٦]

لاشك أنّ الآيات مكّيات، نزلن بشأن مشركي قريش عرضوا على النبيّ صلى الله عليه وآله مسالمته مع آلهتهم، فنهرهم نهراً، ونزلت الآيات تثبيتاً بموقف النبيّ صلى الله عليه وآله ذاك المشرّف، وتيئيساً للمشركين نهائياً، لئلّا يطمعوا في رسول‌الله، وهو داعية إلى التوحيد الخالص ونبذ الإشراك كلّياً، أن يجامل فيما يناقض دعوته إلى اللّه وحده لاشريك له![٧]

ولم نعرف وجهاً صحيحاً لاستثناء هذه الآيات الثلاث، كما جاء في كلام

---

١ ـ المصدر، ص ١٨١.
٢ ـ الإسراء ١٧: ٥٧.
٣ ـ الإسراء ١٧: ٦٠.
٤ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩١.
٥ ـ تقدم ذلك في «سورة القدر» من «سور مختلف فيها».
٦ ـ الإسراء ١٧: ٧٣ ـ ٧٥.
٧ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣١؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩٤.

جلال‌الدين[١] وفي المصحف الأميري وغيرهما!

التاسعة والعاشرة: قوله تعالى: «وإن كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لايَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلّا قَليلاً. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنا ولاتَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْويلاً».[٢]

وجه الاستثناء: ماقيل في سبب نزولهما: أنّ اليهود أتوا النبيّ ﷺ وقالوا له: إن كنت نبيّاً فأت الشام أرض الأنبياء، فصدّقهم على ذلك. وغزا غزوة تبوك، لايريد إلّا اللحاق بالشام، فلمّا بلغ تبوك أنزل اللّه عليه هاتين الآيتين، فأمره بالرجوع إلى المدينة. ففيها محياه ومماته ومبعثه يوم القيامة.[٣]

لكنّه معارض بماورد: أنّهما نزلتا بشأن مشركي مكة، همّوا بإخراج الرسول من مكة بنفس الأُسلوب، قالوا له ﷺ: كانت الأنبياء عليهم السلام يسكنون الشام فما لك وسكنى هذه البلدة! أو همّوا بإخراجه عنفاً، لأنّ الاستفزاز هو الإزعاج بعنف، وظاهر الآية يرجّح المعنى الثاني، كما أنّ المشركين لمّا فعلوا ذلك بعدئذ طبّقت عليهم سنّة الله في الخلق، بدأت بقتلى بدر، وانتهت بفتح مكة وإخراج المشركين منها نهائياً.[٤]

الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة: قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وقُرْآنَ الْفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً. وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصيراً. وَقُلْ جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً».[٥]

زعم المستثني: أنّها من تتمّة الآيتين السابقتين نزولا بالمدينة.[٦] وهو زعم باطل، بعد أن لم يثبت الأصل فكيف بالفرع!

وقد أخرج أبونعيم والبيهقي عن ابن‌عباس أنّ قوله: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ...»

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤١.
٢ ـ الإسراء ١٧: ٧٦ ـ ٧٧.
٣ ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣٢؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩٥.
٤ ـ راجع: نفس المصادر.
٥ ـ الإسراء ١٧: ٧٨-٨١.
٦ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤١.

نزل بمكة قبيل هجرته صلى الله عليه وآله.[١]

على أنّ الآيات في سياقها المتّصل، سبقاً ولحوقاً، بنفسها تشهد بنزولها بمكة، ولا تنسجم مع القول بنزولها في المدينة بشيء.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلّا قَليلاً».[٢]

أخرج جماعة من أهل الحديث: أنّ هذا السؤال كان من يهود المدينة، بعد الهجرة.[٣]

لكنّه معارض بما ورد أنّ هذا السؤال وقع من مشركي قريش، سألوه عن الروح الذي جاء ذكره في القرآن[٤] أو أنّ اليهود أوعزوا إلى المشركين توجيه هكذا سؤال إلى محمد صلى الله عليه وآله. قالوا: فإن أجابكم فليس بنبيّ وإن لم يجبكم فهو نبيّ.[٥]

هذا مضافاً إلى أنّ ذيل الآية تشهد بأنّها خطاب مع المشركين، وعن عطاء بن يسار: أنّ قوله تعالى: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً» نزلت بمكة.[٦]

السادسة عشرة: قوله تعالى: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا الْقُرْآنِ لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً».[٧]

أخرج الطبري: أنّ الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة، بسبب قوم من اليهود جادلوه في تناسق القرآن، فأنكروا تناسقه وزعموا أنّ التوراة أنسق منه.[٨]

لكن رنّة الآية الأخّاذة تشي بنزولها بشأن مشركي قريش تحدّياً معهم حينما سألوه مخاريق غريبة إلى جنب مطاليب تافهة، تجاه نزول القرآن.

وهذه الآية نزلت تمهيداً للتشنيع المتّجه إليهم في آيات بعدها: «وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ

---

١ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩٨؛ وجامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٠.

٢ ـ الإسراء ١٧: ٨٥.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩٩؛ وجامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٥.

٤ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣٧؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٩٩.

٥ ـ راجع: نفس المصادر.

٦ ـ جامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٥-١٠٦.

٧ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

٨ ـ جامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٦.

حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً»[١] إلى تمام الأربع آيات، والتي تستتبعها إلى الآية السابعة والتسعين. فراجع نفس الآيات.

الآية الأخيرة وهي السابعة عشرة: قوله تعالى: «قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً».[٢]

قال جلال‌الدين:نزلت بالمدينة، لما أخرجناه في أسباب النزول.[٣]

لكنّه لم يخرج شيئاً بهذا الشأن، لا في لباب النقول ولافي الدرالمنثور!!

والآية بسياقها تشهد بأنّها مكّية، نزلت توبيخاً لصمود المشركين تجاه نزول القرآن وإباءهم عن الإيمان به، وتلميحاً بأنّ هذا العناد هو أثر الجهل الأعمى والتوحّش الفادح الذي تمكّن من نفوسهم القاسية، أمّا أهل المدنيّة والثقافة فإنّهم إذا لمسوا من حقيقة القرآن الواضحة يؤمنون به فوراً بلا ارتياب، كناية بأنّ هؤلاء المشركين بعيدون عن الحضارة والعلم، ومن ثمّ هذا التأنّف والشموخ الجاهل!

١١ ـ سورة الكهف: مكّية

استثنى بعضهم منها اثنتين وثلاثين آية، زعمها نزلت بالمدينة. وهذا إسراف في القول، لأنّ هذا يعني: أنّ ثلث السورة، ولاسيّما ثماني آيات من أوّلها مدنيّة، فكان جديراً ثبتها في المدنيّات!

قال جلال‌الدين: استثني من أوّلها إلى قوله: «جُرُزاً» الآيات رقم ١ ـ ٨ نزلت بالمدينة.[٤]

ولادليل لهذا الاستثناء إطلاقاً، مضافاً إلى استلزامه أن تكون السورة مدنيّة لامكّية! لأنّ الاعتبار في المكّية والمدنيّة إنّما هو بمفتتح السورة وشيء من آيات من أوّلها. هذا والإجماع منعقد على أنّ سورة الكهف مكّية لااختلاف فيها.[٥]

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٩٠.

٢ ـ الإسراء ١٧: ١٠٧.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤١؛ وفي الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٢٠٥: أخرج ابن‌جرير عن مجاهد: أنّ الذين أُوتوا العلم من قبله هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد.. لكنّ ذلك لايستدعي نزول الآية بالمدينة، كما لايخفى.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤١.

٥ ـ راجع: الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٢٠٨.

ولعلّ المستثني نظر إلى قوله تعالى: «وَيُنْذِرَ الَّذينَ قالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً».[١]

ولكن ذلك لايستدعي نزولها بالمدينة لمناسبة وجود اليهود فيها، بل هي عامة تشمل النصارى والمشركين أيضاً، على أنّ نزول آية بشأن قصّة يهودية لاتستوجب مقارنة نزولها يوم كانوا ينابذون الإسلام، والآيات بهذا النمط كثيرة في سور مكّية، وذلك لوجود الصلة القريبة بين اليهود والمشركين قبل مهاجرة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المدينة، كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك.

وقال أيضاً باستثناء قوله تعالى: «واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ... (إلى قوله:) فُرُطاً».[٢]

زعموها نزلت في عيينة بن حصن، عرض على رسول‌الله صلى الله عليه وآله وهو آنذاك بالمدينة، أن يتباعد مجلس فقراء المؤمنين، إن كان يريد إسلام عظماء البلد.[٣]

لكن الصحيح أنّها نزلت في أُميّة بن خلف، عرض عليه صلى الله عليه وآله ذلك وهو بمكة فدعى النبيّ صلى الله عليه وآله إلى طرد الفقراء وتقريب صناديد قريش.[٤] ولهجة الآية وسياقها أيضاً تشي بذلك.

وفي المصحف الأميري وتاريخ القرآن للزنجاني استثناء قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذي القَرْنَيْنِ (إلى قوله:) لَايَسْتَطيعُونَ سَمْعاً»[٥] تسع عشرة آية.

زعموا أنّ الذينَ وجّهوا هذا السؤال إلى النبيّ صلى الله عليه وآله كانوا هم اليهود أنفسهم، ومن ثمّ كان نزول الآيات ـ بصدد الإجابة ـ في المدينة.[٦]

والصحيح أنّ المشركين هم الّذين سألوا هذا السؤال، لكن بتعليم من اليهود، كان المشركون بعثوا من يسأل اليهود عن أوصاف رسول‌الله، فأجابوهم بأسئلة يوجّهونها إلى رسول‌الله صلى الله عليه وآله فإن أجاب فهو نبيّ حقاً.

---

١ ـ الكهف ١٨: ٤.

٢ ـ الكهف ١٨: ٢٨. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٤١؛ وتأريخ القرآن لأبي‌عبدالله الزنجاني، ص ٢٩.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٢٢٠.

٤ ـ لباب النقول، ج ١، ص ٢٣٠؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ٢٢٠.

٥ ـ الكهف ١٨: ٨٣ ـ ١٠١.

٦ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٢٤٠.

روى أبوجعفر الطبري: أنّ قريشاً بعثت النضربن الحرث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل ـ التوراة ـ وعندهم علم ماليس عندنا، من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنّكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، ما كان من أمرهم، فإنّه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ماكان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ماهو؟ فإن أخبركم بذلك فإنّه نبيّ فاتّبعوه... الخ. والحديث طويل وفي نفس الوقت طريف.[1]

وفي الإتقان جاء استثناء قوله تعالى: «إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِردَوسِ نُزُلاً» إلى آخر السورة[2] أربع آيات.[3]

هذا... ولم يبيّن سند هذا الاستثناء الغريب! ولعلّه سهو أو جزاف من الكلام، إذ لاشيء في الآيات يصلح دليلاً على مدنيّتها، ولاورد في تفسيرها مايتناسب ونزولها بالمدينة!!

نعم روي في الدر المنثور عن مجاهد قال: كان من المسلمين من يقاتل وهو يحبّ أن يرى مكانه، فأنزل الله «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...».[4] لكن لحن الآية وفحواها لاتلتئم وذلك.. وروى الطبرسي عن ابن عباس: لمّا نزل قوله: «وَما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلّا قَليلاً»[5] قالت اليهود: أُوتينا التوراة وفيها علم كثير. فأنزل الله «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْر...» ولذلك قال الحسن: أراد بالكلمات العلم[6] لكن هذا لايدلّ على كونها نزلت بالمدينة كما مرّ غير مرّة!

---

١ ـ جامع البيان، ج ١٥، ص ١٢٧ و ج ١٦، ص ٧؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ٢١٠؛ ولباب النقول، ج ١، ص ٢٢٨.

٢ ـ الكهف ١٨: ١٠٧ ـ ١١٠.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٢.

٤ ـ الكهف ١٨: ١١٠. راجع: الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٢٥٥.

٥ ـ الإسراء ١٧: ٨٥.

٦ ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٩٩.

١٢ ـ سورة مريم: مكّية

قال جلال‌الدين: استثني منها آيتان.[١]

١ ـ آية السجدة: «أُوْلئِكَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللّه عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ (إلى قوله:) خَرُّوا سُجَّداً وبُكيّاً».[٢]

ويكذبه: أنّ هذه الآية نزلت تعقيباً على الآيات التي سبقتها من أوّل السورة إلى هنا، ذكرت أحوال الأنبياء و اُمم سالفة بتفصيل، ثمّ جاء مدحهم جميعاً بصورة إجماليّة في هذه الآية، كأنّها تلخيص لتلكم السمات والأوصاف، وكانت نتيجة عليها، فإمّا أن نقول بأن جميعها من أوّل السورة إلى هذه الآية مدنيّة أو كلّها مكّية، ولاموقع لهذا الاستثناء الغريب، والذي لم يبيّن المستثني سنده في ذلك؟!

٢ ـ قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلّا وَارِدُها كانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً».[٣]

وهذه كسابقتها مرتبطة تمام الارتباط بآيات اكتنفتها سبقاً ولحوقاً، بمالايدع مجالا لاستثنائها وحدها.

١٣ ـ سورة طه: مكّية

استثني منها آيتان: الاُولى قوله تعالى: «فاصْبِرْ عَلىٰ مَايَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها».[٤]

لكن الآية تفريع على آيات سبقتها، مضافاً إلى لهجتها الخاصّة بآيات مكّية. وورد في تفسيرها مايؤكّد نزولها بمكة.[٥]

الثانية قوله تعالى: «وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ...».[٦]

قال جلال‌الدين: لما أخرجه البزّار عن أبي رافع، كان بعثه النبيّ صلى الله عليه وآله ليستسلف من يهودي طعاماً، فأبى إلّا برهن، فحزن رسول‌الله صلى الله عليه وآله على ذلك، فنزلت الآية.[٧]

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٢.

٢ ـ مريم ١٩: ٥٨.

٣ ـ مريم ١٩: ٧١.

٤ ـ طه ٢٠: ١٣٠.

٥ ـ جامع البيان، ج ١٦، ص ١٦٨.

٦ ـ طه ٢٠: ١٣١.

٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٢؛ وراجع: جامع البيان، ج ١٦، ص ١٦٩.

لكن القصة ـ على فرض صحّتها ـ لاتصلح داعية لنزول هذه الآية بشأنها ولامناسبة بينها وبين فحوى الآية رأساً.

١٤ ـ سورة الأنبياء: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِهَا»[1] ولم يذكروا سند الاستثناء.

لكن السياق مكّي بلاكلام. وجاءت نظيرتها في سورة الرعد، الآية رقم ٤١ أيضاً، ولهجتها مكّية، لولا اتفاق روايات الترتيب على مدنيّتها على ماسبق.

١٥ ـ سورة المؤمنون: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «حَتّىٰ إذا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ (إلى قوله:) مُبْلِسُونَ» ثلاث عشرة آية.[2]

ولا شاهد لهذا الاستثناء بتاتا. ولعلّ المستثني نظر إلى روايات فسّرت العذاب بما أُصيب المشركون يوم بدر أو يوم الفتح. لكنّه غفل عن أنّها تفسير لوعد سابق، لاحكاية عن أمر كان. راجع أبا جعفر الطبري وغيره.[3]

١٦ ـ سورة الفرقان: مكّية

استثني منها ثلاث آيات: ٦٨ و ٦٩ و ٧٠.

لكن الآيات منسجمة مع قريناتها سبقاً ولحوقاً تمام الانسجام، بما يستحيل استثناؤها لوحدها. وفي تفسير الطبري وغيره مايؤكّد نزولها بمكة فراجع.[4]

١٧ ـ سورة الشعراء: مكّية

استثني منها خمس آيات:

١ ـ قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أنْ يَعْلَمَهُ عُلماءُ بَني إسْرائيلَ».[5]

---

١ ـ الأنبياء ٢١: ٤٤. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٤٢.
٢ ـ المؤمنون ٢٣: ٦٤ ـ ٧٧. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٤٢.
٣ ـ جامع البيان، ج ١٨، ص ٢٨.
٤ ـ المصدر، ج ١٩، ص ٢٦.
٥ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٧.

حكى ابن غرس: أنّها مدنيّة[1] ولعلّه لما ورد في تفسيرها من أنّ المراد من علماء بني إسرائيل ـ هنا ـ هم: أسد وأُسيد وابن يامين وثعلبة وعبدالله بن سلام.[2]

لكن وجه الآية بلاشكّ مع مشركي قريش، وتوبيخ لاذع بهم. أمّا التفسير الوارد فلايعني نزول الآية بعد إيمان هؤلاء اليهود، وإنّما هو بيان مصداق من مصاديق الآية تحقّقت فيما بعد.

وقد تقدّم[3] مراجعة المشركين إلى اليهود فيما يخصّ معرفة رسول الله ﷺ فكانوا يعرّفونهم خصائص وسمات كانت موجودة فيه ﷺ والآية إنّما تعني ذلك، وإنّ هذا شيء كان يعرفه أهل الكتاب. كما اعترفوا هم قبل هجرته ﷺ وإنّما نكروه بعد ذلك طمعاً في حطام الدنيا ولم تعن الآية إيمانهم وإنّما عنت معرفتم. وبذلك لايصلح التفسير الوارد لتعيين نزول الآية بالمدينة.

٢ ـ قوله تعالى: «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ»[4] إلى آخر السورة أربع آيات.

حكي استثناء ذلك عن ابن عباس[5] وسند الاستثناء ماروي أنّها نزلت في رجلين تهاجيا على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين.[6]

لكنّه معارض بما هو أقوى سنداً وأكثر عدداً: أنّها نزلت في مشركي قريش، كان شعراؤهم يهجون رسول الله ﷺ ويقرأها سفلتهم على ملأ من الناس امتهانا بموقف رسول الله ﷺ فنزلت الآية تقريعاً بشأنهم وتنديداً بسلوكهم الشنيء. وقد جاء الطبرسي بأسماء هؤلاء المشركين في تفصيل عريض.[7] وهكذا رجّحه أبوجعفر الطبري.[8]

١٨ ـ سورة القصص: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (إلى قوله:) سَلامٌ

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٢.

٢ ـ جامع البيان، ج ١٩، ص ٦٩؛ والدرّ المنثور، ج ٥، ص ٩٥.

٣ ـ تقدم ذلك في «سورة الكهف» من «آيات مستثنيات».

٤ ـ الشعراء ٢٦: ٢٢٤.

٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ٢٤ و ٤٢.

٦ ـ الدرّ المنثور، ج ٥، ص ٩٩؛ وجامع البيان، ج ١٩، ص ٧٨.

٧ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٠٨.

٨ ـ جامع البيان، ج ١٩، ص ٧٨.

عَلَيْكُمْ لانَبْتَغي الْجاهِلِينَ»[1] أربع آيات.

قيل: نزلت في جماعة من أهل الكتاب كانوا قد أسلموا، منهم: عبدالله بن سلام و تميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي.[2]

وقيل: نزلت في أصحاب النجاشي قدموا المدينة وشهدوا وقعة أُحد.[3]

لكن لو صحّ تفسير الآية بالمذكورين فإنّما عنت الأخبار عمّا سيكون لاعمّا كان! فضلا عن معارضة هذا التفسير بتفسيرها بجماعة من أهل الكتاب كانوا مسلمين بالنبيّ صلى الله عليه وآله قبل مبعثه، وهم أربعون رجلاً على ماجاء في تفسير الطبرسي وتفسير الطبري وغيرهما فراجع.[4]

ويؤكّد ماذكرنا قوله تعالى: «وَلاتُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ إِلّا الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...».[5] هذه الآية مكّية وردت بشأن مجادلة أهل الكتاب.

وقوله تعالى: ـ أيضاً ـ: «وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ...».[6] وهي مكّية أيضاً بالاتفاق.

وهذه نظيرة الآية المبحوث عنها تماماً، إخبار عمّا سيكون.

واستثني منها ـ أيضاً ـ قوله تعالى: «إِنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ...».[7]

قيل: نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مهاجر إلى المدينة، عند وصوله إلى الجحفة[8] فالآية على الاصطلاح الثاني[9] لامكّية ولامدنيّة.

لكن الاختيار المشهور هو المصطلح الأوّل. وعليه فالآية مكّية. وقد سبق ذلك.

---

١ ـ القصص ٢٨: ٥٢ ـ ٥٥.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٨.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٢.

٤ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٨؛ وجامع البيان، ج ٢٠، ص ٥٧؛ والدرّ المنثور، ج ٥، ص ١٣٣.

٥ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٦.

٦ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٧.

٧ ـ القصص ٢٨: ٨٥.

٨ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٨.

٩ ـ تقدم ذلك في «اتجاهات في تعيين المكّي و المدني».

١٩ ـ سورة العنكبوت: مكّية

استثني من أوّلها إلى الآية الحادية عشرة، قالوا: نزلن بالمدينة.[١] قالوا: نزلت الآيات في أُناس من المسلمين تخلّفوا عن الهجرة، ثمّ كتب إليهم أصحاب رسول‌الله صلّى الله عليه وآله في ذلك، فعمدوا إلى المهاجرة فردّتهم قريش ووقع بينهم قتال وعنف.[٢]

لكن الآية عامّة، نزلت في مؤمني مكة وقعوا تحت شدّة، وكانت ابتلاء لهم ليعلم الصادق من الكاذب. وهكذا فسّرها أبوجعفر الطبري[٣] وجاءت به الرواية عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام.[٤]

هذا فضلا عن أنّ مفتتح السورة لوصحّ نزولها بالمدينة لأصبحت السورة مدنيّة، وفق المصطلح المتقدّم[٥] هذا ولم يخالف أحد في مكّيتها.

واستثني منها ـ أيضاً ـ قوله تعالى: «وَكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ لاتَحْمِلُ رِزقَها اللّهُ يَرْزُقُها وَإِيّاكُمْ وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ».[٦]

استثناها جلال‌الدين، لما رواه ابن أبي حاتم ـ بسند ضعيف ـ عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول‌الله صلّى الله عليه وآله حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، ثمّ قال صلّى الله عليه وآله هذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده... قال ابن عمر: فوالله مابرحنا ولا رمنا حتى نزلت: «وَكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ...».[٧]

والرواية مطعون في سندها، فضلا عن اضطراب متنها وعدم معقوليّة فحواها!

هذا... وقد روي عن مقاتل والكلبي: أنّها نزلت في جماعة من المؤمنين المستضعفين، ضاق بهم المقام بمكة قبل هجرة الرسول صلّى الله عليه وآله ووقعوا في عسر وشدّة، فأُمروا بالهجرة إلى المدينة، قالوا: كيف نخرج إلى بلد ليس لنا به دار ولاعقار ولامعيشة! فنزلت الآية: «ياعِبادِيَ الَّذينَ آمَنُوا إنَّ أَرْضي واسِعَةٌ فَإِيّايَ فَاعْبُدُونِ (إلى قوله:) وَكَأَيِّنْ مِنْ

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٣.
٢ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٣٢.
٣ ـ جامع البيان، ج ٢٠، ص ٨٣.
٤ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٧٢.
٥ ـ تقدم ذلك في «ترتيب النزول».
٦ ـ العنكبوت ٢٩: ٦٠.
٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٣؛ والدرّ المنثور، ج ٥، ص ١٤٩.

دابَّةٍ...» الخ.[١]

والرواية الثانية أوفق بنصّ الكتاب وأولى بالاعتبار، ومن ثمّ فهي الصحيحة المقبولة!

٢٠ ـ سورة الروم: مكّية

جاء في المصحف الأميري وتاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني والمجمع: استثناء قوله تعالى: «فَسُبْحَانَ اللّهِ حينَ تُمْسُونَ وَحينَ تُصْبِحُونَ».[٢]

ولاسند لهذا الاستثناء، فضلا عن ارتباطها الوثيق مع آيات سبقتها وآيات لحقتها

٢١ ـ سورة لقمان: مكّية

روي عن ابن عباس: استثناء قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ ما في الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ (إلى قوله:) بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ»[٣] ثلاث آيات.

وذلك لانّه ﷺ روى في سبب نزولها: أنّ أحبار يهود قالوا لرسول‌الله ﷺ بالمدينة: إنّا قد أُوتينا التوراة وفيها علم كثير، فقال ﷺ: إنّها في جنب علم الله قليل، فنزلت الآيات.[٤]

ولكن التعليل إن كان يتناسب مع الآية رقم ٢٧ فرضاً، فإنّه لايتناسب مع الآيتين بعدها، ولايصلح داعية لنزولهما ألبتة.

والصحيح أنّ الآيات الثلاث، هي كسوابقها ولواحقها منسجمة بعضها مع بعض و هي جميعاً عرض لعظمة ربّ العالمين، لايدانيه أحد، ولايماثله شيء!... فلاسبب يفصلها عن قريناتها، ومن ثمّ لاوجه لاستثنائها أصلا.

ولو صحّت الرواية المذكورة عن ابن عباس، فلابدّ أنّه ﷺ قرأها عليهم حينما عرضوا عليه ذلك التحدّي الغريب! لا أنّها نزلت حينذاك.

٢٢ ـ سورة السجدة: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «تَتَجافىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمّا

---

١ ـ العنكبوت ٢٩: ٥٦ ـ ٦٠. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٢٩٠.

٢ ـ الروم ٣٠: ١٧. راجع: تاريخ القرآن لأبي‌عبدالله الزنجاني، ص ٣٠؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٢٩٣.

٣ ـ لقمان ٣١: ٢٧ ـ ٢٩.

٤ ـ الدرّ المنثور، ج ٥، ص ١٦٧؛ والإتقان، ج ١، ص ٤٣.

رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ». [١]

قال جلال‌الدين: لما أخرجه البزّار وابن مردويه عن بلال، قال: كنّا جلوساً وناس من أصحاب رسول‌الله صلى الله عليه وآله يصلّون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت. [٢]

قلت: الآية عامّة. وانسجامها مع قريناتها من آيات بادية الوضوح. فضلا عن عدم التئامها مع فحوى الرواية في شيء.

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: استثناء قوله تعالى: «فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ». [٣]

ولعلّ ذلك نظراً لأنّها تتميم للآية السابقة. والأصحّ أنّها كسابقتها عامّة.

وروي عن ابن عباس: استثناء قوله تعالى: «أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً (إلى قوله:) نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ». [٤]

وذلك لما روي بطرق وأسانيد كثيرة و معتبرة: أنّها نزلت في علي بن أبي‌طالب عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي معيط، في مشاجرة جرت بينهما يوم بدر، قال له الوليد: اسكت فإنّك صبّي وأنا أبسط منك لسانا وأحدّ منك سنانا وأردّ منك للكتيبة! فقال له علي عليه السلام: على رسلك فإنّك فاسق، وليس كما تقول.

أخرجها أبوالفرج الإصبهاني في كتاب الأغاني، والواحدي في أسباب النزول وابن‌مردويه والخطيب البغدادي وابن‌عساكر من طرق عن ابن‌عباس. وأخرجها ابن‌إسحاق وابن‌جرير عن عطاء بن‌يسار. وأخرجها ابن أبي‌حاتم عن السدّي وعبدالرحمان بن أبي‌ليلي. فالمؤمن الذي عنته الآية الكريمة هو علي بن أبي‌طالب والفاسق هو الوليد. [٥]

وأخرجها الحافظ الحسكاني باثني عشر طريقاً، ربّما بلغت بذلك حدّ التواتر. [٦]

---

١ ـ السجدة ٣٢: ١٦.

٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٣؛ والدرّ المنثور، ج ٥، ص ١٧٥.

٣ ـ السجدة ٣٢: ١٧.

٤ ـ السجدة ٣٢: ١٨ ـ ١٩.

٥ ـ راجع: الدرّ المنثور، ج ٥، ص ١٧٨؛ وجامع البيان، ج ٢١، ص ٦٨؛ وتفسير النيسابوري، ج ٢١، ص ٧٢؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٣٣٢.

٦ ـ شواهد التنزيل، ج ١، ص ٤٤٥ ـ ٤٥٣.

قلت: سياق الآية عام، وهي مرتبطة مع بقيّة الآيات، سابقة ولاحقة. يبدو ذلك لأدنى مراجعة إلى السورة.

نعم يجوز نزول آية مرّة ثانية لمناسبة تستدعي ذلك، الأمر الذي حدث في كثير من آيات سوف ننبّه عليها. ويحتمل أنّ المحاورة المذكورة بلغت النبيّ صلّى الله عليه وآله فقرأ الآية الكريمة، تطبيقاً مع المورد، فقد فسق الوليد هذا في آيات أُخرى، ونزلت: «إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا»[1] بشأنه الخاصّ، أخرجه جلال‌الدين بأسانيد رجالها ثقات.[2]

٢٣ ـ سورة سبأ: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «وَيَرَى الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذي أُنزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدي إلىٰ صِراطِ الْعَزيزِ الْحَميدِ».[3]

هذه الآية إشارة إلى أنّ أهل العلم الواقعيين يؤمنون بهذا الكتاب إيمانا صادقا عن علم و يقين، ولاشكّ أنّ الأمر كذلك، فالنابهون العقلاء وأرباب الفضيلة والكمال، لايتردّدون في الإيمان بهذا الكتاب العزيز الذي لاريب فيه، فور معرفتهم به. وهذا شأن كلّ حقّ صريح. وهكذا رجّح هذا المعنى العلّامة الطبرسي، قال: وهذا أولى، لعمومه...قال: لأنّهم يتدبّرونه و يتفكّرون فيه، فيعلمون بالنظر والاستدلال أنّه ليس من قبل البشر.[4]

لكن أباجعفر الطبري فسّر الآية ـ ابتداءً ـ بمسلمي أهل الكتاب كعبدالله بن‌سلام ونظرائه.[5] ومن ثمّ زعم بعضهم أنّ الآية مدنية نزلت بعد إسلام هؤلاء.[6]

هذا... وأبوجعفر لم يستند في تفسيره ذلك إلى نقل مأثور[7] وإنّما نقل عن قتادة: أنّهم أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله السابقين الأوّلين ممّن وجدوا الإسلام حقيقة ناصعة فاحتضنوها عن معرفة ويقين. فنقله يختلف عن رأيه هو!

---

١ ـ الحجرات ٤٩: ٦.

٢ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٨٠ ـ ٨٢؛ وأخرجه أيضاً أصحاب مجاميع معتبرة فراجع.

٣ ـ سبأ ٣٤: ٦.

٤ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

٥ ـ جامع البيان، ج ٢٢، ص ٤٤.

٦ ـ الإتقان: ج ١، ص ١٦.

٧ ـ وفي مجمع البيان: ج ٨، ص ٣٧٨: أنّه قول الضحّاك.

واستثني منها ـ أيضاً ـ قوله تعالى: «لَقَدْ كانَ لِسَبَأٍ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ (إلى قوله:) وَرَبُّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفيظٌ»[١] سبع آيات.

يروى عن فروة بن‌مسيك: أنّه سأل رسول‌الله ﷺ أو سمع رجلا يسأله ﷺ عن سبأ: جبل أم أرض، رجل أم امراة؟ فنزلت الآيات، وكان هذا السؤال بعد مرجعه من غزو قبائل سبأ، أرجعه رسول‌الله ﷺ لأنّه لم يؤمر بذلك.[٢]

قال ابن‌الحصار: وهذا يدلّ على أنّ نزول الآيات كان بالمدينة، لأنّ مهاجرة فروة كانت بعد إسلام ثقيف سنة تسع من الهجرة.[٣]

لكنّه قال بعد ذلك: ويحتمل أن يكون قوله: «وأُنزل في سبأ ما أُنزل» حكاية عمّا تقدّم نزوله قبل الهجرة بمكة، لانزوله حينذاك.

قلت: لوصدقت القصة لابدّ من حمل قوله في ذلك على الحكاية، اذ يبعد جدّاً نزول آية أو آيات لمجرّد سؤال رجل كان جوابه ﷺ كافياً لإرضاء حسّ استطلاعه ـ كما جاء في الرواية ـ ولم يستدع تفصيلا تعرّضت له الآيات.

على أنّ ملاحظة عبرى بشأن قصة سبأ كما وردت في القرآن تكفي للدلالة على أنّ الهدف منها عامّ كسائر القصص الواردة في القرآن تروم توجيه البشريّة إلى معالم السير الصحيح، تنبيها لها على مواضع الخطأ في حياتها الغابرة لتأخذ منها درساً تسير عليه في حياتها الحاضرة.

والصحيح في قصة فروة بن مسيك: أنّه سأل النبيّ ﷺ عن قصة سبأ بعد أن قرأها في القرآن، فسأله ﷺ عن سبأ أرجل هو أم امراة، أم هو اسم أرض أم جبل؟ فشرح له النبيّ ﷺ أنّه رجل من العرب كان له من الأولاد كذا وكذا.[٤] وهذا يدلّ على تأخّر السؤال عن نزول الآيات.

---

١ ـ سبأ ٣٤: ١٥ ـ ٢١.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٨٦؛ وجامع البيان، ج ٢٢، ص ٥٣؛ والدرّ المنثور، ج ٥، ص ٢٣١.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٣.

٤ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٨٦.

وأخيراً فإنّ الرواية بهذا الشأن عن فروة مضطربة ومتناقضة بعضها مع بعض، بما يجعل الاستناد إليها في الحكم بنزول الآيات بشأنها مستحيلاً.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال: حدّثني فلان ـ؟ ـ أنّ فروة بن مسيك الغطفاني ـ؟ ـ قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ اللّه إنّ سبأ قوم كان لهم في الجاهلية غزو. وإنّي أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام، أفأُقاتلهم؟ فقال: ما أُمرت فيهم بشيء بعد، فأُنزلت هذه الآية: «لَقَدْ كانَ لِسَبَأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ...».[١]

انظر إلى هذه الرواية المتفكّكة سنداً ومتناً وأُسلوباً، وعدم أيّ مناسبة بين مضمونها ونزول هكذا آيات!! الأمر الذي يجعلنا نطمئن بأنّها لم تكن من حياكة إنسان نابه يلتفت إلى ما يقوله من كلام!

وهكذا سائر الروايات الواردة بهذا الشأن، فراجع.[٢]

فإن كانت هكذا مناسبات تستدعي نزول قرآن، فأجدر بنا أن نقول: إنّه كان ينزل بلامناسبة!!

٢٤ ـ سورة فاطر (الملائكة): مكّية

قال الحسن: إلّا آيتين:

الأُولىٰ: قوله تعالى: «إِنَّ الَّذينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ...».[٣]

الثانية قوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا...».[٤]

ولعلّ الأُولى لذكر الصلاة فيها...

والثانية من أجل تعقيبها بقوله: «فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ». فقد روى عكرمة عن ابن عباس: أنّ الظالم هو المنافق...[٥]

غير أنّ الصلاة فرضت بمكّة... وكان تطبيق الظالم على المنافق لايستدعي نزول

---

١ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٥٥.

٢ ـ جامع البيان والدرّ المنثور، وغيرهما.

٣ ـ فاطر ٣٥: ٢٩.

٤ ـ فاطر ٣٥: ٣٢.

٥ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٩٩ و ٤٠٩.

الآية بالمدينة حيث وفور المنافقين، لأنّه تطبيق وبيان مصداق من ابن‌عباس، إن صحّ الحديث. واللفظ عامّ لايتقيّد بموارد تطبيقه.

٢٥ ـ سورة يس: مكّية

استثنيت منها آيتان:

الأُولىٰ: قوله تعالى: «إِنّا نَحْنُ نُحْيي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ ماقَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إِمامٍ مُبينٍ».[١]

أخرج الحاكم والترمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: كانت بنوسلمة في ناحية من المدينة، فشكوا إلى رسول‌الله صلى الله عليه وآله بُعد منازلهم من المسجد والصلاة معه، فنزلت الآية. فقال لهم رسول‌الله صلى الله عليه وآله: إنّ آثاركم تكتب، فلم ينتقلوا.[٢]

لكن القصّة لاتصلح سبباً لنزول جميع فقرات الآية، لعدم المناسبة! ولعلّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله استشهد بفقرة منها بعد ماشكوا إليه بعد منازلهم، حيث أفضل الأعمال أحمزها.

الثانية: قوله تعالى: «وَإِذا قيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قالَ الَّذينَ كَفَرُوا لِلَّذينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللّهُ أَطْعَمَهُ إِن أَنْتُم إِلّا في ضَلالٍ مُبينٍ»[٣] قال ابن‌عباس: نزلت بالمدينة بشأن المنافقين.[٤]

لكنّها صريحة في خطابها مع الذين كفروا، وقد نصّ أبوجعفر نزولها بشأن المشركين[٥] وهكذا يشهد بذلك سياق الآية ذاتها.

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: استثناء الآية رقم ٤٥.

ولعلّه سهو جاء في اشتباه الرقم. وعلى الفرض فسياقها نفس سياق الآية رقم ٤٧ والكلام فيها هو الكلام في تلك.

---

١ ـ يس ٣٦: ١٢.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٤١٨؛ والإتقان، ج ١، ص ٤٣؛ وجامع البيان، ج ٢٢، ص ١٠٠.

٣ ـ يس ٣٦: ٤٧.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٤؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٤١٣.

٥ ـ جامع البيان، ج ٢٣، ص ٩.

٢٦ ـ سورة الزمر: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «قُلْ يا عِبادِ الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذينَ أَحْسَنُوا في هٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ».[١]

نقل السخاوي في «جمال القرّاء» عن بعضهم: أنّها نزلت بالمدينة.[٢]

لكن الآية بنفسها تشي بأنّها مكّية، نزلت تحرّض المؤمنين المستضعفين على المهاجرة. وهكذا روي عن ابن‌عباس.[٣]

واستثني ـ أيضاً ـ قوله تعالى: «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...».[٤]

حكى ابن‌الجزري عن بعضهم ـ أيضاً ـ أنّها نزلت بالمدينة.[٥]

لكن لهجة الآية الرنّانة الأخّاذة بمجامع القلوب، بذاتها شاهدة على أنّها مكّية، كما أنّ السياق أيضاً يشهد بذلك، ولا وجه لهذا الاستثناء بتاتاً.

وهكذا استثني منها قوله تعالى: «قُلْ يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ (إلى قوله:) وَأَنْتُمْ لاتَشْعُرُونَ»[٦] ثلاث آيات.

قيل: نزلن في وحشي قاتل حمزة! روي ذلك عن ابن عباس بسند ضعيف.[٧]

نعم أخرج ابن أبي‌حاتم بسند صحيح عن ابن‌عباس، قال: أُنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة[٨] وهكذا فسّرها أبوجعفر بعدّة طرق.[٩]

قلت: لايستحقّ وحشي ـ وهو وحش في صورة إنس ـ أن تنزل عليه بالخصوص آية هي ذات صدى عاطفي رقيق، وذات إشارات خفيّة لايلمسها إلّا ذووا أفهام ناضجة وقرائح متوقّدة!

---

١ ـ الزمر ٣٩: ١٠.
٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٤.
٣ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٩٢.
٤ ـ الزمر ٣٩: ٢٣.
٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٤.
٦ ـ الزمر ٣٩: ٥٣ ـ ٥٥.
٧ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٦٣.
٨ ـ المصدر.
٩ ـ جامع البيان، ج ٢٤، ص ١٠.

قال العلّامة الطبرسي: ولايصحّ نزولها بشأن «وحشـي» لأنّ الآيـة نـزلت بـمكة، ووحشي أسلم بعدها بسنين كثيرة، ولكن يحتمل أن يكون قرئت عليه الآية فكانت سبب إسلامه.[١]

٢٧ ـ سورة المؤمن (غافر): مكّية

استثنيت منها ثلاث آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ».[٢]

قال الحسن: لأنّها تعني بذلك صلاة المغرب وصلاة الفجر، وقد ثبت أنّ فرض الصلاة نزل بالمدينة.[٣]

قلت: وهذا غريب! لأنّ الصلاة أوّل ما فرضت فرضت بمكة، وكان المسلمون يصلّون بها جماعة وفرادى. وتقدّم: أنّ الصلاة هي أوّل شيء جاء به جبرائيل وعلّم رسول الله ﷺ الوضوء والصلاة في بدء بعثته ﷺ.[٤]

وأيضاً فإنّ صدر الآية: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرِ لِذَنْبِكَ» دليل على مكّيتها، فضلاً عن السياق المتناسب!

الثانية والثالثة: قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ (إلى قوله:) ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ».[٥] قال جلال الدين: أخرج ابن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح ـ! ـ عن أبي العالية، قال: إنّ اليهود أتوا النبيّ ﷺ فقالوا: الدجّال منّا يخرج في آخر الزمان... وجعلوا يعظّمون من شأنه، فأنزل الله هاتين الآيتين، وفيهما: «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ».[٦]

قلت: نعوذ بالله من سفاسف الكلام، كيف تنزل آية قرآنية في ردّ مزعومة تافهة تبجح بها يهودي، لتجعل المقايسة بين دَجَل دجّال وخلق السماوات والأرض؟!

---

١ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٠٣.

٢ ـ المؤمن ٤٠: ٥٥.

٣ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٢٨.

٤ ـ تقدم ذلك في «أوّل ما نزل» رقم ٣.

٥ ـ المؤمن ٤٠: ٥٦ ـ ٥٧.

٦ ـ الدرّ المنثور، ج ٥، ص ٣٥٣؛ ولباب النقول، ج ٢، ص ٦٥.

ولقد أحسن أبوجعفر الطبري[١] فلم يذكر شيئاً من تلكم الأحاديث الفارغة التي ملأ بها جلال‌الدين السيوطي تفسيره، ونحن ننزّه القرآن الكريم منها بتاتا!

ثمّ إنّ الآية قارنت بين خلق السماوات وخلق الناس، وجعلت الأُولى أكبر، وهذا دليل على جحود وقع بشأن خلق الإنسان... الأمر الذي يتنافى مع تلك المزعومة السخيفة...

ومن العجيب أنّ مثل الطبرسي[٢] انخرط مع أمثال السيوطي في هذا الفراغ التافه!

٢٨ ـ سورة الشورى: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ عَلَى اللّهِ كَذِباً (إلى قوله:) وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ»[٣] ثلاث آيات.

قيل: نزلن في الأنصار. رواه الطبراني عن ابن عباس بسند ضعيف.[٤]

وقوله: «ولَوْ بسط الله الرِّزْقَ لِعِبادِهِ (إلى قوله:) خَبيرٌ بَصيرٌ».[٥]

قيل: نزلت في أصحاب الصفّة، أخرجه الحاكم وصحّحه.[٦]

قلت: من المستبعد جدّاً نزول الآيات الأُولى في الأنصار، إذ كيف يعقل نسبة هذا الكلام إليهم: «افترىٰ ـ يعني النبيّ ـ عَلَى اللّهِ كَذِباً»؟!

ثمّ الرواية تذكر أنّ الأنصار أساؤوا الظنّ برسول الله صلى الله عليه وآله فحسبوه يقاتل دون أهل بيته خاصّة، فنزلت الآية...؟!

أمّا الآية الأخيرة فهي عامّة، ولو صحّت الرواية عن علي عليه السلام فإنّما تعني شمولها لهم بعمومها، لا أنّها نزلت بشأنهم الخاص، إذ ذلك ـ على هذا الفرض ـ قدح لاذع بأهل الصفّة، وحاشا القرآن أن يجرح من عاطفة جماعة من المؤمنين لمكان فقرهم!!

وزاد الطبرسي قوله تعالى: «قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً، إِلَّا الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبىٰ».[٧] عن

---

١ ـ جامع البيان، ج ٢٤، ص ٥٠.
٢ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٢٨.
٣ ـ الشورى ٤٢: ٢٤ ـ ٢٦.
٤ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٦٨.
٥ ـ الشورى ٤٢: ٢٧.
٦ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٦٨.
٧ ـ الشورى ٤٢: ٢٣.

ابن‌عباس: لمّا نزلت هذه الآية قال رجل: والله ما أنزل الله هذه الآية! فأنزل اللّه: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ عَلَى اللّه كَذِباً».[١] ثُمَّ إنّ الرجل تاب وندم، فنزل: «وَهُوَ الَّذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ (إلى قوله:) لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ».[٢] قال: أربع آيات نزلن بالمدينة. عن ابن‌عباس وقتادة.[٣] ولعلّه نظراً لكونها (آية المودّة في القربى) نازلة بشأن قربى الرسول من آله الأطهار ـ كما حقّقناه ـ![٤]

لكن لا ينافي ذلك أَنْ يجعل أجر رسالته المودّة في قرباه وهو في بدء الدعوة تسجيلاً على المؤمنين، حيث كان ذلك في صالحهم[٥] فليكونوا على وعي من ذلك منذ بداية حياتهم الإسلاميّة!

وكذا الآية «وأمْرُهُمْ شورىٰ بَيْنَهُمْ»[٦] حسبوها نزلت بعد أن ظهرت شاكلة الإسلام في المدينة، إذ لم تكن للمسلمين شاكلة وهم في خشية من المشركين في مكة!

غير أنّ الآية تعني شاكلة جماعة المؤمنين على أيّة حالة كانوا، في ضعف أو قوّة، وهم يدٌ واحدة أين حلّوا و أين ارتحلوا!

واستثني ـ أيضاً ـ قوله تعالى: «وَالَّذينَ إذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (إلى قوله:) فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبيلٍ».[٧]

حكى ابن‌الغرس عن بعضهم: أنّهنّ نزلن بالمدينة.[٨]

غير أنّ السياق مكّي لاغير، وآيات تقدّمتها وآيات تأخّرتها مرتبطة بها تمام الارتباط، ممّا يجعل التفكيك مستحيلا، وكلّهن نزلن بشأن المؤمنين في مكة أيّام كانوا مستضعفين، هذا لا يشكّ فيه من راجع الآيات.

٢٩ ـ سورة الزخرف: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمانِ

---

١ ـ الشورى ٤٢: ٢٤.
٢ ـ الشورى ٤٢: ٢٥ ـ ٢٦.
٣ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠.
٤ ـ راجع: التمهيد، الجزء الثامن، نظرة في الروايات، النوع السابع.
٥ ـ «قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ». سبأ ٣٤: ٤٧.
٦ ـ الشورى ٤٢: ٣٨. راجع: مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠.
٧ ـ الشورى ٤٢: ٣٩ ـ ٤١.
٨ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٤.

آلِهَةً يُعْبَدُونَ».[١]

قال مقاتل: نزلت ببيت المقدس ليلة المعراج[٢] وقيل: نزلت بالمدينة.[٣] لكـن الآيـة مرتبطة بقريناتها المكتنفة بها ارتباطاً وثيقا. ونزلت بـ«إيّاك أعني واسمعي يا جارة» فهي مكّية بلاشكّ، نزلت بشأن المشركين، أمّا نزولها في السماء[٤] أو ببيت المقدس فلاتجعلها مدنيّة، وإنّما هي مكّية باعتبار نزولها قبل الهجرة، وفق الاصطلاح المتقدّم.[٥]

وجاء في المصحف الأميري ومقلدته: استثناء آية رقم ٥٤. ولعلّه اشتباه في الرقم.

٣٠ ـ سورة الجاثية: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «قُلْ لِلَّذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذينَ لَايَرْجُونَ أَيّامَ الله».[٦]

قال قتادة: نزلت بالمدينة.[٧]

والصحيح: أنّها من آيات الصفح التي نزلت بمكة أيّام كان المؤمنون مستضعفين، ومن ثمّ نسخت فيما بعد، عندما قويت شوكة الإسلام بالمدينة.[٨]

٣١ ـ سورة الأحقاف: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِن بَني إسْرائيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ».[٩]

أخرج الطبراني أنّها نزلت بالمدينة في قصة إسلام عبدالله بن سلام.[١٠]

قلت: ما أغرب ولع المفسّرين بكلّ آية جاء فيها إلماح بإيمان أهل الكتاب فسرعان ما أوّلوها بعبدالله بن سلام وأضرابه؟!

والصحيح: أنّها تشنيع بقريش تقاعست عن الإيمان بدين جاء على يد رجل منهم

---

١ ـ الزخرف ٤٣: ٤٥.
٢ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٨؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٩.
٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٤.
٤ ـ المصدر.
٥ ـ تقدم ذلك في «اتجاهات في تعيين المكّي والمدني».
٦ ـ الجاثية ٤٥: ١٤.
٧ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٧٠؛ والإتقان: ج ١، ص ٤٤.
٨ ـ راجع: تفسيرالطبري، ج ٢٥، ص ٨٧.
٩ ـ الأحقاف ٤٦: ١٠.
١٠ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٧٢؛ وجامع البيان، ج ٢٦، ص ٨؛ و الإتقان، ج ١، ص ٤٤.

وعلى لغتهم، ثمّ يؤمن به غيرهم من بني إسرائيل وغيرهم. وإنّما خصّ بنو إسرائيل بالذكر ـ هنا ـ لمزيد عناية العرب آنذاك بهم وثقتهم بعلمهم وثقافتهم.

هذا... وقد أخرج ابن أبي‌حاتم عن مسروق قال: أُنزلت هذه الآية بمكة بشأن المشركين، وهكذا أخرج أبوجعفر الطبري بعدّة أسناد.[١]

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «وَوَصَّيْنَا الإنْسانَ بِوالِدَيْهِ إحْساناً (إلى قوله:) وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»[٢] خمس آيات. قيل: نزلت الآيات في أبي‌بكر حيث برّ بوالديه وفي ابنه عبدالرحمان عندما عقّ والديه، وهما يحاولان إسلامه.[٣]

لكن الآيات في كلا الموضعين عامّة، بدليل صيغة الجمع تعقيباً على كلّ من الفقرتين، فالآيات تصوير تفصيلي عن الذي يبرّ بوالديه والذي يعقّهما بصورة عامّة.[٤]

وعلى تقدير نزولها بشأن أبي بكر وابنه عبدالرحمان فلاموجب لعدّها مدنيّة بعد أن كانت تلك القصة بشأنهما ـ على فرض الصحّة ـ بمكة.

وكذلك لاوجه لاستثناء قوله: «فاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ».[٥] بعد أن كانت لهجتها مكّية، وسياق لحنها موجّه إلى مشركي قريش، نزلت أيام كان المسلمون على ضعف ومن ثمّ نسخت بعدئذ بآية القتال.

٣٢ ـ سورة ق: مكّية

أخرج الحاكم وغيره: أنّ قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما في سِتَّةِ أَيّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ»[٦] نزلت بالمدينة، ردّاً على مزعومة يهوديّة، قالوا: إنّ الله استراح يوم السبت بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام من يوم الأحد إلى يوم الجمعة.[٧] وزاد في المجمع عن الحسن إلى قوله: «وَقَبْلَ الْغُروبِ».[٨]

---

١ ـ جامع البيان، ج ٢٦، ص ٧؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٩.

٢ ـ الأحقاف ٤٦: ١٥ ـ ١٩.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١؛ وجامع البيان، ج ٢٦، ص ١٣.

٤ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٨٧.

٥ ـ الأحقاف ٤٦: ٣٥. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٤٥.

٦ ـ ق ٥٠: ٣٨.

٧ ـ الدرّ المنثور: ج ٦، ص ١١٠؛ والإتقان: ج ١، ص ٤٥.

٨ ـ ق ٥٠: ٣٩.

قلت: أمّا نزولها ردّاً على تلك المزعومة الباطلة فنعم، وأمّا أنّها نزلت بالمدينة فلا! وذلك لأنّ العرب ـ كما سبق مراراً ـ كانوا على اتصال دائم بأهل الكتاب، وربّما كانوا يأخذون منهم تعاليم أو معارف ممّا يخصّ خلق السماوات والأرض، فكانت مشهورة بين العرب المشركين، فهذا الردّ ـ لو صحّ أنّه ردّ ـ لا يدلّ على أنّه نزل بالمدينة! فلعلّ الرواية القائلة بأنّها نزلت في اليهود، إنّما تعني ماذكرنا، أي نزلت في تعاليم كانوا بثّوها بين العرب.

والشاهد على أنّ الآية مكّية: ماجاء تفريعاً عليها: «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ...» التي هي من آيات الصفح المكّية، والتي نسخت فيما بعد.

٣٣ ـ سورة النجم: مكّية

استثني منها قوله: «... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَاتُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ».[١]

أخرج الواحدي عن ثابت بن الحرث الأنصاري، قال: كانت اليهود تقول ـ إذا هلك لهم صبيّ صغير ـ: صدّيق. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: كذبوا، ما من نسمة يخلقها الله في بطن اُمّه إلّا انّه شقيّ أو سعيد، فأنزل الله عند ذلك: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ...».[٢]

قلت: لو صحّت الرواية فلا دلالة فيها على نزول الآية بالمدينة، فلعلّ قولة اليهود ـ وهم يبثّون تعاليمهم الفاسدة بين العرب ـ بلغت الرسول ﷺ وهو بمكة، فنزلت الآية بها!

لكن الرواية المذكورة لامساس لها بفحوى الآية رأساً، لأنّ قوله: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ...» تعليل لقوله: «وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ».

يعني: إنّ هذا الإنسان مفطور على اقتراف مطاليب أرضيّة سافلة وفقاً لفطرته البشريّة المتركّبة من نزعات و رغبات، والله أعلم بذلك، ومن ثمّ عهد على نفسه الغفران، رحمة بهذا الإنسان ورأفة بموقفه الخاصّ تجاه رغباته ونزعاته.

---

١ ـ النجم ٥٣: ٣٢.

٢ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٨٨-٨٩؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٢٨.

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «أَفَرَأَيْتَ الَّذي تَوَلّىٰ...» إلى تمام الآيات التسع.[١]

قيل: نزلت في رجل أتى النبيّ ﷺ عند خروجه إلى غزاة، يطلب مركباً وسلاحاً فلم يجد، فلقي صديقاً له فقال: أعطني شيئاً. فقال: أعطيك بكري هذا على أن تتحمّل بذنوبي، فقال: نعم. فنزلت الآيات.[٢]

لكن الآيات لاتنطبق على فحوى القصة في شيء وإنّما نزلت في صنديد من صناديد قريش في تفصيل ذكره أبوجعفر الطبري، فراجع.[٣]

٣٤ ـ سورة القمر: مكّية

استثني منها ثلاث آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»[٤] زعموها نزلت يوم بدر.[٥]

والصحيح: أنّها وعد بظفر المسلمين فيما يأتي، فتحقّق يوم بدر.[٦]

الثانية والثالثة: قوله تعالى: «إنَّ الْمُتَّقينَ في جَنّاتٍ وَنَهَرٍ. في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ».[٧]

ولم يذكر المستثني سبباً لاستثنائهما! كما لاوجه له بعد ملاحظة وحدة السياق، وذلك الانسجام الوثيق.

وجاء في المصحف الأميري: استثناء الآيات رقم ٤٤ و ٤٥ و ٤٦. ولعلّه اشتباه في الرقم اثبتوه من غير تحقيق.

٣٥ ـ سورة الواقعة: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرينَ»[٨] ولعلّه لما رواه ابن مسعود من رؤيا رآها رسول الله ﷺ فقصّها على أصحابه ثمّ قرأ عليهم الآيتين[٩] وهذه

---

١ ـ النجم ٥٣: ٣٣ ـ ٤١.
٢ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٢٨.
٣ ـ جامع البيان، ج ٢٧، ص ٤١ ـ ٤٢.
٤ ـ القمر ٥٤: ٤٥.
٥ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٩٠.
٦ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ١٩٤؛ وراجع: الإتقان، ج ١، ص ٤٥ و ١٠٤؛ وجامع البيان، ج ٢٧، ص ٦٥.
٧ ـ القمر ٥٤: ٥٤ ـ ٥٥.
٨ ـ الواقعة ٥٦: ٣٩ ـ ٤٠. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٤٥.
٩ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢١٩.

القصة كانت بالمدينة.

لكن قراءته ﷺ لا تدلّ على نزولهما حينذاك.

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَفَبِهٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ».[1]

لما رواه مسلم والحاكم وغيرهما: أنّ أصحاب رسول الله ﷺ أُصيبوا بجدب أو نفدت مياههم في سفر من الأسفار أو في غزوة تبوك، فشكوا إليه فقام ﷺ وصلّى ركعتين ثمّ دعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم، فجعل بعض المنافقين يسرّ إلى بعضهم: إنّما مطرنا بنوء كذا، فنزلت الآيات.[2]

غير أنّ الآيات تأبى الانطباق على هذه القصّة، وأنّها ردّ على ناكري القرآن وحياً من اللّه العزيز الحميد، ولا مساس لها بقضيّة الأنواء، لا في ظاهر الآيات ولا في فحواها. كما أنّ انسجام الآيات سبقاً ولحوقاً ذلك الانسجام البديع يجعل من قبول الرواية المذكورة مستحيلا.

٣٦ ـ سورة الملك: مكّية

روي عن ابن عباس: أُنزلت تبارك الملك في أهل مكة إلّا ثلاث آيات.[3]

قلت: ليس معنى هذا الكلام (أنّها نزلت بمكة غير ثلاث آيات) نزلن بغيرها! وذلك لأنّه قال: في أهل مكّة، ولم يقل: في مكة أو بمكة!

بل المعنى: أنّ هذه السورة نزلت تقريعاً و تشنيعاً بأهل مكة أي المشركين، فكلّ آياتها تهديد وتوعيد بشأنهم، غير ثلاث آيات تخصّ المؤمنين: أُولاها قوله تعالى: «إنّ

---

١ ـ الواقعة ٥٦: ٧٥ ـ ٨٢.

٢ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ٩٢ ـ ٩٣.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٤٦.

الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...» والثانية قوله: «هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ...» والثالثة قوله: «قُلْ هُوَ الرَّحْمانُ آمَنّا بِهِ...».[١]

فالصحيح ـ كما في حديث ابن خديج ـ أنّها نزلت جملة واحدة بمكة.[٢]

٣٧ ـ سورة القلم: مكّية

حكى السخاوي في جمال القرّاء: استثناء قوله: «إنّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الجَنَّةِ (إلى قوله:) لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ»[٣] سبع عشرة آية. وقوله: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (إلى قوله:) فَجَعَلَهُ مِنَ الصّالِحِينَ»[٤] ثلاث آيات. فهذه عشرون آية زعموها نزلت بالمدينة. وزاد في المجمع الآية رقم ٥١ والآية رقم ٥٢.[٥]

أخرج ابن أبي حاتم وابن جريج: أنّ أباجهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً فاربطوهم في الحبال ولاتقتلوا منهم أحداً، فنزلت: «إِنّا بَلَوْناهُمْ...» الخ.[٦]

ولكن لامناسبة ظاهرة بين كلام أبي جهل هذا وفحوى الآيات المذكورة، ليكون الداعي لنزولها!

والصحيح: أنّها نزلت بشأن المشركين عموماً، انسجاماً مع بقية آيات السورة، وهكذا فسّرها العلّامة الطبرسي وأبوجعفر الطبري.[٧]

وأمّا قوله: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...» الخ فهي من آيات الصفح المكّية بلاريب، وماندري ماوجه هذا الاستثناء الغريب؟!

٣٨ ـ سورة المزّمّل: مكّية

استثني منها قوله: «وَاصْبِرْ عَلىٰ مايَقُولُونَ (إلى قوله:) وَمَهِّلْهُمْ قَليلاً».[٨] حكاه

---

١ ـ الملك ٦٧: ١٢ و ١٥ و ٢٩.
٢ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٤٦.
٣ ـ القلم ٦٨: ١٧ ـ ٣٣.
٤ ـ القلم ٦٨: ٤٨ ـ ٥٠.
٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٦؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٣٠.
٦ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٥٣.
٧ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٣٦؛ وجامع البيان، ج ٢٩، ص ١٩.
٨ ـ المزّمّل ٧٣: ١٠ ـ ١١.

الاصبهاني.[١] لكن الآيتين تصبير للنبيّ ﷺ تجاه أذى المشركين، وتوعيد بهم، فهما من آيات الصفح المكّية، ولا وجه لعدّهما مدنيّتين.

وحكى ابن الغرس استثناء قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ (إلى قوله:) إِنَّ اللّـه غَـفُورٌ رَحيمٌ».[٢]

قال جلال‌الدين: ويردّه ماأخرجه الحاكم: أنّه نزل بعد نزول صدرالسورة بسنة، وذلك حين فرض قيام الليل في أوّل الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس[٣] وهكذا أخرج عبد بن‌حميد عن عكرمة، قال: لبث المسلمون بعد نزول: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ...» سنة فشقّ عليهم و تورّمت أقدامهم، حتى نسختها آخر السورة: «فَاقْرَأُوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ».[٤]

قلت: تمسّك القائل بمدنيّة الآية، بأنّ الصلاة والزكاة لم تفرضا بمكة[٥] هو استدلال غريب، لأنّ الصلاة هي أُولى فريضة فرضت بمكة[٦] أمّا الزكاة فليست هي الزكاة المفروضة بحدود وأنصبة مقرّرة، وإنّما هي مطلق التصدّق الذي كان واجباً حينذاك، كما في قوله تعالى: «وَالَّذينَ هُمْ لِلزَكاةِ فاعِلُونَ»[٧] وقوله: «الَّذينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْأخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ».[٨]

نعم جاءت تفاصيل حدودها وأحكامها بالمدينة، أمّا أصلها فكانت واجبة بمكة بلاشك.

وليته تمسّك بقوله: «وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ» والقتال لم يشرّع أصلا إلّا بالمدينة. لكنّه على تقدير أن يراد بالقتال: هو مايقع فعليّاً، لاما سيفرض وسيقع بعد ذلك! والاحتمال الثاني أوجه، نظراً إلى أنّه تعالى ـ في هذه الآية ـ يذكر أسباب رفع ذلك التكليف الأوّل الشديد و تبديله إلى تكليف آخر خفيف. ومن تلك الأسباب تشريع القتال بعدئذ، من غير أن يكون هنا دليل صريح على إرادة فعليّته حينذاك.

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٦.

٢ ـ المزّمّل ٧٣: ٢٠.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٦.

٤ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٨٠.

٥ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٨٢.

٦ ـ راجع: السيرة لابن هشام، ج ١، ص ٢٥٩.

٧ ـ المؤمنون ٢٣: ٤

٨ ـ فصّلت ٤١: ٧.

٣٩ ـ سورة المرسلات: مكّية

قالوا باستثناء قوله: «وَإِذا قيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لايَرْكَعُونَ».[١]

قال مقاتل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة، فقالوا: لانتحني، فإنّ ذلك سبّة علينا[٢] وثقيف أسلمت بالمدينة.

لكن وجه الآية وسياقها مع المكذّبين، وهم مشركو العرب، ولامعنى لأن يكون هذا الموضع من السورة خلواً من هذه الآية إلى أواخر سني الهجرة ثمّ تكتمل. إذ ذلك يخلّ بفصاحة السورة ويخلخل من نظمها المنسجم.

على أنّ الركوع هنا بمعنى الخضوع لله والانقياد التامّ لأوامره ونواهيه، لاالركوع المصطلح جزءً من الصلاة. وهذا هو اختيار أبي جعفر الطبري.[٣] كما جاء بهذا المعنى قوله تعالى: «وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرّاكِعينَ»[٤] راجع: تفسير شبّر في هذا الموضع قال: أو أُريد به الخضوع والانقياد للحقّ. وقال ـ في سورة المرسلات ـ بصورة جزميّة: «وَإِذا قيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا»: سلّموا واخشعوا أو انقادوا.[٥] إذن فلا مساس للآية بقضيّة إسلام ثقيف، بل هي عامّة حكاية عن صمود المشركين أمام الحقّ الصراح.

٤٠ ـ سورة المطفّفين: مكّية

قالوا: نزل صدرها في المدينة أوّل قدوم رسول الله صلى الله عليه وآله إليها فقد كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله عزّوجلّ «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفينَ»[٦] إلى تمام الست آيات. فأحسنوا الكيل بعد ذلك.[٧]

وقد تقدّم: أنّه من المستبعد جداً مواجهة الرسول صلى الله عليه وآله للأنصار بهكذا آيات ذوات لهجة عنيفة، في أوّل لقياه معهم في دارهم التي آووه إليها، وشمّروا ساق الجدّ لمؤازرته ونصرته، عاهدوه على أنفسهم و أموالهم في سبيل إعلاء كلمة الإسلام.

---

١ ـ المرسلات ٧٧: ٤٨.
٢ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤١٩.
٣ ـ راجع: جامع البيان، ج ٢٩، ص ١٥٠.
٤ ـ البقرة ٢: ٤٣.
٥ ـ تفسير شبّر، ص ٤٦ و ٥٤٥.
٦ ـ المطفّفين ٨٣: ١.
٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٤٧؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٢٤؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٢.

والصحيح: أنّها بأجمعها مكّية.

وكانت هناك استثناءات من سور مكّية تركناها خوف الإطالة، ولعدم الاستناد إلى حجّة مقبولة. كالاستثناء من سورتي الليل والماعون ذكرهما السيوطي في الإتقان.

استثناءات من سور مدنية

تقدّم استبعاد أن تبقى آية غير مسجّلة في سورة مكّية حتّى تنزل سورة مدنيّة بعد فترة طويلة أم قصيرة، فتسجّل فيها. وهكذا استبعده ابن حجر في شرح البخاري وغيره.[١]

ولكن مع ذلك فقد قالوا في كثير من آيات مسجّلة في سور مدنيّة: أنّهنّ مكّيات. ونحن نذكرهنّ تباعاً حسب ترتيب السور في المصحف الشريف، ونعقّبها بما نرتأيه من رأي.

١ ـ سورة البقرة :مدنيّة

استثني منها ثلاث آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتّىٰ يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ».[٢] زعموها نزلت بشأن المشركين أيام كان المسلمون بمكة ضعفاء.

لكن صدر الآية: «وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ...» شاهد نزولها بشأن أهل الكتاب، أوائل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ولم تقو شوكة الإسلام بعد، ثمّ نسخت بقوله: «قاتِلُوا الَّذينَ لايُؤْمِنُونَ بِاللهِ (إلى قوله:) مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ»[٣] راجع الطبرسي بشأن نزول الآية ونسخها بآية براءة.[٤]

الثانية: قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ...».[٥] زعموها ـ أيضاً ـ نزلت بشأن صمود

---

١ ـ تقدم ذلك في «آيات مستثنيات».

٢ ـ البقرة ٢: ١٠٩.

٣ ـ التوبة ٩: ٢٩.

٤ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٨٤ ـ ١٨٥؛ والدرّ المنثور، ج ١، ص ١٠٧.

٥ ـ البقرة ٢: ٢٧٢.

المشركين تجاه قبول الحقّ، نظيرة قوله: «إِنَّكَ لاتَهدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللّـهَ يَهْـدي مَـنْ يَشَاءُ».[١]

لكن الآية نزلت بشأن إنفاق المسلمين عن الكفّار، حيث امتنعوا من ذلك زعما أنّها محرّمة عليهم وهم على غير دينهم، فنزلت.[٢]

الثالثة: قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيهِ إلَى اللّهِ..».[٣] قيل: هي آخر آية نزلت على رسول الله عليه‌السلام وهو بمنى في حجّة الوداع.[٤] وعلى الفرض فهي مدنيّة على ماسلف.

٢ ـ سورة النساء: مدنيّة

قيل: إلّا قوله تعالى: «إنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إلىٰ أَهْلِها...».[٥]

وقوله: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّه يُفْتيكُمْ في الْكَلالَةِ...».[٦] فـإنّهما نـزلتا بـمكة...! ذكـر ذلك الطبرسي ولم يذكر حجّة ولاالقائل بذلك.[٧]

ولعلّ الوجه في الآية الأُولى ماقيل: إنّها نزلت بعد الفتح بمكة، خطاباً مع النبيّ عليه‌السلام بردّ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة حين قبض منه المفتاح يوم الفتح وأراد أن يدفعه إلى العباس. عن ابن جريج.[٨]

لكن العبرة بمكّية الآية نزولها قبل الهجرة كما سبق. على أنّ الآية لاتـنطبق عـلى القصّة المزعومة، لأنّ دفع المفتاح إلى النبيّ عليه‌السلام لم يكـن بـرسم أمـانة واسـتيداع! وإلّا فحاشى النبيّ عليه‌السلام أن يخون الأمانات حتى ينبّهه الله بنزول آية.! والطبرسي أيضاً رفض هذا التنزيل...

وأمّا الآية الثانية فلم نعرف السبب ولا احتماله. وقد ذكر الطبرسي في سبب نزولها

---

١ ـ القصص ٢٨: ٥٦.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٨٥؛ والدرّ المنثور، ج ١، ص ٣٥٧.

٣ ـ البقرة ٢: ٢٨١.

٤ ـ الدرّ المنثور، ج ١، ص ٣٧٠.

٥ ـ النساء ٤: ٥٨.

٦ ـ النساء ٤: ١٧٦.

٧ ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ١.

٨ ـ المصدر، ص ٦٣.

وجوهاً لاتصلح سنداً لهذا الاستثناء.[١] ولهجة الآية تنادي بمدنيّتها، لأنّها من آيات الأحكام.

غير أنّ هذا الاستثناء ينظر إلى المصطلح الثاني المتقدّم. وأمّا على المصطلح الأوّل المشهور (مانزل بعد الهجرة فهو مدنيّ حتى ولوكان نزوله بمكة) فالآية مدنيّة.[٢]

٣ ـ سورة المائدة: مدنيّة

استثني منها قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ دينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَونِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الْإسْلامَ ديناً».[٣]

قيل: نزلت على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفات في حجّة الوداع[٤] وهكذا زعمه أبوعبدالله الزنجاني في تاريخ قرآنه.[٥]

لكن أباعبدالله الصادق عليه السلام قال: نزلت الآية بعد أن نصب رسول الله ﷺ علياً عليه السلام علماً للأُمّة يوم غدير خم، عند منصرفه عن حجّة الوداع، فأنزل اللّه يومئذ: «الْيومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ».[٦] وهكذا سجّلها ابن واضح اليعقوبي، قال: وكان نزولها يوم النصّ على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بغدير خم. قال: وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة[٧] وقد ذكرها الحافظ الحسكاني بعدّة طرق.[٨]

ثمّ انّ نزول الآية بعرفات أو بغدير خم لايجعلها مستثناة من المدنيّات، وفق المصطلح المشهور المتقدّم.

٤ ـ سورة الأنفال: مدنيّة

استثني منها قوله: «وَإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله واللهُ خَيْرُ الْماكِرينَ».[٩]

---

١ ـ المصدر، ص ١٤٩.

٢ ـ تقدم ذلك في «اتجاهات في تعيين المكّي والمدني».

٣ ـ المائدة ٥: ٣.

٤ ـ الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٢٥٧.

٥ ـ تاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني، ص ٢٧.

٦ ـ التبيان، ج ٣، ص ٤٣٥.

٧ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.

٨ ـ شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٥٦ ـ ١٦٠.

٩ ـ الأنفال ٨: ٣٠.

قالوا: إنّها نزلت في قصّة دارالندوة اجتمعت فيها قريش للتآمر على رسـول‌الله‌ﷺ وفشلت مؤامرتهم بهجرة الرسول‌ﷺ ومبيت علي عليه السلام على فراشه.[١]

لكن نزول الآية بشأن تلك القصة لايستدعي نزولها حينذاك، ولاسيّما بعد ملاحظة أداة ظرف الماضي (إذ) في صدر الآية حكاية عن أمر سابق!

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: استثناء الآيات: ٣١ إلى ٣٦. نظراً لأنّها نزلت بشأن مشركي قريش، لكنّها كالآية المذكورة حكاية لأمر سابق، ولادليـل عـلى نزولها حينذاك. وقوله: «وَما كانَ اللّـهُ لِـيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فـيهِمْ وَمـا كـانَ اللّـهُ مُـعَذِّبَهُمْ وَهُـمْ يَسْتَغْفِرُونَ»[٢] أيضاً حكاية عن ماض وإخبار عن حال، أي لم يعذّبهم اللّه فيما قبل، بسبب وجودك بين أظهرهم ولايعذّبهم الآن ـ بعد خروجك ـ لوجود جماعة من المـؤمنين لم يستطيعوا الخروج وهم على عزم الهجرة، فرفع اللّه العذاب عن مشـركي مكـة لحـرمة استغفار هؤلاء المؤمنين الباقين بين أظهرهم.[٣]

هذا... ونقل جلال‌الدين عن قتادة أنّه قال: نزلت الآية: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا...» بمكة. ثمّ قال: ويردّه ماصحّ عن ابن عباس أنّ هذه الآية بعينها نـزلت بـالمدينة[٤] وقـد أخرجه في أسباب النزول عن ابن عباس: أنّ الآية نزلت بعد مقدمه‌ﷺ المدينة.[٥]

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّه وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ».[٦] وصـحّح هذا الاستثناء ابن‌العربي وغيره[٧] وذلك لما أخرجه أبومحمد من طريق طارق عن عـمر بن‌الخطاب، قال: أسلمت رابع أربعين فنزلت «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّـهُ وَمَـنِ اتَّـبَعَكَ مِـنَ الْمُؤمِنِينَ». وهكذا روي عن ابن عباس.[٨]

لكن يعارضه ماروي عن الكلبي، قال: نزلت هذه الآية بالبيداء في غزوة بدر[٩] وقال

---

١ ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٣٧.
٢ ـ الأنفال ٨: ٣٣.
٣ ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٣٩.
٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٩.
٥ ـ لباب النقول، ج ١، ص ١٧٠.
٦ ـ الأنفال ٨: ٦٤.
٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٩.
٨ ـ الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٢٠٠.
٩ ـ مجمع البيان، ج ٤، ٥٥٧.

الواقدي: نزلت بالمدينة في بني قريظة وبني النضير.[1]

هذا... وسياق الآية يشهد بمدنيّتها، نزلت في إبان تشريع القتال، سواء أمع المشركين أم مع أهل الكتاب. فالآية يسبقها قوله تعالى: «الَّذينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ...» «فإمّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ...». «وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إنَّهُمْ لايُعْجِزُونَ». «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ...» «وَإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها...». «وَإنْ يُريدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ...». «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ...». «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنينَ عَلَى الْقِتالِ...».[2]

انظر إلى هذا السياق المنسجم بعضه مع بعض انسجاماً يجعلنا على ثقة من وحدة مترابطة نزلت جملة واحدة.

وأيضاً: لامعنى لكفاية أربعين رجلاً أسلموا بمكة وهم على ضعف ماداموا فيها. الأمر الذي يؤكّد من نزول الآية بالمدينة حيث جعلت تزداد شوكة المؤمنين وتقوى جانبهم مع الأيّام والساعات، فكانت فيهم الكفاية والكفاءة.

وهكذا فسّرها أبوجعفر الطبري، قال: يقول لهم جلّ ثناؤه: ناهضوا عدوّكم فإنّ الله كافيكم أمرهم ولايهولنّكم كثرة عددهم وقلّة عددكم فإنّ اللّه مؤيّدكم بنصره. وذكر لهذا المعنى روايات، ولم يتعرّض لشيءٍ من روايات نزولها بشأن إسلام عمر بن الخطاب.[3]

٥ ـ سورة براءة: مدنيّة

استثني منها أربع آيات:

الأُولى والثانية: قوله تعالى: «ماكانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكينَ وَلَوْ كانُوا أُولي قُرْبىٰ (إلى قوله:) إنَّ إبراهيمَ لَأَوّاهٌ حَليمٌ».[4]

قالوا: نزلت بشأن أبي طالب عندما حضرته الوفاة، دخل عليه النبيّ ﷺ وعنده

---

١ ـ التبيان، ج ٥، ص ١٥٢.

٢ ـ الأنفال ٨: ٥٦ و ٥٧ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٤ و ٦٥.

٣ ـ جامع البيان، ج ١٠، ص ٢٦.

٤ ـ براءة ٩: ١١٣ ـ ١١٤.

أبوجهل وعبدالله بن أبي‌أُميّة. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: أي عمّ، قل: لا إله إلّا اللّه، أُحاجّ لك بها عند الله. فقال القرشيان: يا أباطالب، أترغب عن ملّة عبدالمطلب؟! فكانا كلّما عرض عليه النبيّ صلى الله عليه وآله كلمة الشهادة أعادا كلامهما، فكان آخر كلام أبي‌طالب: أنّه على ملّة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلّا الله. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله عند ذلك: لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك. فنزلت الآية... كما ونزلت «إِنَّكَ لاتَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ اللّهَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ».[١]

وقالوا ـ أيضاً ـ: إنّها نزلت بشأن والدي رسول‌الله صلى الله عليه وآله أراد أن يستغفر لأبيه، وهكذا استجاز ربّه في زيارة قبر أُمّه فأجازه، فبدا له أن يستغفر لها فنزلت الآية تنهاه.! فما رُئي رسول‌الله صلى الله عليه وآله أكثر باكياً من يومه ذاك.[٢]

أقول: قاتل اللّه العصبيّة الجاهليّة: إنّها نزعة أُمويّة ممقوتة عمدت إلى الحطّ من كرامة بني‌هاشم وإلى تشويه جانب أقرباء النبيّ صلى الله عليه وآله لتجعل من أبيه وأُمّه مشركين، ويموت أبوطالب كافراً، وهو المحامي الأوّل والمدافع الوحيد في وقته عن رسول‌الله صلى الله عليه وآله وقد قال تعالى: «وَالَّذينَ آوَوْا وَنَصَروا أُوْلٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً»[٣] ولاشكّ أنّ أباطالب كان أوّل من آواه ونصره ووقف دونه بنفسه ونفيسه. والآية الكريمة شهادة عامّة تشمله قطعيّاً.[٤]

ويكفي دليلاً على إيمانه الصادق، قوله في قصيدته التي يحمي بها عن رسول‌الله صلى الله عليه وآله مهدّداً قريش أجمع، قال فيها:

لقد علموا أنّ ابننا لامكذّب	لدينا ولايُعني بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة	تقصّر عنه سَورة المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته	ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
فأيّده ربّ العباد بنصره	وأظهر ديناً حقّه غير باطل[٥]

هذا... وأمّا نحن الإماميّة فإن أُصول معتقداتنا تقضي بلزوم طهارة آباء النبيّ صلى الله عليه وآله

---

١ ـ القصص ٢٨: ٥٦. راجع: الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٢٨٢؛ وصحيح البخاري، ج ٢، ص ١١٩ و ج ٦، ص ٨٧.

٢ ـ جامع البيان، ج ١١، ص ٣١.　　٣ ـ الأنفال ٨: ٧٤.

٤ ـ راجع: حق اليقين للسيد عبدالله شبّر، ج ١، ص ١٠٠.　٥ ـ سيرة ابن‌هشام، ج ١، ص ٢٩٩.

والأئمة عليهم السلام وأمّهاتهم، لم يتلوّثوا بدنس شرك قط، فلم يزالوا ينحدرون من صلب شامخ إلى رحم طاهر. كما جاء في الزيارة السابعة للإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام: «أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها».

وفي حديث ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وآله: لم يزل اللّه ينقلني من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذّباً...[١]

وإلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى: «وَتَقَلُّبَكَ فِي السّاجِدِينَ»[٢] أي لم تزل تتنقل من صلب مؤمن موحّد إلى صلب مؤمن موحّد. قال مجاهد: من نبيّ إلى نبيّ حتى أُخرجت نبيّاً.[٣] قال العلاّمة الطبرسي: وقيل: معناه: وتقلّبك في أصلاب الموحّدين من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجك نبيّاً عن ابن عباس في رواية عطا وعكرمة. وهو المروي عن أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر وأبي عبدالله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام قالا: في أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام.[٤]

والصحيح في سبب نزول الآية: ماذكره أبوعلي الطبرسي: أنّ المسلمين جاؤوا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله يطلبون إليه الاستغفار لموتاهم الذين مضوا على الكفر أو النفاق، قالوا: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا في الجاهليّة؟ فنزلت الآية.[٥]

وممّا يدلّنا على صحّة هذه الرواية وبطلان الرواية الأُولى: أنّ الآية الكريمة جاءت بلفظ «ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...» فلو صحّت تلك الرواية لما كان هناك سبب معقول لإرداف غيره صلى الله عليه وآله من المؤمنين معه في هذا الإنكار الصارم.

وأخيراً فإنّ هذه الآية والآية رقم ٨٠ والآية رقم ٨٤ نزلن جميعاً على نمط واحد،

---

١ ـ الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٢٩٤.
٢ ـ الشعراء ٢٦: ٢١٩.
٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٥، ص ٩٨.
٤ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٠٧.
٥ ـ المصدر، ج ٥، ص ٧٦.

والسبب شيء واحد: هو ما كان المؤمنون على رجاء أن يترحّم على آبائهم وأُمّهاتهم وأقربائهم الذين ماتوا على الكفر، ملتمسين من النبيّ صلى الله عليه وآله أن يساعدهم على هذه الأُمنية، فنزلت الآية لتقطع أملهم في ذلك إذا كانوا علموا من آبائهم البقاء على الشرك حتى الموت: «إِنَّ اللّهَ لايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشاءُ».[١] ولتوضيح أكثر راجع تفسير الآيتين.[٢]

الثالثة والرابعة: قوله تعالى: «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَريصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنينَ رَؤوفٌ رَحيمٌ. فإِن تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ الْعَظيمِ».[٣] وهما آخر سورة براءة.

قال ابن‌الغرس: إنّهما مكّيتان. قال جلال‌الدين: وهذا غريب، كيف وقد ورد أنّهما آخر مانزل.[٤]

قلت: لم يثبت نزول الآيتين بمكة، ولاذكر قائله دليلاً أو سنداً لذلك. فثبت الآية في سورة مدنيّة ـ ولاسيّما هي آخر السور المدنيّة ـ هو بذاته دليل على نزولها بالمدينة، حيث الأصل الأوّل في الآيات هوالثبت الطبيعي تباعاً حسب النزول. مضافاً إلى ماورد في سبب نزولهما: جاءت جهينة تسأل رسول‌الله صلى الله عليه وآله ـ أوّل قدومه المدينة ـ عهداً يأتمنون إليه، فنزلت الآيتان.[٥] كما روي أنّهما آخر الآيات القرآنية نزولاً بالمدينة.[٦]

٦ ـ سورة الرعد: مدنيّة

أخرج أبوالشيخ عن قتادة، قال: سورة الرعد مدنيّة إلّا قوله تعالى: «وَلا يَزالُ الَّذينَ كَفَروا تُصيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَريباً مِنْ دارِهِمْ حَتّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ...».[٧]

١ ـ النساء ٤: ٤٨ و١١٦.

٢ ـ جامع البيان، ج ١٠، ص ١٣٧ و ١٤١؛ ومجمع البيان، ج ٥ ص ٥٤ و ٥٦؛ والدرّ المنثور، ج ٣، ص ٢٦٤ و ٢٦٦.

٣ ـ براءة ٩: ١٢٨ ـ ١٢٩.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ٣٩؛ والدرّ المنثور، ج ٣، ص ٢٩٦.

٥ ـ الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٢٩٧.

٦ ـ المصدر؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٨٦.

٧ ـ الرعد ١٣: ٣١. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٤٠.

وذكر الطبرسي استثناء قوله: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ»[١] ـ إلى آخر الآية ـ والتي بعدها.[٢]

لكن الآية تشنيع بموقف المشركين المتأرجح وإرعاب لهم، كما هي تبشير بفتح للمسلمين قريب، فهي لأن تكون من تتمّة آيات سابقة نزلت في صلح الحديبيّة[٣] أرجح.

وعن عكرمة: أنّها نزلت بالمدينة في سرايا رسول الله صلى الله عليه وآله والقارعة هي السريّة كانت تدوّخهم. والوعد هو الفتح.[٤]

٧ ـ سورة الحج: مدنيّة

استثني منها قوله: «هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا...».[٥]

قال جلال الدين: إلى تمام الآيات الثلاث فإنّهنّ نزلن بالمدينة.[٦]

قلت: وعلى ذلك فينبغي الانتهاء إلى الآية رقم ٢٢. بل إلى الآية رقم ٢٤ ستّ آيات، نظراً للانسجام الوثيق بينهنّ بما لا يمكن التفكيك.

لكن لا سند لهذا الاستثناء، ومن ثمّ فالقول به غريب. مضافاً إلى ما ورد متواتراً أنّها نزلت بشأن ثلاثة من المؤمنين هم: حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، تبارزوا ثلاثة من الكفّار، هم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة. قال علي عليه السلام: أنا أوّل من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة.[٧] فالآية نزلت متأخرة عن وقعة بدر، أو نزلت ببدر.[٨]

---

١ ـ الرعد ١٣: ٣١.
٢ ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٣.
٣ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٩٢.
٤ ـ جامع البيان، ج ١٣، ص ١٠٥.
٥ ـ الحج ٢٢: ١٩.
٦ ـ الإتقان، ج ١، ص ٢٤.
٧ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٢٣ و ١٢٤؛ وصحيح مسلم، ج ٨، ص ٢٤٦.
٨ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩؛ وجامع البيان، ج ١٧، ص ٩٩.

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلّا إِذا تَمَنّىٰ أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ... (إلى قوله:) عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ»[١] الآيات الأربع.

أخرج ابن‌المنذر عن قتادة: أنّهنّ مكّيات.[٢] قالوا: نزلن بمكة بشأن قصة الغرانيق.[٣]

وقد زيّفنا حديث الغرانيق، وأنّه حديث مفتعل وضعته الزنادقة للتشويه على سمعة القرآن ورسالة محمدﷺ.[٤]

والآية إشارة إلى البدع التي تنتاب شرائع الأنبياء على أيدي المحرّفين، لكنّه تعالى يحفظ دينه على أيدي علماء ربّانيّين في كلّ عصر، ينفون بدع المبطلين كما في الحديث الشريف.[٥] وتلك البدع هي فتنة للذين في قلوبهم مرض.

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني أنّ الآيات نزلن بين مكة والمدينة! ولم يعرف لهذا القيد سبب معقول أو منقول!

٨ ـ سورة محمّدﷺ: مدنيّة

استثني منها قوله: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ».[٦]

قال السخاوي في جمال القرّاء: قيل إنّ النبيّﷺ لما توجّه مهاجراً إلى المدينة وقف فنظر إلى مكة وبكى، فنزلت تسلية لخاطره الشريف.[٧]

لكن الآية في سياقها منسجمة مع آيات قبلها وبعدها انسجاماً وكيداً، بحيث لايدع

---

١ ـ الحج ٢٢: ٥٢ ـ ٥٥.

٢ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٣٤٢؛ وراجع: البرهان، ج ١، ص ٢٠٢.

٣ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٩٠؛ وجامع البيان، ج ١٧، ص ١٣١؛ والدرّ المنثور، ج ٤ ص ٣٦٦.

٤ ـ تقدّم ذلك في «أُسطورة الغرانيق».

٥ ـ سفينة البحار، ج ١، ص ٢٠٤، مادة «أول».

٦ ـ محمّد ٤٧: ١٣.

٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ٥٥-٥٦؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤٨.

مجالا للقول بالتفكيك، فإمّا أنّ الجميع مكّية أو الجميع مدنيّة.

وبما أنّ السورة تقريع عنيف بالمشركين وإثارة عامّة بالمؤمنين، تمهيداً لتشريع القتال، فهي مدنيّة نزلت بهذا اللحن اللاذع، وجعلت تعدّد مساوئ ارتكبتها قريش، وتهدّدها بقتل ذريع وفشل فظيع إزاء معاندتهم مع الحقّ. والآية المذكورة أيضاً على نفس النمط. لم تخرج على قريناتها.

٩ ـ سورة الحجرات: مدنيّة

نسب إلى ابن‌عباس استثناء قوله تعالى: «يا أَيُّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ...».[١]

ولعلّه لمكان الخطاب مع «الناس»، على مازعمه بعضهم أنّه من دلائل مكّية الخطاب! وقد أسبقنا أنّه لادليل في ذلك... بدليل وقوعه في سورة البقرة «يا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ».[٢]

١٠ ـ سورة الرحمان: مدنيّة

استثني منها قوله: «يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّماٰواتِ وَالْأَرْضِ...»[٣] ولم يعرف سبب هذا الاستثناء الغريب!

١١ ـ سورة المجادلة: مدنيّة

استثني منها قوله: «ما يَكُونُ مِنْ نَجوىٰ ثَلاثَةٍ إلّا هُو رابِعُهُمْ...».[٤]

ولم يعرف السبب أيضاً.

---

١ ـ الحجرات ٤٩: ١٣. راجع: مجمع البيان، ج ٩، ص ١٢٨.

٢ ـ البقرة ٢: ٢١.

٣ ـ الرحمان ٥٥: ٢٩. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٤٥.

٤ ـ المجادلة ٥٨: ٧. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٤٦.

١٢ ـ سورة التحريم: مدنيّة

قال قتادة: هي إلى رأس العشرة مدنيّة: والباقي مكّي.[١]

ويردّه: أنّ الآيتين الأخيرتين هما من تتمّة المثل الذي ضربه اللّه، نصحاً لزوجات الرسولﷺ وقد تطاولن عليه. فلو أفصلناهما عن سائر آيات السورة لما بقي لهما موقع بديع.

١٣ ـ سورة الإنسان: مدنيّة

استثني منها قوله: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...».[٢] وقيل إلى آخر السورة.

قالوا: نزلت في أبي جهل.[٣]

لكن الآية تفريع على آيات سبقت فلا يعقل انفكاكها عنها، على أنّ الأمر بـالصبر تجاه تعسّفات المعاندين أو الجاهلين، هي خصيصة الأنبياء في جميع أدوار حياتهم التي ملؤها الكفاح والجهاد. ومن ثمّ قيل: الآية عامّة في كلّ عاص وفاسق وكافر.[٤]

وهناك سور أُخرى مدنيّة قالوا فيها باستثناءات غريبة تركناها، حيث طال بنا البحث وفيما ذكرنا كفاية لإثبات أن لاوقع لتلكم الاستثناءات إطلاقاً، سواء من سور مكّية أم مدنيّة وكلّها مستندة إلى حدس أو نقل ضعيف لامبرّر للاستناد إليها ألبتّة.

وبذلك نطوي سجلّ هذا البحث، والحمدلله أوّلاً وآخراً.

---

١ ـ المصدر.

٢ ـ الإنسان ٧٦: ٢٤.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٠٢؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٢ و ٤١٣.

٤ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤١٣.

أسباب النزول

معرفة أسباب النزول

وإذا كان القرآن ينزل نجوماً، وفي فترات متفاصلة بعضها عن بعض، ولمناسبات شتّىٰ كانت تستدعي نزول آية أو آيات تعالج شأنها، فقد اصطلحوا على تسمية تلكم المناسبات بأسباب النزول أو شأن النزول ـ على فرق بينهما ـ وهو علم شريف، وفي نفس الوقت خطير يمسّ التنزيل في صميم معناه، ويهدي المفسّر المسترشد والفقيه المستنبط إلى حيث سواء السبيل.

واستيفاء هذا البحث يقتضي النظر في مسائل: قيمة هذه المعرفة وفائدته في مجال الفقاهة والتفسير!... وكيف الاهتداء إلى معرفة أسباب النزول؟... وهل هناك فرق بين قولهم: سبب النزول، أو شأن النزول؟ والفرق بين التنزيل والتأويل، وكذا ظاهر الآية وبطنها في مصطلح السلف؟ وما معنى قولهم: نزلت الآية في كذا؟ وهل يجب في الناقل الأوّل للسبب أن يكون حاضر المشهد؟ وأنّ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص المورد؟ وأنّ القرآن نزل بإيّاك أعني واسمعي ياجارة.. وأنّه يجري كما تجري الشمس والقمر؟ وكيف الاهتداء إلى معالم القرآن؟ وماهي الوسائل المستعملة في هذا السبيل؟ ونحو ذلك من أبحاث عامّة وشاملة.

قيمة هذه المعرفة

لمعرفة شأن النزول دورها الخطير في فهم معاني القرآن الكـريم وحـلّ مـعظلات التفسير في كلا مجالي الأُصول والفروع.. إنّها ترفع النقاب عن وجوه كثير من الآيـات، نزلت لتعالج مشكلة في وقتها، لكنّها في نفس الوقت ذات وجه عامّ تعالج مشاكل الأُمّة عبرالحياة.. وربّما كان الوقوف على الحادثة الأُولى والمـناسبة الأُولى التـي اسـتدعت نزولها، من خير الوسائل لكشف الإبهام عن وجه الآية، إذ فيها الإشارة لامحالة إلى تلك الواقعة بالذات.

قال الواحدي: لايمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصّتها وبـيان سـبب نزولها. وجعل السيوطي من فوائد معرفة أسباب النزول، الوقوف على المـعنى وإزاحـة الإشكال عن وجه الآية،[١] الأمر الذي لامحيد عنه بعد أن كانت الآية مرتبطة بالحادث المستدعي للنزول وناظرة إليه.

قال القشيري: بيان سبب النزول طريق قويّ في فهم معاني الكتاب العزيز.[٢] ولذلك شواهد في التنزيل:

قال تعالى: «إِنَّ الصَّفا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما...».[٣]

فقد أُشكل على بعض المفسّرين هذا التعبير «لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ...» لأنّه لرفع الإثم وليس للإلزام، فالآية تكون دالّة على جواز السعي بين الصفا والمـروة لا الوجـوب، مـع أنّـه إجماعي.

لكن إذا ما عرفنا سبب نزولها، لم يبق مجال لهذا الإشكال.

وذلك أنّ مراسيم الحج والاعتمار كانت معهودة منذ العهد الجاهلي غير أنّ العـرب

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٨٢.

٢ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٢.

٣ ـ البقرة ٢: ١٥٨.

كانوا قد لوّثوا من هذه المشاعر ببدع أبدعوها، من ذلك أنّهم كانوا قد وضعوا على الصفا صنماً على صورة رجل يقال له «أساف»، وعلى المروة صنماً آخر على صورة امرأة يقال لها «نائلة»، زعموا أنّهما زنيا في الكعبة فمسخهما اللّه حجرين، فوضعا على الجبلين ليعتبر بهما.. فلمّا طالت المدّة عبدتهما العرب جهلاً وسفهاً. فكانوا إذا طافوا بينهما مسحوهما تبرّكاً.

ثمّ لمّا جاء الإسلام وكسرت الأصنام، تحرّج المسلمون عن الطواف بينهما، زعماً أنّه كان من بدع الجاهلية تقرّباً إلى الصنمين. فنزلت الآية لترفع هذه الشبهة عن أذهان المسلمين.[١]

قال الإمام الصادق عليه‌السلام: كان المسلمون يرون أنّ الصفا والمروة ممّا ابتدع أهل الجاهلية، فأنزل اللّه هذه الآية.[٢]

وروي عنه أيضاً: أنّ ذلك كان في عمرة القضاء. وذلك أنّ رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله كان قد شرط عليهم أن يرفعوا أصنامهم. فتشاغل رجل من أصحابه حتى أُعيدت الأصنام، فجاؤوا إلى رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فسألوه عن ذلك، وقيل له أنّ فلاناً لم يطف تحرّجاً لما قد اعيدت الأصنام.. فأنزل اللّه هذه الآية.[٣]

وقال تعالى: «لَيْسَ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا إذا مَااتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وآمَنوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنينَ».[٤]

قد يزعم زاعم أن لابأس بتناول الخمرة إذا قوي إيمان الرجل وصلح عمله، فإنّه لايضرّه شرب المسكر قليلاً. هكذا كان يزعم عمرو بن‌معدي كرب كما قيل.[٥] وقيل: هو قدّامة بن‌مظعون.[٦]

---

١ ـ راجع: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٥.
٢ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٤٠.
٣ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ٧٠، ح ١٣٣.
٤ ـ المائدة ٥: ٩٣.
٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ٨٣.
٦ ـ التفسير والمفسرون للذهبي، ج ١، ص ٦٠.

سوى أنّ الآية نزلت فيمن سلفت منه هذه الشنيعة المنكرة ثمّ تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى، فقد عفى اللّه عمّا سلف.

وقال تعالى: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».[١]

فقد خفي وجه ارتباطها مع صدر الآية: «يَسأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقيتُ لِلنّاسِ وَالْحَجِّ». كما خفي المقصود من هذا الاستنكار على صنيع يبدو غريباً!

أمّا إذا راجعنا سبب النزول: «أنّ الحُمس[٢] وهي القبائل الستّ العربيّة كانت إذا أحرمت امتنعت من الدخول إلى الخَباء أو البيوت إلّا من ظهورها، فينقبون في مؤخّرتها نقباً يدخلون ويخرجون منه». وبذلك يرتفع الإبهام بكلا جانبيه.

وقال تعالى: «إِنَّمَا النَّسيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلّوا ما حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سوءُ أَعْمالِهِمْ...».[٣]

كانت العرب تدين بحرمة الشهور الأربعة امتداداً لملّة إبراهيم عليه السلام. لكنّهم ربّما كان يشقّ عليهم المكث طول ثلاثة أشهر لا يغزون، أو ربّما كانت الحرب على ساق فيهلّ أحد الأشهر الحرم، وكان يصعب عليهم ترك القتال. ولذلك كانوا ينسئون ذلك الشهر إلى وقت آخر ليستمرّوا في النهب والغزو وسفك الدماء..

وهكذا كانوا ينسئون بمراسم الحج لتتوافق مع فصل الربيع كلّ عام، وكان قد وافق الحجّ قبل حجّة الوداع ذاالقعدة، فلمّا حجّ النبيّ صلى الله عليه وآله في القابل، قال في خطبته: «ألا وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السماوات والأرض، السنة اثناعشر شهراً منها

---

١ ـ البقرة ٢: ١٨٩

٢ ـ الحُمس ـ بالضمّ فسكون ـ جمع أحمس وحمساء، بمعنى المتصلّب في دينه ومذهبه، أُطلق على ستّ قبائل معروفة: قريش وخزاعة وكنانة وثقيف وجشم وبني عامربن صعصعة. مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٨٤.

٣ ـ التوبة ٩: ٣٧.

أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذوالقعدة وذوالحجَّة والمحرّم، ورجب الذي بين جمادي وشعبان...» أرادﷺ أنّ الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحجّ إلى ذي الحجّة، وبطل النسيء.[١]

الطريق إلى معرفة أسباب النزول

لمعرفة الصحيح من أسباب النزول طرق معهودة تعارف عليها أهل الاصطلاح، من تصحيح الإسناد أو استفاضة النقل أو تواتره، ممّا يقطع معه من صحّة الحادثة. لكن هناك وسيلة أُخرى لعلّها أدقّ وأوفق للاعتبار وأكثر اطّراداً مع ضوابط دراسة التاريخ: أن يكون المأثور من شأن النزول ممّا يرفع الإبهام عن وجه الآية تماماً ويحلّ مشكلة تفسيرها على الوجه الأتمّ. على قيد أن لايكون مخالفاً لضرورة دين أو متنافراً مع بديهة العقل الرشيد. الأمر الذي يكفي بنفسه شاهد صدق على صحّة الحديث أيّاً كان الإسناد.

وممّا يجدر التنبّه له في هذا الباب، أنّ الطابع الغالب على أحاديث شأن النزول، هوالضعف والجهالة والإرسال، فضلاً عن الوضع والدّس والتزوير. هكذا جاء في وصف الأئمة:

قال الإمام بدر الدين الزركشي: يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنّه كثير. قال الميموني: سمعت الإمام أحمد بن‌حنبل يقول: «ثلاث ليس لها أُصول ـ أو لا أصل لها ـ: المغازي والملاحم والتفسير». أي لا أصل لها معتمداً عليه. قال المحقّقون من أصحابه: يعني أنّ الغالب، أنّها ليس لها أسانيد صحاح متّصلة الإسناد. وإلّا فقد صحّ من ذلك كثير.[٢]

قال جلال‌الدين السيوطي: الذي صحّ من ذلك قليل جدّاً، بل أصل المرفوع منه (أي

---

١ ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٩.

٢ ـ البرهان للزركشي، ج ٢، ص ١٥٦.

المتّصل الإسناد) في غاية القلّة. وقد ذكر السيوطي في نهاية الكتاب مالا يبلغ على الثلاثمائة حديث مرفوع، مابين ضعيف وسقيم ومعضل. والباقي مرسل لاحجيّة فيه إطلاقاً.[١]

الأمر الذي يعود لومه على السلف تساهلهم بأمر ضبط الحوادث، ومن ثمّ فإنّ رصيدنا اليوم بهذا الشأن ضئيل للغاية، ولايفي بحاجة التفسير في سوى القليل.

هذا الواحدي عمد إلى جمع الشوارد من أسباب النزول، فلم يمكنه التحرّز عن الضعاف والمجاهيل ومالاحجيّة فيه. مثلاً نراه يروي كثيراً عن ابن‌عباس عن طريق الكلبي عن أبي‌صالح. قال جلال‌الدين السيوطي: وأوهى طرق التفسير طريق الكلبي عن أبي‌صالح عن ابن‌عباس، فان انضمّ إلى ذلك رواية محمدبن مروان السدّي الصغير، فهي سلسلة الكذب. وكثيراً مايخرج منها الثعلبي والواحدي.[٢]

وقال ـ عند قوله تعالى: «وَإذا لَقُوا الَّذينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا...»[٣] ـ: أخرج الواحدي والثعلبي من طريق السدّي عن الكلبي عن أبي‌صالح عن ابن‌عباس، قال: نزلت هذه الآية في عبدالله بن‌اُبيّ وأصحابه... ثمّ قال: هذا الإسناد واه جداً، فإنّ السدّي الصغير كذّاب وكذا الكلبي وأبوصالح ضعيف.[٤]

وعند قوله تعالى: «إنَّ اللّهَ لايَسْتَحْيي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما...»[٥] قال: أخرج الواحدي من طريق عبدالغني بن سعيد الثقفي... وهو واه جدّاً.[٦]

وفي المطبوعة من نسخ أسباب النزول للواحدي تصحيف، ذكر الرواية عن عبدالعزيز بن‌سعيد[٧] وليس له ذكر في كتب التراجم.

---

١ ـ الإتقان، ج ٤، ص ١٨١ و ٢١٤ ـ ٢٥٧.

٢ ـ الإتقان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٣ ـ البقرة ٢: ١٤.

٤ ـ لباب النقول، ج ١، ص ٩.

٥ ـ البقرة ٢: ٢٦.

٦ ـ لباب النقول، ج ١، ص ١١ بالهامش.

٧ ـ أسباب النزول للواحدي، ص ١٣.

وقوله: «وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ...»[١] نزلت ردّاً على اليهود في تعييرهم تحويل القبلة ـ كما تقدّم ـ قال السيوطي: ماورد من الروايات بهذا المعنى إسنادها قويّ والمعنى يساعده أيضاً فليعتمد.[٢] قال: وفي الآية روايات أُخر ضعيفة... منها مارواه الواحدي وغيره عن أشعث السّمان.[٣] قال: وأشعث يضعّف في الحديث.[٤] قال الذهبي: أشعث بن سعيد أبوالربيع السمّان من الضعفاء، وقد تركه الدار قطني وغيره.[٥]

وهذا جلال‌الدين السيوطي الناقم على الواحدي اعتماده المراسيل والمجاهيل نراه قد تورّط المناكير وما خالف العقل والشرع في موارد من اختياراته في شأن النزول من كتابه «لباب النقول».

مثلاً يروي بشأن نزول قوله تعالى: «وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَماصَبْرُكَ إلّا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاتَكُ في ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ. إنَّ اللّهَ مَعَ الَّذينَ اتَّقَوا وَالَّذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ».[٦] من طريق البيهقي عن أبي هريرة: أنّ النبيّ ﷺ وقف على حمزة حين استشهد بأُحد، وقد مُثّل به، فقال لأُمثّلنّ بسبعين منهم مكانك. فنزل جبرائيل بهذه الآيات.[٧]

قال: وأخرج الترمذي عن أُبيّ بن‌كعب، قال: أُصيب في أُحد من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، وقد مثّلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربينّ عليهم.. فلمّا كان يوم فتح مكّة أنزل اللّه هذه الآيات.

هذا مع العلم أنّ سورة النحل مكّية، نزلت آياتها كلّها بمكة قبل الهجرة. وقد ذكرنا ذلك فيما سبق.

---

١ ـ البقرة ٢: ١١٥.

٢ ـ لباب النقول، ج ١، ص ٢٤.

٣ ـ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٠.

٤ ـ لباب النقول، ج ١، ص ٢٥.

٥ ـ المغني للذهبي، ج ١، ص ٩١.

٦ ـ النحل ١٦: ١٢٦ ـ ١٢٨.

٧ ـ لباب النقول، ج ١، ص ٢١٣.

هذا.. وقد أحسّ السيوطي نفسه بالوهن المذكور، ومن ثمّ لجأ إلى افتراض نزول الآيات ثلاث مرّات: قبل الهجرة، وبعدها بأُحد، ثمّ يوم الفتح بمكة.[1]

ويزيد في الطين بلّة، وجود أمثال هذه الغرائب في المدوّنات الحديثية الكبرى أمثال البخاري ومسلم وغيرهما ممّا زعمه القوم أصحّ كتب الحديث، لكنّها رغم هذا الزعم مليئة بهكذا أساطير لاتلتئم مع قدسية الإسلام.

وقد أسبقنا الحديث عن أُسطورة الغرانيق، وقصة ابن نوفل، ممّا صحّحه القوم، وهي تمسّ كرامة القرآن وقدسيّة مقام النبوّة. وإليك نموذجاً آخر: قال السيوطي: وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة في مسنده والواحدي وغيرهم بسند فيه من لايعرَف، عن حفص بن ميسرة القرشي عن أُمّه عن أُمّها خولة وقد كانت خادم رسول‌الله صلى الله عليه وآله أنّ جرواً دخل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبيّ صلى الله عليه وآله أربعة أيام لاينزل عليه الوحي، فقال: ياخولة، ماحدث في بيت رسول‌الله صلى الله عليه وآله جبرائيل مايأتيني؟ فقلت في نفسي: لوهيّأت البيت فكنسته. فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو. فجاء النبيّ صلى الله عليه وآله وترتعد لحياه، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرّعدة، فأنزل اللّه: «والضُّحىٰ ـإلى قوله ـ فَتَرْضىٰ».[2]

قال ابن‌حجر ـفي شرح البخاري ـ: قصّة إبطاء جبرائيل بسبب وجود جرو كلب تحت سريره صلى الله عليه وآله ولم يشعر به مشهورة. لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذّ مردود.[3]

قلت: هذه القصّة المزعومة مدنيّة، والسورة مكّية بلاخلاف! غير أنّ الكذوب تخونه ذاكرته!!

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٩٦؛ ولباب النقول، ج ١، ص ٢١٤.

٢ ـ الضحى ٩٣: ١ ـ ٥. راجع: الإتقان، ج ١، ص ٩٢؛ ولباب النقول، ج ٢، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

٣ ـ فتح الباري، ج ٨، ص ٥٤٥.

وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن المسيّب، قال: لمّا حضرت أباطالب الوفاةُ دخل عليه النبيُّ صلى الله عليه وآله وعنده أبوجهل وعبدالله بن أبيّ أُميّة، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: أي عمّ قل: لا إله إلّا الله، أُحاجّ لك بها عند الله. فقال: أبوجهل وعبدالله: يا أباطالب، أترغب عن ملّة عبدالمطلب؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله لأستغفرنّ لكَ مالم أُنْهَ عنك. فنزلت «ماكانَ لِلنَّبِيّ وَالَّذينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكينَ وَلَوْ كانُوا أُوْلي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحيمِ».[1]

ويفنّد هذه المزعومة، بل المكذوبة المفتعلة، أنّ أباطالب عليه السلام مات قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان عضداً قويّاً لرسول‌الله صلى الله عليه وآله أمّا آية براءة فإنّها نزلت في سنة التسع من الهجرة، أي بعد وفاة أبي‌طالب باثنتي عشرة سنة. هذا فضلاً عن الدلائل الوفيرة على إسلام أبي طالب، ذكرناها في مجالها المناسب. ولا يقول بكفره إلّا ذوو الأحقاد على الإسلام والمسلمين أحقاد بدر وحنين!

وقد لجأ السيوطي إلى افتراض نزول الآية مرّتين.[2]

وأسبقنا الكلام عن هذه الآية فيما قيل من استثناء آيات مكّية من سورة براءة المدنيّة.

وأخرج البخاري عن عمربن الخطاب، قال: لمّا توفي عبدالله بن أُبيّ بن سلول، جاء ابنه إلى رسول‌الله صلى الله عليه وآله فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه فأعطاه، ثمّ سأله أن يصلّي عليه، فقام رسول‌الله صلى الله عليه وآله ليصلّي عليه، قال عمر: فأخذت ثوبه وقلت: تصلّي عليه وقد نهاك ربّك أن تصلّي عليه؟! فقال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: إنّما خيّرني اللّه فقال: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ..»[3] وسأزيد على السبعين.. قال: إنّه

---

١ ـ براءة ٩: ١١٣. راجع: صحيح البخاري، ج ٦، ص ٨٧؛ وج ٢، ص ١١٩.

٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ٩٥.

٣ ـ براءة ٩: ٨٠.

منافق. قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله: «وَلا تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ».[1]

قال عمر: فعجبت بَعْدُ من جرأتي على رسول الله.[2]

قلت: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ».[3]

كيف يظنّون بنبيّ الإسلام جهله ـ والعياذ بالله ـ بأحكام الإسلام، فيحاولوا اختلاق منقبة لابن الخطاب، وإن كانت قد تستدعي الحطّ من قداسة رسول الله ﷺ والمنقصة من كرامته. بل سوّلت لهم أنفسهم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما يصفون.

أوّلاً: النبيّ ﷺ معصوم، وكلّ أفعاله وأقواله وحتّى تقريره، سنّة متّبعة، ليس لأحد ـ على الإطلاق ـ أن يعارضه فيأمره أو ينهاه ممّا يرتبط بأمر الشريعة. إن هذا إلّا فضول وخروج عن الطاعة والاستسلام ومعاكسة صريحة مع قوله تعالى: «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ».[4]

ومن ثمّ حاول أئمّة النقد والتمحيص إنكار هذه الرواية. وقالوا: هذا وهم من الرواة. وعلّلوا ذلك بأنّه يستلزم أن يكون عمر قد اجتهد مع وجود النصّ.[5]

وحاول ابن‌حجر تصحيح الخبر والردّ على هؤلاء، لكنّه أتى بما يزيد في الطين بلّة، وفي الطنبور نغمة. انظر إلى سفاسفه:

يقول: زعم غير هؤلاء أنّ عمر اطّلع على نهي خاصّ في ذلك. وقال القرطبي: لعلّ ذلك وقع في خاطر عمر، فيكون من قبيل الإلهام. ويحتمل أن يكون فهم ذلك من نهي الاستغفار.

قال ابن‌حجر: وما قاله القرطبي أقرب. لأنّه لم يتقدّم نهي عن الصلاة على المنافقين.

---

١ ـ براءة ٩: ٨٤.

٢ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٨٥-٨٦.

٣ ـ سبأ ٣٤: ٢٠.

٤ ـ الأحزاب ٣٣: ٢١.

٥ ـ ذكره عنهم ابن‌حجر في فتح الباري، ج ٨، ص ٢٥٢-٢٥٣.

بدليل أنّه قال في آخر الحديث: فأنزل الله «وَلا تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً»؟!

وثانياً: كيف علم عمر أنّ الصلاة على المنافق محرّمة في الشريعة، ولم تنزل بتحريمها آيةٌ بعدُ ـ كما نبّه عليه ابن حجر ـ أفهل يجوز أن يُلهم عمر بما لا يعرفه مبلّغ الشريعة؟!

وقد حاول ابن حجر محاولة أُخرى في حل هذه المشكلة الثانية بما زاد وهناً في وهن وابتعاداً عن الحقيقة أكثر.

فقد أخرج عن ابن مردويه أنّ عمر قال له صلى الله عليه وآله: أتصلّي عليه وقد نهاك اللّه أن تصلّي عليه! فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: أين؟ قال: قال: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاَتَسْتَغْفِرْلَهُمْ...».

قال ابن حجر: فكان عمر قد فهم من هذه الآية ماهو الأكثر الأغلب من لسان العرب، من أنّ «أو» ليست للتخيير، بل للتسوية، في عدم الوصف المذكور.

قال: وفهم عمر أيضاً من قوله تعالى: «سَبْعِينَ مَرَّةً» أنّها للمبالغة، وأنّ العدد المعيّن لامفهوم له، بل المراد نفي المغفرة لهم ولو كثر الاستغفار، فيحصل من ذلك النهي عن الاستغفار، فأطلقه.

وفهم أيضاً أنّ المقصود الأعظم من الصلاة على الميّت طلب المغفرة للميّت والشفاعة له، فلذلك استلزم عنده النهي عن الاستغفار ترك الصلاة.. قال: ولهذه الأُمور استنكر على النبيّ صلى الله عليه وآله إرادة الصلاة على عبدالله بن أُبيّ.

قال: هذا تقرير ما صدر عن عمر، مع ماعرف من شدّة صلابته في الدين...![1]

يا للعجب من عقليّة ابن حجر، كيف يتصوّر من عمر عملاقاً في فهم قضايا الدين والوقوف على مزايا اللغة، ممّا غفل عنه مثل رسول الله صلى الله عليه وآله الذي هو مبلّغ الشريعة وأفصح من نطق بالضاد؟!

---

١ ـ فتح الباري، ج ٨، ص ٢٥٢.

أمثل من لايعرف الأبّ من القتّ[1] ويجهل الكثير من الآداب والسنن[2] يقوم بتأنيب ناموس الشريعة وصميم العربيّة الفصحاء؟! إنْ هذا إلّا وهم ناشئ عن عصبيّة عمياء أعاذنا اللّه منها!

وبعد.. فإذ قد عرفت قيمة ما أُسند من روايات أسباب النزول الواردة في أهمّ الكتب الحديثيّة، فكيف بالمقطوع والمرسل والمجهول. الأمر الذي ينبؤك عن أصالة مالدينا من صحاح الروايات في هذا الباب. وقد صحّ كلام الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل معتمد: المغازي والملاحم والتفسير.

هذا السيوطي يخرّج لقوله تعالى: «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ»[3] خمسة أوجه: الأوّل: إنّه في تحويل القبلة وارتياب اليهود في ذلك. عن ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثاني: أن تصلّي حيثما توجّهت به راحلتك. أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عمر.

الثالث: إنّه كان في سفر ليلة ظلماء فصلّى كلّ رجل على حياله لايدرون أين وجه القبلة. أخرجه الترمذي من حديث عامر بن ربيعة. وكذا الدار قطني من حديث جابر.

الرابع: لمّا نزلت «اُدْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ»[4] قالوا: إلى أين؟ فنزلت. أخرجه ابن جرير عن مجاهد.

الخامس: عن قتادة أنّ النبيّ ﷺ قال: إنّ أخاً لكم قد مات فصلّوا عليه، فقالوا: إنّه كان لايصلّي إلى القبلة..فنزلت..

قال السيوطي ـ تعقيباً على ذلك ـ: فهذه خمسة أسباب مختلفة، وأضعفها الأخير

---

١ ـ أخرج الطبري في التفسير، ج ٣٠، ص ٣٨، عن أنس قال: قرأ عمر سورة عبس، فلمّا أتى على هذه الآية «وَفاكِهَةً وَأَبّاً» قال: عرفنا الفاكهة فما الأبّ؟.. ثمّ قال: إنّ هذا لهو التكلّف!. وأورده ابن كثير في تفسيره: ج ٤، ص ٤٧٣، وصحّحه... ثمّ تعجّب من عدم فهم عمر معنى الأبّ، لأنّ الكلّ يعلم أنّه من نبات الأرض ممّا يقتات به البهائم لقوله تعالى بعد ذلك «مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ» فالأبّ علف الدوابّ كالقتّ.

٢ ـ راجع: نوادر الأثر في علم عمر: (الغدير، ج ٦، ص ٨٣).

٣ ـ البقرة ٢: ١١٥.

٤ ـ غافر ٤٠: ٦٠.

لإعضاله. ثمّ ماقبله لإرساله. ثمّ الثالث لضعف رواته. والثاني صحيح لكنّه قال: قد أُنزلت في كذا، ولم يصرّح بالسبب. والأوّل صحيح الإسناد وصرّح فيه بذكر السبب فهو المعتمد.[1]

سبب النزول أو شأن النزول

ما هو الفارق بين قولهم: «سبب النزول» أو «شأن النزول»؟

إن كانت هناك مشكلة حاضرة، سواء أكانت حادثة أُبهم أمرها، أم مسأله خفي وجه صوابها، أم واقعة ضلّ سبيل مخرجها، فنزلت الآية لتعالج شأنها وتضع حلّاً لمشكلتها، فتلك هي أسباب النزول، أي السبب الداعي والعلّة الموجبة لنزول قرآن بشأنها.

وهذا أخصّ من قولهم: «شأن النزول». لأنّ الشأن أعمّ مورداً من السبب ـ في مصطلحهم ـ بعد أن كان الشأن يعني: الأمر الذي نزل القرآن ـ آية أو سورة ـ لتعالج شأنه بياناً وشرحاً أو اعتباراً بمواضع اعتباره. كما في أكثريّة قصص الماضين والإخبار عن أُمم سالفين، أو عن مواقف أنبياء وقدّيسين، كانت مشوّهة وكادت تمسّ من كرامتهم أو تحطّ من قدسيّتهم، فنزل القرآن ليعالج هذا الجانب، ويبيّن الصحيح من حكاية حالهم والواقع من سيرتهم بما يرفع الإشكال والابهام، وينزّه ساحة قدس أولياء اللّه الكرام.

وعليه فالفارق بين السبب والشأن ـ اصطلاحاً ـ أنّ الأول يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة. والثاني مشكلة أمر واقع، سواء أكانت حاضرة أم غابرة. وهذا اصطلاح ولامشاحّة فيه.

وقولهم: نزلت في كذا. أعمّ، قد يراد السبب العارض، وقد يراد شأن أمر واقع في الغابر. وأحياناً يراد بيان حكم وتكليف شرعي دائم. قال الزركشي: وقد عرف من عادة

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٩٣.

الصحابة والتابعين أنّ أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنّه يريد بذلك أنّ هذه الآية تتضمّن هذا الحكم، لا أنّ هذا كان السبب في نزولها.[١]

إلّا أنّ السيوطي خصّ أسباب النزول بالنوع الأوّل، ورفض أن يكون بيان قصّة سالفة سبباً لنزول سورة أو آية قرآنيّة، ومن ثمّ اعترض على الواحدي ـ في أسباب النزول ـ قوله: نزلت سورة الفيل في قصة أصحاب أبرهة الذي جاء لهدم الكعبة.[٢]

قال: والذي يتحرّر في سبب النزول أنّه مانزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ماذكره الواحدي في سورة الفيل من أنّ سببها قصّة قدوم الحبشة، فإنّ ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح و عاد و ثمود وبناء البيت ونحو ذلك.[٣] مع أنّ الواحدي لم يصرّح بالسبب، بل ذكر أنّها نزلت في قصّة أصحاب الفيل.

ولاوجه لما تضايق السيوطي على نفسه وعلى الآخرين، بعد أن كان المصطلح على دواعي النزول هي المناسبات المقتضية لنزول قرآن، سواء أكانت حادثة واقعة، أم اختلافاً في مسألة شرعيّة فرعيّة أو عقائديّة، أم قصّة غابرة كانت ذات عبرة أو موضع اختلاف، فأراد اللّه تعالى تحريرها وتهذيبها وتطهير ساحة قدس أوليائه الكرام.

التنزيل والتأويل

سأل الفضَيل بن يسار الإمامَ أباجعفر الباقر عليه السلام عن الحديث المعروف «مافي القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن»؟ فقال عليه السلام: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله. منه ماقد مضى ومنه مالم يكن، يجري كما يجري الشمس والقمر...».[٤]

---

١ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ٣١ ـ ٣٢.

٢ ـ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٩.

٣ ـ لباب النقول، ج ١، ص ٥.

٤ ـ بصائر الدرجات، ص ١٩٦، ح ٧.

وقال ﷺ: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم...».[١]

ذلك أنّ للآية وجهاً مرتبطاً بالحادثة الواقعة ـ التي استدعت نزولها ـ ووجهاً آخر عاماً تكون الآية بذلك دستوراً كلّياً يجري عليه المسلمون أبدياً، وكما أنّ الآية عالجت ـ بوجهها الخاصّ ـ مشكلة حاضرة، فإنّها ـ بوجهها العام ـ سوف تعالج مشاكل الأُمّة على مرّ الأيام.

قال الإمام أبوجعفر عليه السلام: «ولو أنّ الآية نزلت في قوم ثمّ مات أُولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء ولكن القرآن يجري أوّله على آخره مادامت السماوات والأرض. ولكلّ قوم يتلونها، هم منها من خير أو شرّ».[٢]

نعم، إنّ الحكمة في نزول آية أو سورة، ليست بالتي تقتصر على معالجة مشاكل حاضرة، وليست دواءً وقتيّاً لداءٍ عارض وقتي. إذن تنتفي فائدتها بتبدّل الأحوال والأوضاع. بل القرآن، في جميع آيه وسوره، نزل علاجاً لمشاكل أُمّة بكاملها في طول الزمان وعرضه. وإلى ذلك يشير قولهم عليهم السلام: «نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي ياجارة».[٣]

وهذا الوجه العامّ للآية، هو ناموسها الأكبر، الكامن وراء ذلك الوجه الخاصّ، وإنّما يلقي بأضوائه على الآفاق من وراء ذلك الستار الظاهري، وتنبعث أنواره من ذلك البطن الكامن وراء هذا الظهر.

وهذا من اختصاص القرآن في بيان مقاصده من الوجهين الخاص والعام، ومن ثمّ فإنّ له تنزيلاً (الذين نزل فيهم) وتأويلاً (الذين عملوا بمثل أعمالهم) وذلك ظهره وهذا بطنه.

غير أنّ الوقوف على تأويل القرآن وفهم بطون الآيات، إنّما هو من اختصاص الراسخين في العلم، ممّن ثبتوا على الطريقة فسقاهم ربّهم ماءً غدقاً.[٤]

---

١ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ١١، ح ٤.
٢ ـ المصدر، ص ١٠، ح ٧.
٣ ـ المصدر، ح ٤.
٤ ـ من الآية رقم ١٦ من سورة الجن.

ومن ثمّ قال الإمام أبوجعفر ـ بعد أن تلا الآية ـ: «نحن نعلمه» أي التأويل [1] وفي رواية أُخرى: «تعرفه الأئمّة». [2]

قال تعالى: «وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّه إنَّ اللّه واسِعٌ عَليمٌ». [3]

هذه الآية نموذج من الآيات ذوات الوجهين، لها تنزيل ولها تأويل، ظهر وبطن، وإنّما يعلم سرّها الكامن العامّ أُولوا البصائر في الدين الأئمّة المعصومون عليهم السلام.

هذه الآية تبدو ـ في ظاهرها ـ متعارضة مع آيات توجب التوجّه في الصلاة شطر المسجد الحرام. [4] ولكن مع ملاحظة سبب النزول، وإنّه دفع لشبهة اليهود ورفع لارتيابهم في تحويل القبلة، يتبيّن أن لامعارضة، ويرتفع الإبهام عن وجه الآية. ذلك أنّ الاستقبال في الصلاة والعبادات أمر اعتباري محض، ينوط باعتبار صاحب الشريعة في مصالح يراها مقتضية حسب الأحوال والأوضاع، وليس وجه الله محصوراً في زاوية القدس الشريف أو الكعبة المكرّمة.

وبذلك تنحلّ مشكلة الآية وترتفع إبهامها، وأن ليس ترخيصاً في الاتجاه بسائر الجهات.

هذا.. وقد فهم الأئمة عليهم السلام أمراً آخر أيضاً، استخرجوه من باطن الآية، حيث تأويلها المستمرّ. وأنّها تعني جواز التطوّع بالنوافل إلى حيث توجّهت به راحلتك، أو اشتبهت القبلة، فتصلّي إلى أيّ الجهات شئت. هكذا وجدنا صراحة الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام. [5]

قال سيّدنا الطباطبائي رحمه الله: إنّك إذا تصفّحت كلمات الأئمة عليهم السلام في عموم القرآن وخصوصه، و مطلقه ومقيّده، لوجدت كثيراً ما، استفادة حكم من عموم الآية، ثمّ استفادة

---

١ ـ بصائر الدرجات، ص ١٩٦، ح ٧.
٢ ـ المصدر، ح ٨.
٣ ـ البقرة ٢: ١١٥.
٤ ـ البقرة ٢: ١٤٤ و ١٤٩ و ١٥٠.
٥ ـ راجع: وسائل الشيعة، باب ٨ و ١٥ من أبواب القبلة، ج ٣، ص ٢٢٥ و ٢٣٩؛ وتفسير العياشي، ج ١، ص ٥٦ ـ ٥٧.

حكم آخر مع ملاحظة خصوصها. فقد يستفاد «الاستحباب» من الآية من وجه عمومها، و«الوجوب» من وجهها الخاصّ، وهكذا «الحرمة» و«الكراهة» من الوجهين للآية بذاتها.

قال: وعلى هذا المقياس تجد أُصولاً هي مفاتيح لكثير من مغالق الآيات. وإنّما تجدها في كلماتهم عليهم السلام لاغيرهم. قال: ومن هنا يمكنك أن تستخرج من لباب كلامهم في المعارف القرآنية قاعدتين أساسيّتين:

الأُولى: أنّ كلّ عبارة من عبارات الآية الواحدة، فإنّها لوحدها تفيد معنى و تلقي ضوءً على حكم من أحكام الشريعة.. ثمّ هي مع العبارة التالية لها، تفيد حكماً آخر، ومع الثالثة حكماً ثالثاً. وهكذا دواليك.

مثلاً قوله تعالى: «قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»[1] فقوله: «قُلِ اللّه»جملة تامّة الإفادة. وهي مع قوله: «ثُمَّ ذَرْهُمْ» أيضاً كلام آخر هو تامّ. ومع «في خَوْضِهِمْ». وكذا مع «يَلْعَبُونَ» كلاًّ كلام ذو فائدة تامّة.

واعتبر نظير ذلك في كلّ آية شئت من آيات القرآن.

الثانية: أنّ القّصتين أو المعنيين إذا اشتركا في جملة أو نحوها، فهما راجعان إلى مرجع واحد.

قال: وهاذان سرّان، تحتهما أسرار. والله الهادي.[2]

وقوله تعالى: «وَأَنَّ المَساجِدَ لِلّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللّه أَحَداً».[3]

قيل: نزلت بشأن الجنّ استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يشهدوا مسجده. وقد كان صعباً عليهم وهم منتشرون في فجاج الأرض. فنزلت: إنّ كلّ موضع من الأرض فهو مسجد لله يجوز التعبّد فيه. سوى أنّه يجب الإخلاص في العبادة في أيّ مكان كانت.[4] وهكذا روي

---

١ ـ الأنعام ٦: ٩١.

٢ ـ تفسير الميزان، ج ١، ص ٢٦٢.

٣ ـ الجنّ ٧٢: ١٨.

٤ ـ لباب النقول، ج ٢، ص ١٢١.

عن سعيد بن جبير.

هذا إذا أُخذت «المساجد» بمعنى «المعابد»: أمكنة العبادة.

وربّما فسّرت بمعنى المصدر، وأنّ العبادات بأسرها خاصّة بالله تعالى لايجوز السجود لغيره. روي ذلك عن الحسن.

وقال جمع من المفسّرين كسعيد بن جبير والزجّاج والفراء: إنّها المواضع السبعة حالة السجود، وهي لله، إذ هو خالقها والذي أنعم بها على الإنسان. فلاينبغي أن يسجد بها لأحد سوى الله تعالى.[1]

وبهذا المعنى الأخير أخذ الإمام أبوجعفر محمدبن علي الجواد عليه السلام حينما سأله المعتصم العباسي عن هذه الآية، فقال: هي الأعضاء السبعة التي يُسجد عليها.[2]

وكان هذا الحادث في قصّة سارق جيء به إلى مجلس المعتصم، فاختلف الفقهاء الحضور في موضع القطع من يده. فكان من رأي الإمام عليه السلام أن يقطع من مفصل الأصابع. ولمّا سأله المعتصم عن السبب، أجاب بأنّ راحة الكفّ، هي إحدى مواضع السجود السبعة، وأنّ المساجد لله، فلا تقطع.[3]

وهكذا، وبهذا الأُسلوب البديع استنبط عليه السلام من تعبير القرآن دليلاً على حكم شرعيّ كان حلّاً قاطعاً لمشكلة الفقهاء حلاً أبديّاً.

وهذا من بطن القرآن وتأويله الساري مع كلّ زمان. تعرفه الأئمّة، إمام كلّ عصر حسب حاجة ذلك العصر. قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ للقرآن تأويلاً، فمنه ماقد جاء ومنه

---

١ ـ وهكذا فسّرها الأئمة من أهل البيت فيما ورد من التفسير المأثور ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٧٢؛ وتفسير البرهان، ج ٤، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

٢ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٧٢.

٣ ـ وسائل الشيعة، باب ٤ من أبواب حدّ السرقة، ج ١٨، ص ٤٩٠، ح ٥.

مالم يجيء فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الأئمّة عرفه إمام ذلك الزمان».[١]

قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام: «ما يستطيع أحد أن يدّعي أنّ عنده جميع القرآن كلّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء».[٢]

وقال الصادق عليه السلام: «والله، إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره كأنّه في كفّي. فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ماكان وخبر ماهو كائن. فيه تبيان كلّ شيء ـ كما قال تعالى».[٣]

هل يجب حضور ناقل السبب؟

ذكر الواحدي أنّه لايحلّ القول في أسباب النزول، إلّا بالرواية والسماع ممّن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها.[٤]

وهذا الاشتراط إنّما هو من أجل الاستيثاق بأنّ ماينقله حكاية عن حسّ مشهود، لا أنّه من اجتهاد أو تخرّص بالغيب. ومن ثمَّ من عرفناه صادقاً في لهجته، ثقةً في إخباره، حذراً واعياً يتجنّب الحدس والتخمين، ولايخبر إلّا عن علم، ولايروي إلّا عن يقين. فإنّ مثله مصدّق ولو كان غائب المشهد. ومن ثمّ نعتمد قول خيار الصحابة. ولولم يصرّح بحضوره المشهد، وكذا إخبار التابعين لهم بإحسان، ومن بعدهم من أئمّة صادقين.

ولنفس السبب نعتمد أقوال أئمّتنا المعصومين بشأن تفسير القرآن، تنزيله وتأويله، لأنّهم أعرف الخلق بعلوم القرآن ظاهره وباطنه، سوى أنّ المهمّ هو العلم بصحّة الإسناد إليهم أو تواتر النقل وقليل ما هو.

---

١ ـ بصائر الدرجات، ص ١٩٥، ح ٥.
٢ ـ الكافي، ج ١، ص ٢٢٨، ح ٢.
٣ ـ الكافي، ج ١، ص ٢٢٩، ح ٤؛ والآية من سورة النحل: ٨٩ «وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيءٍ».
٤ ـ أسباب النزول للواحدي، ص ٤.

العبرة بعموم اللفظ لابخصوص المورد

هذه قاعدة أُصوليّة مطّردة في جميع أحكام الشريعة المقدّسة، فما يصدر من منابع الوحي والرسالة بشأن بيان أحكام الله وتكاليفه للعباد، ليس يخصّ مورداً دون مورد، ولم يأت الشرع لمعالجة حوادث معاصرة، وإنّما هو شرع للجميع. الأمر الذي دعا بالفقهاء إلى إلغاء الخصوصيات الموردّية والأخذ بإطلاق الحكم، إن لفظيّاً أو مقاميّاً، حسب المصطلح.

هذا بالنسبة إلى كافّة أحكام الشريعة، سنّة وكتاباً، وإن كان في الكتاب آكد. وقد عرفت صريح الروايات بهذا العموم في آيات القرآن. فكلّ ما في القرآن من أحكام وتكاليف واردة في الآيات الكريمة، فإنّما ينظر إليها الفقهاء من الوجه العامّ، ولا يأبهون بخصوص المورد إطلاقاً.

نعم هناك بعض الخطاباتِ مع فئات معهودة، صدرت على نحو القضيّة الخارجيّة،[1] فإنّها لا تعمّ بلفظها، وإن كانت قد تعمّ بملاكها، إذا كان قد أُحرز يقيناً. وفي القرآن منه كثير.

قال تعالى: «الَّذينَ اسْتَجابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوا أَجْرٌ عَظيمٌ. الَّذينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إيماناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللّه وَنِعْمَ الْوَكيلُ...».[2]

نزلت الآية بشأن المؤمنين بعد منصرفهم من وقعة «أُحُد» وقد أصابهم القرح الشديد. وكان أبوسفيان حاول الكرّة وتندّم على انصرافه عن القتال. وبلغ الخبر للمسلمين، وكان الّذي أشاع الخبر هو نعيم بن‌مسعود الأشجعي، كما في الحديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام.[3] وقيل: الركب الذي دسّه أبوسفيان للإرجاف بالمؤمنين. وقيل: هم المنافقون بالمدينة.

---

١ ـ من مصطلح علم الميزان (المنطق) وهو عبارة عن معهوديّة الموضوع في القضيّة، كقولك: أكرم من في المسجد أو في المدرسة، تريد من هو في مسجد البلد أو مدرسته في الحال الحاضر. وليس في كلّ الأزمان وكلّ المساجد والمدارس على الإطلاق.

٢ ـ آل عمران ٣: ١٧٢ ـ ١٧٣.

٣ ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٤١.

لكن المؤمنين الصادقين صمدوا على الثبات والإيمان وعزموا على مجابهة العدوّ بكلّ مجهودهم، وانتدبهم رسول الله صلى الله عليه وآله قصداً لإرهاب المشركين، وفي مقدّمة المنتدبين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

والشاهد في قوله تعالى: «قالَ لَهُمُ النَّاسُ» إشارة إلى أُناس معهودين أو فرد معهود. والمقصود من «النّاس» الذين جمعوا لهم، هم أصحاب أبي سفيان.

نعم مجموعة هذه الحادثة تفيدنا مسألة الثبات على الإيمان وأن لا نهاب عدوّاً ولا تجمّع الناس ضدّ الحقّ مادام الله ناصرنا وكافلنا، نعم المولى ونعم النصير.

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللّهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلىٰ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ».[1]

إنّما يعني الذين كفروا على عهده صلى الله عليه وآله وعاندوا وأصرّوا على اللجاج، بعد وضوح الحقّ وسطوع البرهان. وليس مطلق الكفّار على مرّ الزمان. وهذا تيئيس للنبيّ صلى الله عليه وآله فلا تذهب نفسه عليهم حسرات.

قال العلّامة الطباطبائي رحمه الله: ولايبعد أن يكون المراد هم الكفّار من صناديد قريش وكبراء مكة الذين عاندوا ولجّوا في أمر الدين ولم يألوا جهداً في ذلك. إذ لا يمكن استطراد هذا التعبير في حقّ جميع الكفّار، وإلّا لانسدّ باب الهداية. فالأشبه أن يكون المراد من «الّذينَ كَفَروا» هاهنا وفي سائر الموارد من كلامه تعالى هم كفّار مكة في أوّل البعثة، إلّا أن تقوم قرينة على خلافه. نظير ما سيأتي أنّ المراد من قوله: «أَلَّذينَ آمَنُوا» فيما أُطلق في القرآن من غير قرينة على إرادة الإطلاق، هم السابقون الأوّلون من المؤمنين. خصّوا بهذا الخطاب تشريفاً.[2]

وهكذا قال رحمه الله في تفسير سورة الكافرون: هؤلاء قوم معهودون لا كلّ كافر. ويدلّ عليه أمره صلى الله عليه وآله أن يخاطبهم ببراءته من دينهم وامتناعهم من دينه.[3]

---

١ ـ البقرة ٢: ٦ ـ ٧.
٢ ـ تفسير الميزان، ج ١، ص ٥٠.
٣ ـ المصدر، ج ٢٠، ص ٥٢٦.

وبذلك تنحلّ مشكلة كثيرٍ من الآيات جاءت بهذا التعبير وأشباهه.

نعم هذا الحكم يسري فيمن شابه أُولئك في العناد واللجاج مع الحقّ بعد الوضوح.

نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي ياجارة

هكذا روى أبوالنضر محمدبن مسعود العياشي بإسناده عن الإمام أبي‌عبدالله الصادق عليه‌السلام فيما رواه عنه عبدالله بن‌بكير قال: «نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي ياجارة».[١] وهذا مثل يضرب لمن يخاطب شخصاً أو يتكلّم عن أمر، وهو يريد غيره، على سبيل الكناية أو التعريض.

وروى بإسناده عن ابن أبي‌عمير عمّن حدّثه عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام قال: ما عاتب اللّه نبيّه فهو يعني به من قد مضى في القرآن. مثل قوله: «وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً»[٢] عنى بذلك غيره صلى‌الله‌عليه‌وآله.[٣]

قوله: «من قد مضى في القرآن» أي مضى ذكره إشارة أو تلويحاً وربّما نصّاً. والأكثر أن يراد أُمّته صلى‌الله‌عليه‌وآله بالعتاب، ولاسيّما المؤمنون صدر الإسلام، كانوا على قلق واضطراب في مواضعهم مع الكفّار.

وبهذا المعنى ورد قولهم عليهم‌السلام فيما رواه محمدبن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه‌السلام قال: يا محمّد إذا سمعت اللّه ذكر أحداً من هذه الأُمّة بخير فنحن هم. وإذا سمعت اللّه ذكر قوماً بسوء ممّن مضى فهم عدوّنا.[٤]

لأنّ القرآن يجري أوّله على آخره مادامت السماوات والأرض. ولكلّ قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شرّ.[٥] قال عليه‌السلام: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم».[٦]

---

١ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠، ح ٤.

٢ ـ الإسراء ١٧: ٧٤.

٣ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠، ح ٥.

٤ ـ المصدر، ص ١٣، ح ٣.

٥ ـ المصدر، ص ١٠، ح ٧.

٦ ـ المصدر، ص ١١، ح ٤.

تاريخ القرآن

تأليف القرآن

تأليف القرآن في شكله الحاضر، في نظم آياته وترتيب سوره، وكذلك في تشكيله وتنقيطه وتفصيله إلى أجزاء ومقاطع، لم يكن وليد عامل واحد، ولم يكتمل في فترة الوحي الأُولى. فقد مرّت عليه أدوار وأطوار، ابتدأت بالعهد الرسالي، وانتهت بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، ثمّ إلى عهد الخليل بن أحمد النحويّ الذي أكمل تشكيله بالوضع الموجود.

وهو بحث أشبه بمعالجة قضيّة تأريخية مذيّلة، عن أحوال وأوضاع مرّت على هذا الكتاب السماوي الخالد. غير أنّ مهمّتنا الآن هي العناية بدراسة القرآن من زاوية جمعه وتأليفه مصحفاً بين دفّتين، والبحث عن الفترة التي حصل فيها هذا الجمع والتأليف، وعن العوامل التي لعبت هذا الدور الخطير. ومن ثمّ سنفصّل الكلام عن القرآن في عهده الأوّل الذي لم يتجاوز نصف قرن، ثمّ نوجز الكلام في أحوال مرّت عليه في أدوار متأخّرة. والبحث الحاضر يكتمل في ثلاث مراحل أساسيّة:

أوّلاً: نضد الكلمات في صياغتها الحاضرة هي صنيع الوحي لاغيره إطلاقاً على ما

أسلفنا البحث عنه.[١] كما لم تتبدّل ولم تتغيّر صياغتها بزيادة أو نقيصه أو بتغيير موضعي من تقديم أو تأخير، حسب ما بينّاه في دلائلنا عل صيانة القرآن من التحريف:[٢] «لايَأْتيهِ الْباطِلِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَمِنْ خَلْفِهُ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ».[٣]

ثانياً: نظم الآيات وترتيبها القائم ضمن السور وفي أعدادها الخاصّة، شيء حصل على عهد الرسالة توقيفيّاً وبنصّ صاحب الشريعة لم تمسّه يدٌ إطلاقاً: «إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ».[٤]

ثالثاً: ترتيب السور بين دفّتين في صورة مصحف كما هو الآن. هذا أمر بقي مؤجّلاً إلى ما بعد وفاتهﷺ حيث ترقّب الوحي ونزول آيات وسور، مادامﷺ على قيد الحياة.

وإليك التفصيل:

نضد كلماته

لاشكّ أنّ العامل في نظم كلمات القرآن وصياغتها جملا وتراكيب كلاميّة بـديعة، هوالوحي السماويّ المعجز، لم يتدخّل فيه أيّ يد بشريّة إطلاقاً. كما ولم يحدث في هذا النظم الكلمي أي تغيير أو تحريف عبر العصور: «إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ»[٥] إذ في ذلك يتجسّد سرّ ذلك الإعجاز الخالد الذي لايزال يتحدّى به القـرآن الكـريم. ولمـزيد التوضيح نعرض مايلي:

اوّلاً: إسناد الكلام إلى متكلّم خاصّ يستدعي أن يكون هو العامل في تنظيم كلماته وتنسيق أُسلوبه التعبيري الخاصّ. أمّا إذا كان هو منتقيا كلمات مفردة وجاء آخر فنظّمها في أُسلوب كلاميّ خاصّ، فإنّ هذا الكلام ينسب إلى الثـاني لا الأوّل. وهكـذا القـرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد، فلابدّ أن يكون الوحي هو العامل الوحيد في تـنظيم كلماته جملاً وتراكيب كلاميّة بديعة. أمّا نفس الكلمات من غير اعتبار التركيب والتأليف

---

١ ـ «صياغة القرآن صناعة الوحي».

٢ ـ صيانة القرآن من التحريف، ص ٣٦-٥٧.

٣ ـ فصّلت ٤١: ٤٢.

٤ ـ الحجر ١٥: ٩.

٥ ـ الحجر ١٥: ٩.

فكان العرب يتداولونها ليل نهار، إنّما الإعجاز في نظمها، جاء من قبل وحي السماء.

ثانياً: كان القسط الأوفر من إعجاز القرآن كامناً وراء هذا النظم البديع وفي أُسلوبه هذا التعبيري الرائع، من تناسب نغمي مُرنّ، وتناسق شعريّ عجيب، وقد تحدّى القرآن فصحاء العرب وأرباب البيان ـ بصورة عامّة ـ: لو يأتون بمثل هذا القرآن، ولا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.[١] فلو جوّزنا ـ محالا ـ إمكان تدخّل يد بشريّة في نظم القرآن، كان بمعنى إيطال ذاك التحدّي الصارخ. ومن ثمّ كان ماينسب إلى ابن‌مسعود: جواز تبديل العهن بالصوف في الآية الكريمة[٢] أو قراءة أبي‌بكر: «وجاءت سكرة الحقّ بالموت»[٣] مكذوباً أو هو اعتبار شخصيّ لايتّسم بالقرآنية في شيء.

ثالثاً: اتفاق كلمة الأمّة في جميع أدوار التاريخ على أنّ النظم الموجود والأُسلوب القائم في جمل وتراكيب الآيات الكريمة هو من صنع الوحي السماوي لاغيره. الأمر الذي التزم به جميع الطوائف الإسلاميّة، على مختلف نزعاتهم وآرائهم في سائر المواضيع. ومن ثمّ لم يتردّد أحد من علماء الأدب والبيان في آية قرآنيّة جاءت مخالفة لقواعد رسموها، في أخذ الآية حجّة قاطعة على تلك القاعدة وتأويلها إلى مايلتئم و تركيب الآية. وذلك علماً منهم بأنّ النظم الموجود في الآية وحي لايتسرّب إليه خطأ ألبتة، وإنّما الخطأ في فهمهم هم وفيما استنبطوه من قواعد مرسومة.

مثال ذلك قوله تعالى: «وَما أَرْسَلْناكَ إلّا كافَّةً لِلنّاسِ»[٤] فزعموا أنّ الحال لاتتقدّم على صاحبها المجرور بحرف، والآية جاءت مخالفة لهذه القاعدة. ومن ثمّ وقع بينهم جدال عريض ودار بينهم كلام في صحّة تلك القاعدة وسقمها[٥] ولجأ ابن‌مالك أخيرا إلى نبذ القاعدة بحجّة أنّها مخالفة للآية، قال:

وسبق حال ما بحرف جرٍ قد   أبوا ولا أمنعه فقد ورد

---

١ ـ الإسراء: من الآية ٨٨.

٢ ـ القارعة ١٠١: ٥. راجع: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص ٢٤.

٣ ـ ق ٥٠: ١٩. راجع: جامع البيان، ج ٢٦، ص ١٠٠.   ٤ ـ سبأ ٣٤: ٢٨.

٥ ـ راجع: شرح التوضيح، لخالد الأزهري، باب الحال، فصل: وللحال المؤسسة مع صاحبها ثلاث حالات. والكشاف للزمخشري.

نظم آياته

وأمّا تأليف الآيات ضمن كلّ سورة، على الترتيب الموجود، فهذا قد تحقّق في الأكثر الساحق.. وفق ترتيب نزولها: كانت السورة تبتدأ ببسم الله الرحمان الرحيم فتسجّل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة، واحدة تلو أُخرى تدريجياً حسب النزول، حتى تنزل بسملة أُخرى، فيعرف أنّ السورة قد انتهت وابتدأت سورة أُخرى.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم‌الله الرحمان الرحيم ابتداء لأُخرى».[١]

قال ابن‌عباس: «كان النبيّ صلى الله عليه وآله يعرف فصل سورة بنزول بسم‌الله الرحمان الرحيم، فيعرف أنّ السورة قدختمت وابتدأت سورة أُخرى».[٢]

كان كتبة الوحي يعرفون بوجوب تسجيل الآيات ضمن السورة التي نزلت بسملتها، حسب ترتيب نزوله واحدة تلو أُخرى كما تنزل، من غير حاجة إلى تصريح خاصّ بشأن كلّ آية آية.

هكذا ترتّبت آيات السور وفق ترتيب نزولها على عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وهذا مانسمّيه «الترتيب الطبيعي» وهو العامل الأوّل الأساس للترتيب الموجود بين الآيات في الأكثريّة الغالبة، سوى ما شذّ على خلاف هذا الترتيب.

والمعروف أنّ مصحف علي عليه السلام وضع على دقّة كاملة من هذا الترتيب الطبيعي للنزول. الأمر الذي تخلّفت عنه مصاحف سائر الصحابة، على ماسنشير.

روى جابر عن الإمام أبي‌جعفر الباقر عليه السلام قال: «إذا قام قائم آل محمّد عليه السلام ضرب فساطيط لمن يعلّم الناس القرآن، على ما أنزل اللّه جلّ جلاله فأصعب مايكون على من حفظه اليوم، لأنّه يخالف فيه التأليف»[٣] أي التأليف الحاضر في ترتيب سوره وبعض آيه،

---

١ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ١٩، ح ٥.

٢ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ١، ص ٢٣١؛ وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧.

٣ ـ بحارالأنوار، ج ٥٢، ص ٣٣٩، ح ٨٥؛ والإرشاد للمفيد، ج ٢، ص ٣٨٦.

كما ننبّه.

وهناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها، وذلك بنصّ من رسول‌الله‌ﷺ وتعيينه الخاصّ: كان يأمر ـ أحياناً ـ بثبت آية في موضع خاصّ من سورة سابقة كانت قد ختمت من قبل. ولاشكّ أنّه‌ﷺ كان يرى المناسبة القريبة بين هذه الآية النازلة والآيات التي سبق نزولها، فيأمر بثبتها معها بإذن اللّه تعالى.

وهذا جانب استثنائي للخروج عن ترتيب النزول، كان بحاجة إلى تصريح خاصّ: روى أحمد في مسنده عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول‌الله‌ﷺ إذ شخَص ببصره، ثمّ صوّبه. ثمّ قال: أتاني جبرائيل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة «إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذي الْقُرْبىٰ...»[١] فجعلت في سورة النحل بين آيات الاستشهاد وآيات العهد. وروى أنّ آخر آية نزلت قوله تعالى: «واتّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيهِ إلىَ اللّهِ»[٢] فأشار جبرائيل أن توضع بين آيتي الربا والدَّين من سورة البقرة.[٣] وعن ابن‌عباس والسدّي: أنّها آخر مانزلت من القرآن. قال جبرائيل: ضعها في رأس الثمانين والمائتين،[٤] ولاتخفى المناسبة القريبة بينها وبين آيتي الربا والدَّين. وكذا الآية السابقة في سورة النحل! وعن ابن‌عباس أيضاً: قال: كان رسول‌الله‌ﷺ يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.[٥]

هذا ممّا لاخلاف فيه، كما صرّح بذلك أبوجعفر بن الزبير، قال: «ترتيب الآيات في سُوَرها واقع بتوقيفه‌ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين».[٦]

وربّما كانت تنزل السورة وقبل أن تكتمل، تفتتح سورة أُخرى وتكتمل هذه الأخيرة قبل أن تكتمل الأُولى. وذلك أيضاً كان بأمر النبيّ‌ﷺ وبإشارته. كما في سورة البقرة هي

---

١ ـ النحل ١٦: ٩٠.

٢ ـ البقرة ٢: ٢٨١.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٧٣ و ٧٨.

٤ ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٤.

٥ ـ أخرجه الترمذي بطريق حسن، والحاكم بطريق صحيح. راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٤١؛ وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٦.

٦ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٧٢.

أُولى سورة ابتدأ نزولها بالمدينة بعد الهجرة. لكنّها استمرّ نزولها سنوات حتى إلى ما بعد سنة الست. إذ فيها الكثير من آيات نزلن في هذه الفترات المتأخّرة، منها آية «إنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما».[١] انّها نزلت عندما تحرّج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة لمكان أساف ونائلة عليهما، وكان المشركون وضعوهما على الجبلين يطوفون بهما ويلمسونهما.. فنزلت الآية دفعاً لتوهّم الحظر. الأمر الذي يستدعي نزولها بعد صلح الحديبيّة في عمرة القضاء[٢] وهو عام الست من الهجرة. أو لعلّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر بوضع الآية في هذا الموضع من السورة. والله العالم.

وهكذا نزلت آيات الحج في نفس العام وثبتت في هذه السورة بالذات!

كما نجد آيات ثبتت في مواضع من السور، لاتلتئم وتأريخ نزولها، فهل كان ذلك بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله الخاصّ، أو لسبب آخر لانعرفه؟ الأمر الذي نجهله حتى الآن.

※ من ذلك ما نجده في سورة الممتحنة: تبتدىء هذه السورة بآيات (١ ـ ٩) نزلت في العام الثامن بعد الهجرة، بشأن حاطب بن أبيبلتعة. كان قد كاتب قريشاً يخبرهم بتأهّب النبيّ صلى الله عليه وآله لغزو مكة، وكان النبيّ يحاول الإخفاء.

وتتعقّب هذه الآيات آيتان نزلتا بشأن سبيعة الأسلميّة عام السّت من الهجرة، كانت قد أتت النبيّ صلى الله عليه وآله مسلمة مهاجرة، تاركة زوجها الكافر، فجاء في طلبها، فاستعصمت بالنبيّ صلى الله عليه وآله. وصادف مجيؤه صلح الحديبيّة، كان النبيّ صلى الله عليه وآله عاهد قريشاً أن يردّ عليهم كلّ من يأتيه من مكّة، فأخذ الزوج في محاججة النبيّ صلى الله عليه وآله قائلا: أُردُدْ عليّ امرأتي على ماشرطت لنا وهذه طينة الكتاب لم تجف، فتحرّج النبيّ صلى الله عليه وآله في أمرها، فنزلت الآيتان.

وبعد هاتين الآيتين آيات نزلت بشأن مبايعة النساء عام الفتح وهي سنة التسع من الهجرة!

---

١ ـ البقرة ٢: ١٥٨.

٢ ـ روي ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام راجع: تفسير العيّاشي، ج ١، ص ٧٠، ح ١٣٣؛ وراجع أيضاً: جامع البيان، ج ٢، ص ١٢٣.

وأمّا الآية الأخيرة من السورة فإنّها ترتبط مع آيات الصدر تماماً. ومن ثمّ قالوا: إنّ دراسة هذه السورة تعطينا خروجاً على النظم الطبيعي للآيات، من غير ماسبب معروف.[١]

※ ومن ذلك أيضاً مانجده في سورة البقرة فيما يخصّ آيات الإمتاع والاعتداد، كان التشريع الأوّل في المرأة المتوفى عنها زوجها أن تعتدّ حولا كاملا ولاتخرج من بيت زوجها وكان ميراثها هو الإنفاق عليها ذلك الحول فقط، والآية التي نزلت بهذا الشأن هي قوله تعالى: «وَالَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرونَ أَزواجاً وَصيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ».[٢] ثمّ نسخ هذا التشريع بآية الاعتداد: أربعة أشهر وعشراً من نفس السورة.[٣] وبآية المواريث.[٤]

قال الإمام الصادق عليه السلام: نسختها ـ أي آية الامتاع ـ آية «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشراً»[٥] ونسختها آية المواريث[٦] هذا وطبيعة النسخ تستدعي تأخّر الناسخ عن المنسوخ، في حين تقدّمه عليه بستّ آيات.

※ وكذلك قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيهِ إِلى اللّهِ...».[٧] قيل: إنّها آخر آية نزلت على رسول صلى الله عليه وآله ولم يعش بعدها سوى بضعة أيام أو بضعة أسابيع. والآية مثبتة في سورة البقرة في حين أنّها أوّل سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة، ونزلت بعدها نيف وعشرون سورة، وروي أنّ جبرائيل عليه السلام هوالذي أشار على النبيّ صلى الله عليه وآله بأن يضعها موضعها من البقرة. وقد تقدّم ذلك.

※ وآية الإكمال: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ دينِكُمْ فَلاتَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ ديناً».[٨] قال ابن عباس: لم ينزل بعدها

---

١ ـ بحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٦٧.
٢ ـ البقرة ٢: ٢٤٠.
٣ ـ البقرة ٢: ٢٣٤.
٤ ـ النساء ٤: ١٢.
٥ ـ البقرة ٢: ٢٣٤.
٦ ـ تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٣٢، ح ١؛ ومستدرك الوسائل، ج ٣، ص ٢١.
٧ ـ البقرة ٢: ٢٨١.
٨ ـ المائدة ٥: ٣.

فريضة. وكذا قال السدّي والجبائي والبلخي[١] وروي عن الإمامين الصادقين عليهما السلام أيضاً.[٢]

قال ابن‌عساكر والخطيب: إنّها نزلت في غدير خم عند منصرفه صلى الله عليه وآله من حجّة الوداع بعد ما نصب علياً عليه السلام بالولاية. فنزل بها جبرائيل عليه السلام. وفي عبارة السدّي لم ينزل بعدها حلال ولا حرام.[٣]

هذا وهي مثبتة في سورة المائدة برقم ٣. وآيات الأحكام بعدها كثيرة، كآية تحليل الطيّبات والصيد برقم ٤. وآية طعام أهل الكتاب برقم ٥. وآية الوضوء برقم ٦. وآية السارق برقم ٣٨. وآية الإيمان برقم ٨٩. وآية الخمر برقم ٩٠. وآية تحريم الصيد برقم ٩٥. وآية تحريم ماحلّله المشركون برقم ١٠٣. وآية الإشهاد على الوصيّة برقم ١٠٧. كلّ ذلك أحكام تشريعيّة سجّلت بعد آية الإكمال في حين أنّها نزلت قبلها قطعاً. فلابدّ هناك من مناسبة لإقحام مثل هذه الآية بين آيات تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وإن كنّا نجهلها في ظاهر الأمر.

وينبغي أن لانتغافل جانب «أصالة السياق» في الآيات فإنّها محفوظة حسب طبيعتها الأوّليّة، بمعنى أنّ الأصل الأوّليّ هو البناء على أنّ الترتيب القائم هو ترتيب النزول، إلّا إذا ثبت خلافه بدليل، ولم يثبت إلّا نادراً. ولأنّ ما ثبت قليلاً خلاف موضعه الأصلي، فإنّما كان بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وبإرشاده الخاصّ، فلابدّ من مناسبة ملحوظة في ذلك، وكفى بذلك في حكمة السياق، والحكم بتوقيفيّة النظم القائم بين الآيات ولايجوز الخلاف!

وسوف نتعرّض لهذا الجانب بتفصيل عند الكلام عن سياق الآيات (رابطها ضمن كلّ سورة) في فصل «الإعجاز البياني»[٤] إن شاء الله.

---

١ ـ الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩؛ ومجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٩.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٩.

٣ ـ الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٢٥٩.

٤ ـ في الجزء الخامس من التمهيد.

ترتيب السور

وأمّا جمع السور وترتيبها بصورة مصحف مؤلّف بين دفّتين، فهذا قد حصل بعد وفاة النبيّ ﷺ: انقضى العهد النبويّ والقرآن منثور على العسب واللخاف[١] والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع وبعض الحرير والقراطيس وفي صدور الرجال.

كانت السور مكتملة على عهده ﷺ مرتّبة آياتها وأسماؤها، غير أنّ جمعها بين دفّتين لم يكن حصل بعد. نظراً لترقّب نزول قرآن على عهده ﷺ فما دام لم ينقطع الوحي لم يصحّ تأليف السور مصحفاً إلّا بعد الاكتمال وانقطاع الوحي، الأمر الذي لم يكن يتحقّق إلّا بانقضاء عهد النبوّة واكتمال الوحي.

قال أبوالحسين ابن فارس في «المسائل الخمس»: «جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السُّور، كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذي تولّته الصحابة. وأمّا الجمع الآخر ـ وهو جمع الآيات في السور ـ فهو توقيفيّ تولّاه النبيّ ﷺ».[٢]

وقال جلال‌الدين السيوطي: «كان القرآن كتب كلّه في عهد رسول‌الله ﷺ لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتّب السور».[٣]

وهكذا ذهب سيّدنا العلّامة الطباطبائي إلى أنّ القرآن لم يكن مؤلّفاً على عهد رسول‌الله ﷺ. قال: «تأليف القرآن وجمعه مصحفاً واحداً إنّما كان بعدما قُبض النبيّ ﷺ بلاإشكال». وأكّد على أنّ ترتيب السور على ماهو عليه الآن شئ حصل بفعل الصحابة وعن اجتهاد منهم وردّ على من زعم التوقيف في ترتيب السور.[٤]

وأوّل من قام بجمع القرآن بعد وفاة النبيّ ﷺ مباشرة، وبوصيّة منه ﷺ هو الإمام علي بن أبي‌طالب (صلوات‌الله عليه). قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول‌الله ﷺ لعلي عليه السلام: ياعلي! القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه

---

١ ـ العسيب: جريدة النخل إذا كشط خوصها. واللخف: حجارة بيض رقاق. والأديم: الجلد المدبوغ.

٢ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٣٧.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٦٤.

٤ ـ راجع: تفسير الميزان، ج ١٢، ص ١٢٤ و ١٣١؛ وج ٣، ص ٧٨ ـ ٧٩.

ولاتضيّعوه.[1] ثمّ قام بجمعه زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر. كما قام بجمعه كلّ من ابن‌مسعود وأُبيّ بن‌كعب وأبي‌موسى الأشعري وسالم مولى أبي‌حذيفة وغيرهم، حتى انتهى الأمر إلى دور عثمان، فقام بتوحيد المصاحف وإرسال نسخ موحّدة إلى أطراف البلاد، وحمل الناس على قراءتها وترك ماسواها. على ماسنذكر.

كان جمع علي عليه السلام وفق ترتيب النزول: المكيّ مقدّم على المدنيّ. والمنسوخ مقدّم على الناسخ. مع الإشارة إلى مواقع نزولها ومناسبات النزول. قال الكلبي: لمّا توفي رسول‌الله صلى الله عليه وآله قعد علي بن أبي طالب عليه السلام في بيته فجمعه على ترتيب نزوله. ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير.[2] وقال عكرمة: لواجتمعت الإنس والجنّ على أن يألّفوه كتأليف علي بن أبي‌طالب عليه السلام مااستطاعوا.[3]

وأمّا جمع غيره من الصحابة فكان على ترتيب آخر: قدّموا السور الطوال على القصار، فقد أثبتوا السبع الطوال (البقرة، آل‌عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس) قبل المئين (الأنفال،[4] براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، الإسراء، الأنبياء، طه، المؤمنون، الشعراء، الصافّات) ثمّ المثاني (هي التي تقلّ آياتها عن المائة وهي عشرون سورة تقريباً) ثمّ الحواميم (السور التي افتتحت بحم) ثمّ المفصّلات (ذوات الآيات القصار) لكثرة فواصلها. وهي السور الأخيرة في القرآن.

وهذا يقرب نوعا ما من الترتيب الموجود الآن على ما سيأتي.

نعم لم يكن جمع زيد مرتّباً ولامنتظما كمصحف، وإنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن عن الضياع وضبط آياته وسوره حذراً عن التلف بموت حامليه، فدوّنت في صحف وجعلت في ملّفة، وأُودعت عند أبي بكر مدّة حياته، ثمّ عند عمر بن الخطاب حتى توفّاه اللّه، فصارت عند ابنته حفصة، وهي النسخة التي أخذها عثمان

---

١ ـ بحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٤٨، ح ٧؛ تفسير القمّي، ج ٢، ص ٤٥١.

٢ ـ التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ٤.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٦٦.

٤ ـ هذا في مصحف أُبيّ بن‌كعب. لكنّها في مصحف ابن مسعود من المثاني، لأنّها تقلّ من المائة، آياتها: ٧٥. راجع: القائمة الآتية.

لمقابلة المصاحف عليها، ثمّ ردّه عليها، وكانت عندها إلى أن ماتت، فاستلبها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قبل معاوية، فأمر بها فشقّت.

وسنذكر كلّ ذلك بتفصيل.

تمحيص الرأي المعارض

ما قدّمناه هو المعروف عن رواة الآثار، وعند الباحثين عن شؤون القرآن، منذ الصدر الأوّل فإلى يومنا هذا، ويوشك أنّ يتّفق عليه كلمة أرباب السير والتواريخ. ولكن مع ذلك نجد من ينكر ذاك التفصيل في جمع القرآن، ويرى أنّ القرآن بنظمه القائم وترتيبه الحاضر كان قد حصل في حياة الرسولﷺ.

وقد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من علماء السلف كالقاضي أبيبكر بن الطـيّب و أبوبكر ابن الأنباري والكرماني والطيبي،[1] ووافقهم علم الهدى السيد المرتضى ؒ قـال: كان القرآن على عهدهﷺ مجموعاً مؤلّفاً على ما هو عليه الآن. واستدلّ على ذلك بأنّ القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عيّن جماعة من الصـحابة فـي حفظهم له، وأنّه كان يعرض على النبيّﷺ ويتلى عليه.

وإنّ جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن‌مسعود وأُبيّ بن‌كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبيّﷺ عدّة ختمات. وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمّل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً غير مبتور ولا مبثوث.[2]

---

١ ـ راجع: الإتقان، ج ١، ص ١٧٦.

وحاول الإمام بدرالدين الزركشي الوفاق بين الفريقين وأنّ الخلاف لفظي، نظراً لأنّ القائل بالتوقيفيّة في ترتيب السور، يعني: أنّه رُمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته. ولهذا قال الإمام مالك: إنّما ألّفوه على ما وعوه عن النبيّﷺ. مع قوله بأنّ ترتيب السور اجتهاد منهم. فآل الخلاف إلى أنّه: هل ذلك بتوقيف قوليّ أم بمجرّد استنادٍ فعليّ وبحيث بقي لهم فيه مجال للنظر. راجع: البرهان، ج ١، ص ٢٥٧.

قلت: ويمكن حمل كلام السيّد أيضاً على إرادة اكتمال السُّور من غير أن تكون آيها متفرّقة مبثوثة!

٢ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٥.

لكن حفظ القرآن هو بمعنى حفظ جميع سوره التي اكتملت آياتها، سواء أكان بين السور ترتيب أم لا. وهكذا ختم القرآن هو بمعنى قراءة جميع سوره من غير لحاظ ترتيب خاصّ بينها. أوالحفظ كان بمعنى الاحتفاظ على جميع القرآن النازل لحدّ ذاك والتحفظ عليه دون الضياع والتفرقة، الأمر الذي لايدلّ على وجود ترتيب خاصّ كان بين سوره كما هو الآن.

هذا وقد ذهب إلى ترجيح هذا الرأي أيضاً، سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئي نظراً إلى الأُمور التالية:

أوّلا: أحاديث جمع القرآن بعد وفاة النبيّ بنفسها متناقضة، تتضارب مع بعضها البعض، ففي بعضها تحديد زمن الجمع بعهد أبي بكر، وفي آخر بعهد عمر وفي ثالث بعهد عثمان. كما أنّ البعض ينصّ على أنّ أوّل من جمع القرآن هو زيدبن ثابت. وآخر ينصّ على أنّه أبوبكر، وفي ثالث أنّه عمر إلى أمثال ذلك من تناقضات ظاهرة.

ثانياً: معارضتها بأحاديث دلّت على أنّ القرآن كان قد جمع على عهده منها حديث الشعبي، قال: جمع القرآن على عهده ستة: أُبيّ بن‌كعب وزيد بن‌ثابت ومعاذ بن‌جبل وأبوالدرداء وسعد بن‌عبيد وأبوزيد. وفي حديث أنس أنّهم أربعة: أُبيّ ومعاذ وزيد وأبوزيد وأمثال ذلك.

ثالثاً: منافاتها مع آيات التحدّي، التي هي دالّة على اكتمال سور القرآن وتمايز بعضها عن بعض. ومتنافية أيضاً مع إطلاق لفظ الكتاب على القرآن في لسانه الظاهر في كونه مؤلّفاً كتاباً مجموعاً بين دفّتين.

رابعاً: مخالفة ذلك مع حكم العقل بوجوب اهتمام النبيّ بجمعه وضبطه عن الضياع والإهمال.

خامساً: مخالفته مع إجماع المسلمين، حيث يعتبرون النصّ القرآني متواتراً عن النبيّ نفسه في حين أنّ بعض هذه الروايات تشير إلى اكتفاء الجامعين بعد الرسول بشهادة رجلين أو رجل واحد!

سادساً: استلزام ذلك تحريفاً في نصوص الكتاب العزيز حيث طبيعة الجمع المتأخّر تستدعي وقوع نقص أو زيادة في القرآن. وهذا مخالف لضرورة الدين.[١]

وزاد بعضهم: أنّ في المناسبة الموجودة بين كلّ سورة مع سابقتها ولاحقتها لدليلا على أنّ نظمها وترتيبها كان بأمر الرسول صلى الله عليه وآله إذ لا يعرف المناسبة بهذا الشكل المبدع البالغ حدَّ الإعجاز غيرُه صلى الله عليه وآله.

لكن يجب أن يُعْلَم أنّ قضية جمع القرآن حدث من أحداث التأريخ،[٢] وليست مسألة عقلانيّة قابلة للبحث والجدل فيها. وعليه فيجب مراجعة النصوص التأريخيّة المستندة، من غير أن يكون مجال لتجوال الفكر فيها على أيّة حال!

وقد سبق اتفاق كلمة المؤرخين ونصوص أرباب السير وأخبار الأُمم، ووافقهم أصحاب الحديث طرّاً، على أنّ ترتيب السور شيء حصل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ولم يكن بالترتيب الذي نزلت عليه السور.

وبعد.. فلا نرى أيّ مناقضة بين روايات جمع القرآن، إذ لاشك أنّ عمر هو الذي أشار على أبي‌بكر بجمع القرآن، وهذا الأخير أمر زيداً أن يتصدى القضية من قبله، فيصحّ إسناد الجمع الأوّل إلى كلّ من الثلاثة بهذا الاعتبار.

نعم نسبة الجمع إلى عثمان كانت باعتبار توحيده للمصاحف ونسخها في صورة موحّدة. وأما نسبة توحيد المصاحف إلى عمر فهو من اشتباه الراوي قطعاً، لأنّ الذي فعل ذلك هو عثمان بإجماع المؤرّخين.

---

١ ـ راجع: البيان في تفسير القرآن، ص ٢٥٧ ـ ٢٧٨.

٢ ـ ولابدّ أن يكون ثبتاً في التاريخ ولاسيّما في مثل هذا الحدث الخطير ولم يثبت (لو كان لبان). وللحدث التاريخي ثلاثة أركان أساسيّة: بطن الحادثة، زمن الحادثة ومحلّها. ولابدّ لمن يزعم أنّ جمع القرآن بين دفّتين وقع في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وبأمر منه، أن يضع يده أوّلاً على الشخص أو الأشخاص الذين كلّفهم النبي بالقيام بمثل هذه المهمّة: من كانوا؟ ثُمَّ في أيّ زمان: قبل الهجرة أو بعدها وفي أيّ عام وقعت هذه الحادثة؟. وأخيراً: أفي مكة أم في المدينة، في المسجد أو في غيره من سائر البقاع؟ وإذ كانت هذه الأركان مجهولة في مثل هذا الحادث الخطير، فترك التعرّض له أولى!

إذن، لامستند لهذه الدعوى تاريخياً!

وحديث ستّة أو أربعة جمعوا القرآن على عهده ﷺ فمعناه: الحفظ عن ظهر القلب، حفظوا جميع الآيات النازلة لحدّ ذاك الوقت، أمّا الدلالة على وجود نظم كان بين سُوَره فلا.

وأمّا حديث التحدّي فكان بنفس الآيات والسور، وكلّ آيةٍ أو سورةٍ قرآنٌ، ولم يكن التحدّي يوماً مّا بالترتيب القائم بين السور، كي يتوجّه الاستدلال المذكور!

على أنّ التحدّي وقع في سور مكّية أيضاً،[1] ولم يجمع القرآن قبل الهجرة قطعيّاً.

واهتمام النبيّ ﷺ بشأن القرآن، شيء لاينكر، ومن ثَمَّ كان حريصاً على ثبت الآيات ضمن سورها فور نزولها، وقد حصل النظم بين آيات كلّ سورةٍ في حياته ﷺ أمّا جمع السور بين دفّتين وترتيبها كمصحف موحّد، فلم يحصل حينذاك، نظراً لترقّب نزول قرآن عليه، فمالم ينقطع الوحي لايصحّ جمع القرآن بين دفّتين ككتاب. ومن ثمّ لمّا أيقن بانقطاع الوحي بوفاته ﷺ، أوصى إلى علي عليه السلام بجمعه.

ومعنى تواتر النّص القرآنيّ: هو القطع بكونه قرآناً، الأمر الذي كان يحصل بإخبار جماعة وشهادة آخرين بأنّه قرآن ولاسيّما من الصحابة الأوّلين، الأمر الذي كان قد التزمه زيد في الجمع الأوّل كما يأتي. وليس التواتر ـ هنا ـ بمعناه المصطلح عند المتأخرين.

وأمّا استلزام تأخّر الجمع تحريفاً في كتاب الله، فهو احتمال مجرّد لاسند له بعد معرفتنا بضبط الجامعين وقرب عهدهم بنزول الآيات وشدّة احتياطهم على الوحي بما لايدع مجالاً لتسرّب احتمال زيادة أو نقصان.

وأخيراً فإنّ قولة البعض الأخيرة، فهي لاتعدو خيالاً فارغاً، إذ لامناسبة ذاتيّة بين كلّ سورة وسابقتها أو تاليتها، سوى ما زعمه بعض المفسّرين المتكلّفين، وهو تمحّل باطل بعد إجماع الأُمّة على أنّ ترتيب السور كان على خلاف ترتيب النزول بلاشكّ. وقد تقدّم حديث الفساطيط المضروبة لتعليم القرآن على خلاف الترتيب المألوف.[2]

---

١ ـ يونس ١٠: ٣٨؛ وهود ١١: ١٣؛ والإسراء ١٧: ٨٨. وهنّ مكّيات.

٢ ـ الإرشاد للمفيد: ص ٣٨٦؛ وبحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٣٩، ح ٨٥.

وقد يتراءى لبعض الباحثين الجدّد، أن التعبير بلفظ «المصحف» الوارد في أحاديث الرسول وعلى لسانه ﷺ ليصلح شاهداً على وقوع الجمع وتنسيق السور مع بعضها، في ذلك العهد، إذ لولم يكن هناك تدوين وجمع بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، لما صحّ هذا التعبير ولاكان ثمّة مبرّر لإطلاق لفظ «مصحف» أو «مصاحف» على القرآن.[١]

لكن لاموضع لهذا الاستشهاد، بعد أن كان «المصحف» اسماً لمجموعة صحائف مكتوبة انضمّ بعضها إلى بعض، وربما ربطت بخيط ونحوه، أو وضعت في ملفّة أو محفظة وماشاكل، حفظاً لها عن التفرّق والضياع، سواء أكان بينها تنسيق ونظم، ليصح إطلاق التدوين عليها، أم لم يكن.

قال ابن‌دريد: والصُحف، واحدتها صحيفة، وهي القطعة من أدم أبيض أو رَقّ يكتب فيه. وتجمع صحائف، وربما جمعوا الصحيفة صحافاً... والمصحف ـ بكسر الميم ـ لغة تميمية، لأنّه صحفٌ جُمعت، فأخرجوه مخرج مِفعَل ممّا يتعاطى باليد. وأهل نجد يقولون: المصحف ـ بضم الميم ـ لغة علويّة كأنّهم قالوا: أُصحف فهو مصحف إذا جمع بعضه إلى بعض.[٢]

وقال الخليل: وسمّي المصحف مصحفاً، لأنّه أُصحف، أي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفّتين.[٣]

وكانت السورة القرآنية تكتمل وتكتب آياتها منظمّة ومرتّبة حسب النزول، حتى تنزل سورة أُخرى بنزول بسملتها. وكانت تكتب في ورقة من قرطاس أو قطعة من أديم أو رق، و تحفظ برأسها. وهكذا كلّ سورة سورة. ومن طبيعة الحال أنّ هذه السور المكتملة كانت تحتفظ وتجمع في مكان. في نحو صندوق أو كيس ونحو ذلك. ولكن من غير أن يجعل لها ترتيب أو تنظيم بتقديم الطوال على القصار على غرار تنظيمها الحاضر. وذلك لأنّ القرآن لمّا ينته نزوله. وكان يترتّب نزول سور وآيات، مادام الوحي القرآني لم ينقطع،

---

١ ـ حقائق هامة، ص ٨٢.

٢ ـ جمهرة اللغة، ج ٢، ص ١٦٢.

٣ ـ العين، ج ٣، ص ١٢٠.

والرسولﷺ على قيد الحياة.

إذن فمجموعة السور النازلة في كلّ عام ولحدّ ذاك الحين وكانت مكتوبة على صحائف، كانت تُحتفظ في وعاء، وربما كانت متعدّدة لدى الصحابة، كلٌّ له مجموعة منها في بيته. وبذلك صحّ إطلاق لفظ «المصحف» على كلٍّ من تلك المجموعات، بهذا الاعتبار لاغير.

وبذلك تعرف ترادف لفظي القرآن والمصحف، غير أنّ الأوّل كان باعتبار اللفظ المقروء، وكان الثاني باعتبار اللفظ المكتوب على صحيفة. فكما أنّ القرآن يطلق على قليله وكثيره، ومن غير دلالة على تنسيق سُوَره ذلك الحين، فكذلك لفظ المصحف من غير فرق.

ومن ثَمَّ نجد تبديل لفظ المصحف بالقرآن في نفس الروايات التي استشهد بها المستدلّ. وقد اعترف بذلك.[١]

هذا على فرض صحة إسناد الروايات التي جاء فيها لفظ «المصحف» مسنداً له إلى النبيّﷺ ولم يكن من تعبير الراوي، نقلاً بالمعنى حسب متفاهم عهده المتأخر، والأرجح أنّه كذلك نقل بالمعنى لابالنصّ!

إذاً لايملك معارضونا دليلاً يُثنينا عن الذي عزمنا عليه من تفصيل حديث الجمع، وإليك:

جمع علي بن أبي طالب عليه السلام

أوّل من تصدّى لجمع القرآن بعد وفاة النبيّﷺ مباشرة، وبوصيّة منه هو علي بن أبي طالب عليه السلام[٢] قعد في بيته مشتغلا بجمع القرآن وترتيبه على ما نزل، مع شروح وتفاسير لمواضع مبهمة من الآيات، وبيان أسباب النزول ومواقع النزول بتفصيل حتى أكمله على

---

١ ـ حقائق هامة، ص ٨٥.

٢ ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٤٥١؛ وبحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٤٨، ح ٥ وص ٥٢، ح ١٨.

هذا النمط البديع.

قال ابن النديم ـ بسند يذكره ـ: إنّ علياً عليه السلام رأى من الناس طيرة عند وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله فأقسم أن لا يضع رداءه حتى يجمع القرآن. فجلس في بيته ثلاثة أيام[1] حتى جمع القرآن. فهو أوّل مصحف جمع فيه القرآن من قلبه[2] وكان هذا المصحف عند آل جعفر.

قال: ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقط منه أوراق بخطّ علي بن أبي طالب، يتوارثه بنو حسن.[3]

وهكذا روى أحمد بن فارس عن السدّي عن عبد خير عن علي عليه السلام.[4]

وروى محمد بن سيرين عن عكرمة، قال: لمّا كان بدء خلافة أبي بكر قعد علي بن أبي طالب في بيته يجمع القرآن. قال: قلت لعكرمة: هل كان تأليف غيره كما أُنزل الأوّل فالأوّل؟ قال: لو اجتمعت الإنس والجنّ على أنّ يألّفوه هذا التأليف مااستطاعوه.

قال ابن سيرين: فطلبت ذلك الكتاب وكتبت فيه إلى المدينة فلم أقدر عليه.[5]

قال ابن جزي الكلبي: كان القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مفرّقاً في الصحف وفي صدور الرجال فلمّا توفّي، جمعه علي بن أبي طالب على ترتيب نزوله. ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير ولكنّه لم يوجد.[6]

قال الإمام الباقر عليه السلام: ما من أحد من الناس يقول أنّه جمع القرآن كلّه كما أنزل اللّه إلّا كذب. وما جمعه وما حفظه كما أنزل اللّه إلّا علي بن أبي طالب.[7]

قال الشيخ المفيد ـ في المسائل السرويّة ـ: وقد جمع أميرالمؤمنين عليه السلام القرآن المنزل

---

١ ـ ولعلّه سهو من الراوي، لأنّ الصحيح أنّه عليه السلام أكمل جمع القرآن لمدّة ستة أشهر، كان لا يرتدي خلالها إلّا للصلاة. المناقب، ج ٢، ص ٤٠.

٢ ـ قال ابن عباس: فجمع اللّه القرآن في قلب علي، وجمعه علي بعد موت رسول الله بستة أشهر. المصدر.

٣ ـ الفهرست، ص ٤٧ ـ ٤٨.

٤ ـ في كتابه «الصاحبي» ص ٢٠٠؛ وهامش تأويل مشكل القرآن، ص ٢٧٥.

٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٦٦؛ وراجع: الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠١؛ والاستيعاب بهامش الاصابة، ج ٢، ص ٢٥٣.

٦ ـ التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ٤.

٧ ـ بحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٨٨، ح ٢٧.

من أوّله إلى آخره، وألّفه بحسب ماوجب تأليفه، فقدّم المكيّ على المدنيّ والمنسوخ على الناسخ، ووضع كلّ شيء منه في حقّه.[١]

وقال العلّامة البلاغي: من المعلوم عند الشيعة أنّ علياً أميرالمؤمنين بعد وفاة رسول‌الله صلى الله عليه وآله لم يرتدّ برداء إلّا للصلاة حتى جمع القرآن على ترتيب نزوله وتقدّم منسوخه على ناسخه. وأخرج ابن سعد وابن عبدالبرّ في الاستيعاب عن محمد بن‌سيرين، قال: نبّئت أنّ علياً أبطأ عن بيعة أبي‌بكر، فقال: أكرهت إمارتي؟ فقال: آليت بيميني أن لا أرتدي برداء إلّا للصلاة حتى أجمع القرآن. قال: فزعموا أنّه كتبه على تنزيله. قال محمد: فلو أصبت ذلك الكتاب كان فيه علم.[٢]

قال ابن‌حجر: وقد ورد أنّ عليا جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبيّ صلى الله عليه وآله أخرجه ابن أبي‌داود.[٣]

قال ابن شهرآشوب: ومن عجب أمره في هذا الباب أنّه لاشيء من العلوم إلّا وأهله يجعلون عليّاً قدوة، فصار قوله قبلة في الشريعة. فمنه سمع القرآن. ذكر الشيرازي في نزول القرآن عن ابن عباس قال: ضمّن اللّه محمداً أن يجمع القرآن بعده علي‌بن أبي طالب عليه السلام قال: فجمع اللّه القرآن في قلب عليّ، وجمعه عليّ بعد موت رسول‌الله بستة أشهر...

قال: وفي أخبار أبي رافع: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال في مرضه الذي توفّي فيه ـ لعلي ـ: يا عليّ هذا كتاب الله خذه إليك، فجمعه علي في ثوب ومضى إلى منزله، فلمّا قبض النبيّ صلى الله عليه وآله جلس عليّ فألّفه كما أنزل الله، وكان به عالماً.

قال: وحدّثني أبوالعلاء العطار، والموفّق خطيب خوارزم في كتابيهما بالإسناد عن علي بن رباح: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر علياً بتأليف القرآن فألّفه وكتبه.

---

١ ـ المصدر، ص ٧٤.

٢ ـ آلاء الرحمان، ج ١، ص ١٨ بالهامش: وراجع: الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠١؛ والاستيعاب بهامش الاصابة، ج ٢، ص ٢٥٣.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٢٠٢.

و روى أبونعيم في الحلية والخطيب في الأربعين بالاسناد عن السدّي، عن عبدخير، عن علي عليه السلام: قال: لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله أقسمت أن لا أضع ردائي على ظهري حتّى أجمع مابين اللوحين، فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن.

قال: وفي أخبار أهل البيت عليهم السلام: أنّه عليه السلام آلى على نفسه أن لايضع رداءه على عاتقه إلّا للصلاة حتى يؤلّف القرآن ويجمعه، فانقطع عنهم مدّة إلى أن جمعه، ثمّ خرج إليهم به في إزار يحمله وهم مجتمعون في المسجد، فأنكروا مصيره بعد انقطاع مع الإلبة. فقالوا: لأمر ماجاء أبوالحسن، فلمّا توسّطهم وضع الكتاب بينهم، ثمّ قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّي مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي. وهذا الكتاب، وأنا العترة. فقام إليه الثاني وقال له: إن يكن عندك قرآن فعندنا مثله، فلا حاجة لنا فيكما. فحمل عليه السلام الكتاب وعاد به بعد أن ألزمهم الحجّة.

وفي خبر طويل عن الإمام الصادق عليه السلام: أنّه حمله وولّى راجعاً نحو حجرته، وهو يقول: «فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَليلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ».[١]

وصف مصحف علي عليه السلام

امتاز مصحفه عليه السلام أوّلا: بترتيبه الموضوع على ترتيب النزول، الأوّل فالأوّل في دقّة فائقة.

ثانياً: إثبات نصوص الكتاب كما هي من غير تحوير أوتغيير أو أن تشذّ منه كلمة أو آية.

ثالثاً: إثبات قراءته كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وآله حرفاً بحرف.

رابعاً: اشتماله على توضيحات ـ على الهامش طبعاً ـ وبيان المناسبة التي استدعت نزول الآية، والمكان الذي نزلت فيه، والساعة التي نزلت فيها، والأشخاص الذين نزلت فيهم.

---

١ ـ آل‌عمران ٣: ١٨٧. راجع: المناقب، ج ٢، ص ٤٠ ـ ٤١؛ وبحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٥١ ـ ٥٢، ح ١٨.

خامساً: اشتماله على الجوانب العامّة من الآيات بحيث لاتخصّ زماناً ولامكاناً ولاشخصاً خاصّاً. فهي تجري كما تجري الشمس والقمر. وهذا هو المقصود من التأويل في قوله عليه السلام: «ولقد جئتهم بالكتاب مشتملا على التنزيل والتأويل».[1]

فالتنزيل هي المناسبة الوقتيّة التي استدعت النزول. والتأويل هو بيان المجرى العامّ.

كان مصحف علي عليه السلام مشتملاً على كلّ هذه الدقائق التي أخذها عن رسول الله صلى الله عليه وآله من غير أن ينسى منها شيئاً أو يشتبه عليه شيء.

قال عليه السلام: مانزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أقرأنيها وأملاها عليّ، فأكتبها بخطّي. وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها. ودعا الله لي أن يعلّمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليّ. فكتبته منذ دعا لي مادعا.[2]

وعن الأصبغ بن نباته، قال: قدم أميرالمؤمنين عليه السلام الكوفة، صلّى بهم أربعين صباحاً يقرأ بهم سبّح اسم ربّك الأعلى، فقال المنافقون: لاوالله مايحسن ابن أبي‌طالب أن يقرأ القرآن، ولو أحسن أن يقرأ القرآن لقرأ بنا غير هذه السورة! قال: فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال: ويل لهم إنّي لأعرف ناسخه من منسوخه ومحكمه من متشابهه وفصله من فصاله وحروفه من معانيه، والله ما من حرف نزل على محمد صلى الله عليه وآله إلّا أنّي أعرف فيمن أُنزل وفي أيّ يوم وفي أيّ موضع. ويل لهم أما يقرأون: «إنَّ هٰذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولىٰ. صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ»[3] والله عندي ورثتُهما من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أنهى رسول الله صلى الله عليه وآله من إبراهيم وموسى عليهما السلام ويل لهم والله أنا الذي أنزل الله فيّ: «وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ»[4] فإنّما كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال آنفاً؟.[5]

هذا... ولليعقوبي وصف غريب عن مصحف علي عليه السلام: يجزّئه سبعة أجزاء كلّ جزء

---

١ ـ آلاء الرحمان، ج ١، ص ٢٥٧.

٢ ـ تفسير البرهان، ج ١، ص ١٦، ح ١٤.

٣ ـ الأعلى ٨٧: ١٨ ـ ١٩.

٤ ـ الحاقة ٦٩: ١٢.

٥ ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ١٤، ح ١.

يحتوي على ستّ عشرة أو خمس عشرة سورة، لتكون مجموع السور مائة وإحدى عشرة سورة!! وكلّ جزء لابدّ أن تبلغ آياته ثمانمائة وستاً وثمانين آية، فيكون مجموع آيات المصحف ستة آلاف واثنتين ومائتي آية.!

ويجعل مبدأ الجزء الأوّل: سورة البقرة ثمّ سورة يوسف ثمّ العنكبوت، وينتهي إلى سورة الأعلى والبيّنة. ويسمّيه جزء البقرة.

ويجعل مبدأ الجزء الثاني: آل‌عمران ثمّ هود والحج، وينتهي إلى سورة الفيل وقريش. ويسمّيه جزء آل‌عمران.

ويجعل مبدأ الجزء الثالث: سورة النساء وآخره النمل. ويسمّيه جزء النساء.

ومبدأ الجزء الرابع: المائدة وآخره الكافرون. ومبدأ الجزء الخامس: الأنعام، ومنتهاه التكاثر. ومبدأ الجزء السادس: الأعراف، ومنتهاه النصر. ومبدأ الجزء السابع: الأنفال وآخره الناس.

وهكذا يوزّع السور الطوال على مبادئ الأجزاء السبع ويتدرّج إلى القصار ويسمي كلّ جزء باسم السورة التي بدأ بها.[1]

وهذا الوصف يخالف تماماً وصف الآخرين: إنّه كان مرتّباً حسب النزول. قال جلال‌الدين: كان أوّل مصحف علي عليه السلام سورة إقرأ ثمّ سورة المدّثر ثمّ نون ثمّ المزّمّل ثمّ تبّت ثمّ التكوير... وهكذا إلى آخر ترتيب السور حسب نزولها[2] ومن ثمّ فهذا الوصف مخالف لإجماع أرباب السير والتأريخ.

ومن الغريب أنّه جعل الم تنزيل والسجدة سورتين. وحم والمؤمن سورتين. وطس والنحل سورتين. وطسم والشعراء سورتين. في حين أنّ كلّا منهما سورة واحدة. وعبّر عن سورة الأنبياء بسورة اقتربت، في حين أنّها تبتدئ بقوله تعالى: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ».

وهذه الغفلة من مثل أحمد بن الواضح الكاتب الإخباري غريبة جداً!

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٢٥.
٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٧٦.

أمد مصحف علي عليه السلام

روى سليم بن‌قيس الهلالي عن سلمان الفارسي(رضوان‌الله عليه) قال: لمّا رأى أميرالمؤمنين (صلوات‌الله عليه) غدر الناس به لزم بيته وأقبل على القرآن يؤلّفه ويجمعه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه. وكان في الصحف والشظاظ والأشار والرقاع.[١]

وبعث القوم إليه ليبايع فاعتذر باشتغاله بجمع القرآن، فسكتوا عنه أياماً حتى جمعه في ثوب واحد وختمه ثمّ خرج إلى الناس ـ وفي رواية اليعقوبي: حمله على جمل وأتى به إلى القوم ـ[٢] وهم مجتمعون حول أبي‌بكر في المسجد، وخاطبهم قائلا: إنّي لم أزل منذ قبض رسول‌الله صلى الله عليه وآله مشغولا بغسله وتجهيزه، ثمّ بالقرآن حتى جمعته كلّه في هذا الثوب الواحد ولم ينزل الله على نبيّه آية من القرآن إلّا وقد جمعتها، وليس منه آية وقد أقرأنيها رسول‌الله صلى الله عليه وآله وعلّمني تأويلها. لئلّا تقولوا غداً إنّا كنّا عن هذا غافلين!

فقام إليه رجل من كبار القوم ـ وفي رواية أبي‌ذر: فنظر فيه فلان وإذا فيه أشياء ـ[٣] فقال: ياعلي، اردده فلاحاجة لنا فيه، ما أغنانا بما معنا من القرآن، عمّا تدعونا إليه، فدخل علي عليه السلام بيته.[٤]

وفي رواية: قال علي عليه السلام: أما والله ماترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنّما كان عليّ أن أخبركم حين جمعته لتقرأوه.[٥]

وقد تقدّم كلام ابن‌النديم: كان مصحف عليّ يتوارثه بنوالحسن[٦] والصحيح عندنا: أنّ مصحفه عليه السلام يتوارثه أوصياؤه الأئمّة من بعده، واحداً بعد واحد لايرونه لأحد.[٧]

وفي عهد عثمان حيث اختلفت المصاحف وأثارت ضجّة بين المسلمين، سأل طلحة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لويخرج للناس مصحفه الذي جمعه بعد وفاة رسول‌الله صلى الله عليه وآله

---

١ ـ الصحف: جمع صحيفة، وهي الورقة من كتاب أوقرطاس. والشظاظ: خشبة محدّدة، يجمع على أشظة. والأشار خشبة أو صفحة أو عظمة مرققة مصقولة. والرقاع: جمع رقعة، وهي القطعة من الورق يكتب عليها.

٢ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٢٥.

٣ ـ الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص ٢٢٥-٢٢٨.

٤ ـ كتاب سليم بن‌قيس، ص ٨١-٨٢.

٥ ـ الصافي في تفسير القرآن، ج ١، ص ٢٥.

٦ ـ الفهرست، ص ٤٨.

٧ ـ بحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٤٢، ح ١.

وأتى به إلى القوم فرفضوه. قال: وما يمنعك ـ يرحمك الله ـ أن تخرج كتاب الله إلى الناس؟! فكفّ عليه السلام عن الجواب أوّلا، فكرّر طلحة السؤال، فقال: لا أراك يا أبا الحسن أجبتني عمّا سألتك من أمر القرآن ألا تظهره للناس؟

قال عليه السلام: يا طلحة عمداً كففت عن جوابك. فأخبرني عمّا كتبه القوم أقرآن كلّه أم فيه ماليس بقرآن؟ قال طلحة: بل قرآن كلّه. قال عليه السلام: إن أخذتم بما فيه نجوتم من النار ودخلتم الجنّة.. قال طلحة: حسبي أمّا إذا كان قرآناً فحسبي.[1]

هكذا حرص الإمام وأوصياؤه عليهم السلام على حفظ وحدة الأُمّة فلاتختلف بعد اجتماعها على ماهو قرآن كلّه.

جمع زيدبن ثابت

كان ذاك الرفض القاسي لمصحف علي عليه السلام يستدعي التفكير في القيام بمهمّة جمع القرآن مهما كلّف الأمر، بعد أن أحسّ الناس بضرورة جمع القرآن في مكان، ولاسيّما كانت وصيّة نبيّهم صلى الله عليه وآله بجمعه لئلا يضيع، كما ضيّعت اليهود توراتهم.[2]

هذا والقرآن هو المرجع الأوّل للتشريع الإسلامي، والأساس الركين لبناية صرح الحياة الاجتماعيّة في كافّة شؤونها المختلفة آنذاك، ولا يصحّ أن يبقى مفرّقاً على العسب واللخاف أوفي صدور الرجال، ولاسيّما وقد استحرّ القتل بكثير من حامليه، ويوشك أن يذهب القرآن بذهاب حامليه، فقد قتل منهم سبعون في واقعة اليمامة، وفي رواية: أربعمائة.[3]

وهذه الفكرة أبداها عمر بن الخطاب، واقترح على أبيبكر ـ وهو وليّ المسلمين يوم

---

١ ـ سليم بن قيس، ص ١٢٤؛ وبحارالأنوار، ج ٩٢، ص ٤٢، ح ١.

٢ ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٤٥١؛ وبحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٨، ح ٧.

٣ ـ فتح الباري، ج ٧، ص ٤٤٧؛ وفي تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٩٦: قتل من المهاجرين والأنصار من قصبة المدينة يومئذ ثلثمائة وستون ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ثلثمائة ومن التابعين ثلثمائة. وفي كتاب أبيبكر إلى خالد (ص ٣٠٠): دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفّف بعد...

ذاك ـ أن ينتدب لذلك من تتوفّر فيه شرائط القيام بهذه المهمّة الخطيرة، فوقع اختيارهم على زيدبن ثابت، وهو شابّ حدث فيه مرونة حداثة السنّ، وله سابقة كتابة الوحي أيضاً. فقد ملك الجدارة الذاتيّة من غير أن يخشى منه على جوانب الخلافة الفنّيّة في شيء، كما كان يخشى من غيره من كبار الصحابة، وفيهم شيء من المناعة والجموح وعدم الانقياد التامّ لميول السلطة واتجاهاتها آنذاك.

قال زيد: أرسل إليّ أبوبكر بعد مقتل أهل اليمامة، وعمر جالس عنده. قال: إنّ هذا ـ وأشار إلى عمر ـ أتاني وقال: إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وأخاف أن يستحرّ بهم القتل في سائر المواطن فيذهب كثير من القرآن وأشار عليّ بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل مالم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل يراجعني عمر حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت الذي رأى عمر!

قال زيد: قال لي أبوبكر: إنّك شابّ عاقل لانتّهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن واجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلّفوني نقل جبل من مكانه لم يكن أثقل عليّ ممّا كلّفوني به. قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فلم يزل أبوبكر وعمر يلحّان عليّ حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبيبكر وعمر.

قال زيد: فقمت أتتبّع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال.[١]

منهج زيد

قام زيد بتنفيذ الفكرة، فجمع القرآن من العسب واللخاف والأدم والقراطيس، وكانت متفرّقة على أيدي الصحابة أو في صدورهم، وعاونه على ذلك جماعة.

وأوّل عمل قام به: أن وجّه نداء عاماً إلى ملأ الناس: «من كان تلقّى من رسول الله ﷺ

---

١ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٥؛ والمصاحف، ص ٦؛ والكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٦ وج ٢، ص ٢٤٧؛ والبرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٣٣.

شيئاً من القرآن فليأت به».

وألّف لجنة من خمسة وعشرين عضواً ـ كما جاء في رواية اليعقوبي ـ[1] وكان عمر يشرف عليهم بنفسه.

وكان اجتماعهم على باب المسجد يوميّاً، والناس يأتونهم بآي القرآن وسوره كلٌّ حسب ماعنده من القرآن.

وكانوا لايقبلون من أحد شيئاً حتى يأتي بشاهدين يشهدان بصحّة ماعنده من قرآن. سوى خزيمة بن ثابت، أتى بالآيتين آخر سورة براءة، فقبلوهما منه من غير استشهاد، لأنّ رسول الله ﷺ اعتبر شهادته وحده شهادتين.[2]

قال زيد: ووجدت آخر سورة براءة مع [أبي] خزيمة الأنصاري لم أجده مع أحد غيره.[3] وسنتكلّم عمّا جاء بين المعقوفتين.

ومن غريب الأمر: أنّ عمر جاء بآية الرجم وزعمها من القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من اللّه» لكنّه واجه بالرفض، ولم تقبل منه، لأنّه لم يستطع أن يقيم على ذلك شاهدين[4] وبقي أثر ذلك في نفس عمر، فكان يقول ـ أيام خلافته ـ: لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي ـ يعني آية الرجم.[5]

ثمّ أنّ زيداً لم ينظّم سور القرآن ولم يرتّبهنّ كمصحف، وإنّما جمع القرآن في صحف، أي أودع الآيات والسور في صحف وجعلها في ملفّ، فكان جمعاً عن التفرقة والضياع، ومن ثمّ لم يسمّ جمعه مصحفاً.

قال المحاسبي: كان القرآن مفرّقاً في الرقاع والأكتاف والعسب وإنّما أمر الصدّيق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً، وكان ذلك بمنزلة أوراق فيها القرآن منتشراً، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لايضيع منها شيء.[6]

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٢٥.

٢ ـ راجع: أُسد الغابة، ج ٢، ص ١١٤؛ والمصاحف، ص ٦ ـ ٩.

٣ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٦٧-١٦٨.

٥ ـ تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٢٦١؛ والبرهان للزركشي، ج ٢، ص ٣٥؛ والإتقان: ج ٢، ص ٢٦.

٦ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٦٨.

وقال ابن حجر: والفرق بين الصحف (التي جاءت في رواية جمع زيد) والمصحف: أنّ الصحف هي الأوراق المجرّدة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي‌بكر، وكانت سوراً مفرّقة، كلّ سورة مرتّبة بآياتها على حدة، لكن لم يرتّب بعضها إثر بعض، فلمّا نسخت ورتّب بعضها إثر بعض صارت مصحفاً.[١]

وقال أحمد أمين: وفي عهد أبي‌بكر أمر بجمع القرآن، لكن لا في مصحف واحد، بل جمعت الصحف المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره، وأُودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي‌بكر.[٢]

وقال الزرقاني: صحف أبي‌بكر كانت مرتّبة الآيات دون السور.[٣]

وهذه الصحف أُودعت عند أبي‌بكر، فكانت عنده مدّة حياته، ثمّ صارت عند عمر، وبعده كانت عند ابنته حفصة، وفي أيام توحيد المصاحف استعارها عثمان منها ليقابل بها النسخ، ثمّ ردّها إليها، فلمّا توفّيت أخذها مروان ـ يوم كان والياً على المدينة من قبل معاوية ـ من ورثتها وأمر بها فشقّت.[٤]

جاء في نصّ البخاري: ووجدت آخر سورة براءة مع أبي خزيمة... ومن ثمّ يتساءل البعض: من هو أبوخزيمة؟

قال القسطلاني: هو ابن أوس بن يزيد بن حزام، المشهور بكنيته من غير أن يعرف اسمه.[٥]

واحتمل ابن‌حجر: أنّه الحرث بن خزيمة، كما جاء في رواية أبي داود.[٦]

والصحيح أنّه من زيادة الرواي أو الناسخ خطأ، وإنّما هو خزيمة من غير إضافة الأب إليه. بدليل أنّ زيداً قُبل شهادته مكان شهادتين. وليس في الصحابة من يتّسم بهذه السمة الخاصّة سواه[٧] وهكذا جزم الإمام بدرالدين الزركشي أنّه خزيمة الذي جعل رسول‌الله صلى الله عليه وآله شهادته بشهادة رجلين[٨] ومن ثمّ أدرجه في النصّ هكذا بلا إضافة الأب.[٩]

---

١ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٦.

٢ ـ فجر الإسلام، ص ١٩٥.

٣ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٦٢.

٤ ـ إرشاد الساري، ج ٧، ص ٤٤٩.

٥ ـ فتح الباري، ج ٧، ص ٤٤٧.

٦ ـ المصدر، ج ٩، ص ١٢.

٧ ـ الطبقات، ج ٤، ق ٢، ص ٩٠.

٨ ـ البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٣٤.

أو يقال: إنّ أبا خزيمة هو خزيمة بن ثابت، كان يقال له: أبوخزيمة أيضاً، كما جاء في نصّ ابن أشتة: أبوخزيمة بن ثابت.[١٠]

وفي سائر الروايات ـ غير رواية البخاري ـ خزيمة بن ثابت، بلاإضافة الأب،[١١] ومن ثمّ رجّحنا خطأ النسخة.

وسؤال آخر: ماذا كان يعني بالشاهدين في جعلهما شرط قبول النّص القرآني؟ كما جاء في نصّ ابن داود بإسناد معتبر، وتلقّته أئمّة الفنّ بالقبول.[١٢]

قال ابن حجر: وكأنّ المراد بالشاهدين: الحفظ والكتابة.[١٣]

وقال السخاوي: شاهدان يشهدان على أنّ ذلك المكتوب كُتب بين يدي رسول الله ﷺ أو المراد: أنّهما يشهدان بصحّة قراءتها، وأنّها من الوجوه التي نزل بها القرآن.

قال أبوشامة: وكأنّ الغرض من ذلك أن لايكتب إلّا من عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ لامن مجرّد الحفظ.

قال جلال الدين: أو المراد أنّهما يشهدان على أنّ ذلك ممّا عرض على النبيّ ﷺ عام وفاته، وكانت هي القراءة الأخيرة التي اتفق عليها الصحابة ويقرؤها الناس اليوم.[١٤]

قلت: المراد: أنّ شاهدين عدلين ـ أحدهما الذي أتى بالآية وعدلٌ آخر (من يشهد له من الصحابة واحداً أو أكثر) ـ يشهدان بسماعهما قرآناً من النبيّ ﷺ بدليل قبول شهادة خزيمة بن ثابت الذي جاء بآخر سورة براءة، مكان شهادة رجلين. وهكذا جاء في نصّ ابن أشتة، أخرجه في المصاحف عن الليث بن سعد، قال: وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لايكتب آية إلّا بشاهدي عدل وأنّ آخر سورة براءة لم يجدها إلّا مع [أبي] خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، فقال: اكتبوها، فإنّ رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب. وإنّ عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها، لأنّه كان وحده.[١٥]

---

٩ ـ المصدر، ص ٢٣٩.

١٠ ـ الإتقان، ج ١، ص ٥٨، الطبعة الثالثة، مصر، ١٣٧٠.

١١ ـ الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٢٩٦.

١٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٦٨.

١٣ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٢.

١٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٤٢ و ١٦٧.

١٥ ـ المصدر، ص ١٦٨.

شكوك واعتراضات

يقول بلاشير: لماذا اختار أبوبكر لهذه المهمّة الخطيرة مثل زيد وهو شابٌ حدث لم يتجاوز العشرين، في حين وجود ذوي الكفاءات من كبار الصحابة؟ ولنفرض عكورة المورد حالت دون اللجوء إلى شخصيّة كبيرة مثل علي بن أبي طالب فلماذا أغفلوا سائر فضلاء الصحابة ممّن لهم سابقة وعهد قديم بنزول القرآن وصحبة الرسول؟ وهل أنّ واقعة اليمامة أطاحت بجميع قرّاء الصحابة القدامى، ولم يبق سوى زيد وهو حديث العهد بالقراءة وبالقرآن؟ الأمر الذي يثير شكوكنا في القضيّة ولانكاد نصدّق بأنّ زيداً هوالذي جمع القرآن.

أضف إلى ذلك أنّ التاريخ لم يحدّد بالضبط بدء قيامه بهذا العمل، ومتى انتهى منها؟ فلو صحّ أنّه قام بجمع القرآن بعد واقعة اليمامة، لكان بقي من عمر أبي بكر خمسة عشر شهراً، وهذه فترة تضيق بإنجاز هكذا عمل خطير، الذي يتطلّب جهوداً واسعة لجمع المصادر والالتقاء مع رجال كانت عندهم آيات أو سور وكانوا قد انتشروا في البلاد، فإنّ هذا وذاك يتطلّبان وقتاً أوسع وأعواناً كثيرين، ممّا لايمكن إنجازه في تلك المدّة القصيرة.

هذا والرواية تقول: إنّ زيدا جمع القرآن في صحف وأودعها عند أبيبكر، ثمّ صارت عند عمر ثمّ ورثتها ابنته حفصة!

فإذا كانت الغاية من جمع القرآن هي ملاحظة المصلحة العامّة كما ينبّه على ذلك أنّ ورثة أبيبكر لم يختصّوا بتلك الصحف، وإنّما انتقلت إلى عمر، الخليفة بعده، فلماذا خصّصها عمر بابنته حفصة ولم يجعلها في متناول المسلمين عامّاً؟ كما أنّه لِمَ صارت الصحف وديعة اختصاصيّة عند أبيبكر من غير أن تجعل في مكان هو معرض عامّ؟

وهكذا اعترض المستشرق شفالي على قضيّة جمع زيد للقرآن.

والذي يستنتجه بلاشير من شكوكه هذه: أنّ كبار الصحابة هم الذين قاموا بجمع القرآن بعد وفاة الرسولﷺ ورتّبوه ورتّبوا سوره، الأمر الذي كانت وظيفة الخلافة الإسلاميّة أن تقوم به ولكنّها غفلت عنه. وربّما أدّت هذه الغفلة إلى الطعن في القائمين

بأعضادها. ومن ثمّ أوعزت إلى شابّ حدث لايتّهموه أن ينسخ عن بعض مصاحف الصحابة مصحفاً يمتاز به الخليفة أيضاً أمّا أصل القيام بجمع القرآن فلا.[١]

قلت: إذا كانت شرائط إنجاز عمل ـ مهما كان ضخماً ـ متوفّرة، وفي المتناول القريب، فإنّ إنجازه يتحقّق في أقرب وقت ممكن. ولاسيّما إذا كان العمل فوتيّاً يحاول المتصدّون إنجازه في أقرب فرصة ممكنة. وهكذا كانت قضيّة جمع القرآن في الصدر الأوّل..

أمّا المصادر الأوّلية فكانت متوفّرة في نفس المدينة، محفوظة على أيدي الصحابة الأُمناء، وكان حملة القرآن وحفظته موجودين لايفارقون مسجد سيّدهم الذي ارتحل من بينهم في عهد قريب ـ ليل نهار ـ والاتصال بهم سهل التناول. لاسيّما وسور القرآن كانت مكتملة، وبقي جمعها في مكان، لا أكثر. إذن فقد كانت الأسباب مؤاتية والظروف مساعدة. أضف إليها: أنّ السلطة ـ وبيدها القدرة ـ إذا حاولت إنجاز هكذا عمل متهيّيء الأسباب، فإنّه لايستدعي طولا في مدّة العمل بعد توفّر هذه الشروط.

هذا وزيد لم‌يعمل سوى جمع القرآن في مكان وحفظه عن الضياع والانبثاث ولم يعمل فيه نظما ولاترتيباً ولا أيّ عمل فكريّ آخر، فإنّ هكذا عملاً بسيطاً لايتطلّب جهوداً طويلة ولا فراغاً واسعاً.

نعم كانت الغاية من ذلك هي مراعاة المصلحة العامّة: حفظ القرآن عن الضياع، الأمر الذي تحقّق بإيداع الصحف المشتملة على تمام القرآن في مكان أمين ولم تكن يومذاك حاجة إلى مراجعة تلك الصحف بعد أن كان حفظة القرآن وحاملوه منتشرين بين أظهر الناس بكثرة، والناس يومذاك حافظون لجلّ آيات ترتبط والحياة المعيشيّة والسياسيّة وماأشبه.

هذا.. وفي أواخر عهد عمر أصبحت نسخ المصاحف المحتوية على جميع آي القرآن وسوره كثيرة، ومجموعة على أيدي كبار الصحابة الموثوق بهم رأى أنّ الحاجة العامّة إلى

---

١ ـ مترجم وملخّص عن مجلة «خواندنيها» الفارسية في سنتها الثامنة. العدد: ٤٤ بتاريخ ١٣ بهمن ١٣٢٦ هش طهران.

تلك الصحف المودعة عنده هبطت إلى درجة نازلة جدّاً، ومن ثمّ تملّكها هو، ولم تـعد حاجة إليها سوى في دور توحيد المصاحف على عهد عثمان.

جدارة زيد

وأمّا قضيّة اختيار مثل زيد لهكذا عمل خطير..

فقال الزرقاني: إنّ أبابكر رأى بنور الله أن يندب لتحقيق هذا العمل رجلاً من خيرة رجالات الصحابة، هو زيد بن ثابت، لأنّه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جـمع القرآن مالم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حفّاظ القرآن ومـن كـتّاب الوحـي لرسول الله صلى الله عليه وآله وشهد العرضة الأخيرة للقرآن وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله وشدّة ورعه وعظم أمانته وكمال خلقه واستقامة دينه.[1]

تلك نعوت ثمانية عدّدها الزرقاني، زعمها متوفّرة في زيد وحده، لم تجتمع جميعاً في غيره من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله الموجودين آنذاك..!

وهذا مالانكاد نصدّقه بتاتا، لأنّا نعلم أنّ الذين جمعوا القرآن كلّه وحفظوه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وقد كان أمر النّاس بالرجوع إليهم واستقراء القرآن منهم ـ على ماجاء في صحيح البخاري وغيره ـ أربعة، ليس فيهم زيد، هم: عبدالله بن مسعود وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة.[2] وكانوا على وفرة من سائر النعوت التي ذكرها الزرقاني، فلماذا لم يختر أبوبكر أحد هؤلاء؟!

أمّا الذي شهد العرضة الأخيرة فهو ابن مسعود، ولم يكن زيداً..! قال ابن عباس: كان

---

١ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٥٠.

٢ ـ صحيح البخاري، ج ٥، ص ٣٤ وج ٦، ص ٢٢٩؛ والطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١١٠.

وجاء في حديث أنس: لم يجمع القرآن على عهده صلى الله عليه وآله غير أربعة: أبوالدرداء ومعاذبن جبل وزيد بن ثـابت وأبوزيد.. صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٣٠، لكنّه زعم زعمه أنس ومن ثمّ ردّ عليه أئمّة النقد والتمحيص. راجع: فتح الباري، ج ٩، ص ٤٣؛ والإتقان، ج ١، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

وإذا كان زيد ممّن جمع القرآن على عهده صلى الله عليه وآله فلماذا استعظم ذلك عند ما اقترح عليه أبوبكر أن يقوم بجمع القرآن؟!

القرآن يعرض على رسول اللهﷺ في كلّ رمضان مرّة إلّا العام الذي قبض فيه، فإنّه عرض عليه مرّتين، وقد حضره عبدالله بن مسعود، فشهد مانُسخ وبُدّل.[١]

هذا وسابقة ابن مسعود بالقرآن وبعناية الرسولﷺ الذي كان يعلّمه القرآن من فيه معروفة.[٢]

وكان أُبيّ بن‌كعب أقرأ أصحاب النبيّﷺ وقد أمره الله أن يعرض القرآن كلّه على أُبيّ[٣] وكان معروفاً بسيّد القراء.[٤]

وكذلك معاذبن جبل الذي قال الرسولﷺ في حقّه: هو إمام العلماء رتوة ـ أي اعتلاء ـ وخلفه في أهل مكة يفقّههم ويقريهم القرآن.[٥]

الأمر الذي يجعل من زيد مُعوزاً كفاءة سائر الصحابة الكبار! كما أنّ قضية كتابته للوحي كانت عند فقد الآخرين. قال ابن عبدالبرّ: كان النبيّﷺ إذا لم يكن أُبيّ بن‌كعب حاضراً دعى زيداً ليكتب له.[٦] هذا... ولم يأت الزرقاني لما ذكره من نعوت خاصّة بمستند!

نعم، كان الذي يختص به زيد دون سائر رجالات الأصحاب هو امتيازه بصفة جاءت الإشارة إليها في نصّ البخاري: «إنّك شابّ عاقل ـ! ـ لا نتّهمك»! كان ذا نزعة متلائمة مع أهداف السلطة القائمة، وقد أبدى ذلك يوم السقيفة، وقف موقف المدافع الحادّ دون المهاجرين، وهو أنصاريّ قائلا: إنّ رسول اللهﷺ كان من المهاجرين وكنّا أنصاره وإنّما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره... فانبسط وجه أبي‌بكر لهذا الكلام المبتكر وجزّاه خيراً: قال: جزاكم اللّه خيراً من حيّ يا معشر الأنصار، وثبّت قائلكم

---

١ ـ الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٤.

٢ ـ راجع: صحيح البخاري، ج ٥، ص ٣٥ وج ٦، ص ٢٢٩ و ٢٣٠؛ والطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٥؛ والمستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٢٢٠.

٣ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٣٠؛ والطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٣.

٤ ـ تهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٨٧.

٥ ـ الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٧-١٠٨.

٦ ـ الاستيعاب بهامش الاصابة، ج ١، ص ٥١؛ وأُسدالغابة، ج ١، ص ٥٠.

ـ يعني زيداً ـ والله لو قلتم غير هذا ماصالحناكم... وقال له يوماً: أنت عندنا كلّنا أمين.[١]

ولم ينس له ابوبكر هذا الموقف الخطير، ومن ثمّ انتدبه لجمع القرآن، معتمداً عليه كلّ الاعتماد، من غير أنّ يتّهمه في عقله الذي كان يعرف من أين يؤكل الكتف؟!

نعم كان على وفرة من الذكاء، وكان عند مقدم النبيّ ﷺ المدينة ابن أحد عشرة سنة فاستخدمه النبيّ لكتابة رسائله بالعبرية وقراءتها بعد أن كلّفه تعلّم العبريّة والخطّ في مدارس «ماسلة» اليهوديّة آنذاك.[٢]

وتولّى كتابة المصاحف على عهد عثمان أيضاً في نفر من أغلمة قريش، سعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمان بن الحارث.[٣]

مصاحف أُخرى

في الفترة بعد وفاة النبيّ ﷺ قامت جماعة من كبار الصحابة بتأليف القرآن وجمع سوره بين دفّتين، كلّ بنظم وترتيب خاصّ، وكان يسمّى مصحفا.

يقال: أوّل من جمع القرآن في مصحف، أي رتّب سوره ككتاب منظّم، هو سالم مولى أبي حذيفة. فائتمروا فيما يسمّونه؟ فقال بعضهم: سمّوه السفر. فقال سالم: ذلك تسمية اليهود، فكرهوه. فقال: رأيت مثله في الحبشة يسمّى المصحف. فاجتمع رأيهم على أن يسمّود المصحف. أخرجه ابن أشتة في كتاب المصاحف.[٤]

وهكذا قام بجمع القرآن ابن‌مسعود. وأُبيّ بن‌كعب. وأبوموسى الأشعري، وكان سمّى مصحفه: لباب القلوب.[٥] والمقداد بن‌الأسود. ومعاذ بن‌جبل.

ويبدو من حديث العراقيّ الذي جاء إلى عائشة يطلب إليها أن تريه مصحفها أنّ لها أيضاً مصحف كان يخصّها. روى البخاري عن ابن ماهَك، قال: إنّي عند عائشة إذ جاءها

---

١ ـ تهذيب ابن‌عساكر، ج ٥، ص ٢٤٤ و ٤٤٦ وج ٦، ص ١٣٢؛ راجع: المصاحف، ص ٥-١٠، باب جمع القرآن.

٢ ـ الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١١٥ ـ ١١٧. ٣ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦.

٤ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٦٦؛ والمصاحف، ص ١١ ـ ١٤. ٥ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥.

عراقيّ فسألها عن مسائل: منها: أنّه طلب أن تريه مصحفها، قال: يا أُمّ المؤمنين أريـني مصحفك. قالت: لم؟ قال: لعلّي أُوَلّف القرآن عليه، فإنّه يقرأ غير مؤلّف ـ أي غير مـرتّب ولامنظّم، او لاختلاف الناس في نظم آيه وعددها ـ[1] قالت: ومايضرّك أيّه قرأت... إلى أن قال: فأخرجت له مصحفاً وأملت عليه آي السور[2] أي عدد آيها.

وحاز بعض هذه المصاحف مقاماً رفيعاً في المجتمع الإسلامي آنذاك، فكان أهـل الكوفة يقرأون على مصحف عبدالله بن مسعود وأهل البصرة يقرأون على مصحف أبـي موسى الأشعري. وأهل الشام على مصحف أُبيّ بن‌كعب. وأهـل دمشـق خـاصّة عـلى مصحف المقدادبن الأسود. وفي رواية الكامل: أنّ أهل حمص كانوا على قراءة المقداد.[3]

أمد هذه المصاحف

كان أمد هذه المصاحف قصيراً جدّاً انتهى بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، فذهبت مصاحف الصحابة عرضة التمزيق والحرق.

قال أنس بن مالك: أرسل عثمان إلى كلّ أُفق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يحرق.[4]

نعم حظيت بعض هذه المصاحف عمراً أطول، كالصحف التي كانت عـند حـفصة، طلبها عثمان ليقابل بها نسخ المصاحف فأبت أن تدفعها إليه حتى عاهدها ليردّنها عليها[5] ومن ثمّ ردّها وبقيت عندها حتى توفّيت، فأمر بها مروان فشقّت.

ويبدو من رواية أبي بكر بن أبي‌داود: أنّ ولد أُبي بن‌كعب كانوا قد احتفظوا بنسخة من مصحف أبيهم بعيداً عن آخرين. قال: قدم أُناس من العراق يريدون محمد بن‌أُبيّ، فطلبوا إليه أن يخرج لهم مصحف أبيه! فقال: قد قبضه عثمان، فألحّوا عليه ولكن من غير جدوى،

---

١ ـ احتمله ابن‌حجر في فتح الباري، ج ٩، ص ٣٦.
٢ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٨.
٣ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥؛ وصحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٥؛ والمصاحف، ص ١١ ـ ١٤؛ والبرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٣.
٤ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦.
٥ ـ المصاحف، ص ٩.

الأمر الذي كان يدلّ على مبلغ خوفه من الحكم القائم، فلم يخرجه للعراقيّين.[١]

وفي رواية الطبري: أنّ ابن‌عباس دفع مصحفاً إلى أبي‌ثابت، ووصفه بأنّه على قراءة أُبي بن كعب. وبقي إلى أن انتقل إلى نصير بن أبي‌الأشعث الأسديّ الكوفي فأتاه يحيى بن عيسى الفاخوري يوماً وقرأ فيه: «فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى»[٢] الأمر الذي يدلّ على أنّ هذا المصحف عاش حتى أواخر القرن الثاني، لأنّ يحيى بن عيسى توفي عام ٢٠١.[٣]

قال الفضل بن‌شاذان: أخبرنا الثقة من أصحابنا، قال: كان تأليف السور في قراءة أُبيّ بن‌كعب بالبصرة في قرية يقال لها «قرية الأنصار» على رأس فرسخين عند محمدبن عبدالملك الأنصاري (توفي ١٥٠). أخرج إلينا مصحفاً قال: هو مصحف أُبيّ. رويناه عن آبائنا، فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل وعدد الآي.[٤]

وجاء في روايات أهل البيت عليهم السلام قول الصادق عليه السلام: أمّا نحن فنقرأ على قراءة أُبيّ ـ أي ابن‌كعب.[٥]

أمّا ابن مسعود فامتنع أن يدفع مصحفه إلى رسول الخليفة، وظلّ محتفظاً به في صرامة بالغة أدّت إلى مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين عثمان، كان فيها إبعاده عن عمله وأخيراً حتفه.

عند ماجاء رسول الخليفة إلى الكوفة لأخذ المصاحف، قام ابن‌مسعود خطيباً قائلا: أيّها الناس إنّي غالّ مصحفي، ومن استطاع أنّ يغلّ مصحفاً فليغلل، فإنّه من غلّ يأت يوم القيامة بما غلّ ونعم الغلّ المصحف.[٦]

وهكذا كان يحرّض الناس على مخالفة الحكم القائم، الأمر الذي جرّ عليه الويلات، فأشخصه الخليفة إلى المدينة وجرى بينهما كلام عنيف انتهى إلى ضربه وكسر أضلاعه

---

١ ـ المصدر، ص ٢٥.

٢ ـ جامع البيان، ج ٥، ص ٩.

٣ ـ تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٢٦٣.

٤ ـ الفهرست لابن‌النديم، ص ٤٦.

٥ ـ وسائل الشيعة، باب ٧٤ من أبواب القراءة في الصلاة، ج ٤، ص ٨٢١، ح ٤.

٦ ـ المصاحف، ص ١٥.

وإخراجه من المسجد بصورة مزرية.

روى الواقدي بإسناده وغيره: أنّ ابن مسعود لمّا استقدم المدينة دخلها ليلا، وكانت ليلة جمعة، فلمّا علم عثمان بدخوله، قال: أيّها النّاس إنّه قد طرقكم الليلة دويبة، من يمشي على طعامه يقئ ويسلح.

قال ابن مسعود: لست كذلك ولكنّني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر، وصاحبه يوم أُحد، وصاحبه يوم بيعة الرضوان، وصاحبه يوم الخندق، وصاحبه يوم حنين...

وصاحت عائشة: يا عثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ؟! فقال عثمان: اسكتي.

ثمّ قال لعبدالله بن زمعة بن الأسود: أخرجه إخراجاً عنيفاً! فأخذه ابن زمعة، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد، فضرب به الأرض، فكسر ضلعا من أضلاعه. فقال ابن مسعود: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان.

قال الراوي: فكأنّي أنظر إلى حموشة ساقي عبدالله بن مسعود، ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان، حتى أُخرج من المسجد، وهو يقول: أنشدك اللّه ألّا تخرجني من مسجد خليلي رسول الله ﷺ.[1]

قيل: واعتلّ ابن مسعود فأتاه عثمان يعوده، فقال له: ما كلام بلغني عنك؟ قال: ذكرت الذي فعلته بي، إنّك أمرت بي فوطئ جوفي فلم أعقل صلاة الظهر ولا العصر، ومنعتني عطائي، قال عثمان: فإنّي أُقيدك من نفسي، فافعل بي مثل الذي فعل بك... وهذا عطاؤك فخذه. قال ابن مسعود: منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطيني وأنا غنيّ عنه! لا حاجة لي به... فأقام ابن مسعود مغاضبا لعثمان حتى توفّي، وصلّى عليه عمّار بن ياسر في ستر من عثمان. وهكذا لمّا مات المقداد صلّى عليه عمّار بوصيّة منه، فاشتدّ غضب عثمان على عمّار. وقال: ويلي على ابن السوداء أما لقد كنت به عليما![2]

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ٣، ص ٤٣ ـ ٤٤.

٢ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٦٠.

هذا... ورغم ذلك كلّه فقد بقي مصحفه متداولا إلى أيام متأخّرة: يقول ابن النديم (٢٩٧ ـ ٣٨٥): رأيت عدّة مصاحف ذكر نسّاخها أنّها مصحف عبدالله بن مسعود، وقد كتب بعضها منذ مائتي سنة.[١]

وهكذا يبدو من الزمخشري: أنّ هذا المصحف كان معروفا حتى القرن السادس، لأنّه يقول: وفي مصحف ابن مسعود كذا... وظاهر هذه العبارة أنّه هو وجدها في نفس المصحف، لأنّه منقول إليه.[٢]

وصف عامّ عن مصاحف الصحابة

كان الطابع العامّ الذي كانت المصاحف آنذاك تتسم به هو تقديم السور الطوال على القصار نوعاًما في ترتيب منهجي خاصّ:

١ ـ ابتداء من السبع الطوال: البقرة، آل‌عمران، النساء، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس.[٣]

٢ ـ ثمّ المئين، وهي السور تربو آياتها على الماءة، وهي ماتقرب من اثنتي عشرة سورة.

٣ ـ ثمّ المثاني، وهي السور لاتبلغ آياتها المائة، وهي ماتقرب من عشرين سورة. وسمّيت مثاني لأنّها تثنى أي تكرّر قراءتها أكثر ممّا تقرأ غيرها من الطوال والمئين.

٤ ـ ثمّ الحواميم، وهي السور بدأت بـ«حم»: سبع سور.

٥ ـ ثمّ الممتحنات، وهي تقرب من عشرين سورة.

٦ ـ ثمّ المفصّلات، تبتدئ من سورة الرحمان إلى آخر القرآن. وسمّيت بذلك لقرب فواصلها وكثرة فصولها.

---

١ ـ الفهرست، ص ٤٦.
٢ ـ الكشاف، ج ٢، ص ٤١٠ وج ٤، ص ٤٩٠.
٣ ـ تلك السبع الطوال في مصاحف الصحابة، غير أنّ عثمان عمد إلى تقديم سورة الأنفال فزعمها مع سورة براءة سورة واحدة جعلهما من السبع الطوال. وسيأتي الكلام في ذلك. راجع: الإتقان، ج ١، ص ١٧٢-١٧٣؛ والمستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٢٢١.

هذا هو الطابع العامّ لمصاحف الصحابة، والنظر في الأكثر إلى مصحف ابن مسعود. وإن كانت المصاحف تختلف مع بعضها في تقديم بعض السور على بعض وتأخيرها عنها، أو يزيد عدد سور بعضها على بعض. على تفصيل يأتي.

وصف مصحف ابن مسعود

كان تأليف مصحف عبدالله بن مسعود وفق الترتيب التالي:[1]

١ ـ السبع الطوال: البقرة، النساء، آل‌عمران، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس.

٢ ـ المئين: براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، الإسراء، الأنبياء، طه، المؤمنون، الشعراء، الصافّات.

٣ ـ المثاني: الأحزاب، الحجّ، القصص، النمل، النور، الأنفال، مريم، العنكبوت، الروم، يس، الفرقان، الحجر، الرعد، سبأ، فاطر، إبراهيم، ص، محمّد صلى الله عليه وآله، لقمان، الزمر.

٤ ـ الحواميم: المؤمن، الزخرف، فصّلت، الشورى، الأحقاف، الجاثية، الدخان.

٥ ـ الممتحنات: الفتح، الحديد (ن)، الحشر، السجدة، ق (ن)، الطلاق، القلم، الحجرات، الملك، التغابن، المنافقون، الجمعة، الصفّ، الجنّ، نوح، المجادلة، الممتحنة، التحريم.

٦ ـ المفصّلات: الرحمان، النجم، الطور، الذاريات، القمر، الحاقّة (ن)، الواقعة، النازعات، المعارج، المدّثر، المزّمل، المطففين، عبس، الإنسان، المرسلات، القيامة، النبأ، التكوير، الانفطار، الغاشية، الأعلى، الليل، الفجر، البروج، الانشقاق، العلق، البلد، الضحى، الطارق، العاديات، الماعون، القارعة، البيّنة، الشمس، التين، الهمزة، الفيل، قريش، التكاثر، القدر، الزلزال، العصر، النصر، الكوثر، الكافرون، المسد، التوحيد، الانشراح.

---

١ ـ على ماجاء في نصّ ابن أشتة (الإتقان، ج ١، ص ١٨١) وأكملنا ما سقط منه على نصّ ابن النديم (الفهرست: ص ٤٥) وأرمزنا له بعلامة (ن).

تلك مائة واحدى عشرة سورة. بإسقاط سورة الفاتحة وسورتي المعوذتين. على ما سنذكر.

جهة أُخرى ـ اختصّ بها مصحف ابن‌مسعود ـ إسقاطه سورة الفاتحة، لا اعتقاداً أنّها ليست من القرآن، بل لأنّ الثبت في المصحف كان قيداً للسور دون الضياع، وهذه السورة (الفاتحة) مأمونة عن الضياع بذاتها، لايزال المسلمون يقرأونها كلّ يوم عشر مرّات أو أكثر. ذكره ابن قتيبة فيما يأتي.

أو لعلّه رآها عدلاً للقرآن في قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ».[١] والسبع المثاني هي سورة الفاتحة.

وعلى أي تقدير فقد اتفق أئمّة الفن على خلوّ مصحفه من سورة الحمد، نقل ذلك ابن النديم عن الفضل بن شاذان، وقال: إنّه أحد الأئمّة في القرآن والروايات. ومن ثمّ يرجّح ما ذكره الفضل على ماشهده بنفسه.[٢]

وقال جلال‌الدين السيوطي: وأمّا إسقاطه الفاتحة فقد أخرجه أبوعبيد بسند صحيح[٣] وكان قد ذكر الرواية قبل ذلك.[٤]

وقال ابن‌قتيبة: وأمّا إسقاطه الفاتحة من مصحفه فليس لجهله بأنّها من القرآن، كيف وهو أشدّ الصحابة عناية بالقرآن. ولم يزل يسمع رسول‌الله ﷺ يؤمّ بها، ويقول: لاصلاة إلّا بسورة الحمد، وهي السبع المثاني وأُمّ الكتاب. لكنّه ذهب فيما يظنّ أهل النظر (المحقّقون) إلى أنّ القرآن إنّما كتب وجمع بين اللوحين (الدفّتين) مخافة الشكّ والنسيان والزيادة والنقصان، ورأى أنّ ذلك مأمون على سورة الحمد، لقصرها ولأنّها تثنى في كلّ صلاة، ولوجوب تعلّمها على كلّ مسلم. فلمّا أمن عليها العلّة التي من أجلها كتب المصحف، ترك كتابتها، وهو يعلم أنّها من القرآن.[٥]

---

١ ـ الحجر ١٥: ٨٧.

٢ ـ الفهرست، ص ٤٦.

٣ ـ الإتقان، ج ١، ص ٢٢٢.

٤ ـ المصدر، ص ١٨٤.

٥ ـ تأويل مشكل القرآن، ص ٤٧ ـ ٤٩.

جهة ثالثة: إسقاطه سورتي المعوذتين (الفلق والناس)، اعتقاداً منه أنّهما عوذة يتعوّذ بهما لدفع العين أو السحر، كما ورد أنّ النبيّ ﷺ تعوّذ بهما من سحر اليهود، وقال: ما تعوّذ متعوّذ بأفضل من «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...».[١]

وقد صحّ الإسناد إلى ابن مسعود: أنّه كان يحكّ المعوذتين من المصاحف، ويقول: لاتخلطوا بالقرآن ماليس منه، إنّهما ليستا من كتاب الله، إنّما أمر النبيّ ﷺ أن يتعوّذ بهما. وكان ابن مسعود لايقرأ بهما في صلاته.[٢]

هذا.. وقد أنكر بعضهم صحّة هذه النسبة إلى ابن مسعود، كالرازي وابن حزم ـ فيما نقل عنهما ابن حجر ـ وردّ عليهما بصحّة إسناد الرواية قال: والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لايقبل. بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل.[٣]

وأخذ الباقلاني في بيان هذا التأويل، قال: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنّما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنّه كان يرى أن لايكتب في المصحف شيئاً إلّا أن كان النبيّ ﷺ أذن في كتابته فيه. وكأنّه لم يبلغه الإذن في ذلك، فهذا تأويل منه وليس جحداً لكونهما قرآناً.

قال ابن حجر: وهذا تأويل حسن، إلّا أن الرواية الصحيحة الصريحة التي ذكرتها تدفع ذلك، حيث جاء فيها: ويقول إنّهما ليستا من كتاب الله. نعم يمكن حمل لفظ كتاب الله على المصحف، فيتمشّى التأويل المذكور.[٤]

قلت: هذا التأويل الأخير أيضاً لايلتئم مع قوله: «لاتخلطوا بالقرآن ماليس منه».[٥]

(ملحوظة): قد يزعم البعض أنّ مانسب إلى ابن مسعود يناقض القول بتواتر النصّ القرآني!

لكن غير خفيّ: أنّ ابن مسعود لم ينكر كونهما وحياً ـ بمعنى العامّ ـ وإنّما أنكر كونهما

---

١ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٦ ـ ٤١٧.

٢ ـ فتح الباري، ج ٨، ص ٥٧١؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٦.

٣ ـ فتح الباري، ج ٨، ص ٥٧١.

٤ ـ المصدر.

٥ ـ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٦.

وحياً قرآنياً ـ بسمة كونهما من كتاب الله ـ فالاتفاق على أنّ المعوذتين وحي من الله حاصل من الجميع، وإنّما الاختلاف جاء في وصفهما الخاصّ: هل هما من كتاب الله (القرآن) أم لا؟. وهذا لايضرّ بعد الاتفاق المذكور.

جهة رابعة: قال صاحب الإقناع: كانت البسملة ثابتة لبراءة في مصحف ابن مسعود. قال: ولا يؤخذ بهذا.[١]

ويعني بكلامه الأخير: أنّ ابن مسعود كانت له مخالفات شاذّة، نبذها الصحابة والتابعون. ولعلّها كانت اجتهادات شخصيّة خطّأه الآخرون عليها. كمذهبه في التطبيق.[٢]

قال ابن حزم: والتطبيق في الصلاة لايجوز، لأنّه منسوخ. وكان ابن مسعود يفعله، وكان يضرب الأيدي على تركه. وكذلك كان أصحابه يفعلونه. وفي ذلك قال ابن مسعود ـ فيما روينا عنه ـ: علّمنا رسول الله ﷺ الصلاة فكبّر. فلمّا أراد أن يركع طبّق يديه بين ركبتيه وركع. فبلغ ذلك سعد بن أبي وقاص، فقال: صدَقَ أخي، قد كنّا نفعل هذا، ثمّ أمرنا بهذا، أي الإمساك بالركب.[٣]

قال الإمام الرازي ـ بشأن مخالفات ابن مسعود ـ: يجب علينا إحسان الظنّ به، وأن نقول: إنّه رجع عن هذه المذاهب.[٤]

جهة خامسة: اختلاف قراءته مع النصّ المشهور في كثير من الآي. وهذا الاختلاف كان يرجع إلى تبديل كلمة إلى مرادفتها في النصّ وكان ذلك غالبيّاً لغرض الإيضاح والإفهام.

والمعروف من مذهب ابن مسعود: توسيعه في قراءة ألفاظ القرآن، فكان يجوّز أن تبدّل كلمة إلى أُخرى مرادفتها، إذا كانت الثانية أوضح ولا تغيّر شيئاً من المعنى الأصلي.

قال: لقد سمعت القرّاء ووجدت أنّهم متقاربون، فاقرأوا كما عُلّمتم ـ أي كيفما علّمكم

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٨٤.

٢ ـ هو: تطبيق بطن الكفّين إحداهما على الأُخرى وجعلهما بين الركبتين حالة الركوع.

٣ ـ المحلّى، ج ٣، ص ٢٧٤؛ وراجع: لسان العرب، مادة طبق.

٤ ـ التفسير الكبير، ج ١، ص ٢١٣.

القارئ الأُستاذ ـ فهو كقولكم: هلمّ وتعال.[١]

وكان يعلّم رجلا أعجميّاً القرآن، فقال: «إِنَّ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ».[٢] فكان يقول الرجل: طعام اليتيم، ولم يستطع أن يقول: الأثيم. فقال له ابن مسعود: قل: طعام الفاجر. ثمّ قال ابن مسعود: إنّه ليس من الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان «العليم» «الحكيم». بل أن يضع آية الرحمة مكان آية العذاب.[٣]

ومن هذا القبيل مارواه الطبري: كان ابن مسعود يقول: إلياس هو إدريس، فقرأ: وإنّ إدريس لمن المرسلين. وقرأ: سلام على إدراسين.[٤]

وذكر ابن‌قتيبة: أنّ ابن مسعود كان يقرأ: «وتكون الجبال كالصوف المنفوش» بدل «الْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ»[٥] لأنّ العهن هو الصوف، وهذا أوضح وآنس للإفهام.

هذا.. ومن ثمّ تعوّد بعض المفسّرين القدامى، إذا أشكل عليهم فهم كلمة غريبة في النصّ القرآني، أن يراجعوا قراءة ابن‌مسعود في ذلك، فلابدّ أنّه أبدلها بكلمة أُخرى مرادفة لها أوضح وأبين للمقصود الأصلي.

قال مجاهد: كنّا لاندري ما الزخرف، حتى رأيناه في قراءة ابن مسعود: أو يكون لك بيت من ذهب.[٦]

وفسّر الزمخشري اليدين في قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» باليمينين، لأنّ ابن مسعود قرأ: فاقطعوا أيمانهم.[٧]

وذكر الغزالي من آداب البيع: إقامة لسان الميزان، فإنّ النقصان والرجحان يظهر

---

١ ـ معجم الأُدباء لياقوت الحموي، ج ٤، ص ١٩٣، رقم ٣٣، ط دار المأمون، في ترجمة أحمد بن‌محمد بن‌يزداد بن‌رستم. وفي طبعة مرجليوث، رقم ٢٤، ج ٢، ص ٦٠ وطبعة بيروت، ج ١، ص ٥٩٨، رقم ١٥٠؛ وراجع ـ أيضاً ـ: النشر في القراءات العشر، ج ١، ص ٢١؛ والإتقان، ج ١ ص ١٣٤.

٢ ـ الدخان ٤٤: ٤٣-٤٤.

٣ ـ التفسير الكبير، ج ١، ص ٢١٣.

٤ ـ الصافات: ١٢٣ و ١٣٠. راجع: جامع البيان، ج ٢٣، ص ٦٢.

٥ ـ القارعة ١٠١: ٥. راجع: تأويل مشكل القرآن، ص ٢٤.

٦ ـ الإسراء ١٧: ٩٣. راجع: جامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٩.

٧ ـ المائدة ٥: ٣٨. راجع: الكشاف، ج ١، ص ٦٣٢.

بميله، واستشهد بقراءة ابن مسعود: وأقيموا الوزن باللسان ولاتخسروا الميزان، قال: لأنّ القسط ـ في القراءة المشهورة ـ إنّما يقوم بلسان الميزان.[١]

وفي بعض طبعات إحياء العلوم صحّحوه وفق النصّ المشهور، ففاتهم غرض استشهاد المؤلّف.

وهكذا قرأ: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمانِ ـ صمتا ـ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً»[٢] بدل «صَوْماً» لأنّ الصوم المنذور كان صوم صمت.

وقرأ: «فَلَيسَ عَلَيهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ جلابيبهنّ غَيْرَ مُتَبَرِّجات»[٣] بدل «ثيابهنّ». إذا كان المقصود من وضع الثياب هي الجلابيب لا غيرها[٤].

وقرأ: «إِنِّي أراني أعْصِرُ عنباً» بدل «أعصِرُ خمراً»[٥]. لأنّ المعصور هو العنب[٦].

وقرأ: «وثومها» بدل «وفومها»[٧]. لأنّهما بمعنىً.[٨]

وقرأ: «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذينَ آمَنُوا ـ أمْهلونا ـ نَقْتَبِس مِن نُورِكُمْ»[٩] بدل «انْظُرونا» لأنّ المقصود هو الإمهال.

وقرأ: «إن كانَتْ إلّا ـ زقية ـ واحِدَةً»[١٠] بدل «صَيْحَةً واحِدَةً».

قال العلّامة الطبرسي: هو من زقى الطير: إذا صاح. وكأنّ ابن مسعود استعمل هنا صياح الديك تنبيهاً على أنّ البعث بما فيه من عظيم القدرة واستثارة الموتى من القبور، سهْل على اللّه تعالى كزُقية زقاها طائر. فهو كقوله تعالى: «ماخَلْقُكُمْ وَلابَعْثُكُمْ إلّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ».[١١]

---

١ ـ الرحمان ٥٥: ٩. راجع: إحياء العلوم، ج ٢، ص ٧٩.

٢ ـ مريم ١٩: ٢٦. راجع: الكشاف، ج ٣، ص ١٤. و تفسير البحر المحيط، ج ٦، ص ١٨٥.

٣ ـ النور ٢٤: ٦٠.

٤ ـ الدرالمنثور، ج٦، ص٢٢٢.

٥ ـ يوسف ١٢: ٣٦.

٦ ـ المحتسب لابن جنّي، ج٢، ص١٥.

٧ ـ البقرة ٢: ٦١.

٨ ـ المحتسب، ج١، ص١٧١. ومعاني القرآن للفراء، ج١، ص٤١.

٩ ـ الحديد ٥٧: ١٣. راجع: الإتقان، ج ١، ص ١٣٤.

١٠ ـ يس ٣٦: ٢٩ و٥٣.

١١ ـ لقمان ٣١: ٢٨. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٢١.

(ملحوظة): قد يأخذ البعض من هذا الاختلاف في قراءة النصّ القرآني ذريعة للطعن عليه، كما جاء في كلام المستشرق الألماني العلّامة «جولد تسيهر» في كتابه: مـذاهب التفسير الإسلامي، الذي وضعه لهذا الغرض.

لكنّها محاولة فاشلة بعد أن علمنا أنّ الاختلاف كان في مجرّد القراءة خارج النصّ الثابت في المصحف. فالنصّ القرآني شيء لم يختلف فيه اثنان، وهو المثبت في المصحف الشريف منذ العهد الأوّل الإسلامي حتى العصر الحاضر، ومن ثمّ لم يمسّوه حتى لإصلاح أخطائه الإملائيّة. تحفّظاً على نصّ الوحي يبقي بلاتحوير.

نعم جاءت قضيّة مراعاة جانب التسهيل على الأُمّة، من بعض السلف، لتجوّز القراءة بأيّ نحو كانت، مادامت تؤدّي نفس المعنى الأصلي من غير تحريف فـيه. الأمـر الذي يكون خارج النّص المثبت قطعيّاً.

ومن ثمّ أجاز ابن‌مسعود أن ينطق ذلك الأعجمي بدل طعام الأثيم بطعام الفـاجر.[١] فاستبدل من النّص الصعب التلفّظ بالنسبة إليه، لفظا أسهل... لكنّه لم يثبته في‌المصحف كنّص قرآني. ولم يكن ذلك منه تجويز التبديل في نصّ الوحي.. حاشاه!

وهكذا كان تجويز عائشة لذلك العراقي: ومايضرّك أيّه قرأت.[٢] تـوسعة فـي مـقام القراءة فقط، لاتوسعة في ثبت النصّ القرآني الذي هو وحـي السـماء، فـي المـصحف، ولاشكّ أنّ مصحفها كان ذا ثبت واحد قطعاً.

جهة سادسة: ربّما كان ابن مسعود يزيد في لفظ النّص زيادات تفسيريّة كانت أشبه بتعليقات إيضاحيّة أُدرجت ضمن النّص الأصليّ.

وهذا أيضاً كان مبنيّاً على مذهبه: التوسعة في اللفظ، لغرض الإيضاح، مع التحفّظ على نفس المعنى الأصيل.

وهكذا اعتبر أئمّة الفنّ هذه الزيادات في قراءة ابن مسعود تفسيرات. ولم يعتبروها نصّاً قرآنياً منسوباً إلى ابن مسعود، ليكون اختلاف بين السلف في نصّ الوحي..!

---

١ ـ تقدم ذلك في «وصف مصحف ابن مسعود، الجهة الخامسة».

٢ ـ راجع: صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٨.

نعم كانت هذه التوسعة من ابن مسعود محاباة غير مستحسنة بالنصّ القرآني، ربّما كانت تؤدّي بالنّص الأصلي وتجعله عرضة للتحريف والتغيير، الأمر الذي كان يتنافى تماماً مع تلك الحيطة والحذر على نصّ القرآن النازل من السماء. وقد تمسّك بعض الأغبياء بذلك وجعله دليلاً على جواز إدخال ماليس من القرآن في القرآن إذا كان الغرض هو التفسير والإيضاح [1] لكنّه تفريع على أصل باطل.

وعلى أي تقدير فقد نسب إلى ابن مسعود زيادات جاءت في قراءته، نذكر منها مايلي، والزيادة هي التي بين معقوفتين:

قرأ: «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً [فاختلفوا] فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فيما اخْتَلَفُوا فيهِ». [2]

وهذه الزيادة ترفع إبهاماً كان في وجه الآية: هل كانت بعثة الأنبياء سبباً للاختلاف، أم كان العكس؟ وذيل الآية يعيّن هذا الأخير. وجاءت الزيادة توضّح هذا الجانب أكثر.

وقرأ: «النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [وهو أب لهم] وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ» [3] فجاءت الزيادة انسجاماً مع ذي الآية، وتوضيحاً لسبب ولايته صلى الله عليه وآله على المؤمنين.

وقرأ: «وَجِئْتُكُمْ [بآيات ـ والنصّ] بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا الله [لما جئتكم به من الآيات] وَأَطيعُونِ [فيما أدعوكم إليه]». [4]

وقرأ: «وَامْرَأَتُهُ قائِمَة [وهو قاعد] فَضَحِكَتْ». [5]

وقرأ: «مايَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاثَةٍ [إلّا اللّه ـ والنصّ] إِلّا هُوَ رابِعُهُمْ [ولا أربعة إلّا الله خامسهم] وَلا خَمْسَةٍ [إلّا اللّه ـ والنصّ] إِلّا هُوَ سادِسُهُمْ [وَلا أقلّ ـ والنصّ] وَلا أَدْنىٰ مِنْ ذٰلِك وَلا أَكْثَرَ [إلّا اللّه ـ والنصّ] إِلّا هُوَ مَعَهُمْ [إذا انتجوا]». [6]

وقرأ: «إِنَّ هٰذا أخي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً [أُنثى] وَلِيَ نَعْجَةٌ [أُنثى]». [7]

---

١ ـ راجع: الزرقاني على الموطأ، ج ١، ص ٢٥٥.
٢ ـ البقرة ٢: ٢١٣. راجع: الكشاف، ج ١، ص ٢٥٥.
٣ ـ الأحزاب ٣٣: ٦. راجع: الكشاف، ج ٣، ص ٥٢٣.
٤ ـ آل‌عمران ٣: ٥٠. راجع: الكشاف، ج ١، ص ٣٦٥.
٥ ـ هود ١١: ٧١. راجع: الكشاف، ج ٢، ص ٤١٠.
٦ ـ المجادلة ٥٨: ٧. راجع: الكشاف، ج ٤، ص ٤٩٠.
٧ ـ ص ٣٨: ٢٣. راجع: الكشاف، ج ٤، ص ٨٥؛ وتأويل مشكل القرآن، ص ٣٨.

وقرأ: «وَأَنْذِرْ عَشيرتكَ الأَقْرَبينَ [ورهطك منهم المخلصين]».[١]

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أنّه قال: كنّا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله «يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكْ [أنّ عليّاً مولى المؤمنين] وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ».[٢]

والظاهر: أنّه أراد تفسير الآية، وأنّها كانت على عهده صلى الله عليه وآله هكذا تفسّر.

وقرأ: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ» ـ بضمّ التاء ـ[٣] والقراءة المشهورة هي بالفتح.

وأنكر ذلك شريح وقال: إنّ الله لايعجب، إنّما يعجب من لاعلم له. قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: إنّ شريحا كان معجبا برأيه، إنّ عبدالله قرأ «بل عجبتُ» بالضمّ، وعبدالله أعلم من شريح. وإضافة العجب إلى الله وردّ الخبر به كقوله: عجب ربّكم من شابّ ليس له صبوة. وعجب ربّكم من إلّكم وقنوطكم. ويكون ذلك على وجهين: عجب ممّا يرضى. ومعناه: الاستحسان والخبر عن تمام الرضا. وعجب ممّا يكره، ومعناه: الإنكار له والذمّ.[٤] والإلّ ـ بكسر الهمزة وتشديد اللام: شدّة اليأس أو رفع الصوت بالبكاء على إثره. وصحّحنا الحديث على نهاية ابن الأثير.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله وإنّما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء والله تعالى لايجوز عليه الروعة؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يجرّد العجب لمعنى الاستعظام. والثاني: أن يتخيّل العجب ويفرض. وقد جاء في الحديث: «عجب ربّكم من إلّكم وقنوطكم وسرعة إجابته إيّاكم».[٥]

وقد أوردنا هذا البحث هنا كنموذج هو دليل على مبلغ اهتمام المفسّرين واعتناء الأئمّة بقراءات ابن مسعود الرجل العظيم.

---

١ ـ الشعراء ٢٦: ٢١٤. راجع: مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٠٦؛ وبحارالأنوار، ج ١٨، ص ١٦٤.

٢ ـ المائدة ٥: ٦٧. راجع: الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٢٩٨ و ج ٣، ص ١١٧ (دارالفكر).

٣ ـ الصافات ٣٧: ١٢. راجع: الكشاف، ج ٤، ص ٣٨؛ وجامع البيان، ج ٢٣، ص ٢٩.

٤ ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٤٠.

٥ ـ الكشاف، ج ٤، ص ٣٧.

ومن غريب قراءته النقص أيضاً قرأ: «والذّكر والأُنثى» بدل «وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثىٰ».[١]

روى البخاري في صحيحه: قال: قدم أصحاب عبدالله إلى الشام، وفيهم علقمة. فجاءهم أبوالدرداء وقال: أيّكم يقرأ على قراءة عبدالله؟ قالوا: كلّنا. قال: فأيّكم يحفظ؟ فأشاروا إلى علقمة. قال: كيف سمعته يقرأ «واللّيلِ إذا يَغْشَىٰ...»؟ قال علقمة: «والذَّكر والأُنثىٰ» قال أبوالدرداء: أشهد أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني على أن أقرأ «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثىٰ» والله لا أُتابعهم.[٢]

وأسند الزمخشري هذه القراءة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله.[٣]

وفي رواية الأعمش عن ابن مسعود: أنّه قرأ: «حم سق» بلاعين. وهكذا قرأ ابن عباس أيضاً.[٤]

وصف مصحف أُبيّ بن كعب

كان ترتيب مصحف أُبيّ قريباً من مصحف ابن مسعود، غير أنّه قدّم سورة الأنفال، وجعلها بعد سورة يونس وقبل سورة براءة. وقدّم سورة مريم والشعراء والحج على سورة يوسف. وهكذا ممّا سيتبيّن في الجدول الآتي.

وقد اشتمل مصحفه على مائة وخمس عشرة سورة. جعل سورتي الفيل وقريش سورة واحدة. وزاد سورتي الخلع والحفد، وسنذكرهما.

وكان مصحفه مفتتحاً بسورة الحمد، ومختتما بالمعوذتين، كمصحفنا اليوم.[٥]

جهة أُخرىٰ: اشتمال مصحفه على دعاءي القنوت، باعتبارهما سورتين فيما زعم.

أمّا الخلع فهي: «بسم الله الرحمان الرحيم. اللّهمّ إنّا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك

---

١ ـ الليل ٩٢: ٣.

٢ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢١١ وج ٥، ص ٣٥.

٣ ـ الكشاف، ج ٤، ص ٧٦١.

٤ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢١.

٥ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٨١ و ١٨٤.

الخير. ولانكفرك. ونخلع ونترك من يفجرك». وأمّا الحفد فهي: «بسم‌الله الرحمان الرحيم. اللّهمّ إيّاك نعبد ولك نصلّي ونسجد. وإليك نسعى ونحفد. نخشى عذابك ونرجو رحمتك. إنّ عذابك بالكفّار ملحق».[١]

جهة ثالثة: كان قد ترك البسملة بين سورتي الفيل وقريش، باعتبارهما سورة واحدة[٢] وقد ورد في أحاديث أهل البيت عليهم‌السلام أيضاً أنّهما سورة واحدة، ولكن مع فصل البسملة بينهما. فإذا قرأ المصلّي «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ» يجب أن يقرأ معها «لإِيلافِ قُرَيْشٍ». فهما سورة واحدة قراءة ولكنّهما سورتان ثبتاً، على عكس مافي مصحف أُبيّ.

روى العياشي عن أبي‌العباس عن أحدهما (الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما‌السلام) قال: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ، وَلإِيلافِ قُرَيْشٍ، سورة واحدة.[٣]

وهكذا روينا بشأن سورتي الضحى والانشراح أنّهما سورة واحدة.[٤]

وقد أفتى بذلك علماؤنا الأعلام. قال المحقّق الحلّي رحمه‌الله: روى أصحابنا أنّ الضحى وألم نشرح سورة واحدة، وكذا الفيل ولإيلاف. ولايجوز إفراد إحداهما عن صاحبتها في كلّ ركعة.[٥]

وفي مجمع البيان: روي أنّ أُبيّ بن‌كعب لم‌يفصل بينهما في مصحفه.[٦]

جهة رابعة: كان افتتح سورة الزمر في مصحفه بـ«حم». فيكون عدد الحواميم عنده ثمانية. أخرجه ابن‌أشتة في كتاب المصاحف، قال: ثمّ الزمر أوّلها حم.[٧]

جهة خامسة: اختلاف قراءته مع النّص المشهور على نحو اختلاف قراءة ابن مسعود، وإليك نماذج من قراءاته الشاذّة:

---

١ ـ المصدر، ج ١، ص ١٨٥.
٢ ـ المصدر، ص ١٨٦.
٣ ـ وسائل الشيعة، باب ١٠ من أبواب القراءة في الصلاة، ج ٤، ص ٧٤٤، ح ٦.
٤ ـ المصدر، ح ٤.
٥ ـ جواهر الكلام، ج ١٠، ص ٢٠.
٦ ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٤.
٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٨١.

قرأ: «قالُوا يا وَيْلَنا [مَنْ هبنا ــ والنصّ] مَن بَعَثَنا مِن مَرْقَدِنا».[١]

وقرأ: «كُلَّما أَضَاءَ لَهُمْ [مرّوا فيه. وقرأ ــ أيضاً ــ: سعوا فيه بدل] مَشَوا فيهِ».[٢]

وقرأ: «فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ [متتابعات] في الْحَجِّ».[٣] نظراً لأنّه يجب التتابع فيها، فأوضحها بهذه الزيادة!

وقرأ: «فَما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ [إلى أجل مسمّى] فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَـريضَةً»[٤] للتنصيص على أنّها متعة النكاح.

وقرأ: «إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفيها [من نفسي فكيف أُظهركم عليها]».[٥] شرح وتفسير للآية.

وقرأ: «إذْ جَعَلَ الَّذينَ كَفَروا في قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ [ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام] فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَعلَى الْمُؤمِنينَ».[٦]

وفيما يلي جدول يقارن بين مصاحف السلف وترتيب مصحفنا اليوم. أخذناه من نصّ ابن أشتة[٧] وأكملنا سقطاته على نصّ ابن النديم. وأرمزنا له بعلامة (ن) واعتمد هذا الأخير على رواية الفضل بن شاذان، اعتماداً يرجّحه على ماشاهده بنفسه. قـال: رأيت عدّة مصاحف ذكر نسّاخها أنّها مصحف عبدالله بن‌مسعود، ليس فيها مصحفان متّفقان. وأكثرها في رقّ كثير النسخ. وقد رأيت مصحفاً قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فـاتحة الكتاب. والفضل بن شاذان أحد الأئمة في القرآن والروايات، فلذلك ذكرنا ماقاله دون ما شهدناه.[٨]

---

١ ـ يس ٣٦: ٥٢. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٢٨.
٢ ـ البقرة ٢: ٢٠. راجع: الإتقان، ج ١، ص ١٣٤.
٣ ـ البقرة ٢: ١٩٦. راجع: الكشاف، ج ١، ص ٢٤٢.
٤ ـ النساء ٤: ٢٤. راجع: جامع البيان، ج ٥، ص ٩.
٥ ـ طه ٢٠: ١٥. راجع: تأويل مشكل القرآن، ص ٢٥.
٦ ـ الفتح ٤٨: ٢٦. راجع: عبقات الأنوار، مجلد حديث مدينة العلم، ص ٥١٨.
٧ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٨١.
٨ ـ الفهرست، ص ٤٦.

جدول يقارن بين ثلاثة مصاحف

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أُبيّ	المصحف الحاضر
١		الفاتحة	الفاتحة
٢	البقرة	البقرة	البقرة
٣	النساء	النساء	آل عمران
٤	آل عمران	آل عمران	النساء
٥	الأعراف	الأنعام	المائدة
٦	الأنعام	الأعراف	الأنعام
٧	المائدة	المائدة	الأعراف
٨	يونس	يونس	الأنفال
٩	براءة	الأنفال	التوبة
١٠	النحل	براءة	يونس
١١	هود	هود	هود
١٢	يوسف	مريم	يوسف
١٣	الكهف	الشعراء	الرعد
١٤	الإسراء	الحج	إبراهيم
١٥	الأنبياء	يوسف	الحجر
١٦	طه	الكهف	النحل
١٧	المؤمنون	النحل	الإسراء

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أُبيّ	المصحف الحاضر
١٨	الشعراء	الأحزاب	الكهف
١٩	الصافّات	الإسراء	مريم
٢٠	الأحزاب	الزمر(أوّلها حم)	طه
٢١	الحج	طه	الأنبياء
٢٢	القصص	الأنبياء	الحج
٢٣	النمل	النور	المؤمنون
٢٤	النور	المؤمنون	النور
٢٥	الأنفال	سبأ	الفرقان
٢٦	مريم	العنكبوت	الشعراء
٢٧	العنكبوت	المؤمن (غافر)	النمل
٢٨	الروم	الرعد	القصص
٢٩	يس	القصص	العنكبوت
٣٠	الفرقان	النمل	الروم
٣١	الحجر	الصافات	لقمان
٣٢	الرعد	ص	السجدة
٣٣	سبأ	يس	الأحزاب
٣٤	فاطر	الحجر	سبأ
٣٥	إبراهيم	الشورى	فاطر
٣٦	ص	الروم	يس
٣٧	محمد	الزخرف (ن)	الصافّات
٣٨	لقمان	فصّلت (ن)	ص
٣٩	الزمر	إبراهيم (ن)	الزمر

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أُبيّ	المصحف الحاضر
٤٠	المؤمن	فاطر (ن)	غافر
٤١	الزخرف	الحديد[1]	فصّلت
٤٢	فصلت	الفتح	الشورى
٤٣	الشورى	محمد	الزخرف
٤٤	الأحقاف	المجادلة	الدخان
٤٥	الجاثية	الملك	الجاثية
٤٦	الدخان	الفرقان (ن)	الأحقاف
٤٧	الفتح	السجدة	محمد
٤٨	الحديد (ن)	نوح	الفتح
٤٩	الحشر	الأحقاف	الحجرات
٥٠	السجدة	ق	ق
٥١	ق (ن)	الرحمن	الذاريات
٥٢	الطلاق	الواقعة	الطور
٥٣	القلم[2]	الجن	النجم
٥٤	الحجرات	النجم	القمر
٥٥	الملك	المعارج	الرحمن
٥٦	التغابن	المزّمل	الواقعة
٥٧	المنافقون	المدّثّر	الحديد
٥٨	الجمعة	القمر	المجادلة
٥٩	الصفّ	الدخان	الحشر
٦٠	الجن	لقمان	الممتحنة

١ ـ جعلها ابن النديم بعد سورة محمدﷺ.

٢ ـ جعلها ابن النديم بعد سورة الواقعة.

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أُبيّ	المصحف الحاضر
٦١	نوح	الجاثية	الصفّ
٦٢	المجادلة	الطور	الجمعة
٦٣	الممتحنة	الذاريات	المنافقون
٦٤	التحريم	القلم	التغابن
٦٥	الرحمن	الحاقّة	الطلاق
٦٦	النجم	الحشر	التحريم
٦٧	الطور [١]	الممتحنة	الملك
٦٨	الذاريات	المرسلات	القلم
٦٩	القمر	النبأ	الحاقّة
٧٠	الحاقّة (ن)	الدهر (ن)	المعارج
٧١	الواقعة	القيامة	نوح
٧٢	النازعات	التكوير	الجن
٧٣	المعارج	الطلاق	المزّمّل
٧٤	المدثّر	النازعات	المدّثّر
٧٥	المزّمّل	التغابن	القيامة
٧٦	المطففين	عبس [٢]	الإنسان
٧٧	عبس	المطفّفين	المرسلات
٧٨	الدهر	الانشقاق	النبأ
٧٩	المرسلات [٣]	التين	النازعات
٨٠	القيامة	العلق	عبس

١ ـ جعلها ابن النديم بعد سورة الذاريات.

٢ ـ جعلها ابن النديم بعد سورة الغاشية.

٣ ـ جعلها ابن النديم بعد سورة القيامة.

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أُبيّ	المصحف الحاضر
٨١	النبأ	الحجرات	التكوير
٨٢	التكوير	المنافقون	الانفطار
٨٣	الانفطار	الجمعة	المطفّفين
٨٤	الغاشية	التحريم	الانشقاق
٨٥	الأعلى	الفجر	البروج
٨٦	الليل	البلد	الطارق
٨٧	الفجر	الليل	الأعلى
٨٨	البروج	الانفطار	الغاشية
٨٩	الانشقاق	الشمس	الفجر
٩٠	العلق	البروج (ن)	البلد
٩١	البلد	الطارق	الشمس
٩٢	الضحى	الأعلى	الليل
٩٣	الطارق	الغاشية	الضحى
٩٤	العاديات	الصفّ[١]	الشرح
٩٥	الماعون	البيّنة	التين
٩٦	القارعة	الضحى	العلق
٩٧	البيّنة	الانشراح	القدر
٩٨	الشمس	القارعة	البيّنة
٩٩	التين	التكاثر	الزلزلة
١٠٠	الهمزة	العصر	العاديات
١٠١	الفيل	الخلع	القارعة

١ ـ جعلها ابن النديم بعد سورة البيّنة.

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أُبيّ	المصحف الحاضر
١٠٢	قريش	الحفد	التكاثر
١٠٣	التكاثر	الهمزة	العصر
١٠٤	القدر	الزلزلة	الهمزة
١٠٥	الزلزلة	العاديات	الفيل
١٠٦	العصر	الفيل	قريش
١٠٧	النصر	قريش [١]	الماعون
١٠٨	الكوثر	الماعون	الكوثر
١٠٩	الكافرون	الكوثر	الكافرون
١١٠	المسد	القدر	النصر
١١١	التوحيد	الكافرون	المسد
١١٢	الانشراح [٢]	النصر	الإخلاص
١١٣		المسد	الفلق
١١٤		التوحيد	الناس
١١٥		الفلق	
١١٦		الناس [٣]	

١ ـ جعلها ابن النديم بعد سورة الضحى.
٢ ـ جعلها ابن النديم بعد سورة المسد.
٣ ـ تلك مائة وست عشرة سورة. لكن بما أنّ سورتي الفيل وقريش في مصحف أُبيّ واحدة، فمجموع سوره ١١٥ سورة.

توحيد المصاحف

سبق أنّ الفترة بعد وفاة النبيّ ﷺ كانت فترة جمع القرآن، فقد اهتمّ كبار الصحابة بتأليف سور القرآن وجمع آياته، حسب ما أُوتوا من علم وكفاءة، كلّ في مصحف يخصّه. وآخرون أعوزتهم الكفاءة فلجأوا إلى غيرهم ليستنسخوا لهم مصاحف أو يجمعوا لهم آيات وسوراً في صحف. وهكذا أخذت نسخ المصاحف تتزايد، اطراداً مع اتساع رقعة الإسلام. كان المسلمون وهم في كثرة مطّردة، ومنتشرون في أطراف البلاد المترامية، قد أحسّوا بحاجتهم القريبة إلى نسخ من كتاب الله، حيث كان الدستور السماوي الوحيد الذي كان المسلمون ينظّمون عليه معالم حياتهم العامّة في جميع جوانبها، فهو مصدرهم في الأحكام والتشريعات والتنظيمات.

وقد أحرز بعض هذه المصاحف في العالم الإسلامي آنذاك مقاماً رفيعاً حسب انتسابه إلى جامعه. كمصحف عبدالله بن مسعود الصحابي الجليل كان مرجع أهل الكوفة وهو بلد العلم ومعهد الدراسات الإسلاميّة العليا. ومصحف أُبيّ بن كعب في الأقطار الشاميّة. ومصحف أبي موسى الأشعري في البصرة. ومصحف المقداد بن الأسود في دمشق... وهكذا.

اختلاف المصاحف

ولمّا كان جامعوا المصاحف متعدّدين ومتباعدين، ومختلفين بحسب الكفاءة والمقدرة والاستعداد، وكانت كلّ نسخة منها تشتمل على ماجمعه صاحبها، وما جمعه واحد لايتّفق تماماً مع ماجمعه آخرون. كانت طبيعة الحال تقضي باختلاف في تأليف تلكم المصاحف، أُسلوباً وترتيباً وقراءة وغيرها. وقد تقدّم حديث مابين مصاحف

السلف من اختلاف.

وهذا الاختلاف في المصاحف وفي القراءات، كان بلاشكّ يستدعي اختلافاً بين الناس، عندما تجمعهم ندوة أو مناسبة، على مختلف نزعاتهم واتجاهاتهم يومذاك. فربّما كان المسلمون يجتمعون في غزوة أو احتفال، وهم من أقطار متباعدة، فيقع بينهم نزاع وجدل، وإنكار أحدهم على الآخر، فيما يتعصّبون له من مذهب أو عقيدة أو رأي.

نماذج من اختلاف العامّة

وفيما يلي عرض موجز عن نماذج من اختلاف العامّة على المصاحف فيما تعصّبوا له من قراءات أصحابها:

١ ـ في غزو مرج أرمينية: بعدما قفل حذيفة راجعاً من غزو الباب (مرج أرمينية ـ آذربيجان) قال لسعيد بن العاص، وكان بصحبته: لقد رأيت في سفري هذا أمراً، لئن ترك ليختلفنّ في القرآن، ثمّ لا يقومون عليه أبداً! قال سعيد: وما ذاك؟ قال: رأيت أُناساً من أهل حمص يزعمون أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنّهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون: إنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وإنّهم قرأوا على ابن مسعود. وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وإنّهم قرأوا على أبي موسى الأشعري، ويسمّون مصحفه «لباب القلوب».

فلمّا وصل ركب حذيفة وسعيد إلى الكوفة، أخبر حذيفة الناس بذلك، وحذّرهم ما يخاف. فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين.

وقال له أصحاب ابن مسعود: ما تنكر، ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعود؟!

فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنّما أنتم أعراب فاسكتوا، فإنّكم على خطأ. وقال

حذيفة: والله لئن عشت لآتينّ أميرالمؤمنين ـ يعني عثمان ـ ولأُشيرنّ عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك.

فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرّق الناس. وغضب حذيفة وسار إلى عثمان...[١]

٢ ـ في مسجد الكوفة: عن يزيد النخعي، قال: إنّي لفي المسجد ـ مسجد الكوفة ـ زمن الوليد بن عقبة ـ وكان والياً على الكوفة من قبل عثمان ـ في حلقة فيها حذيفة بن‌اليمان. وليس إذ ذاك حجزة ولا جلاوزة ـ أي لم يكن للمسجد آنذاك سدنة وحفظة ـ إذ هتف هاتف: من كان يقرأ على قراءة أبي‌موسى، فليأت الزاوية التي عند باب كندة. ومن كان يقرأ على قراءة عبدالله بن‌مسعود، فليأت الزاوية التي عند دار عبدالله. واختلفا في آية من سورة البقرة، قرأ هذا: «وأتمّوا الحجّ والعمرة للبيت». وقرأ هذا: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ»![٢]

فغضب حذيفة واحمرّت عيناه، ثمّ قام ففرز قميصه في حجزته وهو في المسجد، فقال: أمّا أن يركب إلى أميرالمؤمنين وأمّا أن أركب. فهكذا كان من قبلكم...

وفي رواية أبي الشعثاء: فقال حذيفة: قراءة ابن أُمّ عبد! وقراءة أبي موسى الأشعري! والله إن بقيت حتى آتي أميرالمؤمنين، لآمرنّه بجعلها قراءة واحدة. فغضب عبدالله، فقال كلمة شديدة فسكت حذيفة...

وفي رواية ثالثة: قال حذيفة: يقول أهل الكوفة: قراءة عبدالله! ويقول أهل البصرة: قراءة أبي موسى! والله لئن قدمت على أمير المؤمنين، لآمرنّه بغرق هذه المصاحف! فقال له عبدالله: أما والله لئن فعلت ليغرقنّك الله في غير ماء يعني سقر.[٣] وروى ابن‌حجر: أنّ

---

١ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥.

٢ ـ البقرة ٢: ١٩٦.

٣ ـ المصاحف، ص ١١ ـ ١٤.

ابن مسعود قال لحذيفة: بلغني عنك كذا، قال: نعم، كرهت أن يقال قراءة فلان وقراءة فلان، فيختلفون كما اختلف أهل الكتاب.[١]

٣ـ في نفس المدينة: أخرج ابن أشتة عن أنس بن مالك، قال: اختلفوا في القرآن على عهد عثمان، جعل المعلّم يعلّم قراءة الرجل ـ أحد أصحاب المصاحف ـ والمعلّم يعلّم قراءة الرجل ـ آخر من أصحاب المصاحف ـ فكان الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلّمين، فجعل يكفّر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان بن عفان، فقال: عندي تكذبون به وتلحنون فيه، فمن نأى عنّي كان أشدّ تكذيباً ولحنا...[٢]

وعن محمد بن سيرين، قال: كان الرجل يقرأ حتى يقول الرجل لصاحبه: كفرت بما تقول!. فرفع ذلك إلى عثمان فتعاظم في نفسه، فجمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار...[٣]

وعن بكير الأشجّ قال: إنّ أُناساً بالعراق كان يسأل أحدهم عن الآية، فإذا قرأها، قال ـ أي السائل ـ: ألا أنّي أكفر بهذه القراءة. ففشا ذلك في الناس، فتكلّم بعضهم مع عثمان في ذلك.[٤]

وهكذا وقعت حوادث حول اختلاف قراءة القرآن كانت تنذر بسوء ووقوع فتن ربّما لاتحمد عقباها، لولا تداركها من قِبل رجال نابهين أمثال حذيفة بن اليمان وأضرابه، رضوان اللّه عليهم.

قدوم حذيفة المدينة

عندما رجع حذيفة من غزو أرمينية، ناقماً اختلاف الناس في القرآن، استشار من كان بالكوفة من صحابة الرسول ﷺ بشأن معالجة القضيّة قبل تفاقم الأمر. فكان رأيه

---

١ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٥.
٢ ـ الإتقان، ج ١، ص ١٧٠؛ والمصاحف، ص ٢١.
٣ ـ الطبقات، ج ٣، ق ٢، ص ٦٢؛ والمصاحف، ص ٢٥.
٤ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٦.

حمل عثمان على أن يقوم بتوحيد نسخ المصاحف، وإلجاء الناس على قراءة واحـدة. فاتفقت كلمة الصحابة على صواب هذا الرأي،[١] سوى عبدالله بن‌مسعود. ومن ثمّ أزمع في الأمر وسار إلى المدينة يستحثّ عثمان على إدراك أُمّة محمدﷺ قبل تفرّقها، قال: ياأمير المؤمنين، أنا النذير العريان أدرك هذه الأُمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى! قال عثمان: وماذاك؟ قال: غزوت مرج أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أُبيّ بن‌كعب ويأتون بما لم يسمع أهل العراق. وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة ابن‌مسعود. ويأتون بمالم يسمع أهل الشام، فيكفّر بعضهم بعضاً![٢]

عثمان يأتمر الصحابة

تلك حوادث وأضرابها كانت وخيمة المآل، دعت بعثمان أن يـهتمّ بـالأمر ويـقوم بساعد الجدّ، لولا أن تهيّبته القضيّة وهي فاجئة مباغتة، لم يسبقه إليها غيره ممّن تقدّمه. مضافاً إلى ماكان يراه من صعوبة العمل في مرحلة تنفيذه، حيث انتشار نسخ المصاحف في البلاد، ومن ورائها رجال من كبار الصحابة لايستهان بشأنهم في المجتمع الإسلامي آنذاك، فربّما يقومون بحمايتها والدفاع عنها فيشكّلون عرقلة عويصة تسدّ وجه الطريق!

ومن ثمّ جمع أصحاب الرسولﷺ من كان حاضراً بالمدينة، واستشارهم في الأمر. فلم يكن منهم سوى اتفاقهم على ضرورة القيام به مهما كلّف الأمر. قال ابن‌الأثير: فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر، فأعظموه ورأوا جيمعاً مارأى حذيفة.[٣]

---

١ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥.

٢ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦؛ والمصاحف، ص ١٩ ـ ٢٠؛ والكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٦.

٣ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٦.

لجنة توحيد المصاحف

وأخيراً أزمع عثمان على تنفيذ الفكرة، فوجّه ـ أوّلا ـ نداءه إلى عامّة الصحابة: يا أصحاب محمد ﷺ اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً.[١] ثمّ ندب نفراً يخصّونه، وهم أربعة: زيد بن ثابت، وهو أنصاري وسعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمان بن الحارث بن هشام، وهم قرشيّون... وهؤلاء الأربعة أعضاء أوّليّة، انعقدت بهم لجنة توحيد المصاحف.[٢] وكانت لزيد سمة رئاسة على الآخرين. كما يظهر من تذمّر ابن مسعود واستنكاره استئمار زيد لهذا المنصب. قال: يامعشر المسلمين، أأعزل عن نسخ المصاحف ويتولّاها رجل. والله لقد أسلمت وإنّه لفي صلب رجل كافر. يريد زيد بن ثابت.[٣]

وكان عثمان هو يتعاهدهم بنفسه.[٤]

لكن هؤلاء الأربعة لم يستطيعوا القيام بصميم الأمر، وكانت تعوزهم الكفاءة لهكذا عمل خطير. ومن ثمّ استعانوا بأُبيّ بن كعب ومالك بن أبي عامر وكثير بن أفلح وأنس بن مالك وعبدالله بن عباس ومصعب بن سعد[٥] وعبدالله بن فطيمة[٦] إلى تمام الاثني عشر على ماجاء في رواية ابن سيرين وابن سعد وغيرهما.[٧]

وفي هذا الدور كانت الرئاسة مع أُبيّ بن كعب، فكان هو يملي عليهم ويكتب الآخرون. قال أبوالعالية: إنّهم جمعوا القرآن من مصحف أُبيّ بن كعب. فكان رجال يكتبون يملي عليهم أُبي بن كعب.[٨]

قال ابن حجر: وكأنّ ابتداء الأمر كان لزيد وسعيد، حيث سأل عثمان: من أكتب

---

١ ـ الإتقان، ج ١، ص ٥٩ عن مصاحف ابن اشتة؛ والمصاحف، ص ٢١.
٢ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦.
٣ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٧؛ والمصاحف، ص ١٧.
٤ ـ المصاحف، ص ٢٥.
٥ ـ إرشاد الساري، ج ٧، ص ٤٤٩.
٦ ـ المصاحف، ص ٣٣.
٧ ـ المصدر، ص ٢٥؛ والطبقات، ج ٣، ق ٢، ص ٦٢.
٨ ـ المصاحف، ص ٣٠.

الناس؟ قالوا: زيد. ثمّ قال: فأي الناس أفصح؟ قالوا: سعيد. فقال: فليمل سعيد وليكتب زيد.[١]

قال: ثمّ احتاجوا إلى من يساعدهم في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق. فأضافوا إلى زيد من ذكر، ثمّ استظهروا بأُبيّ بن‌كعب في الإملاء.[٢]

موقف الصحابة تجاه المشروع المصاحفي

سبق أنّ حذيفة بن اليمان كان أوّل من فكّر في توحيد المصاحف وحلف ليأتينّ الخليفة وليأمرنّه بجعلها قراءة واحدة[٣] كما استشار هو من كان بالكوفة من صحابة الرسول ﷺ فوافقوه على ماعزم، سوى ابن‌مسعود.[٤]

وجمع عثمان من كان بالمدينة من الصحابة فأتمرهم في ذلك فهبّوا جميعاً يوافقون فكرة توحيد المصاحف، قال ابن الأثير: فجمع الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً مارأى حذيفة.[٥]

وهكذا الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أبدى رأيه موافقا للمشروع ذاتياً. أخرج ابن أبي داود عن سويد بن غفلة، قال: قال علي عليه السلام: فوالله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلّا عن ملأ منّا. استشارنا في أمر القراءات، وقال: بلغني أنّ بعضهم يقول: قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً. قلنا: فماذا رأيت؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت.[٦]

---

١ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٦. جاء ذلك في رواية مصعب بن‌سعد. لكن في صحّة ماتضمّنته الرواية من فحوى، كلام ونقاش!

٢ ـ المصدر: والطبقات، ج ٣، ق ٢، ص ٦٢؛ وتهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٨٧.

٣ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٥.

٤ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥.

٥ ـ المصدر.

٦ ـ المصاحف، ص ٢٢. قال جلال‌الدين: والسند صحيح؛ والإتقان، ج ١، ص ٥٩؛ ونقل السيد ابن‌طاووس في ←

وفي رواية أُخرى قال: لو ولّيت في المصاحف ماولّى عثمان لفعلت كما فعل.[١]

وأخرج ابن أبي‌داود ـ أيضاً ـ عن سويدبن غفلة، قال: قال عليّ عليه‌السلام ـ حين حرق عثمان المصاحف ـ: لولم يصنعه هو لصنعته.[٢]

وكان عليه‌السلام ـ بعدما تولّى الخلافة ـ أحرص الناس على الالتزام بالمرسوم المصحفي ـ حتى ولوكانت فيه أخطاء إملائيّة ـ حفظا على كتاب الله من أن تمسّه يد التحريف فيما بعد باسم الإصلاح. قال عليه‌السلام بهذا الصدد: لايُهاج القرآن بعد اليوم.

ذكروا: أنّه قرأ رجل بسمع الإمام: «وَطَلْحٍ مَنضُودٍ».[٣] فجعل الإمام يترنّم في نفسه: ماشأن الطلح! إنّما هو طلع ـ كما في قوله تعالى: «لَهَا طَلْعٌ نَضيدٌ» ـ[٤] ولم يكن ذلك اعتراضاً من الإمام على القارئ، ولادعوة إلى تغيير الكلمة، بل كان مجرّد حديث نفس ترنّم به الإمام عليه‌السلام.

ولكن أُناساً سمعوا كلامه فهبّوا يقترحون عليه: أوَلا نحوّله؟ فانبرى الإمام عليه‌السلام متسغرباً هذا الاقتراح، وقال كلمته الحاسمة الخالدة، «إنّ القرآن لايُهاج اليوم ولايحوّل».[٥]

وهكذا سار على منهجه عليه‌السلام الأئمّة من ولده:

قرأ رجل عند الإمام أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤه

← سعدالسعود، ص ٢٧٨، من كتاب اختلاف المصاحف لأبي‌جعفر محمد بن‌منصور، رواية محمد بن‌زيد بن‌مروان: أنّ القرآن جمعه زيد بن‌ثابت على عهد أبي‌بكر، ثمّ عاد عثمان، فجمع المصحف برأي مولانا علي بن أبي‌طالب عليه‌السلام. ونقله أبوعبدالله الزنجاني أيضاً في تاريخ القرآن، ص ٤٥؛ ونقل في ص ٤٦ ما يقرب ذلك من مقدمة تفسير الشهرستاني (ج ١، ص ١١٨) أيضاً.

١ ـ النشر، ج ١، ص ٨؛ والمصاحف، ص ٢٣.

٢ ـ المصاحف، ص ١٢.

٣ ـ الواقعة ٥٦: ٢٩. اختلفوا في تفسير الطلح. قيل: هو الموز. ومن الغريب ما ذكره ابن‌خالويه في الشواذ، ص ١٥١، إنّ أوّل من غرس شجر الموز بمدينة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله هو الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام!

٤ ـ ق ٥٠: ١٠.

٥ ـ جامع البيان، ج ٢٧، ص ١٠٤؛ ومجمع البيان، ج ٩، ص ٢١٨.

الناس! فقال له الإمام: مه مه، كفّ عن هذه القراءة واقرأ كما يقرأ الناس.

وقال ﷺ في جواب من سأله عن الترتيل في القرآن: اقرأوا كما عُلّمتم.[١]

ومن ثمّ وقع إجماع أصحابنا الإماميّة على أنّ ما بأيدينا هو قرآن كلّه[٢] لم تمسّه يد تحريف أصلا. وأنّ القراءة المشهورة (والتي قرأها حفص) هي القراءة الصحيحة، التي تجوز القراءة بها في الصلاة. وغيرها من أحكام أجروها على النّص الموجود، واعتبروه هوالقرآن الذي أُوحي إلى النبيّ ﷺ ولم يعتبروا شيئا سواه.

وأمّا ابن‌مسعود فلا أظنّ مخالفته كانت جوهريّة، وإنّما أغضبه انتداب أشخاص غير أكفاء لهكذا مشروع جلل كان أمثاله جديرين بالانتداب له. كان يقول بأنّ رجالا لم يؤذن لهم قد تصرّفوا في القرآن من تلقاء أنفسهم.[٣] ومن ثمّ أبى إباء شديداً أن يدفع مصحفه إلى رسول الخليفة. قال أبوميسرة: أتاني رجل وأنا أُصلّي فقال: أراك تصلّي وقد أُمر بكتاب الله أن يمزّق كلّ ممزّق! فتجوّزت في صلاتي وكنت أجلس. فدخلت الدار ولم أجلس. ورقيت فلم أجلس. فإذا أنا بالأشعري، وحذيفة وابن مسعود يتقاولان. وحذيفة يقول لابن مسعود: ادفع إليهم المصحف. قال: والله لا أدفعه إليهم. أقرأني رسول‌الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة ثمّ أدفعه إليهم؟! والله لا أدفعه إليهم.[٤]

عام تأسيس المشروع

قال ابن‌حجر: كانت هذه القصة في سنة خمس وعشرين، في السنة الثالثة أو الثانية[٥] من خلافة عثمان. قال: وغفل بعض من أدركناه فزعم أنّ ذلك كان في حدود سنة

---

١ ـ وسائل الشيعة، باب ٧٤ من أبواب القراءة في الصلاة، ج ٤، ص ٨٢١، ح ٣.

٢ ـ راجع: حديث طلحة مع الإمام. بحارالأنوار: ج ٩٢، ص ٤١ ـ ٤٢، ح ١.

٣ ـ المصاحف للسجستاني، ص١٧.

٤ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٢٢٨.

٥ ـ هذا الترديد ينظر إلى الاختلاف في اليوم الذي بويع فيه لعثمان. فقيل: في العشر الأخير من ذي‌الحجة عام ٢٣. وعليه فعام تأسيس اللجنة يقع في صدر السنة الثالثة من خلافته. وقيل: في العشر الاول من محرم عام ٢٤. وعليه فيكون تأسيس اللجنة واقعاً في مؤخّرة السنة الثانية. راجع: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٠٤ طبعة الاستقامة، أو ج ٤، ص ٢٤٢ طبعة دارالمعارف.

ثلاثين، ولم يذكر لذلك مستنداً.[١]

وعدّها ابن الأثير ـ وتبعه بعض من تأخّر عنه من غير تحقيق ـ من حوادث سنة ثلاثين قال: وفي هذه السنة غزا حذيفة الباب مدداً لعبد الرحمان بن ربيعة وفيها رأى حذيفة اختلافاً كثيراً بين الناس في القرآن، فلمّا رجع أشار على عثمان بجمع القرآن ففعل.[٢]

وأظنّ ابن الأثير متوهّما في هذا التحديد:

أوّلا: كانت غزوة آذربيجان وأرمينية سنة ٢٤ في رواية أبي مخنف، ذكرها الطبري. غزاها الوليد بن عقبة، لأنّهم حبسوا ما صالحوا عليه حذيفة اليمان عندما غزاهم سنة ٢٢ أيام عمربن الخطاب.[٣]

وقال ابن حجر: أرمينية فتحت في خلافة عثمان، وكان أمير العسكر من أهل العراق: سلمان بن ربيعة الباهلي. وكان عثمان قد أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك، وكان أمير أهل الشام في ذلك العسكر: حبيب بن مسلمة الفهري وكان حذيفة من جملة من غزا معهم، وكان هو على أهل المدائن، وهي من جملة أعمال العراق...

ثمّ قال: سنة خمس وعشرين هو الوقت الذي ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فتحت فيه، أوّل ولاية الوليدبن عقبة بن أبي معيط، على الكوفة من قبل عثمان.[٤]

ثانياً: كانت الغزوة التي غزاها عبدالرحمان بن ربيعة، هي في سنة اثنتين وعشرين. وكان الذي بصحبته حذيفة بن أُسيد الغفاري، لا حذيفة بن اليمان العنسي.[٥]

---

١ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٥.

٢ ـ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥؛ والفتوحات الإسلاميّة لزيني دحلان، ج ١، ص ١٧٥.

٣ ـ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

٤ ـ فتح الباري، ج ٩، ص ١٣ ـ ١٤.

٥ ـ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١٥٥.

ثالثاً: في سنة ثلاثين عيّن سعيد حاكماً على الكوفة مكان الوليد، وفي نفس الوقت تهيّأ لغزو طبرستان. وصحبه في الغزو ابن‌الزبير وابن‌عباس والحذيفة.[١] ولم يرجع سعيد إلى المدينة حتى سنة ٣٤ وفي السنة التالية كان مقتل عثمان.[٢]

كلّ ذلك لا يلتئم وكون سعيد عضواً ثانياً للّجنة إذا كانت تأسّست عام ٣٠ وهكذا ابن الزبير وابن عباس على ما تقدّم.

رابعاً: ذكر الذهبي فيمن توفي عام ثلاثين «أُبيّ بن‌كعب». قال: وقال الواقدي: هو أثبت الأقاويل عندنا[٣] مع العلم أنّ أُبيّاً كان ممليا على الأعضاء، وكان مرجعهم الأعلى في النسخ والمقابلة.

خامساً: في حديث يزيد النخعي الآنف: إنّي لفي المسجد زمن الوليد... الخ.[٤]

الأمر الذي يدلّ على وقوع القصة قبل سنة ثلاثين. وفي لفظ ابن‌حجر: أنّه كان في بدء ولاية الوليد على الكوفة[٥] ولابدّ أنّه كذلك، إذ كان تعيّن الوليد على الكوفة في مفتتح سنة ٢٦. وفي رواية سيف: أنّها كانت سنة ٢٥.[٦]

سادساً: وربّما هو أقوى دليل: روى ابن أبي داود، عن مصعب بن سعد، قال: خطب عثمان ـ بدء قيامه بجمع القرآن ـ فقال: إنّما قبض نبيّكم منذ خمس عشرة سنة، وقد اختلفتم في القرآن! عزمت على من عنده شيء من القرآن سمعه من رسول‌الله ﷺ لمّا أتاني به...[٧]

هذه الخطبة تحدّد بالضبط بدء تأسيس المشروع المصاحفي، وأنّه كان عام ٢٥ بعد

---

١ ـ المصدر، ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.
٢ ـ المصدر، ص ٣٣٠ و ٣٦٥.
٣ ـ ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٨٤؛ وراجع: الطبقات، ج ٣، ص ٦٢.
٤ ـ تقدّم ذلك في «نماذج من اختلاف العامّة» رقم ٢.
٥ ـ فتح الباري: ج ٩، ص ١٣ ـ ١٤.
٦ ـ تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٥١.
٧ ـ المصاحف، ص ٢٤.

الهجرة.

وأخيراً فابن الأثير متفرّد عن الطبري في سرد قضيّة حذيفة، ضمن حوادث سنة ثلاثين. ولاسيّما والتفصيل الذي أتى عليه في تأريخه، جاء في صورة لانكاد نصدّقها مأخوذة عن مستند تأريخي، وأغلب الظنّ أنّها مجموعة روايات منضّمة بعضها إلى بعض زعمها مقترنة، فأوردها ضمن حوادث تلك السنة!!

ملحوظة: لايعتمد الطبري نفسه على التحديدات الزمنيّة التي يذكرها هو قيداً للحوادث، فهو يتردّد أحياناً في حادثة بين وقوعها سنة ١٨ أوسنة ٢١، كواقعة نهاوند[١] ـ مثلاً ـ فلابدّ إذن لمعرفة تأريخ كلّ حادثة من البحث عن ملابساتها والتحقيق عن مناشئها وأسبابها، دون الاعتماد السريع على مايذكره المؤرّخون من توقيت.

منجزات المشروع

اجتازت اللجنة المصاحفيّة في عملها ثلاث مراحل أساسيّة:

١ ـ جمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن، من أطراف البلاد الإسلاميّة وإمحائها.

٢ ـ البحث عن مستندات و وثائق صحيحة لغرض النسخ عليها مصاحف متحدة وبثّها بين المسلمون.

٣ ـ مقابلة هذه المصاحف الموحّدة، لغرض التأكّد من صحتها أوّلا، وعدم وجود اختلاف بينها ثانياً.

وأخيراً إلزام المسلمين كافّة على قراءتها ومنع غيرها من قراءات. واللجنة ـ وإن

---

١ ـ يصرّح الطبري بترديده بشأن واقعة نهاوند. ج ٤. ص ١١٤، حوادث سنة ٢١.

اجتازت هذه المراحل ـ ولكنّها في شيء من التساهل وإهمال جانب الدقّة الكاملة، ولاسيّما في المرحلة الثالثة التي كانت بحاجة شديدة إلى اهتمام أكثر.

ففي مرحلة جمع المصاحف وإمحائها فقد أرسل عثمان إلى كلّ أُفق من يجمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن وأمر بها أن تحرق.[١]

قال اليعقوبي: وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت، ثمّ سلقها بالماء الحارّ والخلّ. وقيل: أحرقها. فلم يبق مصحف إلّا فعل به ذلك، خلا مصحف ابن‌مسعود، فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبدالله بن‌عامر. فكتب إليه عثمان أن أشخصه. فدخل ابن مسعود المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: إنّه قد قدمت عليكم دابّة سوء. فكلّم ابن مسعود بكلام غليظ. فأمر به عثمان فجرّ برجله حتى كسر له ضلعان، فتكلّمت عائشة وقالت قولاً كثيراً.[٢]

وفي المرحلة الثانية، كان عثمان في بدء الأمر زعمها هيّنة، ومن ثمّ اختارلها جماعة غير أكفاء، ثمّ لجأ أخيراً إلى جماعة آخرين وفيهم الأكفاء مثل سيّد القرّاء[٣] الصحابي الكبير أُبيّ بن‌كعب. كما وأرسل إلى الربعة التي كانت في بيت حفصة، وهي الصحف التي جمع فيها القرآن أيام أبي‌بكر. فطلبها لتكون سنداً وثيقاً للمقابلة عليها والاستنساخ منها. فأبت حفصة لأوّل أمرها أن تدفعها إليه، ولعلّها خافت أن تأخذ مصيره إلى الحرق والتمزيق كسائر المصاحف! حتى عاهدها عثمان ليردّنها فبعثت بها إليه.[٤]

وهكذا وجّه نداءً عامّاً إلى كافّة المسلمين: عزمت على من عنده شئ من القرآن سمعه من رسول‌الله ﷺ لما أتاني به.[٥]

---

١ ـ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦. ٢ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
٣ ـ تهذيب التهذيب: ج ١، ص ١٨٧؛ والطبقات: ج ٣، ص ٦٢.
٤ ـ المصاحف، ص ٩؛ وصحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦. ٥ ـ المصاحف، ص ٢٤.

فجعل الرجل يأتيه باللوح والكتف والعسيب فيه القرآن. وربّما كانوا ينتظرون أُناساً كانوا أحدثهم بالعرضة الأخيرة، حتى يأتوهم بالقرآن.

قال ابن‌سيرين: كانوا إذا تدارؤا في شيء ـ أي اختلفوا في آية ـ أخّروه. قال بعضهم: ولعلّهم كانوا يؤخّرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة. فيكتبونها على قوله.[١]

وقال أنس بن‌مالك: كنت فيمن أُملي عليهم، فربّما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقّاها من رسول‌الله صلى الله عليه وآله ولعلّه يكون غائباً أو في بعض البوادي، فيكتبون ماقبل الآية ومابعدها، ويدعون موضعها حتى يجيء الرجل أو يرسل إليه.[٢]

هذا... وربّما كان أُبيّ بن‌كعب يملي عليهم القرآن فيكتبونه، أو يرسلون إليه فيصحّح لهم ما اشتبهت عليهم قراءتها.

جاء في حديث أبي العالية: أنّهم جمعوا القرآن من مصحف أُبيّ. فكان رجال يكتبون يملي عليهم أُبيّ بن‌كعب.[٣]

وقال عبدالله بن‌هانئ البربري ـ مولى عثمان ـ: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف ـ أي يقابلون النسخ مع بعضها البعض ـ فأرسلني بكتف شاة إلى أُبيّ بن‌كعب فيها: «لم يتسنّ» وفيها: «لاتبديل للخلق‌الله»، وفيها: «فأمهل الكافرين» فدعا أُبيّ بدواة فمحى اللّامين وكتب «لخلق الله». ومحى «فأمهل». وكتب «فمهل» وكتب «لم‌يتسنّه» فألحق فيها الهاء.[٤]

أمّا المرحلة الثالثة فكان التساهل فيها أوضح، حسب ما أُودعت في المصحف العثماني من أخطاء ومناقضات إملائيّة بمالا يستهان بها، كما ولم تتحد نسخ المصاحف مع

---

١ ـ المصدر، ص ٢٥.
٢ ـ المصدر، ص ٢١.
٣ ـ المصدر، ص ٣٠.
٤ ـ الإتقان، ج ٢، ص ٢٧١.

بعضها البعض، فكان بين المصاحف المرسلة إلى الآفاق اختلاف. الأمر الذي يؤخذ على أعضاء اللجنة، ولاسيّما عثمان نفسه، الذي عثر على تلك الأخطاء وأهملها تساهلا بالأمر!

يحدّثنا ابن أبي داود عن بعض أهل الشام، كان يقول: مصحفنا ومصحف أهل البصرة أحفظ من مصحف أهل الكوفة. لأنّ عثمان لمّا كتب المصاحف بلغه قراءة أهل الكوفة على حرف عبدالله. فبعث إليهم بالمصحف قبل أن يعرض ـ أي قبل مقابلته على سائر النسخ ـ وعرض مصحفنا ومصحف أهل البصرة قبل أن يبعث بهما.[1]

وهو تسريع في إرسال المصحف إلى قطر كبير قبل مقابلته بدقة.

كما وأنّ وجود اختلاف بين مصاحف الأمصار ـ على ما يحدّثنا ابن أبي داود أيضاً ـ[2] لدليل على مدى الإهمال الذي سمحوا به في ناحية المقابلة والإتقان من صحّة النسخ.

وجانب أفضح من هذا التساهل الغريب: ماروى ابن أبي داود ـ أيضاً ـ: أنّهم عندما فرغوا من نسخ المصاحف أتوا به عثمان، فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم. أرى فيه شيئا من لحن! ـ لكن ـ ستقيمه العرب بألسنتها؟ ثمّ قال: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا![3]

قلت: ما هذا الإيتكال الغريب، والفرصة في قدرته؟! ألم يكن كتاب الله العزيز الحميد جديراً بالاهتمام به ليكون خلواً من كلّ خطأ أو لحن؟! ثمّ ماهذا التمنّي الكاذب، وفي استطاعته بدء الأمر أن يختار مملياً من هذيل وكتبة من ثقيف، وهو يعلم أنّ فيهم الجدارة والكفاءة، الأمر الذي كان يعوزه من انتدبهم من بطانته حينذاك!!

---

١ ـ المصاحف، ص ٣٥.

٢ ـ المصدر، ص ٣٩ ـ ٤٩. وسنذكره في فصل قادم.

٣ ـ المصدر، ص ٣٢ ـ ٣٣.

نعم كانت مغبّة هذا التساهل أن حصلت اختلافات في القراءة فيما بعد، وكان كرّاً على مافرّوا منه. وسنفصّل كلّ ذلك في فصول قادمة.

عدد المصاحف العثمانية

اختلف المؤرّخون في عدد المصاحف الموحّدة التي أُرسلت إلى الآفاق. قال ابن أبي‌داود: كانت ستة حسب الأمصار المهمّة ذوات المركزيّة الخاصّة: مكة والكوفة والبصرة والشام والبحرين واليمن. وحبس السابعة ـ وكانت تسمّى الأُمّ أو الإمام ـ بالمدينة[1] وزاد اليعقوبي: مصر والجزيرة.[2]

إذاً فعدد المصاحف التي نسختها لجنة توحيد المصاحف هي تسعة، واحدة هي الأُمّ أو الإمام، كانت بالمدينة والبقيّة أُرسلت إلى مراكز البلاد الإسلاميّة آنذاك.

وكان المصحف المبعوث إلى كلّ قطر يحتفظ عليه في مركز القطر، يستنسخ عليه ويرجع إليه عند اختلاف القراءة. ويكون هو حجّة، والقراءة التي توافقها تكون هي الرسميّة، وكلّ نسخة أو قراءة تخالفها تعدّ غير رسميّة وممنوعة يعاقب عليها.

أمّا مصحف المدينة (الإمام) فكان مرجعاً للجميع بصورة عامّة، حتى إذا كان اختلاف بين مصاحف الأمصار، فإنّ الحجة هو المصحف الإمام بالمدينة، فيجب أن يصحّح عليه.

وروي: أنّ عثمان بعث مع كلّ مصحف قارئاً يُقرئ الناس على قراءة ذلك المصحف. فبعث مع المصحف المكّي ـ مثلا ـ عبدالله بن السائب. و مع المصحف الشاميّ المغيرة بن شهاب. ومع المصحف الكوفيّ أباعبدالرحمان السلميّ. ومع المصحف البصريّ

---

١ ـ المصدر، ص ٣٤.

٢ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٦٠.

عامر بن عبدالقيس.. وهكذا. وكان قارئ المدينة والمقرئ من قبل الخليفة هو زيد بن ثابت.[1]

هذا.. وكانت شدّة الاهتمام بهذه المصاحف والتحفّظ عليها من قبل السلطات، وشدّة حرص الناس على محافظتها ودراستها، تستدعي بقاءها مع الخلود. غير أنّ تطوّرات حصلت عليها فيما بعد: تنقيط وتشكيل وتحزيب وأخيراً تغيير الخطّ من الكوفيّ البدائي الذي كتبت به المصاحف على عهد عثمان، إلى الكوفيّ المعروف، وبعده إلى خطّ النسخ العربي الجميل وخطوط أُخرى تداولت فيما بعد. كلّ ذلك جعل من المصاحف العثمانيّة الأُولى على مدرج النسيان، فأمست مهجورة ولم يعد لها أثر في الوجود.

هذا... وذكر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦) أنّ في جامع دمشق مصحف عثمان بن عفان. قالوا: إنّه خطّه بيده.[2]

وهذا المصحف رآه ابن فضل‌الله العمري (ت ٧٤٩) قال: وإلى الجانب الأيسر من جامع دمشق المصحف العثماني بخطّ عثمان بن‌عفان.[3]

ولم يحفظ لعثمان أنّه خطّ مصحفاً بيده، فلعلّه مصحف الشام بقي لذلك العهد.

وهذا المصحف يذكره ابن كثير (ت ٧٧٤) من غير أن ينسبه إلى خطّ عثمان. قال: وأمّا المصاحف العثمانيّة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة. وقد كان قديماً بمدينة طبرية ثمّ نقل منها إلى دمشق في حدود سنة ٥١٨ وقد رأيته كتاباً ضخماً بخطّ حسن مبين قوي، بحبر محكم، في رق أظنّه من جلود الإبل.[4]

وقال الرحالة ابن بطوطة (ت ٧٧٩): وفي الركن الشرقي من المسجد إزاء المحراب

---

١ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٤٠٣-٤٠٤. ٢ ـ معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٩.
٣ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ١، ص ١٩٥. ٤ ـ فضائل القرآن لابن‌كثير، ص ١٥.

خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجّهه عثمان بن‌عفان إلى الشام، و تفتح تلك الخزانة كلّ يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم. وهناك يحلّف الناس غرماءهم ومن ادّعوا عليه شيئاً.[١]

ويقال، إنَّ هذا المصحف بقي في مسجد دمشق حتى احترق فيه سنة ١٣١٠.[٢]

قال الدكتور صبحي صالح: وقد ذكرلي زميلي الأُستاذ الدكتور يوسف العش: إنّ القاضي عبدالمحسن الاسطواني أخبره بأنّه قد رأى المصحف الشامي قبل احتراقه، وكان محفوظا بالمقصورة وله بيت خشب.[٣]

قال الأُستاذ الزرقاني: ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانيّة الآن فضلا عن تعيين أمكنتها.

أمّا المصاحف الأثريّة التي تحتويها خزائن الكتب المصريّة ويقال عنها: إنّها مصاحف عثمانيّة، فإنّا نشكّ كثيراً في صحّة هذه النسبة، لأنّ بها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور، ولبيان أعشار القرآن. ومعلوم أنّ المصاحف العثمانيّة كانت خالية من كلّ هذا ومن النقط والشكل.

نعم في خزانة المشهد الحسيني مصحف منسوب إلى عثمان، مكتوب بالخطّ الكوفيّ القديم، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً. ورسمه يوافق رسم المصحف المدنيّ أو الشاميّ، حيث رسم فيه كلمة «من يرتدد» من سورة المائدة بدالين مع الفك، فأكبر الظنّ أنّ هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانيّة على رسم بعضها.[٤]

وهكذا نسب إلى خطّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام مصحف بعض أوراقه محفوظة بالخزانة العلويّة في النجف الأشرف. بخطّ كوفيّ قديم، كتب على آخره: كتبه علي بن

١ ـ رحلة ابن‌بطوطة، ج ١، ص ٥٤.
٢ ـ خطط الشام، ج ٥، ص ٢٧٩.
٣ ـ مباحث في علوم القرآن، ص ٨٩ بالهامش.
٤ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٤٠٤-٤٠٥.

أبوطالب في سنة أربعين من الهجرة. قال الأُستاذ أبوعبدالله الزنجاني: ورأيت في شهر ذي‌الحجّة سنة ١٣٥٣ في دارالكتب العلويّة في النجف مصحفاً بالخط الكوفيّ كتب على آخره: كتبه علي بن أبي‌طالب في سنة أربعين من الهجرة ولتشابه «أبي» و«أبو» في رسم الخطّ الكوفي قد يظنّ من لاخبرة له أنّه كتب علي بن‌أبوطالب بالواو.[١]

وفي خزانة الآثار بالمسجد الحسيني بالقاهرة أيضاً مصحف يقال: أن علي بن أبي‌طالب كتبه بخطه، وهو مكتوب بخطّ كوفيّ قديم. قال الأُستاذ الزرقاني. من الجائز أن يكون كاتبه علياً، أو يكون قد أمر بكتابته في الكوفة.[٢]

ويذكر ابن‌بطوطة: أنّ في مسجد أميرالمؤمنين علي عليه السلام بالبصرة، المصحف الكريم الذي كان عثمان يقرأ فيه لمّا قتل. وأثر تغبيره الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: «فَسَيَكْفيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّميعُ العَليمُ».[٣] وهو غريب!

وروى السمهودي عن محرر بن‌ثابت، قال: «بلغني أنّ مصحف عثمان صار إلى خالدبن عمروبن عثمان، فلمّا استخلف المهدي (العباسي) بعث بمصحف إلى المدينة، فهو الذي يقرأ فيه اليوم، وعزل مصحف الحجاج، فهو في الصندوق الذي دون المنبر.

وقال ابن زبالة: حدّثني مالك بن‌أنس أنّ الحجّاج أرسل إلى أُمّهات القرى بمصاحف، فأرسل إلى المدينة بمصحف كبير، وكان هذا المصحف في صندوق، عن يمين الأسطوانة التي عملت علَما لمقام النبيّ صلى الله عليه وآله وكان يفتح في يوم الجمعة والخميس فبعث المهدي بمصاحف لها أثمان فجعلت في صندوق ونحّي عنها مصحف الحجّاج».

قال السمهودي: «ولا ذكر لهذا المصحف الموجود اليوم بالقبّة التي بوسط المسجد المنسوب لعثمان في كلام أحد من متقدّمي المؤرّخين.

---

١ ـ تاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني، ص ٤٦.
٢ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٤٠٥.
٣ ـ البقرة ٢: ١٣٧. راجع: رحلة ابن‌بطوطة، ج ١، ص ١١٦.

وفي كلام ابن‌النجّار ـ وهو أوّل من ترجم مصاحف المساجد ـ: أنّ المصاحف الأوّليّة قد دثرت على طول الزمان وتفرّقت أوراقها فلم تبق لها باقية بعد ذلك».[١]

تعريف عام بالمصاحف العثمانيّة

كانت المصاحف العثمانيّة ـ بصورة عامّة ـ ذات ترتيب خاصّ يقرب من ترتيب مصاحف الصحابة في أصل المنهج الذي سارت عليه بتقديم الطوال على القصار، مع اختلاف يسير.

وكانت خالية عن كلّ علامة تشير إلى إعجام الحرف أو تشكيله. أو إلى تجزئته من أحزاب و أعشار وأخماس..

وكانت مليئة بأخطاء إملائية ومناقضات في رسم الخطّ، ويرجع السبب إلى بداءة الخطّ الذي كان يعرفه الصحابة آنذاك.

تلك أوصاف عامّة جرت عليها تلكم المصاحف نفصّلها فيما يلي:

١ ـ الترتيب

تقدّم الكلام عن ترتيب المصحف العثماني، هو الترتيب الحاضر في المصحف الكريم، وهو الترتيب الذي جرت عليه مصاحف الصحابة حينذاك، ولاسيّما مصحف أُبيّ بن‌كعب. لكنّه خالفها في موارد يسيرة.

من ذلك: أنّ الصحابة كانوا يعدّون سورة يونس من السبع الطوال، فكانت هي السورة السابعة[٢] أو الثامنة[٣] في ترتيب مصاحفهم.

لكن عثمان عمد إلى سورة الأنفال فجعلها هي وسورة براءة سابعة السبع الطوال،

---

١ ـ راجع: وفاء الوفاء، ج ٢، ص ٦٦٧ ـ ٦٦٨.

٢ ـ في مصحف ابن مسعود.

٣ ـ في مصحف أُبيّ بن كعب.

زعمهما سورة واحدة وأخّر سورة يونس إلى سور المئين.

الأمر الذي أثار ابن عباس [١] ليعترض على عثمان، قائلا: ماحملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني [٢] وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم‌الله الرحمان الرحيم [٣] ووضعتموهما في السبع الطوال؟!

قال عثمان: كان رسول‌الله صلى الله عليه وآله تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل مانزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا. وكانت قصّتها شبيهة بقصّتها، فظننت أنّها منها، فقبض رسول‌الله صلى الله عليه وآله ولم يبيّن لنا أنّها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم‌الله الرحمان الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال.

قال الحاكم: والحديث صحيح على شرط الشيخين. [٤]

وهذا يدلّ على اجتهاد الصحابة في ترتيب المصحف. فكان عثمان يعرف أنّ آيات من سور ربّما كان يتأخّر نزولها، فيأمر النبيّ صلى الله عليه وآله أن توضع موضعها من السورة المتقدّمة. فزعم عثمان أنّ سورة براءة هي من تتمّة سورة الأنفال [٥] لتشابه ما بينهما في السياق العامّ: تعنيف بمناوئي الإسلام من كافرين ومنافقين. وتحريض بالمؤمنين على

---

١ ـ سبق أنّ عضويته في لجنة توحيد المصاحف كانت متأخّرة.

٢ ـ لعلّه ينظر إلى مصحف ابن مسعود الذي جعلها من المثاني. أمّا في مصحف اُبيّ بن كعب فهي من المئين.

٣ ـ أيضاً ينظر إلى مصحف ابن مسعود الذي أثبت فيه البسلمة لسورة براءة.

٤ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٢٢١ و ٣٣٠.

٥ ـ وهكذا روى العياشي، ج ٢، ص ٧٣، ح ٣ بسنده عن أحدهما عليهما السلام قال: الأنفال وسورة براءة واحدة.

وهناك اختلاف بين العلماء في انّهما سورة واحدة أم اثنتان؟ راجع: مجمع البيان، ج ٥، ص ٢. وربّما كان يرجّح القول بأنّهما سورة واحدة ماورد: إنّما كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم‌الله الرحمان الرحيم ابتداء للاُخرى. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٩، ح ٥.

الثبات والكفاح لتثبيت كلمة الله في الأرض. وحيث لم يرد نقل بشأنهما فقرن بينهما وجعلهما سورة واحدة هي سابعة الطوال.

ولعلّه لم يتنبّه أنّ سورة براءة نزلت نقمة بالكافرين، ومن ثمّ لم تنزل معها التسمية التي هي رحمة، حيث لايتناسب بدء نقمة برحمة. قال أميرالمؤمنين عليه السلام: البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف.[١]

وهكذا اختلافات يسيرة جاءت في المصحف العثمانيّ مع بقيّة المصاحف، لا في أُصول منهج الترتيب العامّ، بل في سور كلّ نوع من التنويع، المتقدّم. وكان الجدول السابق كفل بيان هذا الاختلاف.

٢ ـ النقط والتشكيل

كانت المصاحف العثمانية خلواً عن كلّ علامة مائزة بين الحروف المعجمة والحروف المهملة، وفق طبيعة الخطّ الذي كان دارجاً عند العرب آنذاك. فلا تمييز بين الباء والتاء ولا بين الياء والثاء ولابين الجيم والحاء والخاء. وهكذا كان مجرّداً عن الحركة واالإعراب... وكان على القارئ بنفسه أن يميّز بينهما عند القراءة حسب مايبدو له من قرائن. كما كان عليه أن يعرف هو بنفسه وزن الكلمة وكيفيّة إعرابها أيضاً.

ومن ثمّ كانت قراءة القرآن في الصدر الأوّل موقوفة على مجرّد السماع والنقل فحسب. ولولا الإسماع والإقراء كانت القراءة في نفس المصحف الشريف ممتنعة تقريباً.

مثلاً: لم تكن كلمة «تبلو» تفترق في المصحف عن كلمة «نبلو» أو «نتلو» أو «تتلو» أو «يتلو»... وكذا كلمة «يعلمه» لم تكن تتميّز عن كلمة «تعلمه» أو «نعلمه» أو

---

١ ـ المستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٣٣٠؛ والإتقان، ج ١، ص ١٨٤؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٢.

«بعلمه».

وهكذا قوله: «لتكون لمن خلفك آية» ربّما قرأه بعضهم: «لمن خلقك». وفيما يلي أمثلة واقعيّة، اختلفت القراءة فيها، مغبّة خلوّ المصاحف من النقط:

«نُنْشِزُها» «نُنشرها». «نَنشرها».[١]

«يُعَلِّمُهُ». «نعلمه».[٢]

«تَبْلُو». «تتلو».[٣]

«نُنَجّيكَ». «ننحيكَ».[٤]

«لَنُبَوِّئَنَّهُمْ». «لنثوينّهم».[٥]

«نُجازي». «يجازي».[٦]

«فَتَبَيَّنُوا». «فتثبتوا».[٧]

إلى غيرها من أمثلة وهي كثيرة.

هذا... وخلوّ المصاحف الأوّلية من علائم فارقة، كان عمدة السبب في اختلاف القراءات فيما بعد. إذ كان الاعتماد على الحفظ والسماع، وبطول الزمان ربّما كان يحصل اشتباه في النقل أو خلط في السماع، مادام الإنسان هو عرضة للنسيان، والاشتباه حليفه مهما دقّق في الحفظ، لولم يقيّده بالكتابة. ومن ثمّ قيل: ماحُفظ فرّ وما كتب قرّ.

أضف إلى ذلك تخلخل الأُمم غير العربيّة في الجزيرة وتضخّم جانبهم مطرداً مع التوسعة في القطر الإسلامي العريض. فكان على أعضاء المشروع المصاحفي في وقته أن

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٥٩. راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٦٨. ٢ ـ آل‌عمران ٣: ٤٨. راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٤٤.
٣ ـ يونس ١٠: ٣٠. راجع: مجمع البيان، ج ٥، ص ١٠٥. ٤ ـ يونس ١٠: ٩٢. راجع: مجمع البيان، ج ٥، ص ١٣٠.
٥ ـ العنكبوت ٢٩: ٥٨. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٢٩٠.
٦ ـ سبأ ٣٤: ١٧. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٨٤.
٧ ـ الحجرات ٤٩: ٦. راجع: مجمع البيان، ج ٣، ص ٩٤ وج ٩، ص ١٣١.

يفكّروا في مستقبل الأُمّة الإسلامية، ويضعوا علاجاً لما يحتمل الخلل في قراءة القرآن قبل وقوعه. ولكن أنّى وروح الإهمال والتساهل كان مسيطراً تماماً على المسؤولين آنذاك.

هذا.. وقد أغرب ابن الجزري، فزعم أنّ المسؤولين آنذاك تركوا وضع العلائم عن عمد وعن قصد، لحكمة! قال: وذلك ليحتمل الخطّ ما صحّ نقله وثبتت تلاوته عن النبيّ ﷺ إذ كان الاعتماد على الحفظ والسماع لاعلى مجرد الخطّ.[١]

ووافقه الزرقاني على هذا التبرير المفضوح، قال: كانوا يرسمونه بصورة واحدة خالية من النقط والشكل، تحقيقاً لهذا الاحتمال.[٢]

لكن لامجال لهذا التبرير بعد أن نعلم أنّ الخطّ عند العرب حينذاك كان بذاته خالياً عن كلّ علامة مائزة. وكان العرب هم في بداءة معرفتهم بالخطّ والكتابة، فلم يكونوا يعرفون من شؤون الإعجام والتشكيل وسائر العلائم شيئاً لحدّ ذاك الوقت.

نشأة الخطّ العربيّ

ليس في آثار العرب بالحجاز مايدلّ على معرفتهم بالكتابة، إلّا قبيل الإسلام. والسبب في ذلك أنّ العرب كان قد غلب على طباعهم البداوة، فكانوا في ترحال وارتحال أو حروب وغارات، وكانت تصرفهم عن التفكّر في شؤون الصناعات، والكتابة من الصناعات الحضريّة.

لكن بعض العرب ممّن رحلوا إلى الشام والعراق في تجارة أو سفارة، جعلوا يتخلّقون بأخلاق تلكم الأُمم المتحضّرة. فاقتبسوا منهم الكتابة والخطّ على سبيل

---

١ ـ النشر في القراءات العشر، ج ١، ص ٧.

٢ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٥٨.

الاستعارة، فعادوا وبعضهم يكتب بالخطّ النبطي أو الخطّ السرياني. وظلّ الخطّان معروفين عند العرب إلى مابعد الفتح الإسلامي.

وقد تخلّف عن الخطّ النبطيّ الخطّ النسخيّ ـوهو المعروف اليوم ـ وتخلّف عن الخطّ السريانيّ الخطّ الكوفي. وكان يسمّى الخط الحيري، نسبة إلى الحيرة ـمدينة عربية قديمة بجوار الكوفة اليوم ـ لأنّ هذا التحوّل حصل فيها. ثمّ بعد بناء الكوفة وانتقال الحضارة العربيّة إليها، تحوّل اسم هذا الخطّ إلى الخطّ الكوفيّ. وظلّ هذا الخطّ هو المعروف والمتداول بين العرب في فترة طويلة.

والخطّ النبطيّ ـالمتحوّل إلى الخطّ النسخيّ ـ تعلّمته العرب من حوران، أثناء تجارتهم إلى الشام. أمّا الخطّ الحيريّ أو الكوفيّ فقد تعلّموه من العراق. فكانوا يستخدمون القلمين جميعاً: الأوّل في المراسلات والكتابات الاعتيادية والثاني للكتابات ذوات الشأن كالقرآن والحديث.

ودليلا على تخلّف الخطّ الكوفيّ عن السريانيّة: أنّهم كتبوا في القرآن «الكتب» بدل «الكتاب». و«الرحمن» بدل «الرحمان». وتلك قاعدة مطّردة في الخطّ السريانيّ، يحذفون الألفات الممدوة في أثناء الكلمة.

جاء الإسلام والخطّ غيرمعروف عند العرب الحجازيين، فلم يكن يعرف الكتابة إلّا بضعة عشر رجلاً، واستخدمهم النبيّ صلى الله عليه وآله لكتابة الوحي. لكنّه جعل يحرّض المسلمين على تعلّم الخطّ حتى نموا وكثروا.

وقد بقي الخطّان: النسخ والكوفيّ، هما المعروفين بين المسلمين، يعملون في تطويرهما وتحسينهما، حتى نبغ ابن مقلة في مفتتح القرن الرابع الهجري، وأدخل في خطّ النسخ تحسينات فائقة. وهكذا بلغ الخط النسخيّ العربيّ ذروته في الكمال على نحو ماهو

عليه الآن.

وظلّ الخطّ الكوفي، على عكس ازدهار الخطّ النسخيّ وتقدّمه، يتدهور إلى أن هجر تماماً، وكتبت المصاحف بعدئذ بالخطّ النسخي الجميل. وقد كانت تكتب بـالخطّ الكوفي نحو قرنين أو أكثر.[١]

أوّل من نقّط المصحف

كان الخطّ عندما اقتبسته العرب من السريان والأنباط، خاليا من النقط، ولاتزال الخطوط السريانيّة بلا نقط إلى اليوم. وهكذا جرت عليه العرب يكتبون بلا نـقط حـتى منتصف القرن الأوّل، وبعده بقليل جعل الخـطّ العـربي يـنتقل إلى دوره الجـديد، دور تشكيل الخطّ وتنقيطه، وسيأتي الكلام عن التشكيل.

وفي ولاية الحجّاج بن‌يوسف الثقفيّ على العراق من قبل عبدالملك بـن مـروان (٧٥-٨٦) تعرّف الناس على نقط الحروف المعجمة وامتيازها عن الحـروف المـهملة. وذلك على يد يحيى بن‌يعمر ونصر بن‌عاصم، تلميذيّ أبي‌الأسود الدؤلي.[٢]

والسبب في ذلك: أنّ الموالي في هذا العهد قد كثروا، وازدحم القـطر الإسـلاميّ بأجانب عن اللغة العربيّة، وكان منهم العلماء والقرّاء، والعربيّة ليست لغتهم، فكان لابدّ أن يقع في تلفّظهم لحن، ومن ثمّ كثر التصحيف في القراءات، وهال المسلمين ذلك.

---

١ ـ راجع: دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي، ج ٣، ص ٦٢١؛ وتاريخ التمدّن الإسلاميّ لجرجي زيدان، ج ٣، ص ٥٨-٦٠؛ والمقدّمة لابن خلدون: ص ٤١٧-٤٢١؛ وأصل الخطّ العربيّ لخليل يحيى نامي، المجلد الثالث؛ والخـطّ العربيّ الإسلاميّ لتركي عطيّة، ص ٢٢؛ وانتشار الخطّ العربيّ لعبد الفتاح عبادة، ص ١٣-١٥؛ ومصوّر الخطّ العربيّ لناجي المصرف، ص ٣٣٨؛ وتاريخ الخطّ العربيّ لمحمدطاهر الكرديّ، ص ٥٤.

٢ ـ دائرة معارف القرن العشرين، ج ٣، ص ٧٢٢؛ ومناهل العرفان، ج ١، ص ٣٩٩-٤٠٠؛ وتاريخ القرآن، ص ٦٨.

حكى أبو أحمد العسكري[١] أنّ الناس غبروا يقرأون في مصحف عثمان نيفا وأربعين سنة إلى أيّام عبدالملك بن‌مروان، ثمّ كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات. فيقال: إنّ نصر بن‌عاصم قام بذلك فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها...[٢]

وقال الأُستاذ الزرقاني: أوّل من نقّط المصحف هو يحيى بن‌يعمر ونصر بن‌عاصم تلميذا أبي الأسود الدؤلي.[٣]

أوّل من شكّل المصحف

وهكذا كان الخطّ العربيّ آنذاك مجرّداً عن التشكيل (علائم حركة الكلمة وإعرابها) وبطبيعة الحال كان المصحف الشريف خلواً عن كلّ علامة تشير إلى حركة الكلمة أو إعرابها.

بيد أنّ القرآن في الصدر الأوّل كان محفوظاً في صدور الرجال ومأمونا عليه من الخطأ واللحن، بسبب أنّ العرب كانت تقرؤه صحيحاً حسب سليقتها الفطريّة التي كانت محفوظة لحدّ ذاك الوقت. أضف إلى ذلك شدّة عنايتهم بالأخذ والتلقّي عن مشايخ كانوا قريبي العهد بعصر النبوّة. فقد توفّرت الدواعي على حفظه وضبطه صحيحاً حينذاك.

أمّا وبعد منتصف القرن الأوّل حيث كثر الدخلاء وهم أجانب عن اللغة فإنّ السليقة كانت تعوزهم، فكانوا بأمسّ حاجة إلى وضع علائم ودلالات تؤمّن عليهم الخطأ واللحن.

مثلاً: لفظة «كتب» كانت العرب تعرف بسليقتها الذاتيّة، أنّها في قوله تعالى: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»[٤] تقرأ مبنيّاً للفاعل، وفي قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ»[٥] مبنيّاً

١ ـ في كتاب التصحيف، ص ١٣.

٢ ـ وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٢ في ترجمة الحجاج.

٣ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٤٠٦.

٤ ـ الأنعام ٦: ٥٤.

للمفعول. أمّا الرجل الأعجميّ فكان يشتبه عليه قراءتها معلومة أو مجهولة.

كما أنّ أبا أسود سمع قارئاً يقرأ: «أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ»[٦] ـ بكسر اللام ـ فقال: ماظننت أنّ أمر الناس آل إلى هذا، فرجع إلى زيادبن أبيه ـ وكان واليا على الكوفة (٥٠-٥٣) وكان قد طلب إليه أن يصنع شيئاً يكون للناس إماماً، ويعرف به كتاب الله، فاستعفاه أبوالأسود، حتى سمع بنفسه هذا اللحن ـ في كلام اللّه ـ فعند ذلك عزم على إنجاز ماطلبه زياد[٧] فقال: أفعل ما أمر به الأمير، فليبغ لي كاتباً مجيداً يفعل ما أقول. فأتوه بكاتب من عبد قيس فلم يرضه، فأتوه بآخر وكان واعياً فاستحسنه.

قال أبوالأسود للكاتب: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه من أعلاه. وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف[٨] وفي لفظ ابن عياض: زيادة قوله: فإذا أتبعت ذلك غنّة فاجعل النقطة نقطتين ففعل.[٩]

وظلّ الناس بعد ذلك يستعملون هذه النقط علائم للحركات، غير أنّهم ـ في الأغلب ـ كانوا يكتبونها بلون غير لون خطّ المصحف. والأكثر يكتبونها بلون أحمر.

والظاهر أنّ تبديل النقط السود إلى نقط ملوّنة حدث بعد وضع الإعجام على يد نصربن عاصم الآنف، للفرق بين النقطة التي هي علامة الحركة، والتي هي علامة الإعجام.

قال جرجي زيدان: وقد شاهدنا في دار الكتب المصريّة مصحفاً كوفيّاً منقّطاً على هذه الكيفيّة، وجدوه في جامع عمرو بن‌العاص بجوار القاهرة، وهو من أقدم مصاحف

---

٥ ـ البقرة ٢: ١٨٣. ٦ ـ التوبة ٩: ٣.

٧ ـ يقال: إنّ زياداً هوالذي دبّر هذه الطريقة ليجبر بها أباالأسود على قبول ما طلبه منه. فأوعز إلى رجل من أتباعه أن يقعد في طريق أبي الأسود ويتعمّد اللحن في القراءة. راجع: الخطّ العربيّ الإسلاميّ، ص ٢٦؛ والخطّ الكوفيّ، ص ٢٣.

٨ ـ الفهرست لابن النديم، ص ٦٦ الفنّ الأوّل من المقالة الثانية.

٩ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، للسيد حسن الصدر، ص ٥٢.

العالم، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون، فالنقطة من فوق الحرف فتحة وتحتها كسرة وبين يديها ضمّة، كما وصفها أبو الأسود.[١]

وقد جرى بالأندلس استعمال أربعة ألوان للمصاحف هي: اللون الأسود، للحروف. واللون الأحمر، للشكل بطريقة النقط. واللون الأصفر، للهمزات. واللون الأخضر، لألفات الوصل.[٢]

تحسينات متأخرة

قال جلال‌الدين: كان الشكل في الصدر الأوّل نقطاً، فالفتحة نقطة على أوّل الحرف، والضمّة على آخره والكسرة تحت أوّله. وعليه مشى الداني. والذي اشتهر الآن الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف، وهوالذي أخرجه الخليل بن أحمد الفراهيدي[٣] فالفتح شكلة مستطيلة فوق الحرف، والكسر كذلك تحته، والضمّ واو صغيرة فوقه، والتنوين زيادة مثلها... قال: وأوّل من وضع الهمز والتشديد والروم و الإشمام الخليل أيضاً.[٤]

وهكذا كلّما امتدّ الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بالقرآن وتيسير رسمه من طور إلى طور، حتى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري، بلغ الرسم ذروته في الجودة والحسن، وأصبح الناس يتنافسون في اختيار الخطوط الجميلة وابتكار العلامات المميّزة، حتى جعلوا لسكون الحرف رأس خاء، ومعناها: أنّ الحرف المسكّن أخفّ من

---

١ ـ تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ٦١.

٢ ـ الخطّ العربيّ الإسلاميّ، ص ٢٧؛ وتاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني، ص ٦٨ نقلاً عن عثمان بن سعيد الداني في كتابه «المقنع».

٣ ـ هو أوّل من صنّف النقط ورسمه في كتاب وذكر علله (المحكم: ٩).

٤ ـ الإتقان، ج ٤، ص ١٦٢؛ وكتاب النقط لأبي عمرو الداني، ص ١٣٣.

الحرف المتحرّك. أو برأس ميم، ومعناه: أنّ الحرف مسكّن فلاتحرّكه. وعلامة التشديد ثلاث سنايات، ومعناها: شدّ الحرف شديداً ووضعوا لألفات الوصل رأس صاد، ومعناه: صل هذا الحرف.. وهكذا لطفت صناعة رسم الخطّ لطفا، ورقّت حاشيته تهذيباً حسناً وظرفاً.[١]

وأمّا وضع الأعشار والأخماس وغيرهما من علائم التحزيب والتجزئة، فقيل: إنّ المأمون العباسي هو الذي أمر بذلك.

وقيل: إن الحجّاج فعل ذلك، قال أحمدبن الحسين: بعث الحجّاج إلى قرّاء البصرة فجمعهم واختار منهم جماعة. وقال: عدّوا حروف القرآن، فجعلوا يعدّونها أربعة أشهر، وإذا هي: ٧٧٤٣٩ كلمة. و ٣٢٣٠١٥ حرفا. وفي رواية: ٣٤٠٧٤٠ حرفا. وينتصف القرآن على الفاء من قوله: «وَلْيَتَلَطَّف».[٢] وعدد آياته في رواية البصريين ـ وهي الأصح ـ (٦٢٣٦) آية.

وقد اشتهر تحزيب القرآن إلى مأة وعشرين حزباً وتجزئته إلى ثلاثين جزء تسهيلاً لقراءته في المدارس وغيرها. وذكر أبوالحسن علي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣) في كتابه «جمال القرّاء» أنّه عمل أبي عثمان عمروبن عبيد (ت ١٤٤) بطلبٍ من المنصور العباسي (ت ١٥٨): طلب منه أن يجزّئ القرآن على حسب أيام السنة (٣٦٠) ليسهل حفظه يوميّاً. فقام أبوعثمان بهذه المهمّة وجزّأ القرآن إلى ثلاثين جزءاً، كلّ جزءٍ إلى اثني عشر حزباً، ليتمّ ثلاثمأة وستون حزباً، كما أراد.[٣]

وأطول سورة في القرآن هي البقرة، وأقصرها الكوثر.

---

١ ـ المصباح لسلامة بن عياض (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، ص ٥٢).

٢ ـ الكهف ١٨: ١٩.

٣ ـ راجع: جمال القرّاء وكمال الإقراء للسخاوي، ج ١، ص ٣٧٩-٣٨٠.

وأطول آية في القرآن آية الدين[١] تحتوي على ١٢٨ كلمة وهي ٥٤٠ حرفاً.

وأقصر آية «وَالضُّحىٰ» ثمّ «وَالْفَجْرِ». حروفها: ٥ لفظا و٦ رسماً.

وأطول كلمة في القرآن: «فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ»[٢] أحد عشر حرفاً لفظاً ورسماً.[٣]

وأخرج أحمد في مسنده عن أوس بن‌حذيفة، قال: كنت في الوفد الذين أتوا رسول‌الله ﷺ كانوا أسلموا من ثقيف من بني مالك فأنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلّى العشاء الآخرة انصرف إلينا يحدّثنا ما لقي من قومه بمكة وبعد المهاجرة إلى المدينة. فمكث عنّا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء قال: قلنا: ما أمكثك عنّا يا رسول‌الله ﷺ؟ قال: طرأ عنّي حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول‌الله ﷺ حين أصبحنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ست سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصّل من سورة ق حتى تختم.[٤]

والظاهر أنّ الجملة الأخيرة هي من كلام أوس نفسه، تفريعاً على ماذكره أصحاب رسول‌الله ﷺ لأنّ القرآن لم يؤلّف حينذاك مصحفاً بين دفّتين. وإنّما كانت السور مكتملة، فكانوا يقسّمون السور إلى أعداد متساوية لتسهل قراءتها حسب تقسيم الأيام أو الأوقات.

مخالفات في رسم الخطّ

لاشكّ أنّ الخطّ وضع ليعبّر عن المعنى بنفس اللفظ الذي ينطق به، فالكتابة في الحقيقة قيد للّفظ المعبّر عن المعنى المقصود. وعليه فيجب أن تكون الكتابة مطابقة للفظ

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٨٢.
٢ ـ الحجر ١٥: ٢٢.
٣ ـ راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥٢.
٤ ـ مسند أحمد، ج ٤، ص ٣٤٣.

المنطوق به تماماً، ليكون الخطّ مقياساً للفظ من غير زيادة عليه أو نقصان.

غير أنّ أساليب الإنشاء والكتابة تختلف عن هذه القاعدة بكثير. ولكن لابأس بذلك مادام الاصطلاح العامّ جارياً عليه، فلايسبّب اشتباهاً أو التباساً في المراد.

هذا... ورسم الخطّ في المصحف الشريف تخلّف حتى عن المصطلح العامّ. ففيه الكثير من الأخطاء الإملائيّة وتناقضات في رسم الكلمات، بحيث إذا لم يكن سماع وتواتر في قراءة القرآن، ولايزال المسلمون يتوارثونها جيلا بعد جيل في دقّة وعناية بالغة، لأصبح قراءة كثير من كلمات القرآن، قراءة صحيحة، مستحيلة.

ويرجع السبب ـكما تقدّم ـإلى عدم أضطلاع العرب بفنون الخطّ وأساليب الكتابة ذلك العهد. بل ولم يكونوا يعرفون الكتابة غيرعدد قليل، خطّا بدائيّاً رديئاً للغاية. كما يبدو على خطوط باقية من الصدر الأوّل.[1]

كما ويبدو أنّ الذين انتدبهم عثمان لكتابة المصحف كانوا غاية في رداءة الخطّ وجهلاء بأساليب الكتابة، حتى ولو كانت بدائية آنذاك.

يحدّثنا ابن أبيداود ـكما سبق ـ: أنّهم بعد ما أكملوا نسخ المصاحف، رفعوا إلى عثمان مصحفاً فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها. ثمّ قال: أما لوكان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا.[2]

يبدو من هذه الرواية أنّ عثمان كان يعلم من هذيل معرفتها بأُسلوب الإنشاء ذلك الوقت، ومن ثقيف حسن كتابتها وجودة خطّها. الأمر الذي فقده في المصحف الذي رفع إليه. ومن ثمّ يؤخذ عليه انتدابه الأوّل الذي تمّ من غير دقّة ولاعناية!

وروى الثعلبي في تفسيره ـعند قوله تعالى: «إنْ هٰذانِ لَساحِرانِ»[3] ـأنّ عثمان قال:

---

١ ـ راجع: مقدّمة ابن خلدون، ص ٤١٩ و ٤٣٨.
٢ ـ المصاحف، ص ٣٢ـ٣٣.
٣ ـ طه ٢٠: ٦٣.

إنّ في المصحف لحنا ستقيمه العرب بألسنتها. فقيل له: ألا تغيّره؟ ـ أي ألا تصحّحه؟ ـ فقال (عن تكاسل أو تساهل): دعوه فإنّه لا يحلّل حراما ولا يحرّم حلالا.[1]

هذا... ولابن روزبهان ـ هنا ـ محاولة فاشلة. قال: وأمّا عدم تصحيح لفظ القرآن، لأنّه كان يجب عليه (على عثمان) متابعة صورة الخط، وهكذا كان مكتوباً في المصاحف، ولم يكن له التغيير جائزاً، فتركه لأنّه لغة بعض العرب.![2]

ماندري ماذا يعني بقوله: كان مكتوباً في المصاحف، أيّ مصاحف؟ وكيف يجمع بين قوله هذا وقوله أخيراً: لأنّه لغة بعض العرب؟!

وعلى أيّ تقدير فإنّ تساهل المسؤولين، ذلك العهد، أعقب على الأُمّة ـ مع الأبد ـ مكابدة أخطاء ومناقضات جاءت في المصحف الشريف، من غير أن تجرأ العرب أو غيرهم على إقامتها عبر العصور.

نعم لم يمسّوا القرآن بيد إصلاح بعد ذلك قط لحكمة، هي خشية أن يقع القرآن عرضة تحريف أهل الباطل بعدئذ بحجّة إصلاح خطئه أو إقامة أوده، فيصبح كتاب الله معرضاً خصباً لتلاعب أيدي المغرضين من أهل الأهواء.

وقد قال علي عليه السلام كلمته الخالدة: «إنّ القرآن لايُهاج اليوم ولا يحوّل».[3] فأصبحت مرسوماً قانونياً التزم به المسلمون مع الأبد.

(ملحوظة): ليس وجود أخطاء إملائية في رسم المصحف الشريف بالذى يمسّ كرامة القرآن:

أولا: القرآن ـ في واقعه ـ هو الذي يقرأ، لا الذي يكتب. فلتكن الكتابة بأيّ أُسلوب، فإنّها لاتضرّ شيئا مادامت القراءة باقية على سلامتها الأُولى التي كانت تقرأ على

---

١ ـ دلائل الصدق للمظفر، ج ٣، ص ١٩٦.
٢ ـ المصدر، ص ١٩٧.
٣ ـ جامع البيان، ج ٢٧، ص ١٠٤.

عهد الرسول ﷺ وصحابته الأكرمين.

ولاشكّ أنّ المسلمين احتفظوا على نصّ القرآن بلفظه المقروء صحيحاً، منذ الصدر الأوّل فإلى الآن، وسيبقى مع الخلود في تواتر قطعيّ.

ثانياً: تخطئة الكتابة هي استنكار على الكتبة الأوائل: جهلهم أو تساهلهم، وليست قدحاً في نفس الكتاب، الذي «لايَأْتيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلامِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ».[١]

ثالثاً: انَّ وجود أخطاء ظلّت باقية لم تتبدّل، يفيد المسلمين في ناحية احتجاجهم بها على سلامة كتابهم من التحريف عبرالقرون. إذ أنّ أخطاء إملائية لاشأن لها، وكان جديراً أن تمدّ إليها يد الإصلاح، ومع ذلك بقيت سليمة عن التغيير، تكريماً بمقام السلف فيما كتبوه، فأجدر بنصّ الكتاب العزيز أن يبقى بعيداً عن احتمال التحريف والتبديل رأساً. وقلنا ـ آنفاً ـ: إنَّ الحكمة في الإبقاء على تلكم الأخطاء كانت هي الحذر على نفس الكتاب: أن لا تمسّه يد سوء بحجّة الإصلاح، ومن ثمّ أصبحت سدّاً منيعاً دون أطماع المغرضين، وبذلك بقي كتاب الله يشقّ طريقه إلى الأبديّة بسلام.

(ملحوظة أُخرى): بأيدينا آثار ـ رويت بأسانيد، حكم أرباب النقد والتمحيص بصحّتها ـ تنسب إلى كثير من الصحابة والتابعين اعتقادهم بخطأ رسم المصحف العثماني، وعدم ثقتهم بالكتبة الأُولى، فيما كانوا يتشكّكون في ثبت آية أو كلمة هل كانت كما نزلت على رسول الله ﷺ؟ وهذا يبدو غريباً للغاية!

نعم إن دلّت فإنّما تدلّ على أنّ الثقة بالرسم القائم من قبل الكتّاب الذين انتدبهم عثمان، كانت قد زالت عند الصحابة والتابعين، إذ وجدوهم غير أكفاء لهكذا مشروع

---

١ ـ فصّلت ٤١: ٤٢.

جلل. وقد أخذوا من لحن المرسوم دليلا على قصورهم في الأمر، ومن ثمّ لم يثقوا بالرسم الموجود.

هذا غاية ماتدلّ عليه تلكم الآثار، أمّا المحتوى فلانكاد نصدّقه على أي تقدير. وفيما يلي نماذج من ذلك:

١ ـ روى ابن أبي داود وأبوعبيد بسندهما إلى عروة بن الزبير، قال: سألت عائشة عن لحن القرآن في ثلاث آيات: «إنْ هٰذانِ لَساحِرانِ».[١] و«إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هادُوا والصّابِئُونَ».[٢] و«لٰكِنِ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقيمينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ»؟![٣]

فقالت: يا ابن أُختي، هذا عمل الكتّاب، أخطأوا في الكتابة.[٤]

قال جلال‌الدين السيوطي: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.[٥]

٢ ـ روى أحمدبن حنبل بسنده إلى أبي خلف مولى بني جمح: أنّه دخل مع عبيدبن عمير على عائشة في سقيفة زمزم، ليس في المسجد ظلّ غيرها، فرحّبت بعبيد بن عمير، وقالت: ماجاء بك؟ قال: جئت أن أسألك عن آية في كتاب الله، كيف كان رسول‌الله ﷺ يقرؤها؟ فقالت: أيّة آية؟ فقال: «وَالَّذينَ يُؤْتُونَ ما آتَوا [ـ أو ـ يأتون ما أتوا]»؟[٦]

فقالت: أيّتهما أحبّ إليك؟. قال: والذي نفسي بيده لإحداهما أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً! قالت: أيّتها؟ قال: «يأتون ما أتوا»!

---

١ ـ طه ٢٠: ٦٣. والقاعدة تقتضي نصب اسم إنَّ. وعن أبي‌عمرو: إنّي لأستحي أن أقرأ «إنْ هٰذانِ لَساحِرانِ»! التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٧٤.

٢ ـ المائدة ٥: ٦٩. ومقتضى القاعدة هو النصب لأنّه عطف على اسم إنّ.

٣ ـ النساء ٤: ١٦٢. ويجب الرفع، لأنّه عطف على مرفوع.

٤ ـ المصاحف، ص ٣٤؛ وفضائل القرآن لأبي عبيدالقاسم بن سلام، ص ١٦١؛ والانتصار للباقلاني، ص ١٨٤؛ وتأويل مشكل القرآن، ص ٢٥-٢٦.

٥ ـ الإتقان، ج ٢، ص ٢٦٩.

٦ ـ المؤمنون ٢٣: ٦٠. أي ممدوداً مزيداً فيه أو مقصوراً مجرّداً؟

قالت: أشهد أنّ رسول‌الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أُنزلت، ولكن الهجاء حرف.[١]

٣ ـ روى أبوجعفر الطبري والحاكم النيسابوري ـ وصحّحه ـ[٢] عن ابن‌عباس، قال في قوله تعالى «لَاتَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِها»:[٣] هي من خطأ الكاتب. وإنّما هي: حتى تستأذنوا وتسلّموا...[٤]

٤ ـ وأخرج أبوعبيد عن ابن عباس، قال: أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيّكم «[ووصّى] رَبُّكَ أَنْ لاتَعْبُدُوا إِلّا إِيّاهُ»[٥] فالتصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس «وَقَضىٰ رَبُّكَ» ـ ولم يكن المصحف منقوطاً آنذاك ـ قال: ولونزلت على القضاء ما أشرك به أحد.[٦]

وفي لفظ ابن أشتة: استمدّ الكاتب مداداً كثيراً فالتزقت الواو بالصاد.[٧]

٥ ـ وأخرج ابن المنذر وسعيدبن منصور عن ابن عباس: أنّه كان يقرأ: «وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسىٰ وَهارُونَ الْفُرْقانَ [ضياءً ـ والقراءة المشهورة:] وَضِياءً»[٨] ثمّ قال: خذوا ـ أو انزعوا ـ هذه الواو من هنا، واجعلوا هاهنا: في أوّل قوله تعالى: «[و] الَّذينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ»[٩] لأنّه زعمها عطفا على الموصول قبلها![١٠] قال ابن‌حجر: هو إسناد جيّد.[١١]

---

١ ـ مسند أحمد، ج ٦، ص ٩٥. والثابت في المصحف هوالمدّ، ماضيا مزيداً فيه. والمعنى يختلف على القراءتين: فعلى المدّ: يعطون الشيء وهم يخشون أن لايقبل منهم عند الله. وعلى القصر: يعملون العمل وهم يخافون الله. راجع: مجمع البيان، ج ٧، ص ١١٠.

٢ ـ الإتقان، ج ٢، ص ٢٧٥-٢٧٦.

٣ ـ النور ٢٤: ٢٧.

٤ ـ جامع البيان، ج ١٨، ص ٨٧.

٥ ـ الاسراء ١٧: ٢٣.

٦ ـ الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٧٠.

٧ ـ الإتقان، ج ٢، ص ٢٧٥.

٨ ـ الأنبياء ٢١: ٤٨.

٩ ـ آل عمران ٣: ١٧٣. والآية غير مصدّرة بالواو في القراءة المشهورة.

١٠ ـ الإتقان، ج ٢، ص ٢٧٦؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ٣٢٠.

١١ ـ فتح الباري، ج ٨، ص ٢٨٣.

٦ ـ أخرج أبوجعفر الطبري وابن الأنباري عن ابن عباس، كان يقرأ: «أَفَلَمْ [يتبين] الَّذينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللّه لَهَدى النّاسَ جَميعاً». فقيل له: إنّها في المصحف «أَفَلَمْ يَـيْأَسِ»[1] فقال: الكاتب كتبها وهو ناعس.

وفي لفظ الطبري: كتب الكاتب، الأُخرى ـ أي القراءة المشهورة ـ وهو ناعس. قال ذلك بصورة جزم.[2]

قال ابن‌حجر: هذا حديث رواه الطبري وعبدبن حميد بإسناد صحيح، كلّهم من رجال البخاري عن ابن‌عباس.[3]

وقد بالغ الزمخشري في الإنكار على صحّة الأثر.[4] فقال ابن‌حجر في ردّه: هذا إنكار من لاعلم به بالرجال.. وتكذيب المنقول بعد صحّته ليس من دأب أهل التحصيل، فلينظر في تأويله بمايليق به.

٧ ـ وعن الضحّاك أنّه قال: كيف تقرأ هذا الحرف...؟ قال: «وَقَضىٰ رَبُّكَ»؟ قال: ليس كذلك نقرؤها نحن ولا ابن عباس، إنّما هي: وَوَصّى ربّك، وكذلك كانت تقرأ وتكتب. فاستمدّ كاتبكم فاحتمل القلم مداداً كثيراً فالتزقت الواو بالصاد ثمّ قرأ: «وَلَقَدْ وَصَّيْنا الَّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا الله».[5] ولوكانت قضى من الربّ لم يستطع أحد ردّ قضائه. ولكنّه وصيّة أوصى بها العباد.[6]

٨ ـ أخرج ابن أبي‌داود عن سعيدبن جبير، قال: في القرآن أربعة أحرف لحن: «الصّابِئُونَ».[7] «وَالْمُقيمينَ».[8] «فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصّالِحينَ».[9] «إِنْ هٰذانِ لَساحِرانِ».[10]

---

١ ـ الرعد ١٣: ٣١.

٢ ـ جامع البيان، ج ١٣، ص ١٠٤؛ والإتقان، ج ٢، ص ٢٧٥.

٣ ـ فتح الباري، ج ٨، ص ٢٨٢.

٤ ـ الكشاف، ج ٢، ص ٥٣٠-٥٣١.

٥ ـ النساء ٤: ١٣١.

٦ ـ الإتقان، ج ٢، ص ٢٧٦.

٧ ـ المائدة ٥: ٦٩. والقاعدة: النصب.

٨ ـ النساء ٤: ١٦٢. والقاعدة: الرفع.

٩ ـ المنافقون ٦٣: ١٠. والقاعدة: نصب «وأكون».

١٠ ـ طه ٢٠: ٦٣. والقياس: النصب. راجع: المصاحف، ص ٣٣.

٩ ـ أخرج ابن أبي داود ـ أيضاً ـ عن أبي خالد، قال: قلت لأبان بن عثمان: كيف صارت «وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ». وما بين يديها وما خلفها رفع؟! قال: من قبل الكاتب. كتب ما قبلها. ثمّ سأل المملي: ما أكتب؟ قال: اكتب المقيمين الصلاة. فكتب ما قيل له.[١]

١٠ ـ أخرج الطبري عن قيس بن سعد؛ قال: قرأ رجل عند علي عليه السلام «وَطَلْحٍ مَنضُودٍ».[٢] فقال عليه السلام: ما شأن الطلح، إنّما هو «وطلع منضود» ثمّ قرأ: «لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ»[٣] فقلنا: أوَلا نحوّلها؟ فقال: إنّ القرآن لايُهاج اليوم ولا يحوّل.[٤]

تلك نماذج عشرة عرضناها، أردنا بذلك لازم مدلولاتها: وهو عدم ثقة السلف بالكتبة الأُولى، فلم يطمأنّوا إلى ما أثبتوه أن تكون هي القراءة الصحيحة الثابتة. فلو كانوا عرفوا فيهم الكفاءة والإتقان لما تردّدوا في صحّة ما أثبتوه... هذا غاية ما تدلّنا عليه تلكم الآثار، أمّا نفس المحتوى وصحّة ما تضمّنته من تبديل نصّ المصحف الشريف، فهذا شيء لانكاد نصدّقه ألبتة. لأنّه هو التحريف الذي أجمعت الأُمّة الإسلاميّة على عدم تسرّبه إلى كتاب الله العزيز الحميد: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».[٥] فلابدّ من الأخذ في تأويلها إلى وجه معقول أو رفضها رأساً.[٦]

وأجاب ابن أشتة عن هذه الآثار بأنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، وهي القراءات السبع، كلّها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ فيما زعموا ـ فالوارد في هذه الروايات يكون المقصود: أنّ الكتبة الأوائل أخطأوا في القراءة التي وقع اختيارهم عليها، فكان ينبغي أن يختاروا للثبت في المصحف تلك القراءة التي رجّحها أصحاب هذه الروايات كعائشة

---

١ ـ المصدر، ص ٣٣-٣٤.
٢ ـ الواقعة ٥٦: ٢٩.
٣ ـ ق ٥٠: ١٠.
٤ ـ جامع البيان، ج ٢٧، ص ١٠٤.
٥ ـ الحجر ١٥: ٩.
٦ ـ وسوف نوفي البحث في تفنيد هكذا مزاعم مهزولة تجاه عظمة القرآن الضخمة الفخمة، عند الكلام حول صيانة القرآن من التحريف، إن شاء الله.

وابن عباس والضحّاك وسعيد بن‌جبير وأبان بن عثمان وعلي ﷺ.

وجنح ابن‌الأنباري إلى تضعيف إسناد الروايات. فوقف جلال‌الدين السيوطي في وجهه: أنّها روايات صحيحة الإسناد، بشهادة أئمّة الفن، كابن حجر والحاكم وغيرهما، فالجواب الأول أولى.[1]

هذا... وأمّا الأخطاء الإملائية الموجودة في الرسم العثماني، فشئ لا يمكن إنكاره، الأمر الذي يدلّ دلالة قطعيّة على ضعف مقدرة السلف في ناحية الإملاء وأُصول الكتابة الصحيحة، ومن ثمّ ذلك اللحن والتناقض في رسم الكلمات. وفيما يلي نماذج من اللحن الواقع في الرسم العثماني.

نماذج من مخالفات الرسم

وربّما نرسم جدولا يستوعب الأخطاء الواقعة في الرسم العثماني مستقصاة، ونشيرهنا ـ الآن ـ إلى أهمّ أخطاء وقعت فيه كنماذج بارزة:

١ ـ «وَاخْتِلٰفِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ» البقرة ٢: ١٦٤. والصحيح: وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ...

٢ ـ «يأتيهِمْ أَنْبٰؤا» الأنعام ٦: ٥. والصحيح: أنبَاءُ...

٣ ـ «وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ» الأنعام ٦: ٢٦. والصحيح: يَنْأَوْنَ عَنْهُ.

٤ ـ «بِالْغَدَوٰةِ» الأنعام ٦: ٥٢. والصحيح: بِالْغَدَاةِ. والواو زائدة في الرسم بلاسبب معروف.

٥ ـ «فيكُمْ شُرَكٰؤُا» الأنعام ٦: ٩٤. والصحيح: شُرَكاءُ.

٦ ـ «مَانَشٰؤُا» هود ١١: ٨٧. والصحيح: مَانَشاءُ.

---

١ ـ الإتقان، ج ٢، ص ٢٧٦ بتوضيح منا.

٧ ـ «إِنَّهُ لَايَايْئَسُ» يوسف ١٢: ٨٧. والصحيح: لايَيْأَسُ.

٨ ـ «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا» إبراهيم ١٤: ٩. والصحيح: نَبَأُ...

٩ ـ «فَقالَ الضُّعَفؤُا» إبراهيم ١٤: ٢١. والصحيح: الضُّعَفاءُ.

١٠ ـ «وَلا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ» الكهف ١٨: ٢٣. والصحيح: لِشَيْءٍ.

١١ ـ «لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ» الكهف ١٨: ٧٧. والصحيح: لَاتَّخَذْتَ.

١٢ ـ «قالَ يَبْنَؤُمَّ» طه ٢٠: ٩٤. والصحيح: يَاابْنَ أُمَّ.

١٣ ـ «أوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ» النمل ٢٧: ٢١. والصحيح: لَأَذْبَحَنَّهُ. وقد زيدت ألف في الرسم بلا سبب معقول.

١٤ ـ «يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا» النمل ٢٧: ٢٩. والصحيح: الْمَلَأُ.

١٥ ـ «شُفَعٰؤُا» الروم ٣٠: ١٣. والصحيح: شُفَعاءُ.

١٦ ـ «لَهُوَ الْبَلٰؤُا الْمُبِينُ» الصافات ٣٧: ١٠٦. والصحيح: الْبَلاءُ.

١٧ ـ «وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ» ص ٣٨: ١٣. والصحيح: الأَيْكَةِ.

١٨ ـ «وَجِاْيءَ بالنَّبِيِّينَ» الزمر ٣٩: ٦٩. والصحيح: وَجيء.

١٩ ـ «وَما دُعٰؤُاْ الْكافِرِينَ» غافر ٤٠: ٥٠. والصحيح: وَما دُعاءُ...

٢٠ ـ «بِأَيِيِّكُمُ الْمَفْتُون» القلم ٦٨: ٦. والصحيح بِأَيِّكُمُ.

تلك نماذج عشرون كان اللحن فيها عجيباً جدّاً، ولاسيّما إذا علمنا أنّ المصاحف آنذاك كانت مجرّدة عن كلّ علامة تشير إلى إعجام الحرف أو إلى حركة الكلمة أو هجاها الصحيح. مثلاً: من أين يعرف قارئ المصحف أنّ «لتخذت» مشدّدة التاء، وأي فرق بينها وبين «لتخذت» مخفّفة بلام تأكيد؟! أو كيف يعرف أنّ ألف «لااذبحنه» زائدة لاتقرأ؟! أو

أنّ إحدىٰ الياءين زائدة في قوله: «وَالسَّماءَ بَنَيْناها بَأَيْيْدٍ»؟[1] وكذلك لايدري في «نشـؤا» ـبلاعلامة ـ أنّ الواو زائدة، والألف ممدودة والهمزة تلفظ بعد الألف. إذ ليس في اللفظ مايشير إلى ذلك بتاتا وهكذا...!

مناقضات في الرسم العثماني

والشيء الأغرب وجود مناقضات في رسم المصحف، بينما الكلمة مثبتة في موضع برسم خاصّ، وإذا هي بذاتها مرسومة في موضع آخر بما يخالفها، الأمر الذي يثير العجب، ويبعث على الاعتقاد بأنّ الكتبة الأوائل كانوا أبعد شيء عن معرفة أُصول الكتابة أو الإتقان من وحدة الرسم على الأقلّ.!

وإليك نموذجاً من ذلك التناقض الغريب:

---

١ ـ الذاريات ٥١: ٤٧.

(الكلمة برسمها الملحون)	(الكلمة برسمها الصحيح)
١ ـ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ. الكهف ١٨: ٧٧	إذاً لاَتَّخَذُوكَ. الاسراء ١٧: ٧٣
٢ ـ أَصْحاب لْئَيْكَة.الشعراء ٢٦: ١٧٦ وص ٣٨: ١٣	أصحاب الْأَيْكَةِ. الحجر ١٥: ٧٨ وق ٥٠: ١٤
٣ ـ فَقَالَ الضُّعَفٰؤُا. ابراهيم ١٤: ٢١	لَيْسَ عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ. التوبة ٩: ٩١
٤ ـ فَلَا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً. يونس ١٠: ٤٩	لاَيَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً. الأعراف ٧: ٣٤
٥ ـ وَمَا دُعٰؤُا الْكَافِرِينَ. غافر ٤٠: ٥٠	وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ. الرعد ١٣: ١٤
٦ ـ لَيْسَ بِظَلّٰم لِلْعَبِيدِ. الحج ٢٢: ١٠	لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ. آلعمران ٣: ١٨٢
٧ ـ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثٰلَ. الفرقان ٢٥: ٩	ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ. الاسراء ١٧: ٤٨
٨ ـ وَيَمْحُ اللّهُ الْبَاطِلَ. الشورى ٤٢: ٢٤	يَمْحُوا اللهُ ما يَشَاءُ.[1] الرعد ١٣: ٣٩
٩ ـ فَأَحْيٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ. البقرة ٢: ٢٨	أحياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ. الحج ٢٢: ٦٦
١٠ ـ إي لٰفِهِمْ رِحْلَةَ. قريش ١٠٦: ٢	لإيلٰفِ قُرَيْشٍ.[2] قريش ١٠٦: ١
١١ ـ قَالَ يَبْنَؤُمَّ. طه ٢٠: ٩٤.	قَالَ ابْنَ أُمَّ. الأعراف ٧: ١٥٠
١٢ ـ فِي أَمْوالِنا مَانَشٰؤُا. هود ١١: ٨٧	فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ. الحج ٢٢: ٥
١٣ ـ وإن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ. إبراهيم ١٤: ٣٤	وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ. النحل ١٦: ١٨
١٤ ـ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ. فاطر ٣٥: ٤٣	وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ. الفتح ٤٨: ٢٣
١٥ ـ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ. فاطر ٣٥: ٤٠	عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ. محمد ٤٧: ١٤
١٦ ـ لَدَا الْبَابِ. يوسف ١٢: ٢٥	لَدَى الْحَنَاجِرِ. غافر ٤٠: ١٨
١٧ ـ طَغَا الْمَاءُ. الحاقة ٦٩: ١١	إِنَّهُ طَغَىٰ. النازعات ٧٩: ١٧
١٨ ـ وَلاتَقُولَنَّ لِشَاْيءٍ. الكهف ١٨: ٢٣	وكَانَ اللّه عَلى كُلِّ شَيْءٍ. الكهف ١٨: ٤٥
١٩ ـ فَقالَ الْمَلَؤُا. المؤمنون ٢٣: ٢٤	وَقالَ الْمَلأُ. المؤمنون ٢٣: ٣٣
٢٠ ـ أَيُّهَ الثَّقَلانِ. الرحمان ٥٥: ٣١	أَيّها الْمُجْرِمُونَ. يس ٣٦: ٥٩.

١ ـ وإن كان ثبت الألف بعد الواو أيضاً خطأ، لأنّه مفرد.   ٢ ـ وإن كان حذف الألف أيضاً لحنا.

تلك ـ أيضاً ـ أمثلة عشرون اخترناها من التناقض الموجود في الرسم العثماني. وربّما تزداد غرابتك ـ أيّها القارئ ـ إذا ما لاحظت التناقض في إملاء سورة واحدة، كالمثال رقم ١٨ سورة الكهف. ورقم ١٩ سورة المؤمنون، كما رسموا «بسطة» في البقرة: ٢٤٧ بالسين، وفي الأعراف: ٦٩ بالصاد. وكذلك «يبسط» في الرعد: ٢٦ بالسين، وفي البقرة: ٢٤٥ بالصاد. وهذا أيضاً من التناقض في سورة واحدة.. إلى غير ذلك وهو كثير.

غلوّ فاحش

قد يغلو بعض المتزمّتين بالرسم القديم، فيزعمونه توقيفياً كان بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله الخاصّ، ولم يكن للكتبة الأوائل دخل في رسمه بالهيأة الموجودة. وإنّ وراء هذه المخالفات الإملائية سرّاً خفيّاً وحكمة بالغة لا يعلمها إلّا اللّه:

نقل ابن المبارك عن شيخه عبدالعزيز الدبّاغ أنّه قال: «رسم القرآن سرّ من أسرار الله المشاهدة وكمال الرفعة. وهو صادر من النبيّ صلى الله عليه وآله وهو الذي أمر الكتّاب أن يكتبوه على هذه الهيأة، فما نقصوا ولازادوا على ماسمعوه من النبيّ صلى الله عليه وآله».

ثمّ قال: «ماللصحابة ولالغيرهم في رسم المصحف، ولاشعرة واحدة، وإنّما هو توقيف من النبيّ صلى الله عليه وآله وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيأة المدوّنة بزيادة الألف ونقصانها. لأنّها أسرار لاتهتدي إليها العقول، وهو سرّ من أسرار الله، خصّ الله به كتابه العزيز، دون سائر الكتب السماويّة.

وكما أنّ نظم القرآن معجز، فرسمه أيضاً معجز.

وكيف تهتدي العقول إلى سرّ زيادة الألف في «مائة» دون «فئة». وإلى سرّ زيادة الياء في «بأييد» و «بأييكم»!

أم كيف تتوصّل إلى سرّ زيادة الألف في «سعوا» في سورة الحج، ونقصانها من «سعو» في سورة سبأ!

وإلى سرّ زيادتها في «عتوا» حيث كان. ونقصانها من «عتو» في سورة الفرقان!

وإلى سرّ زيادتها في «آمنوا» وإسقاطها من «باؤ. جاؤ تبوّؤ. فأو» بالبقرة! ـ ثمّ يقول: ـ وكيف تتوصّل إلى حذف بعض التاءات وربطها في بعض!

فكلّ ذلك لأسرار إلهيّة وأغراض نبويّة. وإنّما خفيت على الناس لأنّها أسرار باطنيّة لاتدرك إلّا بالفتح الربّاني. فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المقطّعة التي في أوائل السور، فإنّ لها أسراراً عظيمة ومعاني كثيرة وأكثر الناس لايهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئاً من المعاني الإلهيّة التي أُشير إليها، فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً بحرف».[١]

هذا وقد كشف بعضهم عن هذا السرّ الخفيّ، وأبدى تمحّلات غريبة، فزعم أنّ زيادة الألف في «لااذبحنه» إنّما كانت للدلالة على أنّ الذبح لم يقع. وأنّ زيادة الياء في «وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْيدٍ»[٢] للإيماء إلى تعظيم قوّة الله التي بنى بها السماء، وأنّها لاتشبهها قوّة، علىٰ حدّ القاعدة المشهورة: زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني.[٣]

وقد أوضح في ذلك وأسهب أبو العباس المراكشي الشهير بابن البناء (ت ٧٢١) في كتابه «عنوان الدليل في مرسوم التنزيل»، وبيّن أنَّ هذه الأحرف إنّما اختلف حالها في الخطّ بحسب اختلاف وأحوال معاني كلماته، من حكم خفيّة وأسرار بهيّة، منها: التنبيه على العوالم الغائب والشاهد، ومراتب الوجود والمقامات. والخطّ إنّما يرتسم على الأمر الحقيقي لا الوهمي...

---

١ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٣٨٢-٣٨٣ نقلاً عن ابن المبارك في كتابه «الابريز».

٢ ـ الذاريات ٥١: ٤٧.

٣ ـ مقدّمة ابن خلدون، ص ٤١٩؛ ومناهل العرفان، ج ١، ص ٣٧٤.

ونذكر فيما يلي مقتطفات من كلامه تدلّك على مبلغ غلوّه بشأن الرسم وتكلّفه في الاختلاق الباهت:

١ ـ زيدت الألف في «لااذبحنه» تنبيهاً على أنّ الذبح أشدّ من العذاب الذي ذكر في صدر الآية «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَديداً أَوْ لَأَاذْبَحَنَّه».[1]

٢ ـ زيدت الألف في «يرجوا» و«يدعوا» للدلالة على أنّ الفعل أثقل من الاسم، لتحمّله ضمير الفاعل. ومن ثمّ لمّا استخفّوا بالفعل حذفوا منه الألف وإن كان جمعاً، كقوله: «سَعَوْ فِي آياتِنَا مُعاجِزينَ».[2] فإنّه سعي باطل لايصحّ له ثبوت في الوجود.

٣ ـ زيدت الألف بعد الهمزة من قوله: «كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ»[3] تنبيها على معنى البياض والصفاء بالنسبة إلى ماليس بمكنون، ومن ثمّ لم تزد بعد قوله: «كَأَنَّهُمْ لُؤلُؤٌ»[4] للإجمال وخفاء التفصيل.

٤ ـ زيدت الألف في «وَجِاىءَ يَوْمَئذٍ بِجَهَنَّمَ».[5] دليلاً على أنّ هذا المجيء هو بصفة من الظهور ينفصل بها عن معهود المجيء.

٥ ـ زيدت الألف في «مائة» دون «فئة»، لأنّه اسم يشتمل على كثرة مفصّلة بمرتبتين: آحاد وعشرات.

٦ ـ زيدت الواو في «سَأُورِيكُمْ آيَاتِي»[6] للدلالة على الوجود في أعظم رتبة العيان.

٧ ـ زيدت الياء في «بِأَييْدٍ».[7] فرقاً بينها وبين «الأيدي» الذي هو جمع اليد. وأنّ القوّة التي بنى الله بها السماء هي أحقّ بالثبوت في الوجود من الأيدي. فزيدت الياء لاختصاص

---

١ ـ النمل ٢٧: ٢١.
٢ ـ سبأ ٣٤: ٥.
٣ ـ الواقعة ٥٦: ٢٣.
٤ ـ الطور ٥٢: ٢٤.
٥ ـ الفجر ٨٩: ٢٣.
٦ ـ الأنبياء ٢١: ٣٧.
٧ ـ الذاريات ٥١: ٤٧.

اللفظة بمعنى أظهر في دراك الملكوتي في الوجود.

٨ ـ سقطت الواو من «سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ».[١] لأنّ فيه سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوّة البطش.

٩ ـ سقطت الواو من «وَيَدْعُ الإنْسانُ بِالشَّرِّ».[٢] للدلالة على أنّه سهل عليه ويسارع فيه كما يعمل في الخير.

١٠ ـ كتبت «بسطة» في البقرة: ٢٤٧ بالسين. وفي الأعراف: ٦٩ بالصاد، لأنّها بالسين: السعة الجزئية وبالصاد السعة الكلّية.[٣]

قال الدكتور صبحي الصالح: لاريب أنّ هذا غلوّ في تقديس الرسم العثماني، وتكلّف في الفهم مابعده تكلّف. فليس من المنطق في شيء أن يكون أمر الرسم توقيفيّا، ولا أن يكون له من الأسرار ما لفواتح السور، ولامجال لمقارنة هذا بالحروف المقطّعة التي تواترت قرآنيّتها في أوائل السور، وإنّما اصطلح الكتبة على هذا اصطلاحاً في زمن عثمان، ووافقهم الخليفة على هذا الاصطلاح.[٤]

وقال العلّامة ابن خلدون: ولاتلتفتنّ في ذلك إلى مايزعمه بعض المغفّلين، من أنّ الصحابة كانوا محكمين لصناعة الخطّ، وأنّ مايتخيّل من مخالفة خطوطهم لأُصول الرسم ليس كما يتخيّل، بل لكلّها وجه.

يقولون في مثل زيادة الألف في لاأذبحنه: أنّه تنبيه على أنّ الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في بأييد: أنّه تنبيه على كمال القدرة الربّانيّة. وأمثال ذلك ممّا لا أصل له إلّا التحكّم المحض.[٥]

---

١ ـ العلق ٩٦: ١٨.
٢ ـ الإسراء ١٧: ١١.
٣ ـ راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٣٨٠-٤٣٠.
٤ ـ مباحث في علوم القرآن، ص ٢٧٧.
٥ ـ مقدّمة ابن خلدون، ص ٤١٩ و ٤٣٨.

قال ابن‌الخطيب: لمّا كان أهل العصر الأوّل قاصرين في فنّ الكتابة، عاجزين في الإملاء، لأُمّيتهم وبداوتهم، وبعدهم عن العلوم والفنون، كانت كتابتهم للمصحف الشريف سقيمة الوضع، غير محكمة الصنع، فجاءت الكتبة الأُولى مزيجاً من أخطاء فاحشة ومناقضات متباينة في الهجاء والرسم.[١]

هذا... وقد أغرب محمد طاهر الكردي ـ وهو يستطلع القرن الخامس‌عشر الهجري ـ فتراجع القهقراء وأخذ في الغلوّ الفاحش بشأن الرسم العثماني القديم! قال ـ بعد استعراض جملة من أخطاء الرسم العثماني والتناقض الموجود فيه بصورة غريبة ـ: «بقي علينا أن نعرف لماذا لم يكتب الكتبة الأُولى المصحف على قواعد الكتابة الصحيحة، ولماذا لم يمشوا في كتابته على وتيرة واحدة؟»

«هذا سؤال يجب أن يوجّه إلى الذين كتبوه بأمر عثمان، وأنّى يكون ذلك وقد دفنهم التراب؟ ومن هنا يقول العلماء: إنّ رسم المصحف سرّ من الأسرار لايطّلع عليه أحد...»!

قال: «ولا تتوهمنّ عليهم السهو أو الخطأ أو الجهل بأُصول الكتابة، إنّ هذا وهم باطل... ونحن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ الصحابة كانوا يعرفون قواعد الإملاء والكتابة حقّ المعرفة. ونستدلّ على قولنا هذا استدلالاً فنّياً بثلاثة أُمور:

الأوّل: إنّ العلّامة الآلوسي قال في تفسيره روح المعاني: الظاهر أنّ الصحابة كانوا متقنين رسم الخطّ، عارفين بقواعد الكتابة، غير أنّهم خالفوا القواعد في بعض المواضع عن قصد، لحكمة...»!! (ولعلّه يريد تمحّلات المراكشي الآنفة).

قال: «فالآلوسي ـ وهو العالم المتبحّر وصاحب التفسير الكبير ـ لايقول هذا إلّا بعد النظر والتحقيق، وإن لم يذكر شواهد تؤيّد قوله (!!!)

---

١ ـ الفرقان لابن الخطيب، ص ٥٧.

الثاني: إنّهم كانوا يراسلون الملوك والأُمراء فلابدّ من إتقان كتابتهم.

الثالث: إنّه قدمرّ على نشر الكتابة في الجزيرة إلى عهد عثمان أكثر من ربع قرن، فهل يعقل أنّ الصحابة لم يتقنوا الكتابة في هذه الفترة الطويلة». [١]

قلت: ويكفينا جواباً عن سفاسفه ماذكره العلّامة ابن خلدون: ولاتلتفتنّ إلى مايزعمه بعض المغفّلين... [٢]

وقد أسهب ابن‌الخطيب في الردّ على هذه المزعومة الفاضحة، وأتى بالكلام مستوفى. نقتطف منه مايلي.

قال: قال الجعبري في سياق كلامه عن هجاء المصحف: «وأعظم فوائده أنّه حجاب يمنع أهل الكتاب أن يقرأوه على وجهه». [٣]

قال: وبمثل هذا الهراء ينطق أحد أئمّة القرّاء. وبمثل هذا الكلام يحتجّ القائلون بوجوب الهجاء القديم. مع أنّ هذا القول واضح البطلان بادي الخسران.

وفي القرآن آيات كثيرة تخاطب أهل الكتاب وتدعوهم إلى الإيمان فكيف عن تلاوته يحجبون؟!

ثمّ قال: ومن أشنع ما يتصف به إنسان سليم العقل، صحيح العرفان ما ذكره الصباغ: «إنّ فوائد هذا الرسم كثيرة وأسراره شتّى، منها عدم الاهتداء إلى تلاوته على حقّه إلّا بموَقّف، شأن كلّ علم نفيس يتحفّظ عليه».

فقال: ياللداهية الدهياء، لقد صار القرآن مثل علم اليازرجات واللوغارتمات والطلسمات والاصطرلابات وضرب الرمل والتنجيم وماشاكل ذلك من العلوم يزعمون نفاستها لما تحتويه من أسرار لا تنال إلّا بجهد جهيد وتلقّ طويل الأمد.

---

١ ـ تاريخ القرآن لمحمد طاهر الكردي، ص ١٠١ـ١٢٠. ٢ ـ تقدّم ذلك في «غلوّ فاحش».

٣ ـ راجع: مناهل العرفان، ج ١، ص ٣٧٣ فإنّه أيضاً أتى بسفاسف زعمها فوائد مترتّبة على الرسم العثماني القديم!

هذا... وقد قال تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ».[1] وأنتم تقولون أنّه أبعدهم منه وأظلّهم عنه فما أكبر هذا الزعم! وما أعظم هذه الفرية!

قال: ولو تساءلنا: هل وضع رسم المصحف ليقرأ أو ليكون رمزاً ويظلّ طلسماً، يتناقله القرّاء وحدهم، ويلقّنونه لمن يريدون تلقينه، ممّن يتزلّف إليهم بماله ونفسه ويمنعونه عمّن يرون منعه ممّن لم يرزق جاهاً ولا مالاً!

قال: ولقد رأيت بعيني وسمعت بأُذنيّ، كثيراً من ذوي الثقافات والأدب يلحنون في قراءة القرآن، لعدم أُنسهم بهذا الرسم الغريب وعدم معرفتهم بأساليب القراءة على وجهها المأثور.[2]

الرأي الحاسم

هكذا يرجّح ابن الخطيب تصحيح رسم المصحف إلى مايعرفه جمهور الناس واستقرّ عليه اصطلاح أرباب الثقافة اليوم.

وهذا رأي جمهور المحقّقين، ذهبوا إلى جواز تبديل الرسم القديم إلى الرسم الحاضر بعد أن لم يكن رسم السلف عن توقيف، وإنّما هو اصطلاح منهم أو كانت الكتابة في بداءة أمرها غير متقنة، أمّا مع تقدّم أساليب الكتابة وفيها من التوضيح ما يجعل أمر القراءة سهلا على الجميع، فلابدّ من تغيير ذاك الرسم إلى المصطلح الحاضر الذي يعرفه كافّة الأوساط وليكون القرآن في متناول عامّة الناس، وفي ذلك تحقيق للغرض الذي نزل لأجله هذا الكتاب الخالد ليكون هدى للناس جميعاً مع الأبد.

وبهذا الصدد يقول القاضي محمد بن الطيّب أبوبكر الباقلاني (ت ٤٠٣) في كتابه

---

١ ـ القمر ٥٤: ١٧.

٢ ـ الفرقان لابن الخطيب، ص ٦٢-٨٦.

«الانتصار»: وأمّا الكتابة فلم يفرض الله على الأُمّة فيها شيئا، إذ لم يأخذ على كتّاب القرآن وخطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ماعداه، إذ وجوب ذلك لايدرك إلّا بالسمع والتوقيف. وليس في نصوص الكتاب ولامفهومه، أنّ رسم القرآن وضبطه لايجوز إلّا على وجه مخصوص وحدّ محدود لايجوز تجاوزه. ولا في نصّ السنة مايوجب ذلك ويدلّ عليه. ولا في إجماع الأُمَّة مايوجب ذلك، ولادلّت عليه القياسات الشرعيّة.

بل السنّة دلّت على جواز رسمه بأيّ وجه سهل، لأنّ رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبيّن لهم وجهاً معيّناً، ولا نهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأنّ ذلك اصطلاح وأنّ الناس لايخفى عليهم الحال. ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفيّة والخطّ الأوّل، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوجّ الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخطّ والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذاكانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كلّ واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل و أشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنّه لم يؤخذ في ذلك على الناس حدّ محدود مخصوص، كما أُخذ عليهم في القراءة والأذان.

والسبب في ذلك أنّ الخطوط إنّما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكلّ رسم دالّ على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحّته وتصويب الكاتب به على أيّ صورة كانت.

وبالجملة فكلّ من ادّعى أنّه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجّة على دعواه وأنّى له ذلك؟... انتهى. هذا ما لخصّه الشيخ عبدالعظيم الزرقاني من كلام القاضي أبي‌بكر الباقلاني، لكنّه تابعه بالردّ عليه من وجوه ونقول لايخفى وهنها وضعفها تجاه هذا التحقيق المنيع.[1]

ومن ثمّ قال الدكتور صبحي الصالح ـ تعقيباً على هذا الكلام ـ: وإنَّ رأي القاضي أبي بكر لجدير أن يؤخذ به، وحجّته ظاهرة، ونظره بعيد، فهو لم يخلط بين عاطفة الإجلال للسلف وبين التماس البرهان على قضيّة دينيّة تتعلّق برسم كتاب الله. وأمّا الذين ذهبوا إلى أنّ الرسم القرآنيّ توقيفيّ أزليّ فقد احتكموا في ذلك إلى عواطفهم، واستسلموا استسلاماً شعريّاً صوفيّاً إلى مذاويقهم ومواجيدهم، والأذواق نسبيّة لا دخل لها في الدين، ولا يستنبط منها حقيقة شرعيّة.[2]

---

١ ـ راجع: مناهل العرفان، ج ١، ص ٣٨٠-٣٨١.
٢ ـ مباحث في علوم القرآن، ص ٢٧٩.

سبعة الآف مخالفة في رسم الخط!

قد يستغرب الباحث إذا ما عثر على نيف وسبعة آلاف مخالفة في الرسم العثماني القديم، ويعدّه رقماً كبيراً إذا ماقاسه إلى عدد آي القرآن، وهي نيف وستة آلاف آيـة..! لكن الحقيقة تشهد بذاتها على صحّة هذا الرقم الضخم، وإليك عدد ما في كلّ سورة من مخالفة جاءت في الرسم القديم:

الفاتحة:	٤	النحل:	١٥٩
البقرة:	٤٨٠	الإسراء:	١٤٢
آل‌عمران:	٣٣	الكهف:	١١٦
النساء:	٢٩٢	مريم:	٩٢
المائدة:	٢٢٥	طه:	١١٤
الأنعام:	٢٣٨	الأنبياء:	١٧٠
الأعراف:	٣٠٣	الحج:	١٠٤
الأنفال:	٦٨	المؤمنون:	١٢٥
براءة:	٢١٨	النور:	١٣٦
يونس:	١٣٦	الفرقان:	٧٨
هود:	١٣٦	الشعراء:	١١٠
يوسف:	١٥٣	النمل:	١٠٧
الرعد:	٧٢	القصص:	١٣٩
إبراهيم:	٦٠	العنكبوت:	١٠٨
الحجر:	٧٥	الروم:	٨٠

لقمان: ٤٨
السجدة: ٤١
الأحزاب: ١٤٤
سبأ: ٧٣
فاطر: ٥٢
يس: ٧٤
الصافّات: ١٠٦
ص: ٧٠
الزمر: ١٠٠
غافر: ١١٥
فصّلت: ٧٤
الشورى: ٦٧
الزخرف: ٩٠
الدخان: ٣٧
الجاثية: ٥٣
الأحقاف: ٥٨
محمّد: ٥٣
الفتح: ٣٧
الحجرات: ٣٠
ق: ٢٦
الذاريات: ٣٤
الطور: ٢٧
النجم: ٣٠
القمر: ٢٥
الرحمان: ٣٠
الواقعة: ٤٥
الحديد: ٥٨
المجادلة: ٤٥
الحشر: ٥٨
الممتحنة: ٣٥
الصف: ٢٧
الجمعة: ٢١
المنافقون: ١٨
التغابن: ١٧
الطلاق: ٢٤
التحريم: ٣٢
الملك: ٢٠
القلم: ٤٢
الحاقّة: ٢١
المعارج: ٢٤
نوح: ١٦
الجنّ: ٢٠
المزّمّل: ١٢
المدّثّر: ١٦

القيامة: ١٢
الإنسان: ٢١
المرسلات: ١٨
النبأ: ٢٢
النازعات: ٣٣
عبس: ٥
التكوير: ٦
الانفطار: ٦
المطفّفين: ١١
الانشقاق: ٧
البروج: ١١
الطارق: ٥
الأعلى: ٣
الغاشية: ٦
الفجر: ١١
البلد: ٨
الشمس: ١٧
الليل: ٣
الضحى: ٦
الشرح:

التين: ٦
العلق: ٤
القدر: ٤
البيّنة: ٩
الزلزلة: ٢
العاديات: ٤
القارعة: ٤
التكاثر: ٢
العصر: ٣
الهمزة: ١
الفيل: ١
قريش ٣
الماعون: ١
الكوثر: ١
الكافرون: ٣
النصر:
المسد:
الإخلاص:
الفلق: ١
الناس: ١

تلك ستة آلاف وسبعمائة وسبعة وسبعون (٦٧٧٧) مخالفة جاءت في رسم المصحف العثماني، موزّعة على السور.

وإذا أضفنا إلى هذا العدد، حذف الألف من «بسم» و «الرحمن» في البسملة، وهي مكرّرة في القرآن (١١٤) مرّة، فيرتفع الرقم إلى (٧٠٠٥).

هذا مع غضّ النظر عن حذف الألف من لفظ الجلالة، وهو مكرّر في القرآن (٢٥٥٠) مرّة. وفي البسملة (١١٤) مرّة. فيبلغ عدد مخالفة الرسم القديم إلى تسعة آلاف وستمائة وتسع وستين (٩٦٦٩) وهو عدد كبير هائل. وللعثور على مواضع هذه المخالفات، بدقّة وتفصيل، راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٣٨٠-٤٣١ والمصحف الميسّر، تنظيم الأُستاذ عبدالجليل عيسى، شيخ كليّة أُصول الدين بالجامع الأزهر. غير أنّ هذا الأخير اشتبه في مواضع، منها: ص ٧٧٥، رقم ٥، زعم «وءاتوا» لحنا فصحّحه على «واوتوا». وص ٧٩٤ رقم ١، صحّح «المؤدة» على «المودّة»!

وقد لخّص جلال‌الدين هذه المخالفات في قواعد ستة استوفى فيها جميع ما في الرسم العثماني من مخالفات إملائية. ذكرها في الإتقان، ج ٤، ص ١٤٦-١٥٨. ونقلها الزرقاني برمّتها في مناهل العرفان، ج ١، ص ٣٦٩-٣٧٣.

وإليكَ الآن جدولا تفصيليّا يقارن بين رسم الكلمة في إملائها القديم، ورسمها بالإملاء المعاصر. ماعدا حذف الألفات في مثل «الرحمٰن» و«العٰلمين» و«الصرٰط» وهي كثيرة في المصحف، جاءت موافقة للخطّ الكوفي القديم المنحدر من خطّ السريان، كانوا يكتبون الكلم بلا ألف. وكذلك لم نتعرّض لكلمات جاءت فيها الواو أو الياء بدلا عن الألف كالصلٰوة والزكٰوة[1] والتوريٰة وهديٰن، لكثرتها وتكرّرها.

---

١ ـ كانت لغة قريش تميل بهذه الألفات نحو الواو، ومن ثمّ كتبوها كذلك.

كما ولم نذكر من الكلمة المتكرّرة سوى التي جاءت في أُولى آية، وتركنا ذكرها في آيات وسور تالية، وأرمزنا لذلك بعلامة «ك».

ونبدأ بالكلمة على إملائها القديم، ثمّ نقابلها بإملائها المعاصر، مرتّبة حسب ترتيب السور في المصحف الشريف.

جدول تفصيلي
يقارن بين رسم الكلمة بإملائها القديم ورسمها بالإملاء المعاصر

رقم الآية	(سورة البقرة)	
٣٣	يٰأدَمُ[١]	يا آدم
٤٠	إسْرٰءيلَ «ك»	إسرائيل
٧١	الـٰـٔن «ك»[٢]	الآن
٨٧	عيسى ابن مريم	عيسىبن مريم
٩٠	بِئْسَ ما «ك»	بئسما
١٦٤	الَّيْلِ «ك»	الليل
٢٢٦	فاءُو	فاؤا
٢٤٠	في ما «ك»	فيما
٢٧٥	الرّبٰوا «ك»	الربا
٢٨٢	تسمـٔوا[٣]	تسأموا

	(سورة آل‌عمران)	
٣٥	امرأت «ك»	امرأة
٧٥	الأُمين[٤]	الأُميّين

١ ـ برسم همزة فوق الألف.

٢ ـ برسم همزة أمام اللام.

٣ ـ برسم همزة فوق الميم.

٤ ـ برسم ياء كوفيّة صغيرة فوق الياء.

٧٩	ربّنين [١]	رَبّانيّين
١٤٤	افاين «ك»	أفإن
١٥٣	تلوُن [٢]	تلوون

(سورة النساء)

١٦	الذان	اللّذان
٢٣	الّٰتي «ك»	اللّاتي
٢٥	فمن ما «ك»	فممّا
٧٨	فمال هٰؤلاء «ك»	فما لهؤلاء

(سورة المائدة)

١٨	أبنٰؤا	أبناء
٢٩	جزٰؤا «ك»	جزاء
٣١	سوءة	سوأة

(سورة الأنعام)

٥	انبٰؤا «ك»	أنباء
٣٤	نباءى	نبأ
٥٢	بالغدٰوة [٣]	بالغداة
٩٤	شركٰؤا «ك»	شركاء

١ ـ برسم ياء كوفيّة صغيرة فوق الياء. ٢ ـ برسم واو صغيرة فوق الواو.

٣ ـ برسم ألف صغيرة فوق الواو.

١١٥	كلمت «ك»	كلمة
١٤٤	اما «ك»	أم ما

(سورة الأعراف)

٦	فلنسلن[١]	فلنسألن
٢٠	ماوُرى[٢]	ماووري
٥٦	رحمت «ك»	رحمة
٦٩	بصطة[٣]	بسطة
١٢٧	نستحى ى	نستحيي

(سورة الأنفال)

٣٨	سنّت	سنّة

(سورة التوبة)

٤٧	ولا أوضعوا	ولأوضعوا

(سورة يونس)

١٥	تلقاءى	تلقاء
٣٤	يبدؤ	يبدأ
٣٥	أمّن	أم من

١ ـ برسم همزة فوق السين.

٢ ـ برسم واو صغيرة فوق الواو.

٣ ـ برسم سين صغيرة تحت الصاد.

(سورة هود)

٨٦	بقيّت	بقيّة
٨٧	مانشؤٰا	مانشاء
٩٧	ملإيه	ملأه

(سورة يوسف)

٢٥	لدا	لَدىٰ
٨٧	تائيسوا[١]	تيأسوا
٨٧	يائيس[٢]	ييأس
١٠١	ولى ى	وليّي
١١٠	استئيس[٣]	استيأس

(سورة الرعد)

٣٩	يمحوا	يمحو

(سورة ابراهيم)

٩	نبؤا	نبأ
٢١	الضعفؤٰا	الضعفاء

(سورة الحجر)

٩٥	المستهزءين	المستهزئين

١ ـ برسم همزة فوق الياء.
٢ ـ برسم همزة فوق الياء.
٣ ـ برسم همزة فوق الياء.

(سورة النحل)

٤٣	فسئلوا[١]	فسألوا
٤٨	يتفيؤا	يتفيّأ
٨٦	رءا «ك»	رأى
٩٠	وايتاي	وايتاء

(سورة الإسراء)

١١	يدع	يدعو

(سورة الكهف)

٢٣	لشاىء	لشيء
٣٨	لكنا	لكنّ
٤٨	ألّن	أن لن
٦٣	أرءيت	أرأيت
٧٧	لتّخذت	لاتّخذت
١١٠	يرجوا «ك»	يرجو

(سورة مريم)

٢٨	يأُخت	يا أُخت
٤٤	يأَبت	يا أبت
٤٦	يإبرهيم	يا إبراهيم

١ ـ برسم همزة قبل اللام.

(سورة طه)

١٨	أتوكّؤا	أتوكّأ
٩٤	يبنؤُمّ	يا ابن أُمّ
١١٩	لاتظمؤا	لاتظمأ
١٢١	سوءٰتهما[1]	سوءاتهما
١٣٠	ءاناءى	آناء

(سورة الأنبياء)

٣٧	سأوريكم «ك»	سأريكم

(سورة المؤمنون)

٢٤	الملؤا «ك»	الملأ
٤٤	كلّ ما «ك»	كلّما

(سورة النور)

٨	ويدرؤا	ويدرأ
١٣	جاءو «ك»	جاؤا
٤٣	عن من	عمّن

(سورة الفرقان)

٢١	وعتو	وعتوا
٣٨	وثمودا «ك»	وثمود

١ ـ برسم ألف صغيرة فوق الهمزة.

٤٩	لنحى[1]	لنحيي

(سورة الشعراء)

٩٢	أين ما	أينما
٩٤	الغاون «ك»	الغاوون

(سورة النمل)

٢١	لاأذبحنّه	لأذبحنّه
٦٤	يبدؤا «ك»	يبدأ
٩٢	أتلوا	أتلو

(سورة القصص)

٣	نتلوا	نتلو
٤	يستحى ى «ك»	يستحيي
٩	قرّت	قرّة

(سورة الروم)

١٣	شفعؤا	شفعاء
١٦	لقاي	لقاء
٢٤	فيحى ى	فيحيي

١ ـ برسم ياء صغيرة فوق الياء.

٣٠	فطرت	فطرة
٣٩	ليربوا «ك»	ليربو

(سورة الاحزاب)

٣٧	لكي لا	لكيلا

(سورة سبأ)

٥	سعو	سعوا

(سورة غافر)

١٥	التلاقِ	التلاقي
٣٢	التنادِ	التنادي

(سورة فصلت)

٢٩	الّذَين [١]	الّلذين

(سورة الشورى)

٢٤	ويمح	ويمحو
٣٠	ويعفوا «ك»	ويعفو
٣٢	الجوار	الجواري

---

١ ـ بصيغة المثنى.

٤٠	جزٰؤا	جزاء
٥١	وراءى	وراء

(سورة الدخان)

٤٣	شجرت	شجرة

(سورة الذاريات)

١٣	يوم هم	يومهم
٤٧	بايبد	بأيد

(سورة القمر)

٦	يدع	يدعو
٦	الداع	الداعي

(سورة المجادلة)

٩	معصيت	معصية

(سورة الممتحنة)

٤	برءٰؤا[١]	برءاء

(سورة التحريم)

١١	امرأت	امرأة
١٢	بكلمٰت[٢]	بكلمات

---

١ ـ برسم ألف صغيرة فوق الهمز.

٢ ـ برسم ألف صغيرة فوق الميم.

(سورة القلم)

٦	بايّيكم	بأيّكم

(سورة التكوير)

٨	الموءدة[١]	الموؤدة

(سورة الانشقاق)

١١	يدعوا	يدعو

(سورة الغاشية)

٢٢	بمصيطر[٢]	بمسيطر

(سورة الفجر)

٤	يسرِ	يسري
٢٣	وجاىء	وجيء

(سورة قريش)

٢	إلفهم[٣]	إيلافهم

١ ـ برسم واو صغيرة بعد الهمز.

٢ ـ برسم سين صغيرة تحت الصاد.

٣ ـ برسم ياء كوفيّة صغيرة ومنفصلة بعد الهمز.

اختلاف المصاحف

كانت الغاية من إرسال المصاحف إلى الآفاق، هي رعاية جانب وحدة الكلمة لئلّا تختلف، وليجتمع المسلمون على قراءة واحدة ونبذ ماسواها. فكان يجب أن تكون هذه المصاحف مستنسخة على نمط واحد، وأن تكون موحّدة من جميع الوجوه. ومن ثمّ كان يجب على أعضاء المشروع أن يتحقّقوا من وحدتها ويقابلوا النسخ مع بعضها في دقّة كاملة.

غير أنّ الواقعيّة بدت بوجه آخر،وجاءت المصاحف يختلف مع بعضها البعض. كان المصحف المدنيّ يختلف عن المصحف المكّي، والمصحف المكّي يختلف عن الشاميّ، وهذا عن البصريّ، والكوفيّ وهكذا. الأمر الذي يدلّ بوضوح أنّ اللجنة تساهلت في أمر المقابلة ـ أيضاً ـ فلم يأخذوا بالدقّة الكاملة في جانب توحيد المصاحف المرسلة إلى الآفاق.

وصار هذا الاختلاف في المصاحف، من أهمّ أسباب نشوء الاختلاف القرائي فيما بعد، وفتح باب جديد لاختلاف القراءات في حياة المسلمين.

كان قاري كلّ مصر ومقرئها يلتزم ـ طبعاً ـ بقراءة مافي مصحفهم من نصّ. وكان عليه أيضاً أن يختار نوع الحرف والشكل حسب مايبدو له من ظاهر الكلمة المثبتة في المصحف بلا نقط ولاتشكيل. ومن ثمّ كانت السلائق والمذاويق، وكذلك الأنظار والأفهام تختلف في هذا الاختيار.

أمّا الرواية والسماع عن الشيخ، فهي لاتنضبط تماماً وفي جميع الوجوه إذا لم تكن مثبتة في سجلّ أو في نصّ المصحف ذاته. فلابدّ أن يقع فيها خلط أو اشتباه من جانب النقل أو السماع، ولاسيّما إذا طالت الفترة بين الشيخ الأوّل والقارئ الأخير.

ومن ثمّ ظهرت قراءة مكة وقراءة المدينة وقراءة البصرة وقراءة الكوفة وقراءة الشام. وهكذا... الأمر الذي كان كرّاً على مافرّوا منه!

وزعم الزرقاني أنّ هذا الاختلاف في النصّ كان عن عمد منهم وعن قصد، لحكمة

تحمّل اللفظ كلّ قراءة ممكنة. قال: وكتبوها متفاوتة في إثبات وحذف وبدل وغيرها، لأنّ عثمان قصد اشتمالها على الأحرف السبعة. فكانت بعض الكلمات يُقرأ رسمها بأكثر من وجه نحو «فتبيّنوا» و«ننشزها».

أمّا الكلمات التي لاتحتمل أكثر من قراءة، فإنّهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم وفي بعض آخر برسم آخر، كوصيّ بالتضعيف وأوصى بالهمز. وكذلك «تحتها الأنهار» في مصحف و «من تحتها الأنهار» بزيادة «من» في مصحف آخر...![١]

قلت: هذا تعليل عليل، بعد أن كان الغرض من نسخ المصاحف وتوحيدها هو رفع الاختلاف في القراءات. كان أحدهم يقول: قراءتنا خير من قراءتكم. فلئلّا يقع مثل هذا الجدل المرير تأسّس المشروع المصاحفي باتفاق من آراء الصحابة. أمّا وبعد أن أنجزت اللجنة مهمّتها وإذا بدواعي الاختلاف: الاختلاف في القراءة ذاتها، موجودة.

أمّا قضية الأحرف السبعة المفسّرة إلى القراءات السبع، فحديث مشتبه ربّما بلغ تفسيره إلى أربعين معنى.[٢] وأوهن المعاني هو تفسيره بالقراءات، إذ لم يثبت أنّ النبيّ ﷺ قرأ القرآن على سبعة وجوه. كما أنّ لاختلاف القرّاء في قراءاتهم عللا وأسباباً تخصّهم هم، وقد فصّلها أبومحمد مكيّ بن أبي طالب في كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» فراجع. وسوف نتكلّم عن حديث الأحرف السبع في فصل قادم والمختار هو إرادة اللّهجات المختلفة في التعبير والأداء فحسب.

هذا... وأمّا الأُستاذ الأبياري فإنّه يرى أنّ هذا الاختلاف إنّما كان بين مصاحف سبقت مصحف عثمان. وجاء هذا الأخير ليرفع تلكم الاختلاف.[٣]

لكنّها نظرة تخالف النّص القائل بأنّ الاختلاف كان في نفس مصاحف عثمان.[٤]

وعلى أيّة حال فإنّ الاختلاف بين المصاحف المبعوثة إلى الآفاق، شيء واقع، ويؤسف عليه، وكانت البذرة الأُولى التي انبثق منها اختلاف القراءات فيما بعد.

---

١ ـ مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٥٨.
٢ ـ راجع: الإتقان، ج ١، ص ١٣١.
٣ ـ تاريخ القرآن لإبراهيم الأبياري، ص ٩٩.
٤ ـ راجع: المصاحف، ص ٣٩.

وفيما يلي عرض نموذجي عن اختلاف مصاحف الآفاق، اعتمدنا فيه على نصّ ابن أبي داود في كتابه «المصاحف» (ص: ٣٩ إلى ٤٩).

(ملحوظة): مصحفنا اليوم يتوافق ـ أكثريّاً ـ مع مصحف الكوفة، سوى مواضع نرمز إليها في الجدول التالي بعلامة (*).

غير أنّ مصحف البصرة كان أدقّ من سائر المصاحف ـ كما أشار إليه حديث الشامي الآنف ـ تدلّنا على ذلك، الآية رقم ٨٧ من سورة المؤمنون: أنّها في مصحف البصرة: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظيمِ سَيَقُولُونَ اللّه». وهي في مصحف الكوفة وغيرها: «سَيَقُولُونَ لِلّهِ».

وكذلك الآية: ٨٩ من نفس السورة، والآية: ٣٣ من سورة فاطر، مثبتة في مصحف البصرة: «مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤلُؤٍ». وفي غيره «وَلُؤْلُؤاً».

وهكذا الآية: ١٦ من سورة الإنسان في مصحف البصرة: «قَوارِيراً قَوارِيرَ مِن فِضَّةٍ». وفي غيره «قَوارِيرا قَوارِيرا مِن فِضَّةٍ»... إلى غير ذلك.

وإليك جدولا نموذجيّاً يعيّن مواضع الاختلاف من مصاحف الآفاق: الشام، الكوفة، البصرة، مكة. أهمّ البلاد التي أُرسلت إليها المصاحف، ومقارنتها مع المصحف الإمام «مصحف المدينة».

جدول نموذجي يعين مواضع الاختلاف من مصاحف الآفاق

السورة	الآية	مصحف المدينة	مصحف الشام	مصحف الكوفة	مصحف البصرة	مصحف مكة
البقرة	١١٦	قالوا اتخذوا الله ولداً	قالوا	و قالوا	و قالوا ...	
البقرة	١٣٢	و أوصى بها إبراهيم	و أوصى	و وصّى	و وصّى ...	
آل عمران	١٣٣	سارعوا إلى مغفرة من ربكم	سارعوا	و سارعوا	و سارعوا ...	
آل عمران	١٨٤	جاؤوا بالبينات وبالزبر	و بالزبر	و الزبر	... و الزبر	
النساء	٦٦	...	ما فعلوه إلّا قليلاً	إلّا قليل	... إلّا قليل	
النساء	١٧١	...	...	فامنوا بالله و رسله	فامنوا بالله و رسله	... و رسوله
المائدة	٥٣	يقول الذين آمنوا	يقول	و يقول	و يقول ...	
المائدة	٥٤	من يرتدد	من يرتدد	من يرتد	من يرتد	
الأنعام	٣٢	...	ولدار الآخرة	وللدار الآخرة	وللدار الآخرة	
الأنعام	٦٣	لئن أنجيتنا	...	لئن أنجانا	لئن أنجيتنا	
الأعراف	٣	قليلاً ما يتذكرون	يتذكرون	تذكرون	... تذكرون	
الأعراف	٤٣	ما كنا لنهتدي	ما كنا	و ما كنا ...	و ما كنا	
الأعراف	٧٥	قال الملأ	قال الملأ	و قال الملأ ※	و قال الملأ،	
الأعراف	٤١	و إذ أنجاكم	و إذ أنجاكم	و إذ أنجيناكم	و إذ أنجيناكم	
الأعراف	١٩٥	ثم كيدوني	ثم كيدوني	ثم كيدون	ثم كيدون	
الأنفال	٦٧	...	ما كان للنبي	ما كان لنبي	ما كان لنبي	
التوبة	١٠٠	...	...	...	تجري تحتها الأنهار	تجري من تحتها الأنهار
التوبة	١٠٧	الذين اتخذوا مسجداً ضراراً	الذين	و الذين	و الذين ...	
يونس	٢٢	هو الذي ينشركم	هو الذي ينشركم	هو الذي يسيركم	هو الذي يسيركم	
الرعد	٤٢	وسيعلم الكافر	...	وسيعلم الكافر	وسيعلم الكافر	
الإسراء	٩٣	قال سبحان ربى	...	قل سبحان ربى	قل سبحان ربى	

السورة	الآية	مصحف المدينة	مصحف الشام	مصحف الكوفة	مصحف البصرة	مصحف مكة
الكهف	٣٦	لأجدن خيراً منهما	منهما	منها	... منها	
الكهف	٩٥	قال ما مكني	مكنني	مكنني	... مكنني	
الأنبياء	٤	قل ربي يعلم	...	قال ربي يعلم	قال ربي يعلم	
الأنبياء	١١٢	...	...	قال رب احكم	قل رب احكم	
المؤمنون	٨٧	قل من رب السماوات...سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون الله	
المؤمنون	٨٩	قل من بيده ملكوت...سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون الله	
المؤمنون	١١٢	قال كم لبثتم	...	قال كم لبثتم	قل كم لبثتم	
الشعراء	٢١٧	فتوكل على العزيز	فتوكل	و توكل	و توكل ...	
فاطر	٣٣	من ذهب و لؤلؤاً	...	و لؤلؤاً	... و لؤلؤ	
يس	٣٥	و ما عملته	...	و ما عملت ❊	و ما عملته	
غافر	٢١	كانوا هم أشد منكم	كانوا هم أشد منكم	منهم	... منهم	
غافر	٢٦	و إن يظهروا في الأرض	و أن	أو أن	أو أن ...	
الشورى	٣٠	بما كسبت أيديكم	بما كسبت أيديكم	فبما كسبت أيديكم	فبما كسبت أيديكم	
الزخرف	٦٨	يا عبادي	يا عبادي	يا عباد	يا عباد	
الزخرف	٧١	ما تشتهيه الأنفس	ما تشتهيه الأنفس	ما تشتهي الأنفس ❊	ما تشتهي الأنفس	
الأحقاف	١٥	بوالديه حسناً	...	بوالديه إحساناً	بوالديه إحساناً	
محمد	١٨	أن تأتيهم بغتة	...	...	أن تأتيهم ...	أن تأتهم ...
الرحمان	١٢	و الحب ذا العصف	و الحب ذا العصف	و الحب ذو العصف	و الحب ذو العصف	
الرحمان	٧٨	تبارك اسم ربك ذو الجلال	ذو الجلال	... ذي الجلال	... ذي الجلال	
الحديد	١٠	وكل وعد الله الحسنى	وكل ...	وكلا ...	وكلا ...	
الحديد	٢٤	إن الله الغني الحميد	إن الله الغني	إن الله هو الغني	إن الله هو الغني...	
الجن	٢٠	قال إنما أدعوا ربي	...	قل إنما أدعو ربي	قل إنما أدعو ربي	
الإنسان	١٦	قواريرا. قواريراً من	...	قواريرا. قواريراً من ❊	قواريرا. قوارير من	
الشمس	١٥	فلا يخاف عقباها	فلا يخاف	و لا يخاف ...	و لا يخاف ...	

القرآن في أطوار الإناقة والتجويد

لم يزل القرآن ـ منذ الصدر الأوّل ـ في طور التجويد والتحسين، لاسيّما في ناحية كتابته وتجميل خطّه من جميل إلى أجمل. وقد أسهم الخطّاطون الكبار في تجويد خطّ المصاحف وتحسين كتابتها.

وأوّل من تنوّق في كتابة المصاحف وتجويد خطّها، هو خالدبن أبي الهياج ـ صاحب أميرالمؤمنين علي عليه السلام ـ (ت حدود ١٠٠) وكان مشهوراً بجمال خطّه وإناقة ذوقه. ويقال إنّ سعداً ـ مولى الوليد وحاجبه ـ اختاره لكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦) فكان هو الذي خطّ قبلة المسجد النبويّ بالمدينة بالذهب من سورة الشمس إلى آخر القرآن. وكان قد جدّد بناءه وأوسعه عمر بن عبدالعزيز واليا على المدينة من قبل الوليد وبأمر منه، وفرغ من بنائه سنة ٩٠.[١]

وطلب إليه عمر بن عبدالعزيز أن يكتب له مصحفا على هذا المثال فكتب له مصحفاً تنوّق فيه، فأقبل عمر يقلّبه ويستحسنه، ولكنّه استكثر من ثمنه فردّه عليه. والظاهر أنّ ذلك كان أيام خلافته (٩٩-١٠١) التي كان قد تزهّد فيها.

قال محمد بن إسحاق ـ ابن النديم ـ: رأيت مصحفاً بخطّ خالدبن أبي الهياج، صاحب علي عليه السلام وكان في مجموعة خطوط أثريّة عند محمد بن الحسين المعروف بابن أبي بعرة، ثمّ صار إلى أبي عبدالله بن حاني رحمه الله.[٢]

وقد ظلّ الخطّاطون يكتبون المصاحف بالخطّ الكوفيّ، حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ثمّ حلّ محله خطّ النسخ الجميل في أوائل القرن الرابع، على يد الخطّاط الشهير محمد بن علي بن الحسين بن مقلة (٢٧٢-٣٢٨).

قيل: إنّه أوّل من كتب خطّ الثلث والنسخ، وأوّل من هندس الحروف ـ إذ كان بارعاً

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي، ج ٣، ص ٣٠ و٣٦.

٢ ـ الفهرست لابن النديم، الفنّ الأوّل من المقالة الأولى، ص ١٥. والفنّ الأوّل من المقالة الثانية، ص ٦٦-٦٧

في علم الهندسة ـ ووضع قواعدها وأُصول رسمها. واتفق الباحثون أنّ الفضل الأكبر في تطوير وتحسين الخطّ العربيّ الإسلاميّ وتنويعه يرجع إلى هذا الخطّاط الماهر، الذي لم تنجب الأُمّة الإسلاميّة لحدّ الآن خطّاطاً بارعاً مثله.

وقد نسب عدد من المخطوطات الأثريّة إليه، كالمصحف الموجود في متحف هراة بأفغانستان. ويقال: إنّه كتب القرآن مرّتين.[١]

وقد بلغ خطّ النسخ العربيّ ذروته في الجودة والحسن في القرن السابع على يد الخطّاط المستعصمي ياقوت بن عبدالله الموصليّ (ت٦٨٩) كتب سبع مصاحف بخطّه الرائع الذي كان يجيده إجادة تامّة، ويكتب بأنواعه المختلفة حتى صار مثلاً يقتدى به.[٢]

وهكذا صارت المصاحف تكتب على أُسلوب خطّ ياقوت حتى القرن الحادي عشر، ومنذ مفتتح القرن الثاني عشر اهتمّ الأتراك العثمانيّون عنايتهم بالخطّ العربيّ الإسلاميّ لاسيّما بعد فتح سلطان سليم مصر وزوال حكم المماليك عنها، فجعل الخطّ العربيّ يتطوّر على أيد الخطّاطين الفرس الذين استخدمهم العثمانيّون في امبراطوريّتهم.

وقد نقل السلطان سليم جميع الخطّاطين والرسّامين والفنّانين إلى عاصمته، وأضافوا للخطّ العربيّ أنواعاً جديدة، لازالت تستعمل في الكتابات الدارجة، كالخطّ الرقعي والخطّ الديواني والخطّ الطغرائي والخطّ الإسلامبولي وغيرها.

ومن الخطّاطين العثمانيّين الذين ذاع صيتهم: الحافظ عثمان (ت ١١١٠) والسيّد عبدالله أفندي (ت ١١٤٤) والأُستاذ راسم (ت ١١٦٩) وأبوبكر ممتاز بك مصطفى أفندي الذي اخترع خطّ الرقعة، وهو أسهل الخطوط العربيّة وأبسطها استعمالاً، وقد وضع قواعده وكتب به لأوّل مرّة، في عهد السلطان عبدالمجيد خان سنة ١٢٨٠.[٣]

---

١ ـ الخطّ العربيّ الإسلاميّ: ص ١٥٥ (نقلاً عن الخطّاط البغدادي، ص ١٦).

٢ ـ المصدر، ص ١٧١؛ ومصوّر الخط العربي لناجي المصرف، ص ٩٢.

٣ ـ الخط العربي الإسلامي، ص ١٢٣.

أمّا طباعة المصحف الشريف فقد مرّت ـ ككتابته خطاً ـ بأطوار التجويد والتحسين.

فلأوّل مرّة ظهر القرآن مطبوعاً في البندقيّة في حدود سنة ٩٥٠ هـ = ١٥٣٠م. لكن السلطات الكنسيّة أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره.

ثمّ قام «هنلكمان» بطبع القرآن في مدينة «هانبورق» ـ ألمانيا ـ سنة ١١٠٤ هـ = ١٦٩٤م. ثمّ تلاه «مراكي» بطبعه في «بادو» سنة ١١٠٨ هـ = ١٦٩٨م.

وقام مولاي عثمان بطبع القرآن طبعة إسلاميّة خالصة، في مدينة «سانت بترسبورغ» (روسيا) سنة ١٢٠٠هـ = ١٧٨٧م. وظهر مثلها في «قازان».

وقام «فلوجل» بطبعته الخاصّة للقرآن في مدينة «لينزبورغ» سنة ١٢٥٢هـ = ١٨٣٤م. فتلقّاها الأُوروبيون بحماسة منقطعة النظير، بسبب إملائها السهل. ولكنّها ـ كسائر الطبعات الأُوروبيّة ـ لم تنجح في العالم الإسلامي.

وأوّل دولة إسلامية قامت بطبع القرآن، فكان نصيبها النجاح، هي إيران.[1] طبعت طبعتين حجريّتين جميلتين ومنقّحتين في حجم كبير، مع ترجمة موضوعة تحت كلّ سطر من القرآن، ومفهرستين بعدّة فهارس. إحداهما كانت في طهران سنة ١٢٤٣هـ = ١٨٢٨م والأُخرى في تبريز ١٢٤٨هـ = ١٨٣٣م.

وظهرت في الهند ـ في هذا العهد ـ أيضاً عدّة طبعات.

ثمّ عنيت الأُستانة ـ تركيا العثمانيّة ـ ابتداء من سنة ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م بطبع القرآن طبعات أنيقة ومنقّحة جدّاً.

وقامت روسيا الملكيّة عام ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م بطبع قرآن كتب بخطّ كوفيّ قديم، في حجم كبير، يظنّ أنّه أحد المصاحف العثمانيّة الأُولى، خال عن النقط والتشكيل، سقطت من أوّله ورقات، وناقص من آخره أيضاً. يبتدى من قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا

---

١ ـ مباحث في علوم القرآن، للدكتور صبحي الصالح، ص ٩٩. وينقل عن المستشرق «بلاشير» معلومات هامة بهذا الصدد، اعتمدناها في هذا العرض.

بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَماهُمْ بِمُؤمِنِينَ»[١] وينتهي إلى قوله: «وإِنَّهُ في أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ»[٢] عثروا عليه في سمرقند، فامتلكته المكتبة الملكية في بترسبورغ. ثمّ تولّى معهد الآثار في طشقند طبعه طبعة فتوغرافيّة على نفس الرسم والحجم في خمسين نسخة، وأهداها إلى أهمّ جامعات البلاد الإسلاميّة. ومنها نسخة في مكتبة جامعة طهران، مسجّلة برقم المطبوعات: DSS/١٤٤٠٣.

وأخيراً قامت مصر بطبعة ممتازة للمصحف الشريف سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م، تحت إشراف مشيخة الأزهر. وبإقرار لجنة عيّنتها وزارة الأوقاف. وقد تلقّى العالم الإسلامي هذه الطبعة بالقبول، وجرت عليها سائر الطبعات.

كما ظهرت في العراق سنة ١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م طبعة بارزة أنيقة للقرآن. وهكذا اهتمّت الأُمم الإسلاميّة في مختلف الأقطار بطبع هذا الكتاب ونشره على أحسن أُسلوب وأجمل طراز. ولاتزال.

والحمدلله أوّلاً وآخراً حمداً لانهاية له ولازوال

قم - محمد هادي معرفة

شوال المكرّم ١٣٩٦

١ ـ البقرة ٢: ٨.

٢ ـ الزخرف ٤٣: ٤.

فهرس الآيات

الفاتحة

البقرة

آل عمران

النساء

الأعراف

الأنفال

التوبة

يونس

هود

الحجر

النحل

الإسراء

الكهف

مريم

طه

الأنبياء

الفرقان

الشعراء

النمل

القصص

العنكبوت

الروم

لقمان

السجدة

الأحزاب

سبأ

فاطر

غافر

فصّلت

الشورى

الحديد

المجادلة

الحشر

الجمعة

المنافقون

التغابن

الملك

القلم

الحاقّة

الجن

المزّمّل

المدّثّر

القيامة

الإنسان

المرسلات

النازعات

عبس

التكوير

المطفّفين

الأعلى

الفجر

الليل

الضحى

العلق

القدر

العلّامة محمدهادي معرفة
حياته وسيرته العلمية
بقلمه

إطلالة على الحياة

بسم الله الرحمان الرحيم. أنا محمّد هادي معرفة، ولدت في عائلة من رجال الدين في كربلاء المقدّسة عام ١٣٤٩هـ والدي هو الشيخ علي بن الميرزا محمّد علي، أحد أحفاد الشيخ عبد العالي الميسي الإصفهاني خطيب كربلاء المعروف آنذاك. هاجر والدي مع أبويه و هو في سنّ الخامسة عشرة من إصفهان إلى كربلاء عام ١٣٢٩ هـ ثم توفّي فيها عام ١٣٧٨هـ عن عمر ناهز ٦٣ عاما ووري الثرى في صحن ضريح أبي الفضل العباس عليه السلام. كان عالما و خطيباً بارعاً حظي باحترام أهالي كربلاء، و كان جميع أجدادي إلى ثلاثة قرون من السلسلة الجليلة لعلماء الدين.

أمّا والدتي فهي السيّدة زهراء بنت السيّد هاشم التاجر الرشتي الذي توطّن كربلاء ثمّ توفّي فيها عام ١٤٠٤هـ ودفن هناك.

المسيرة العلمية

لمّا بلغت الخامسة من عمري أرسلني والدي إلى مدرسة خاصّة أسّسها الشيخ باقر، ثمّ درست المقدّمات على يد الأُستاذ الحاج الشيخ على أكبر النائينى ثمّ والدي، ثمّ درست علم الأدب و المنطق على أساتذة حوزة كربلاء و تعلّمت جملةً من العلوم الفلكية

و الرياضية، و كان أساتذتي في هذه الدورة هم كلّ من: والدي، السيّد سعيد التنكابني (المختصّ بتدريس الأدب العربي)، آية اللّه السيّد محمد الشيرازي، الشيخ محمّد حسين المازندراني، السيّد مرتضى القزويني.

أمّا المرحلة التالية من الدراسة فقد اشتملت على الفقه و الأُصول و مبادئ الفلسفة و كان أساتذتي فيها كلّ من: الشيخ محمّد الكلباسي. الشيخ محمّد حسين المازندراني، والدي، الشيخ محمّد الخطيب (مرجع و عالم كبير في الحوزة)، السيّد حسن مير قزويني (من أشهر علماء الحوزة، و هو تلميذ المرحوم الآخوند الخراساني)، الشيخ محمّد مهدي الكابلي (درست عليه شيئاً من قوانين الأُصول) و الشيخ يوسف البيارجمندي الخراساني (من أشهر تلامذة المرحوم النائيني و ضليع في الفقه و الأُصول) و قد درست لديه كتاب الفصول و الرسائل و المكاسب و دورة في أُصول الفقه الخارج و مقداراً كبيراً من الفقه الخارج. و بما أنّه كان من تلاميذ الأديب النيسابوري الكبير، فقد درست المطوّل على يديه أيضاً، و قد دامت هذه الدورة حتى عام ١٣٧٩ ه‍.

أوائل العطاء

و فضلاً عن الدراسة في هذه الدورة باشرت بالتدريس و التحقيق فى المجال الأدبي و العلمي في الحوزات العملية، كما كنت أعقد ندوة دينية أُسبوعية للشباب حيث حظي كلاهما بإقبال شديد و تخرّج منهما تلاميذ كثر. و إزاء ذلك بادرت إلى تأسيس و إصدار مجلّة شهرية تحت عنوان «أجوبة المسائل الدينية» و ذلك بمرافقة و معونة جمع من فضلاء الحوزة هم: السيّد محمّد الشيرازي، السيّد عبد الرضا الشهرستاني، السيّد محمّد علي البحراني، الشيخ محمّد باقر المحمودي و غيرهم، فعملنا فيها بكلّ جدّ ممّا أدّى إلى انتشارها على مستوى واسع خاصّة في الجامعات، لا سيّما بعض الجامعات خارج العراق، و استمرّت تلك المجلّة مدّة طويلة. و قد تمّ تدوين مقالات علمية ـ دينية وافرة و نشرت فيها، ثمّ أُعيد طباعة و نشر بعض تلكم المقالات لأهمّيتها بشكل كتاب أو رسالة.

منها: «حقوق المرأة في الإسلام»، «ترجمة القرآن: الإمكانية، النقد، الضرورة»، «فرقتا الشيخية»، «أهمّية الصلاة و تأثيرها على الحياة الفردية و الاجتماعية» و غيرها. و قد ترجمت بعضها إلى اللغة الفارسية.

في رحاب الحوزة العلمية

بعد وفاة الوالد، أي عام ١٣٨٠ هـ هاجرت إلى النجف الأشرف بمرافقة أُسرتي بغية إتمام الدراسة. و كان الهدف الرئيسي من ذلك المساهمة في الحلقات الدراسية لفطاحل العلم و الفقاهة، و في هذا المضمار استفدت غاية الاستفادة من كبار الأساتذة و الفقهاء نحو: السيّد محسن الحكيم، السيّد أبو القاسم الخوئي، الميرزا باقر الزنجاني، الشيخ حسين الحلّي، السيّد علي الفاني الإصفهاني، و أخيراً السيّد الإمام الراحل، قدّس سرّهم جميعاً.

كان السيّد الحكيم يتمتّع بمهارة و دقّة فائقة في طرح و تحليل آراء الفقهاء، فحظي درسه بميزة خاصّة من هذه الناحية. كان يبدي عناية و دقّة متناهية بآراء و فقهاء السلف بمقدار تلك العناية التي يبديها بأقوال المعصومين عليهم السلام.

و كان السيّد الخوئي بارعاً في قوّة البيان و قدرة الاستدلال و البلاغة و البساطة المقترنة بالعمق، فكان يطرح أبحاثاً فقهية و أُصولية زاخرة بالمطالب العلمية الدقيقة في زمن قياسي، و كان لا يضاهئ في هذا المجال.

و اختصّ السيّد الزنجاني بشرح و بسط المواضيع و تبيان أبعاد المسألة ببيان عذب و عميق.

واتسم الشيخ الحلّي بمهارة بالغة في عرض الأقوال المختلفة في كلّ مسألة و دراسة دلائلها و الجرح و التعديل فيها، كما خلّف إبداعاً منقطع النظير في الأبحاث الفقهية. فيما كان عدد تلامذته محدوداً، إلاّ أنّهم من الممتازين و الأفاضل في الحوزة العلمية. و اتبع الشيخ المرحوم أُسلوباً خاصّاً في التدريس، و لم يكن يعرب عن رأيه نوعاً ما، بل كان يبديه بين سطور آراء الآخرين. و كلّما طُلب منه الإفصاح عن رأيه كان يجيب: ليس في

صالحكم، لأنّ التلميذ يميل إلى أُستاذه و ربما يرجّح رأيه من دون أن يشعر، في حين أنّ هذا الأمر مضلّل و يحدّ من حرّية التفكير. نعم كان الأُستاذ هكذا فاستطاع إعداد تلامذة أقوياء و يتمتّعون بحرّية التفكير.

أما السيّد الفاني فقد كان محقّقاً بعيد النظر و ضليعاً، و بذل جلّ مساعيه لإعداد نخبة من التلاميذ إعداداً علمياً. و فضلاً عن الحلقات الدراسية اليومية، كنّا: أنا و السيّد رضواني (عضو مجلس صيانة الدستور حاليّاً) و السيّد غديري (المسؤول حاليّاً عن الاستفتاءات في مكتب الإمام و القائد الخامنئي) نحضر لديه يومي الخميس و الجمعة من الصباح الباكر حتى الظهر لعقد جلسات حوارية حول المواضيع المختلفة ممّا منحنا قدرات علمية جمّة.

و تميّز الإمام الخميني بمهارة خاصّة بطرح آراء الأعاظم و التوسّع في نقدها و تحليلها، و كان يعتقد بانحصار القدسية في أقوال المعصومين، و ربّى تلامذته على ذلك، نعم، أقوال الكبار محترمة و ليست بمقدّسة، و احترامها يكمن في نقدها و تحليلها دون قبولها تعبّداً. و كان يتناول ذلك بلياقة تامّة و لا يتململ من أسئلة و نقوض تلامذته، فاستطاع إعداد تلامذة يتمتّعون بروح النقد و اتقاد الفكر، جزاه اللّه خير الجزاء.

و في تلك المرحلة درست مقداراً من الفلسفة و الحكمة المتعالية لدى الأُستاذ الفاضل الرضواني، و إلى جانب هذه الدراسة في المراكز العلمية مارست التدريس أيضاً، فخصّصت الصباح للدراسة و العصر للتدريس.

علماً أنّي لم أغفل عن العمل التحقيقي و كتابة المقالات العلمية. و كانت لنا جلسات أُسبوعية مع عدد من فضلاء الحوزة المعروفين كالسيّد جمال الدين الخوئي (نجل آية اللّه الخوئي)، السيّد محمد النوري، السيّد عبد العزيز الطباطبائي، الشيخ محمّد رضا الجعفري الإشكوري، الدكتور محمّد الصادقي (صاحب التفسير) و الأُستاذ عميد الزنجاني، للبحث و التحقيق في مختلف المواضيع، كلّ حسب تخصّصه و ميوله، حيث اخترت مجال العلوم القرآنية. بالإضافة إلى ذلك عمدت إلى كتابة المقالات و نشرها في المجلاّت، كمجلّة

«أجوبة المسائل الدينية» التي ما زالت تصدر إلى ذلك الوقت، و تدوين مسائل مختلفة، منها: كتاب «تناسخ الأرواح» في ردّ هذه النظرية، التي كانت شائعة ذلك العهد، و انتشر هذا الكتاب على نطاق واسع بين الجامعيين في بغداد، ثمّ ترجم في إيران إلى اللغة الفارسية، و أُعيد نشره مع بعض الإضافات. و منها رسالة في قضاء الفوائت تحت عنوان «تمهيد القواعد» التي كانت عبارة عن تقرير درس آية اللّه الأُستاذ الخوئي. و كانت هذه باكورة أعمالي الفقهية الاستدلالية، إذ سلّطت الضوء على المسائل الفقهية بأُسلوب حديث.

محورية القرآن و التفسير

كان الدافع وراء التعرّض للمسائل القرآنية ـ إلى جانب الفقه و الأُصول ـ هو اصطدامي بحقيقة مُرّة أثناء مراجعاتي و مطالعاتي من أجل التهيّؤ لتدريس التفسير، و كانت تلك الحقيقة عبارة عن فقدان بحث حيّ حول المسائل القرآنية في المكتبة الفعلية للشيعة آنذاك. و قد نشأ لديّ هذا الانطباع لمّا راجعت المكتبة القرآنية المختصّة، لكتابة مقالة حول ترجمة القرآن، حيث عثرت في هذا المجال على كتب كثيرة بعضها في جزءين و كذلك رسائل و مقالات عدّة كتبها العلماء المعاصرون في مصر، فيما لم أجد في حوزة النجف سوى إعلان من صفحة واحدة لآية اللّه الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء، فثقل عليّ ذلك، ممّا حدا بي إلى بسط الكلام في بيان آراء و أقوال العلماء الماضين و الفعليين في مجال المسائل القرآنية، فكانت نتيجة ذلك العمل الدؤوب كتاب «التمهيد» بسبعة مجلّدات و «التفسير و المفسرون» بمجلّدين[1]، و كان الأخير بمثابة ردّ أو تكميل و تدارك ما فات محمّد حسين الذهبي المصري الذي تجاهل ظلماً منزلة الشيعة في المجال القرآني.

---

١. و هما الجزء التاسع و العاشر من التمهيد.

من النجف إلى قم

في عام ١٣٩٢ هـ أصدرت الحكومة البعثية في العراق أمراً بترحيل الإيرانيين، فسرت بأُسرتي إلى حوزة قم العلمية حاملاً معي كتباً مهمّة. و خاصّة مخطوطاتي اليدوية، ثمّ أُرسل لي باقي الكتب لاحقاً.

ما إن وصلت إلى قم حتى شرعت بتطبيق النهج الذي كنت أتّبعه في حوزة كربلاء و النجف، لكنني لم أحضر إلّا درس الأُصول للمرحوم الميرزا هاشم الآملي و خصّصت باقي الأوقات للتدريس و التحقيق العلمي. أمّا في مجال التدريس فبدأت بتدريس الرسائل و المكاسب و الكفاية ثمّ درس الخارج للفقه و الأُصول، علماً أنّني عملت في مدرسة حقّاني العالية، التي كانت تدار من قبل الشهيد القدّوسي بدعوة منه في حقل تدريس المسائل القرآنية، لا سيّما العلوم القرآنية، و كان أفراد جديرون يحضرون ذلك الدرس و هم الآن من الأعلام في هذا المجال.

و زيادة على التفسير و العلوم القرآنية، طلب منّي تدريس الفقه (مكاسب الشيخ) و الأُصول (الرسائل). وإزاء التدريس أخذت الجدّية مأخذها منّي في مجال التحقيق، فأخضعت التحقيقات التي أنجزتها في النجف إلى دراسة جادة و شاملة، فكان نصيبها التقدّم و الرقي، فرأت أجزاء «التمهيد» النور، الواحد تلو الآخر.

و في عام ١٣٩٩ هـ في بداية الثورة الإسلامية المباركة، كان المجلّد الثالث في مرحلة الطباعة، ثمّ قامت مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين بإعادة طباعتها في ستة مجلّدات. مع العلم أنّ المواضيع المطروحة في هذا الكتاب اعتبرت من قبل الحوزة بعد استقرار الثورة، مواد دراسية أوّلية، و شرعت بتدريسها في مركز الحوزة، فتخرّج في ضوئها أفراد كثيرون و استحدثت في الحوزة حقول علمية مختلفة كحقل التفسير و العلوم القرآنية، و أقدم البعض على التأليف و التدريس في هذا الحقل و اتسعت رقعته إلى أن أصبح لدينا اليوم ١٤ كلّية خاصّة في العلوم القرآنية في أرجاء البلاد إلى جانب الحوزات العلمية التخصّصية.

و في هذا السياق ألّفت كتباً أُخرى حسبما اقتضت الظروف، منها كتاب: «صيانة القران من التحريف»[1]، دفاعاً عن حرمة القرآن الكريم ورداً على أحد الكتّاب الباكستانيين المدعوّ إحسان إلهي ظهير، الذي ألّف كتباً ضدّ الشيعة متّهماً إيّاه بالقول بالتحريف.

وسعيا منّي لردّ هذه التهمة و حفاظاً على الكيان المقدّس للقرآن عقدت العزم على تأليف هذا الكتاب و أنجزت ذلك في ستّة أشهر (رمضان ١٤٠٧ هـ ـ ٣٠ صفر ١٤٠٨ ه) فحظي باهتمام بالغ و طبع عدّة مرّات، علماً أنّه ترجم إلى الفارسية مرّتين: إحداهما مختصرة و الأُخرى مفصّلة. و كذلك كتاب: «التفسير و المفسرون». في مجلّدين، و ترجمته إلى الفارسية.

أمّا في مجال المعارف القرآنية فقد كتبت مقالات عديدة نشرت في المجلّات المختلفة يصل مجموعها إلى خمسة مجلّدات جاهزة للطبع.

والعمل الأخير الذي باشرته منذ أول عام ١٤٢١ ه وهو ذو أهمّية بالغة، عبارة عن جمع و تنسيق الروايات التفسيرية للفريقين، و العمل جار فيه على وجه السرعة بمعونة لجنتين من عشرة أشخاص من النخبة الحوزوية و خرّيجي المدرسة القرآنية. و الروايات التفسيرية موجودة في الكتب بشكل خام، لم تناله يد الاجتهاد و التمحيص كما نالت روايات الأحكام الفقهية، فاختلط سليمها بسقيمها و غثّها بسمينها، فبادرت مع ثلّة من الفضلاء إلى تصنيفها، و نسأل الله تعالى التوفيق لإتمامها على الوجه الأكمل إن شاء الله.

علماً أنّ المجلّد السابع من كتاب التمهيد الذي حمل عنوان «شبهات وردود» قد فرغ من طباعته.

و إلى جانب العمل القرآني كان لي نشاط في المجال الفقهي مذ كنت في النجف الأشرف، فألّفت كتباً و رسائل متعدّدة في هذا المضمار: نحو «تمهيد القواعد»، «حديث

١. وهو الجزء الثامن من التمهيد.

لا تعاد»، «ولاية الفقيه: أبعادها و حدودها»، «مالكية الأرض» و «مسائل في القضاء» و جميعها باللغة العربية.

أما العمل الفقهي الضخم الذي كنت و ما زلت منهمكاً به فهو استخراج الآراء الفقهية الحديثة على أساس تطوّر الاجتهاد في القرون الأخيرة، و هو حصيلة دروس الفقه الخارج، و منظّم حسب ترتيب الأبواب الفقهية لـ«جواهر الكلام» من بداية كتاب الطهارة حتى نهاية كتاب الديات، حاملاً عنوان الشرح و التعليق على «الجواهر». و هذا العمل على وشك الإتمام بعونه تعالى.

و اليوم (عام ١٤٢١ ﻫ) لازلت أُمارس أعمالي بحمد اللّه تعالى بنشاط و حيوية حيث تدريس الفقه و الأُصول الخارج و العلوم القرآنية بالأُسلوب الحديث و التحقيق في مجالي الفقه و التفسير وفقاً للمباني الرصينة المقبولة لدى أهل التحقيق، و اللّه ولي التوفيق.

قم - محمد هادي معرفة

[signature]

٢٥ / ١٢ / ١٤٢١ﻫ